

للـ[illegible] الدين بن القيم الجوزية

[illegible] سنة ٧٥١هـ

تحقيق

محمد فريد

[illegible]

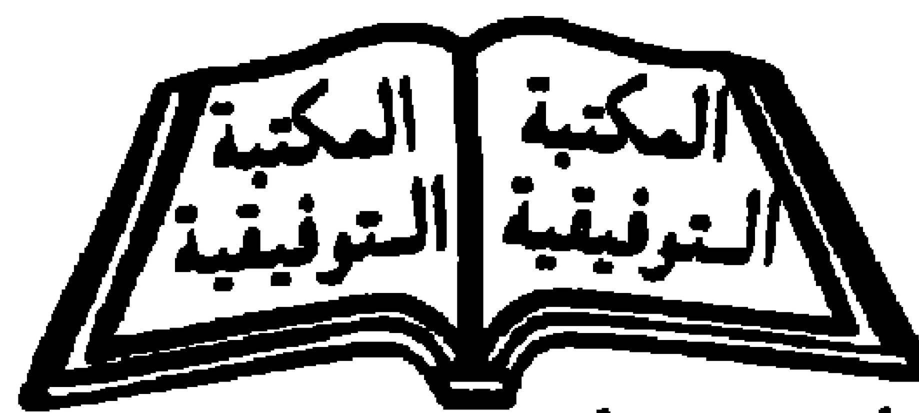
[illegible]

الروح

للحافظ شمس الدين بن القيم الجوزى
المتوفى سنة ٧٥١هـ

تحقيق

محمد فريد



أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
ت: ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠

مقدمة المحقق

بسم الله الرحـمن الرحيم، والحمـد لله رب العالمين ، والصـلاة والسلام على أشرف المرسلين ﷺ.

أشـهد أن لا إله إلا الله، وحـده لا شريك لـه، علم القرآن، خلق الإنسـان، علمـه البيان، أنعـم بالنعم العظيمـة، فلم تكن نعمـة أعظم ولا أجَلّ من «لا إله إلا الله، محـمد رسول الله» . فلك الحـمد سبـحانك، علمتنا مـا لم نكن نعلم، فلك الحمـد سبحانك، لا علم لنا إلا مـا علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم، فلك الحـمد سبـحانـك، جعلت علم خلقك أجـمعين كـقطرة في بحـر علمك العظيم، الذي لا نصيب لنا منه إلا ما كتبت لنا فيه برحمتك ومنّك وفضلك، يا أكرم الأكرمين.

وأشهـد أن محمـدًا عبـده ورسوله، أعظم منن الخالق على خـلقه ، كمـا قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (١٦٤) ﴾[(١)] اللهم صلّ وسلّم وبارك عليه، وآله، وصـحبه، وجميع الأنبـياء المكرمين، والمرسلين المفضلين، والملائكة المطهرين، آمين يا رب العالمين.

وبعدُ ...

فإن الله سبحانه وتعالى قـد جعل لكل شيء قدرًا، فلا يُزاد في ذلك القدر ولا يُنْقَصُ أبدًا.

هذا وقد أباح الله لبعض خـلقه قطرة من بحر علمه العظيم، ينهل منهـا جميع خلقه، فلا يعـدونها على كثرة أعدادهم، وتفـاوت مراتبهم، وهم مع ذلك لا ينهلون منها سواء، بل كلٌ على قـدر مرتبته، وعلو منزلته، وصـدقه معه سبـحانه وتعالى، فعلى قدر إرادة المولى للعبد من الخير سيـرزقه من فيضه هذه القطرة المباركة، إن شاء الله، فنعم العبد المجـتهد في تحصيل نصـيبه من تلك القطرة ، تاركًا اللهث عَـبثًا في

(١) (آل عمران/ ١٦٤).

محاولات فاشلة لفتح باب لم يجعل له الله إلى فتحه سبيلاً، ليعرف ما لم يأذن به الله، فلم يطلع عليه ملكًا مقربًا، ولا وليًا صالحًا، ولا نبيًا مرسلاً.

وبئس العبد من انشغل بطلب العلم المفقود عن طلب العلم الموجود، ولهذا أخبث ممن ترك اللحم الطيب المبارك ليأكل من اللحم الخبيث المحرم، إلا أنه ليس له إليه سبيل، فالتعمق والنظر في بحر العلم الإلهي المحجوب عن الخلق إنما هو ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك نظرًا وفكرًا ووسوسة، فإن الله تعالى قد طواه عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى في كتابه: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾(١) فمن سأل: لم فعل؟ فقد رد حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين.

ألا وإن الله سبحانه وتعالى قد جعل «الروح» علمًا من جملة البحر الذي سد على خلقه سبل الإبحار فيه، فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً، وكيف ذلك؟ وقد غلق عليه الأبواب ، فأحكم غلقها، وأحكم غلقها بقفل محكم، بقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾(٢) فويل لمن راودته نفسه على فتح باب أحكم الله غلقَه، وخوض بحر لم يجعل الله له ما يخوضه به من فُلْك المشيئة والإذن الإلهي، فأحضر للنظر في ذلك قلبًا سقيمًا، وعقلاً مريضًا، وذوقًا فاسدًا، فصار لله تعالى ندًا خصيمًا، يا ويله ، فقد التمس بوهمه في فحص الغيب سرًا كتيمًا، وعاد بما قال فيه أفاكًا أثيمًا، فيا ويله حينما تتدهده معارفه على ذلك القفل المحكم، وتغرق علومه في هذا البحر الخضم، وتخنقه الوساوس والشكوك والأوهام، لبحثه لما ليس له إلى الوصول إليه سبيلاً بالبرهان الساطع، والدليل القاطع.

يا إلهي! كيف يرجو النجاة بعد ذلك؟! ، وقد سلك مسلك ما سلكه قبله إلا اليهود -لعنة الله عليهم- ، كما في الحديث الذي رواه عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-، قال: بينا أنا مع النبي ﷺ في حرث -وهو متكئ على عسيب- إذ مر اليهود، قال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، فقال بعضهم: ما رابكم إليه؟ وقال بعضهم: لا يستقبلكم بشيء تكرهونه، فقالوا: سلوه، فسألوه عن الروح، فأمسك النبي ﷺ فلم يرد عليهم شيئًا، فعلمت أنه يوحى إليه، فقمت مقامي، فلما نزل

(١) (الأنبياء/ ٢٣).

(٢) (الإسراء/ ٨٥).

الوحي قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٨٥﴾﴾[1]»[2].

وكما في الحديث الذي رواه ابن جرير الطبري عن عطاء بن يسار، قال: لما نزلت بمكة ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾[1] فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه أحبار اليهود، فقالوا: يا محمد ! ألم يبلغنا أنك تقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٨٥﴾﴾[1] أفعنيتنا أم عنيت قومك؟ قال: «كُلاً عنيت» قالوا: فإنك تتلو أنا أوتينا التوراة وفيها تبيان كل شيء، فقال رسول الله ﷺ: «هي في علم الله قليل، وقد آتاكم ما إن عملتم به انتفعتم» فأنزل الله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ...﴾[3] إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾[3]»[4].

وكما في الحديث الذي رواه ابن جرير الطبري عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ...﴾[1] الآية، وذلك أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: أخبرنا! ما الروح؟ وكيف تعذب الروح التي في الجسد؟، وإنما الروح من الله عز وجل؟، ولم يكن نزل عليه فيه شيء، فلم يحر[5] إليهم شيئًا، فأتاه جبرائيل عليه السلام، فقال له: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٨٥﴾﴾[1] فأخبرهم النبي ﷺ بذلك فقالوا له: من جاءك بهذا؟ فقال لهم النبي ﷺ: «جاءني به جبريل من عند الله»، فقالوا: والله ما قاله لك إلا عدو لنا، فأنزل الله تبارك اسمه: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ....﴾[6]»[7].

(١) (الإسراء/ ٨٥).

(٢) [صحيح]: رواه البخاري: كتاب التفسير، باب: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ (الإسراء/ ٨٥)، [٤٧٢١].

(٣) (لقمان/ ٢٧ : ٢٨).

(٤) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: (١٥/ ١٠٦).

(٥) هكذا بتفسير الطبري، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» بلفظ: «يجد»، وقال: أخرجه ابن مردويه، انظر «الدر المنثور»: (٥/ ٣٣١).

(٦) (البقرة / ٩٧).

(٧) رواه الطبري: (١٥ / ١٠٥).

هذا هو مسلك اليهود ومن شايعهم من أهل الزيغ والضلال، وأما أهل التوحيد الصافي فلا يخوضون في الله، ولا يمارون في دين الله، متأولين بآرائهم، أو متوهمين بأهوائهم، فإنه ما سلم في دينه إلا من سَلَّم لله عز وجل، ولرسوله ﷺ، ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه، فإنه لا يثبت قدم الإسلام إلا ظهر التسليم والاستسلام، فمن رام علم ما حُظِرَ عنه علمه، ولم يقنع بالتسليم فهمه، حجبه مرامه عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة، وصحيح الإيمان، فيتذبذب بين الكفر والإيمان، والتصديق والتكذيب، والإقرار والإنكار، مُوَسْوَسًا تائهًا، شاكًا، لا مؤمنًا مصدقًا، ولا جاحدًا مكذبًا. ومن أجل ذلك جميعًا فإن أهل التوحيد لا يتناولون الروح بالدراسة إلا من الجوانب التي كشفها الرحمن في محكم القرآن، أو فيما صحت نسبته إى النبي ﷺ من الأحاديث ذات الأسانيد الأوضح من شمسٍ ظهورًا وجلاءً، وأصلب من الجبال قوة ورسوخًا.

أما غير ذلك من الجوانب التي تناولتها بالدراسة الفلاسفة الملاحدة من السابقين واللاحقين فإنما ذلك سراب وأوهام ما لهم على أقوالهم بيان ولا برهان، فما لهم به من علم إلا اتباع الظن، وإن الظن لا يغني من الحق شيئًا.

وبعد. فهذا جملة ما يحتاج إليه من هو مُنَوَّرٌ قلبه من أولياء الله تعالى، وهي درجة الراسخين في العلم، لأن العلم علمان: علم في الخلق موجود، وعلم في الخلق مفقود، فإنكار العلم الموجود كفر، وادعاء العلم المفقود كفر، ولا يثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود، وترك طلب العلم المفقود.

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين، سبحانك الله وبحمدِك، نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك[١]. .

كتبه الفقير إلى عفو مولاه

محمد فريد

(١) أخذت بعض التعبيرات في هذه المقدمة من «العقيدة الطحاوية» وهي التي ندين بها لله رب العالمين، ونبرأ إليه تعالى مما خالفها.

تنبيه هام

هذا المصنف - مع علو قيمته- احتوى على الكثير جدًا من ذكر المنامات المنسوبة للسلف الصالح -رضي الله عنهم- وغيرهم من الكفار اليونانيين.

ويجب لفت النظر أن صحة وقوع هذه المنامات أو عدمها لا يترتب عليه شرع، أو إباحة، أو تحريم، أو اعتقاد.

ولذلك فلم نجد في بذل الجهد المضني للتحقق من صحة العديد منها فائدة مرجوة، فلزم التنبيه على ذلك ؛ لكثرة مثل هذه الآثار والمنامات في هذا المصنف القيِّم.

ترجمة موجزة لابن القيم(١)

هو أبو عبد الله ، شمس الدين، محمد بن أبي بكر، المشهور بـ «ابن القيم الجوزية» وهذا خطأ لُغَوي؛ إذ الصواب «ابن قيم الجوزية» ولا نقول : «ابن القيم» إلا إذا اقتصرنا عليها بغير «الجوزية»؛ نسبة إلى أبيه ؛ إذ كان قيمًا على المدرسة الجوزية. أي: مشرفًا عليها.

ولد عام (٦٩١) هـ أي في فترة لم تكن البلاد قد برأت بعد من آثار الحروب الصليبية القذرة التي لم يكن سقوط آخر معاقلها طرابلس عام (٩٦٠) هـ شفاءً كاملاً من أوبائها وآثارها.

وكان عصره من الناحية العلمية مليئًا بالمدارس التي لم تقِ -مع كثرتها- الأمة شر الجهل والجهلاء، وذلك أنها كانت قائمة على التمذهب الأعمى، والتحزب الْمَقيت، ولكنَّ رحمة الله وعنايته بالإمام ابن القيم أرسلت إليه هدى ونورًا متجسدًا في شيخ الإسلام ابن تيمية ليخرجه الله به من هذه الظلمات إلى نور العقيدة السلفية النقية الطاهرة. فكان ابن القيم -رحمه الله- بلا منازع هو أبرع وأخلص تلاميذ شيخ الإسلام -قدس الله روحه- ، ولا نزكيه على الله.

- ومن أقواله التي ينصح فيها أهلَ العلم على ترك التعصب للمذاهب والتعويل على مصدري الهدى والنور -القرآن والسنة-: «ليحذر المفتي الذي يخاف مقامه بين يدي الله سبحانه أن يفتي السائل بمذهبه الذي يقلده، وهو يعلم أن مذهب غيره في تلك المسألة أرجح من مذهبه، وأصح دليلاً، فتعلمه الرياسة على أن يقتحم الفتوى بما يغلب على ظنه أن الصواب في خلافه، فيكون خائنًا لله ورسوله وللسائل، وغاشًا له، والله لا يهدي كيد الخائنين، وحرم الجنة على من لقيه وهو غاش للإسلام وأهله، والدين النصيحة والغش مضاد للدين، كمضادة الكذب للصدق، والباطل للحق، وكثيراً ما ترد المسألة نعتقد فيها خلاف المذهب ، فلا يسعنا إلا أن نفتي بخلاف ما نعتقده، فنحكي المذهب الراجح، ونرجحه، ونقول: هذا هو الصواب،

(١) جميع الآثار المنقولة هنا بواسطة كتاب: «ابن قيم الجوزية، حياته وآثاره» لأبي بكر بن عبد الله أبي زيد.

وهو أولى أن يؤخذ به، وبالله التوفيق»[١].

- ومن أقـواله النورانيـة أيضًـا في وجوب الاتـباع المطلـق للنصـوص ، غيـر معارضين لهـا باجتهادات العلمـاء: «ومن الأدب معه ﷺ أن لا يستـشكل قوله، بل يستشكل الآراء لقوله، ولا يعارض نصه بقياس، بل تهدر الأقيسة، وتلغى لنصوصه، ولا يحرف كلامه عن حقيـقته لخيال يسميه أصحابه مـعقولاً ! ! نعم ! هو مجهول، وعن الصواب معـزول، ولا يوقف قبول ما جاء به ﷺ على موافـقة أحد، فكل هذا من قلة الأدب معه ﷺ ، وهو عين الجرأة».

- ومن الأقـوال الجليلة التي يحكيـهـا عن شـيخ الإسـلام في جانب تـزكيـة القلوب: «وقال لي شيخ الإسلام -قدس الله روحَه- وقد جعلت أورد عليه إيراداً بعد إيراد- : لا تجعل قلبَك للإيرادات والشبـهات مثل السفنجة فيتـشربها، فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشبـهات بظاهرها ، ولا تستقر فيها، فيراها بصفـائه، ويدفعها بصـلابته، وإلا فإذا أشربت قلبك كل شـبهة تمر عليك صـار مقراً للشبهات أو كما قال ويعقب على ذلك قائلاً: «فما أعلم أنني انتفعت بوصية في رفع الشبهات كانتفاعي بهذه»[٢].

وأما عن علو الهـمة التي كان يستقـيها من شيخ الإسـلام -قدس الله روحه- فمن أقـواله فيها : «وقـال لي يومًا شيخ الإسـلام ابن تيمية -قـدس الله روحَه- في شيء من المباح: هذا ينافي المراتب الـعالية، وإن لم يكن تركه شـرطًا في النجاة، أو نحو هذا من الكلام، فالعارف يترك كثيراً من المبـاح إبقاءً على صيانته، ولا سيما إذا كان ذلك المباح برزخًا بين الحلال والحرام»[٣].

وقال عنه ابن كـثير: «وكـان حسن القراءة، والخُلُق، كـثير التودد، لا يحـسد أحدًا، ولا يؤذيه، ولا يستعـيبه، ولا يحقد على أحد، وبالجـملة كان قليلَ النظير في مجموعة أموره وأحواله، والغالب عليه الخيرُ والأخلاقُ الفاضلة»[٤].

ونختم ترجـمتَنا عنه بقـول ابن رجب : «كان -رحمـه الله تعالى- ذا عـبادة، وتهجـد، وطول صلاة إلى الغاية القصـوى، وتأله ولهج بالذكر، وشغف بالمحـبة ، والإنابة، والاستـغفار، والافـتقار إلى الله، والانكسـار له، والاطراح بين يديه على عتـبة عـبوديتـه ، لم أشاهد مـثلَه في ذلك، ولا رأيت أوسعَ منه علمًـا، ولا أعرف

---

(١) «أعلام الموقعين» : (٤/ ١٧٧).

(٢) «مفتاح دار السعادة» : ص ١٥٣ .

(٣) «مدارج السالكين» .

(٤) «البداية والنهاية» : (١٤/ ٢٠٢).

بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان أعلمَ منه، وليس هو المعصوم ، ولكن لم أر في معناه مثلَه، وقد امتحن وأوذي مرات، وحبس مع الشيخ تقي الدين في المرة الأخيرة بالقلعة منفردًا عنه، ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ، وكان في مدة حبسه مشتغلاً بتلاوة القرآن بالتدبر والتفكير، ففتح عليه من ذلك خيرٌ كثير، وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة، وتسلط بسبب ذلك على الكلام في علوم أهل المعارف والدخول في غوامضهم، وتصانيفه ممتلئة بذلك، وحج مرات كثيرة، وجاور بمكة، وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة ، وكثرة الطواف أمرًا يتعجب منه»[(١)].

ومع كلٍ، ما ناله بسبب صحبته لشيخ الإسلام -قدس الله روحَه- من السجن والتعذيب والتشريد إلا أنه كان معتزًا بذلك أيَّما اعتزاز اعتقادًا ويقينًا منه أن كل شيء حتى الروح يهون بذله في سبيل تأسيس تلك المدرسة الأصولية السلفية التي لا تعول على شيء من دقائق منهجها القويم إلا على القرآن الكريم ، والسنة الصحيحة، بفهم السلف الصالح -رضي الله عنهم أجمعين- لتخرج الجهلاء بإذن الله من ظلمات التقليد الأعمى للمذاهب البشرية التي لم ولن تثبت لها عصمة إلى المنهاج الإلهي المنزه عن النقص وما قاربه ، فكان بلا منازع التلميذ المثالي الأول لهذه المدرسة السلفية المؤسسة على يد شيخ الإسلام -قدس الله روحَه- اقتداءً بإمام أهل السنة والجماعة أبي عبد الله أحمد بن حنبل ، والمقتدي بدوره بالقرون الثلاثة الأولى والتي لزمت هدي النبي ﷺ ، وهو المتلقى شريعته من قبل الحق جل وعلا. فالحمد لله الهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله على سيد المرسلين ، سبب هداية كل مهتد وسلم، ورضي الله عن كل من سار على نهجه واتبع سنته إلى يوم الدين، آمين.

ويقول شيخنا في اعتزازه بهذه الصحبة لشيخ الإسلام -قدس الله روحَه- : «وكنت من أصحب الناس له، وأحب الناس إليه»[(٢)] .

وإمامنا أعظم من تأتي على فضائله ترجمة يسيرة كهذه ، وهناك ترجمة أكثر توسعًا في مقدمة كتاب «مختصر الصواعق المرسلة» بتحقيقنا، اللهم بأسمائك الحسنى وصفاتك العلا، نسألك أن تحشرنا وإمام أهل السنة والجماعة ، وشيخ الإسلام، وتلميذه ابن القيم ، مع خاتم النبيين وأشرف المرسلين ﷺ ، آمين يا رب العالمين.

(١) «ذيل طبقات الحنابلة» : (٢/٤٤٨ : ٤٥٠).

(٢) «البداية والنهاية» (١٤/ ٢٠٢).

المسألة الأولى :

في معرفة الأموات بزيارة الأحياء وسلامهم

قال ابن عبد البر : ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : «ما من مسلم يمر على قبر أخيه كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه ، إلا رد الله عليه روحه ، حتى يرد عليه السلام»(١) . فهذا نص في أنه يعرفه بعينه ، ويرد عليه السلام .

وفي الصحيحين عنه ﷺ ، من وجوه متعددة ، «أنه أمر بقتلى بدر فألقوا في قليب ، ثم جاء حتى وقف عليهم ، وناداهم بأسمائهم : يا فلان ابن فلان ، ويا فلان ابن فلان ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً فقال له عمر : يا رسول الله، ما تخاطب من أقوام قد جيفوا ، فقال : والذي بعثني بالحق ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون جواباً »(٢) .

وثبت عنه ﷺ : «أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له إذا انصرفوا عنه»(٣) .

(١) [ضعيف]: رواه الخطيب البغدادي في تاريخه : (٦/ ١٣٧)، [٣١٧٥]، وفي «فردوس الأخبار» للديلمي، (٤/ ٣١٤)، [٦٤٦٠]. وذكره الهندي في «كنز العمال» ونسبه للخطيب البغدادي، وابن عساكر عن أبي هريرة -رضي الله عنه- [٤٢٥٥٦]، ولأبي الشيخ، والديلمي عن أبي هريرة -رضي الله عنه- في [٤٢٦٠١]، وللخطيب ، وابن عساكر، وابن النجار عن أبي هريرة في [٤٢٦٠٢]. وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» : [٥٢٠٨]، وانظر «الضعيفة» : [٤٤٩٣].

(٢) [صحيح]: رواه أحمد في «مسنده» : (٣/ ١٠٤ ، ١٨٢ ، ٢٦٣]، والبخاري : كتاب: المغازي، باب: قتل أبي جهل، [٣٩٧٦]، [٣٩٧٩، ٣٩٨٠، ٣٩٨١]، ومسلم : كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، [٢٨٧٤]، وابن حبان : كتاب: التاريخ، باب: المعجزات ، [٦٥٢٥]، [٦٤٩٨، ٤٧٢٢]، وغيرهم ، وانظر تفصيل الجمع والترجيح بين هذه الأحاديث ورد عائشة -رضي الله عنها- في كتاب «مختصر الصواعق المرسلة» بتحقيقنا ، ط/ مكتبة التوفيقية.

(٣) [صحيح]: من الأحاديث التي ورد فيها ذكر سماع الميت لأقدام المشيعين ما رواه أحمد : (٢/ ٤٤٥)، والبخاري : كتاب: الجنائز، باب: الميت يسمع خفق النعال، [١٣٣٨]، [١٣٧٤]، وابن حبان : كتاب: الجنائز، فصل : في أحوال الميت في قبره، [٣١١٧]، والحاكم : كتاب: الجنائز، (١/ ٣٧٩)، [١٤٠٣/ ١٣٩]، وعبد الرزاق في «مصنفه» : (٣/ ٥٦٧)، [٦٧٠٣]، وغيرهم ، فلتراجع الأحاديث لما بينها من تفاوت ولما فيها من فوائد.

وما يحزن القلب تعسف بعض الإخوان في تخصيص سماع الأموات تخصيصًا تعسفيًا بلا دليل ، ولا ضابط، ولا برهان، مع صحة الأحاديث المتواترة في هذا المعنى.

وقد «شرع النبي ﷺ لأمته ، إذا سلموا على أهل القبور ، أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه فيقول : «السلام عليكم دار قوم مؤمنين»(١) . وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل ولولا ذلك لكان هذا الخطاب بمنزلة خطاب المعدوم والجماد .

والسلف مجمعون على هذا ، وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف زيارة الحي له ويستبشر به .

قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا في كتاب القبور : باب معرفة الموتى بزيارة الأحياء : حدثنا محمد بن عون ، حدثنا يحيى بن يمان ، عن عبدالله بن سمعان ، عن زيد بن أسلم ، عن عائشة رضي الله تعالى عنها ، قالت: قال رسول الله ﷺ : «ما من رجل يزور قبر أخيه ، ويجلس عنده إلا استأنس به ، ورد عليه ، حتى يقوم»(٢) .

(١) [صحيح]: رواه أحمد : (٥/ ٣٥٣)، ومسلم : كتاب الجنائز: باب: ما يقال عند دخول القبور، والدعاء لأهلها، [٩٧٤]، والنسائي : كتاب: الجنائز، باب: الأمر بالاستغفار للمؤمنين، (٤/ ٩٤)، وابن ماجة : كتاب: الجنائز، باب: ما جاء فيما يقال إذا دخل المقابر، [١٥٤٦]، وابن حبان : كتاب: الجنائز، فصل : في زيارة القبور، [٣١٧٣].

وتمام رواية مسلم عن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: كان رسول الله ﷺ -كُلَّما كان ليلتها من رسول الله ﷺ - يخرج من آخر الليل إلى البقيع، فيقول : «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وأتاكم ما توعدون غدًا، مُؤَجَّلون، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون . اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد» .

(٢) [ضعيف]: انظر «فردوس الأخبار» : (٤/ ٣١٤)، [٦٤٦٠]، قريبًا منه. وهو ضعيف لأمور منها : ضعف عبد الله بن سمعان، قال عنه ابن حجر : ذكره شيخي العراقي في «تخريج الإحياء» في حديث عائشة : «ما من رجل يزور قبر أخيه، ويجلس عنده إلا استأنس به، ورد عليه حتى يقوم» وقال: أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور. وفي سنده عبد الله بن سمعان، لا أعرف حاله، ثم قال : يجوز الاحتمال أن يكون هو المخرج له في بعض الكتب، وهو عبد الله بن زياد بن سمعان، ينسب إلى جده كثيراً، وهو أحد الضعفاء.

قلت : وذلك أن البخاري قال عنه : سكتوا عنه. وقال ابن معين : ليس بثقة، وقال مرة : ضعيف، وقال مرة : ليس حديثه بشيء. وقال أحمد : سمعت إبراهيم بن سعد يحلف أن ابن سمعان يكذب. وقال الجوزجاني: ذاهب الحديث. وروى ابن القاسم عن مالك : كذاب. وقال أبو مسهر: سمعت سعيد بن عبد العزيز يقول: أتى بن سمعان العراق فأمكنهم من كتابه فزادوا فيه، فقرأه عليهم، فقالوا : كذاب، وقال حجاج الأعور: قال أبو عبيد الله صاحب المهدي : كان عندنا ابن سمعان، فقال: حدثنا مجاهد، فقال محمد بن إسحاق: أنا والله أكبر منه ، ما سمعت من مجاهد.

حدثنا محمد بن قدامة الجوهري ، حدثنا معن بن عيسى القزاز ، أخبرنا هشام ابن سعد ، حدثنا زيد بن أسلم، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، قال : إذا مر الرجل بقبر أخيه يعرفه ، فسلم عليه ، رد عليه السلام ، وعرفه ، وإذا مر بقبر لا يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام[1] .

حدثنا محمد بن الحسين ، حدثني يحيى بن بسطام الأصغر ، حدثني مسمع حدثني رجل من آل عاصم الجحدري قال : رأيت عاصماً الجحدري في منامي بعد موته بسنتين ، فقلت : أليس قد مت ؟ قال بلى . قلت: فأين أنت ؟ قال : أنا والله في روضة من رياض الجنة . أنا ونفر من أصحابي ، نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله المزني فنتلقى أخباركم، قال: قلت: أجسادكم أم أرواحكم ؟ قال: هيهات بليت الأجسام وإنما تتلاقى الأرواح، قال: قلت : فهل تعلمون بزيارتنا إياكم؟ قال: نعم؟نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ، ويوم السبت إلى طلوع الشمس، قال : قلت : فكيف ذلك دون الأيام كلها ؟ قال : لفضل يوم الجمعة وعظمته .

وحدثنا محمد بن الحسين ، حدثني بكر بن محمد ، حدثنا حسن القصاب ، قال : كنت أغدو مع محمد بن واسع في كل غداة سبت حتى نأتي الجبان ، فنقف على القبور ، فنسلم عليهم ، وندعو لهم ، ثم ننصرف ، فقلت ذات يوم : لو صيرت هذا اليوم يوم الاثنين ! قال : بلغني أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ، ويوماً قبلها ، ويوماً بعدها .

حدثني محمد ، حدثنا عبد العزيز بن أبان قال : حدثنا سفيان الثوري ، قال : بلغني عن الضحاك أنه قال : من زار قبراً يوم السبت قبل طلوع الشمس علم الميت بزيارته ، فقيل له وكيف ذلك ، قال: لمكان يوم الجمعة .

حدثنا خالد بن خداش ، حدثنا جعفر بن سليمان ، عن أبي التياح قال : كان مطرف يغدو ، فإذا كان يوم الجمعة أدلج . قال وسمعت أبا التياح يقول : بلغنا أنه كان ينور له في سوطه ، فأقبل ليلة ، حتى إذا كان عند مقابر القوم وهو على فرسه، فرأى أهل القبور كل صاحب قبر جالساً على قبره ، فقالوا : هذا مطرف يأتي

---

(١) [ضعيف] لأمور، منها : ضعف محمد بن قدامة الجوهري ، فهو لين الحديث. ولما قيل في هشام ابن سعد من أوهامه وتخليطه. نعوذ بالله من السهو والتخليط ، آمين.

الجمعة، قلت : وتعلمون عندكم يوم الجمعة ؟ قالوا نعم ، ونعلم ما يقول فيه الطير، قلت : وما يقولون ؟ قالوا : يقولون : سلام .

حدثني محمد بن الحسين ، حدثني يحيى بن أبي بكير ، حدثني الفضل بن موفق ابن خال سفيان بن عيينة ، قال : لما مات أبي جزعت عليه جزعاً شديداً ، فكنت آتي قبره في كل يوم ، ثم قصرت عن ذلك ما شاء الله ، ثم أني أتيته يوماً ، فبينا أنا جالس عند القبر غلبتني عيناي فنمت ، فرأيت كأن قبر أبي قد انفرج ، وكأنه قاعد في قبره متوشحاً أكفانه ، عليه سحنة الموتى قال: فكأني بكيت لما رأيته ، قال: يا بني ما أبطأ بك عني ؟ قلت : وإنك لتعلم بمجيئي ؟ قال ما جئت مرة إلا علمتها، وقد كنت تأتيني فآنس بك ، وأسر بك ، ويسر من حولي بدعائك ، قال : فكنت آتيه بعد ذلك كثيراً .

حدثني محمد ، حدثي يحيى بن بسطام ، حدثني عثمان بن سودة الطفاوي ، قال : وكانت أمه من العابدات ، وكان يقال لها راهبة قال : لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء فقالت : يا ذخري وذخيرتي ، ومن عليه اعتمادي في حياتي وبعد موتي ، لا تخذلني عند الموت ، ولا توحشني في قبري . قال : فماتت ، فكنت آتيها في كل جمعة فأدعو لها ، وأستغفر لها ولأهل القبور ، فرأيتها ذات يوم في منامي فقلت لها يا أماه كيف أنت ؟ قالت: أي بني، إن للموت لكربة شديدة ، وإني بحمد الله لفي برزخ محمود نفترش فيه الريحان ، ونتوسد فيه السندس والإستبرق إلى يوم النشور، فقلت لها: ألك حاجة ؟ قالت : نعم . قلت : وما هي ؟ قالت : لا تدع ما كنت تصنع من زيارتنا والدعاء لنا ،فإني لأبشر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلك . يقال لي: يا راهبة هذا ابنك قد أقبل ، فأسر ، ويسر بذلك من حولي من الأموات .

حدثني محمد بن عبد العزيز بن سليمان ، حدثنا بشر بن منصور ، قال : لما كان زمن الطاعون ، كان رجل يختلف إلى الجبان ، فيشهد الصلاة على الجنائز ، فإذا أمسى وقف على باب المقابر فقال : آنس الله وحشتكم ، ورحم غربتكم ، وتجاوز عن مسيئكم ، وقبل حسناتكم ، لا يزيد على هؤلاء الكلمات . قال : فأمسيت ذات ليلة وانصرفت إلى أهلي ولم آت المقام فأدعو كما كنت أدعو، قال : فبينا أنا نائم إذا بخلق كثير قد جاءوني ، فقلت : ما أنتم وما حاجتكم ؟ قالوا :

نحن أهل المقابر . قلت : ما حاجتكم ؟ قالوا : إنك عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك ، فقلت : وما هي ؟ قالوا : الدعوات التي كنت تدعو بها ، قال : قلت : فإني أعود لذلك . قال : فما تركتها بعد .

حدثني محمد ، حدثني أحمد بن سهل ، حدثني رشد بن سعد ، عن رجل، عن يزيد بن أبي حبيب ، أن سليم بن عمير ، مر على مقبرة وهو حاقن قد غلبه البول ، فقال له أصحابه : لو نزلت إلى هذه المقابر فبلت في بعض حفرها ، فبكى، ثم قال : سبحان الله ، والله إني لأستحيي من الأموات كما أستحيي من الأحياء . ولولا أن الميت يشعر بذلك لما استحيا منه .

وأبلغ من ذلك أن الميت يعلم بعمل الحي من أقاربه وإخوانه . قال عبد الله بن المبارك: حدثني ثور بن يزيد ، عن إبراهيم ، عن أبي أيوب ، قال : تعرض أعمال الأحياء على الموتى ، فإذا رأوا حسناً فرحوا واستبشروا ، وإن رأوا سوءاً قالوا : اللهم راجع به . وذكر ابن أبي الدنيا عن أحمد بن أبي الحواري قال : حدثني محمد أخي ، قال : دخل عباد بن عباد على إبراهيم بن صالح- وهو على فلسطين- فقال: عظني ، قال : بم أعظك أصلحك الله ؟ بلغني أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم الموتى ، فانظر ما يعرض على رسول الله ﷺ من عملك ، فبكى إبراهيم حتى اخضلت لحيته .

قال ابن أبي الدنيا : حدثني محمد بن الحسين ، حدثني خالد بن عمرو الأموي، حدثنا صدقة بن سليمان الجعفري ، قال : كانت لي شرة سمجة ، فمات أبي ، فأنبت وندمت على ما فرطت . قال : ثم زللت أيما زلة ، فرأيت أبي في المنام فقال : أي بني، ما كان أشد فرحي بك أعمالك تعرض علينا فنشبهها بأعمال الصالحين، فلما كانت هذه المرة استحييت لذلك حياء شديداً ، فلا تخزني فيمن حولي من الأموات . قال : فكنت أسمعه بعد ذلك يقول في دعائه في السحر - وكان جاراً لي بالكوفة- أسألك إنابة لا رجعة فيها ولا حور . يا مصلح الصالحين، ويا هادي المضلين ، ويا أرحم الراحمين .

وهذا باب في آثار كثيرة عن الصحابة:

وكان بعض الأنصار من أقارب عبد الله بن رواحة يقول : اللهم إني أعوذ بك

من عـمل أخزى به عند عـبد اللـه ابن رواحة . كـان يقول ذلك بعـد أن استـشهـد عبدالله.

ويكفي في هذا تسـميـة المسلم عليـهم زائراً ، ولولا أنهم يشعـرون به لما صح تسميته زائراً ، فإن المزور إن لم يعلم بزيارة من زاره لم يصح أن يقال زاره ، هذا هو المعقول من الزيارة عند جميع الأمم ، وكذلك السلام عليهم أيضاً ، فإن السلام على من لا يشعـر ولا يعلم بالمسلم محال ، وقـد علم النبي ﷺ أمته إذا زاروا القـبور أن يقـولوا : «سـلام عليكم أهل الديار من المؤمنـين والمسلمين ، وإنا إن شـاء الله بكم لاحـقون ، يرحم الله المسـتقـدمين منا ومنكم والمسـتأخـرين ، نسـأل الله لنا ولكم العافية».

وهذا السلام ، والخطاب ، والنـداء ، لموجود يسمع ، ويخـاطب ، ويعقل ، ويرد ، وإن لم يسمع المسلم الـرد ، وإذا صلى الرجل قريباً منهم شـاهدوه ، وعلموا صلاته ، وغبطوه على ذلك .

قال يزيد بن هارون : أخبرنا سلمان التيمي ، عن أبي عثمان النهدي ، أن ابن ساس خرج في جنازة في يوم وعليـه ثياب خفاف، فانتهى إلى قـبر ، قال: فصليت ركعتين ثم اتكأت عليـه ، فو الله إن قلبي ليقظان إذ سمعت صـوتاً من القبر : إليك عني لا تؤذني فـإنكم قوم تعـملون ولا تعلمـون ونحن قوم نعلم ولا نعـمل ، ولأن يكون لي مثل ركـعتيك أحب إلي من كـذا وكذا . فهذا قـد علم باتكاء الرجل على القبر وبصلاته .

وقال ابن أبي الدنـيا : حدثني الحـسين بن علي العجلي ، حـدثنا محـمد بن الصلت ، حدثنا إسماعيل بن عـياش ، عن ثابت بن سليم ، حدثنا أبو قلابة قال : أقبلت من الشام إلى البصرة ، فنزلت منزلاً ، فتطهرت ، وصليت ركعتين بليل ، ثم وضعت رأسي على قبر ، فنمت ، ثم انتبهت فإذا صاحب القبر يشتكيني يقول : قد آذيتني منذ الليلة ، ثم قال : إنكم تعمـلون ولا تعلمون ، ونحن نعلم ولا نقدر على العمل ، ثم قال : الركعتان اللتان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها ، ثم قال : جزى الله أهل الدنيـا خيراً، أقـرئهم منا السلام ، فـإنه يدخل علينا من دعائهم نور أمـثال الجبال .

وحدثني الحسين العجلي : حدثنا عبد الله بن نمير ، حدثنا مالك بن مغول عن منصور عن زيد بن وهب قال : خرجت إلى الجبانة فجلست فيها فإذا رجل قد جاء إلى قبر فسواه ، ثم تحول إلي فجلس ، فقال : فقلت : لمن هذا القبر ؟ قال: أخ فقلت: أخ لك ؟ فقال: أخ لي في الله رأيته فيما يرى النائم فقلت : فلان عشت الحمد لله رب العالمين ، قال : قد قلتها ، لأن أقدر على أن أقولها أحب إلي من الدنيا وما فيها ، ثم قال : ألم تر حيث كانوا يدفونني ، فإن فلاناً قام فصلى ركعتين، لأن أكون أقدر على أن أصليهما أحب إلي من الدنيا وما فيها .

حدثني أبو بكر التيمي ، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثني الليث بن سعد ، حدثني حميد الطويل ، عن مطرف بن عبد الله الحرشي، قال : خرجنا إلى الربيع في زمانه فقلنا : ندخل يوم الجمعة لشهودها -وطريقنا على المقبرة- قال : فدخلنا ، فرأيت جنازة في المقبرة ، فقلت : لو اغتنمت شهود هذه الجنازة فشهدتها ! قال : فاعتزلت ناحية قريباً من قبر ، فركعت ركعتين خففتهما لم أرض إتقانهما ، ونعست، فرأيت صاحب القبر يكلمني ، وقال : ركعت ركعتين لم ترض إتقانهما ؟ قلت : قد كان ذلك ، قال : تعملون ولا تعلمون ، ولا نستطيع أن نعمل ، لأن أكون ركعت مثل ركعتيك أحب إلي من الدنيا بحذافيرها ، فقلت : من هاهنا ؟ فقال كلهم مسلم، وكلهم قد أصاب خيراً ، فقلت : من هاهنا أفضل ؟ فأشار إلى قبر ، فقلت في نفسي : اللهم ربنا أخرجه إلي فأكلمه ، قال : فخرج من قبره فتى شاب ، فقلت: أنت أفضل من هاهنا ؟ قال قد قالوا ذلك ، قلت : فبأي شئ نلت ذلك ؟ فو الله ما أرى لك ذلك السن فأقول : نلت ذلك بطول الحج ، والعمرة ، والجهاد في سبيل الله، والعمل ! قال : قد ابتليت بالمصائب ، فرزقت الصبر عليها ، فبذلك فضلتهم .

وهذه المرائي وإن لم تصح بمجردها لإثبات مثل ذلك ، فهي على كثرتها وأنها لا يحصيها إلا الله وقد تواطأت على هذا المعنى ، وقد قال النبي ﷺ «أرى رؤياكم قد تواطأت على أنها في العشر الأواخر»[1]، يعني ليلة القدر ، فإذا تواطأت رؤيا المؤمنين على شئ كان كتواطؤ روايتهم له ، وكتواطؤ رأيهم على استحسانه

(١) [صحيح]: رواه البخاري ، كتاب: فضل ليلة القدر، باب: التماس ليلة القدر في السبع الأواخر، [٢٠١٥]، ومسلم : كتاب: الصيام، باب: فضل ليلة القدر، والحث على طلبها، وبيان محلها وأرجى أوقات طلبها، [١١٦٥] . وغيرهما وكلاهما بلفظ السبع الأواخر، وليس العشر الأواخر.

واستقبـاحه، وما رآه المسلمون حسناً فهـو عند الله حسن ، وما رأوه قبيحـاً فهو عند الله قبيح . على أنا لم نثبت هذا بمجرد الرؤيا بل بما ذكرناه من الحجج وغيرها .

وقد ثبت في الصحيح أن الميت يستأنس بالمشيعين لجنازته بعد دفنه :

(فروى) مسلم في صحيحه من حديث عبد الرحمن بن شماسة المهري ، قال : «حضرنا عـمرو بن العاص وهو في سياق الموت ، فبكى طويلاً ، وحـول وجهه إلى الجدار ، فجعل ابنه يقول : ما يبكيك يا أبتاه أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا ؟ فأقبل بوجهه فـقال : إن أفضل ما نعـد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محـمداً رسول الله ، وإني كنت على أطباق ثلاث ، لقـد رأيتني وما أحد أشد بغضـاً لرسول الله ﷺ مني ولا أحب إلا أن أكون قد استمكنت منه فـقتلته ، فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار ، فلما جعل الله الإسلام في قلـبي لقيت رسول الله ﷺ فقلت ابسط يدك فلأبايعك ، فبـسط يمينه ، قال : فقبـضت يدي قال : فقال مالك يا عـمرو؟ قال : قلت : أردت أن اشتـرط ، قال : تشـترط ماذا ؟ قلت : أن يغـفر لي ، قـال : أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟» وما كـان أحد أحب إلي من رسول الله ﷺ ، ولا أجل في عيني منه ، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً لـه ، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت لأني لم أكن أملأ عيني منه ، ولو مت على تلك الحـال لرجوت أن أكون من أهل الجنة ، ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالي فيهـا ، فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة ، ولا نار ، فإذا دفنتموني فسنوا علي التـراب سناً ، ثم أقيموا حول قبري قدر مـا تنحر جزور ويقسم لحمهـا ، حتى أستأنس بكم ، وأنظر مـاذا أراجع به رسل ربي . فدل على أن الميت يستأنس بالحاضرين عند قبره ويسر بهم[(١)] .

وقد ذكر عن جماعة من السلف أنهم أوصوا أن يقرأ عند قبورهم وقت الدفن، قال عبد الحق : يروى أن عبد الله بن عمر أمـر أن يقرأ عند قبره سورة البقرة . وممن رأى ذلك العلي بن عبد الرحمن ، وكان الإمـام أحمد ينكر ذلك أولاً حيث لم يبلغه فيه أثر ، ثم رجع عن ذلك .

---

(١) [صحيح]: رواه مسلم: كتـاب: الإيمان، باب: كون الإسلام يهدم ما قبله، وكـذا الهجرة، والحج، [١٩٢].

وقال الخلال في الجامع ، كتاب القراءة عند القبور :

أخبرنا العباس بن محمد الدوري ، حدثنا يحيى بن معين ، حدثنا مبشر الحلبي ، حدثني عبد الرحمن بن العلاء بن الحلاج ، عن أبيه ، قال : قال أبي : إذا أنا مت فضعني في اللحد ، وقل بسم الله ، وعلى سنة رسول الله ، وسن علي التراب سناً ، واقرأ عند رأسي بفاتحة البقرة وخاتمتها، فإني سمعت عبد الله بن عمر يقول ذلك .

قال عباس الدوري سألت أحمد بن حنبل قلت تحفظ في القراءة على القبر شيئاً؟ فقال : لا . وسألت يحيى بن معين فحدثني بهذا الحديث .

قال الخلال : وأخبرني الحسن بن أحمد الوراق ، حدثني علي بن موسى الحداد -وكان صدوقاً- ، قال : كنت مع أحمد بن حنبل ومحمد بن قدامة الجوهري في جنازة ، فلما دفن الميت جلس رجل ضرير يقرأ عند القبر ، فقال له أحمد: يا هذا إن القراءة عند القبر بدعة ، فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لأحمد بن حنبل: يا أبا عبد الله ما تقول في مبشر الحلبي ؟ قال : ثقة . قال كتبت عنه شيئاً ؟ قال : نعم . فأخبرني مبشر ، عن عبد الرحمن بن العلاء بن الحلاج ، عن أبيه أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه بفاتحة البقرة وخاتمتها ، وقال سمعت ابن عمر يوصي بذلك ، فقال له أحمد : فارجع وقل للرجل يقرأ .

وقال الحسن بن الصباح الزعفراني : سألت الشافعي عن القراءة عند القبر فقال: لابأس بها .

وذكر الخلال عن الشعبي قال : كانت الأنصار إذا مات لهم الميت اختلفوا إلى قبره يقرءون عنده القرآن . قال : وأخبرني أبو يحيى الناقد ، قال سمعت الحسن بن الجروي يقول : مررت على قبر أخت لي ، فقرأت عندها تبارك ، لما يذكر فيها ، فجاءني رجل فقال : إني رأيت أختك في المنام تقول : جزى الله أبا علي خيراً فقد انتفعت بما قرأ. أخبرني الحسن بن الهيثم قال : سمعت أبا بكر بن الأطروش ابن بنت أبي نصر بن التمار يقول : كان رجل يجئ إلى قبر أمه يوم الجمعة ، فيقرأ سورة يس، فجاء في بعض أيامه فقرأ سورة يس ، ثم قال : اللهم إن كنت قسمت لهذه السورة ثواباً فاجعله في أهل هذه المقابر. فلما كان يوم الجمعة التي تليها جاءت امرأة

فقالت : أنت فلان ابن فلانة ؟ قال : نعم . قالت : إن لي بنتًا ماتت ، فرأيتها في النوم جالسة على شفير قبرها، فقلت : ما أجلسك هاهنا ؟ فقالت إن فلان ابن فلانة جاء إلى قبر أمه فقرأ سورة يس ، وجعل ثوابها لأهل المقابر ، فأصابنا من روح ذلك، أو غفر لنا ، أو نحو ذلك .

وفي النسائي وغيره من حديث معقل بن يسار المزني ، "عن النبي ﷺ أنه قال: «اقرأوا يس عند موتاكم»[(١)] . وهذا يحتمل أن يراد به قراءتها على المحتضر عند موته مثل قوله : «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله»[(٢)] . ويحتمل أن يراد به القراءة عند القبر ، والأول أظهر لوجوه :

أحدها: أنه نظير قوله : لقنوا موتاكم لا إله إلا الله .

الثاني: انتفاع المحتضر بهذه السورة لما فيها من التوحيد ، والمعاد والبشرى بالجنة لأهل التوحيد ، وغبطة من مات عليه بقوله : ﴿ يا ليت قومي يعلمون . بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين﴾، فتستبشر الروح بذلك ، فتحب لقاء الله ، فيحب الله لقاءها ، فإن هذه السورة قلب القرآن ، ولها خاصية عجيبة في قراءتها عند المحتضر.

وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي قال : كنا عند شيخنا أبي الوقت عبد الأول وهو في السياق ، وكان آخر عهدنا به أنه نظر إلى السماء وضحك وقال : " يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين "، وقضى .

الثالث: أن هذا عمل الناس وعادتهم قديماً وحديثاً يقرأون يس عند المحتضر .

---

(١) [ضعيف]: رواه النسائي في «عمل اليوم والليلة» ، باب: ما يقرأ على الميت، [١٠٧٤]، وابن ماجة: كتاب: الجنائز، باب: ما جاء فيما يقال عند المريض إذا حُضِرَ، [١٤٤٨]، وضعفه الألباني في «ضعيف ابن ماجة» : [٣٠٨]، وانظر : «المشكاة» : [١٦٢٢]، «الإرواء» : [٦٨٨].

(٢) رواه أحمد في «مسنده» : (٣/٣)، ومسلم : كتاب: الجنائز، باب: تلقين الموتى لا إله إلا الله، [٩١٦/ ٩١٧]. وأبو داود : كتاب: الجنائز، باب: في التلقين، [٣١١٧]، والترمذي : كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في تلقين المريض عند الموت، والدعاء له عنده ، [٩٧٦]، والنسائي : كتاب: الجنائز، باب: تلقين الميت، (٤/٥)، وابن ماجة : كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في تلقين الميت لا إله إلا الله، [١٤٤٤، ١٤٤٥].

والمقصود بكلمة الميت أو موتاكم على حسب المآل وليس الحال. فالذي يلقن المريض المحتضر قبيل وفاته عند ظهور العلامات.

الرابع: أن الصحابة لو فهموا من قوله ﷺ اقرأوا يس عند موتاكم، قراءتها عند القبر ، لما أخلوا به، وكان ذلك أمراً معتاداً مشهوراً بينهم .

الخامس: أن انتفاعه باستماعها ، وحضور قلبه وذهنه عند قراءتها في آخر عهده بالدنيا هو المقصود، وأما قراءتها عند قبره فإنه لا يثاب على ذلك لأن الثواب إما بالقراءة أو بالاستماع وهو عمل وقد انقطع من الميت .

الموتى يسألون عن الأحياء ويعرفون أقوالهم وأعمالهم:

وقد ترجم الحافظ أبو محمد عبد الحق الأشبيلي على هذا فقال : ذكر ما جاء أن الموتى يسألون عن الأحياء ويعرفون أقوالهم وأعمالهم ثم قال : ذكر أبو عمر بن عبد البر من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ : «ما من رجل يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام»(١) .

ويروى هذا من حديث أبي هريرة مرفوعاً . قال : «فإن لم يعرفه وسلم عليه رد عليه السلام». قال : ويروى من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «ما من رجل يزور قبر أخيه فيجلس عنده إلا استأنس به حتى يقوم»(٢) .

واحتج الحافظ أبو محمد في هذا الباب بما رواه أبو داود في سننه من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام»(٣) .

قال : وقال سليمان بن نعيم : رأيت النبي ﷺ في النوم فقلت: يا رسول الله هؤلاء الذين يأتونك ويسلمون عليك أتفقه منهم ؟ قال : نعم ، وأرد عليهم، قال : «وكان ﷺ يعلمهم أن يقولوا إذا دخلوا المقابر : «السلام عليكم أهل الديار» الحديث .
قال: وهذا يدل على أن الميت يعرف سلام من يسلم عليه ، ودعاء من يدعو له .

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) سبق تخريجه.

(٣) [حسن] رواه أحمد: (٢/٥٢٧)، وأبو داود : كتاب المناسك (الحج)، باب: زيارة القبور، [٢٠٤١]، وقد حسنه الألباني، وأشار إلى ذلك في «السلسلة الضعيفة» ، [٢٠١]. ليس هذا الحديث إنما أثناء الحكم على سنده ومتنه.

قال أبو محمد : ويذكر عن الفضل بن الموفق قال : كنت آتي قبر أبي المرة بعد المرة ، فأكثر من ذلك ، فشهدت يوماً جنازة في المقبرة التي دفن فيها فتعجلت لحاجتي ولم آته ، فلما كان من الليل رأيته في المنام ، فقال لي : يا بني لم لا تأتيني؟ قلت له : يا أبت وإنك لتعلم بي إذا أتيتك ؟ قال: إي والله يا بني ، لا أزال أطلع عليك حين تطلع من القنطرة حتى تصل إلي ، وتقعد عندي ، ثم تقوم ، فلا أزال أنظر إليك حتى تجوز القنطرة .

قال ابن أبي الدنيا : حدثني إبراهيم بن بشار الكوفي قال : حدثني الفضل بن الموفق ، فذكر القصة . وصح عن عمرو بن دينار أنه قال : ما من ميت يموت إلا وهو يعلم ما يكون في أهله بعده ، وأنهم ليغسلونه ، ويكفنونه ، وأنه لينظر إليهم . وصح عن مجاهد أنه قال : إن الرجل ليبشر في قبره بصلاح ولده من بعده .

الاستدلال على سماع الموتى من إجراء العمل على تلقين الميت في القبر:

ويدل على هذا أيضاً ما جرى عليه عمل الناس قديماً وإلى الآن من تلقين الميت في قبره ، ولولا أنه يسمع ذلك وينتفع به لم يكن فيه فائدة ، وكان عبثاً ، وقد سئل عنه الإمام أحمد رحمه الله فاستحسنه واحتج عليه بالعمل .

ويروى فيه حديث ضعيف ذكره الطبراني في معجمه من حديث أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ : «إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول : يا فلان ابن فلانة فإنه يسمع ولا يجيب ، ثم ليقل يا فلان ابن فلانة الثانية ، فإنه يستوي قاعداً ، ثم ليقل يا فلان ابن فلانة يقول : أرشدنا رحمك الله ولكنكم لا تسمعون ، فيقول: اذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأنك رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ، وبالقرآن إماماً ، فإن منكراً ونكيراً يتأخر كل واحد منهما ويقول : انطلق بنا ما يقعدنا عند هذا وقد لقن حجته ؟ ويكون الله ورسوله حجيجه دونهما . فقال رجل: يا رسول الله فإن لم يعرف أمه ؟ قال : ينسبه إلى أمه حواء»[(١)] .

---

(١) [ضعيف]: ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ، وقال: رواه الطبراني، وفي إسناده جماعة لم أعرفهم. وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة»: [٥٩٩].

ولعل في شدة ضعف الحديث زاجر لمن يستدعون هذه البدعة في عصرنا هذا -رزقنا الله وإياهم التوبة الصادقة عن كل ما يسخطه علينا سبحانه من القول والعمل والاعتقاد ، آمين-.

فهذا الحديث وإن لم يـثبت فاتصال العمل به في سائر الأمـصار والأعصار من غيـر إنكار كاف في العـمل به ، وما أجرى اللـه سبحـانه العادة قط بأن أمـة طبقت مشارق الأرض ومغاربها وهي أكمل الأمم عقـولاً وأوفرها معارف تطبق على مخاطبة من لا يسمع ولا يعقل وتستحسن ذلك لا ينكره منها منكر ، بل سنه الأول للآخر ، ويقتدي فيه الآخر بالأول ، فلولا أن المخاطب يسمع لكان ذلك بمنزلة الخطاب للتراب والخشب والحجر والمعدوم ، وهذا وإن استحسنه واحد فـالعلماء قاطبة على استقباحه واستهجانه .

وقد روى أبو داود في سننه بإسناد لا بأس به أن النبي ﷺ حضر جنازة رجل، فلما دفن قال : «سلوا لأخيكم التثبيت ؟ فـإنه الآن يسأل». فأخبر أنه يسأل حينئذ ، وإذا كان يسأل فإنه يسمع التلقين[(١)] .

وقد صح عن النبي ﷺ أن الميت يسمع قرع نعالهم إذا ولوا منصرفين[(٢)] .

وذكر عبد الحق عن بعض الصالحين قال : مات أخ لي فرأيته في النوم فقلت : يا أخي ما كان حالك حين وضعت في قبرك ؟ قال : أتاني آت بشهاب من نار فلولا أن داعياً دعا لي لهلكت .

وقال شبيب بن شيبة أوصتني أمي عند موتها فقالت : يا بني إذا دفنتني قم عند قبـري وقل : يا أم شبيب ، قـولي لا إله إلا الله . فلما دفنتـها ، قمت عند قـبرها فقـلت : يا أم شبـيب ، قولي لا إله إلا الله ، ثم انصـرفت ، فلما كـان من الليل

---

(١) رواه أبو داود: كتاب : الجنائز، باب: الاستغفار عند القبر للميت [في وقت الانصراف]، [٣٢٢١]، والحاكم : كـتاب : الجنائـز (١/ ٣٧٠)، [١٠٨/١٣٧٢]، وقال: هذا حديـث صحيح عـلى شرط الإسناد، ولـم يخرجـاه، وقال الذهبي في «التلخيص»: صـحيح. وذكره الألباني في «صـحيح أبي داود».

والحديث ليس فيه دلالة على أكثر من الندب للدعاء للميت ، وهذا الدعاء يتوجه به صاحبه إلى الله -عز وجل-، وليس إلى الميت الذي سواء سـمعه أم لم يسمعه لن ينفعـه شيء بعد أن انتقل من دار التكليف إلى دار الجزاء. وإنما تثبـيته على قدر ما قدم من الأعمال. ولـو كان التلقين المعمول به في زماننا هذا جائز لفعله النبي ﷺ ، ولـم يسأل المولى -عز وجل- للمـيت التثبيت، ويأمر الصحابة -رضي الله عنهم- بذلك.

(٢) سبق تخريجه.

رأيتها في النوم فقالت : يا بني كدت أن أهلك لولا أن تداركني لا إله إلا الله ، فقد حفظت وصيتي يا بني .

وذكر ابن أبي الدنيا ، عن تماضر بنت سهل امرأة أيوب بن عيينة قالت : رأيت سفيان بن عيينة في النوم فقال : جزى الله أخي أيوب عني خيراً فإنه يزورني كثيراً ، وقد كان عندي اليوم فقال أيوب : نعم حضرت الجبان اليوم فذهبت إلى قبره .

وصح عن حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن شـهر بن حوشب ، أن الصعب ابن جثامة وعوف بن مالك كانا متآخيين ، قال صعب لعوف : أي أخي أينا مات قبل صاحبه فليتراء له قال : أو يكون ذلك ؟ قال نعم . فـمات صعب ، فرآه عوف فيما يرى النائم كأنه قـد أتاه ، قال : قلت أي أخي قال : نعم ، قلت : مـا فعل بكم ؟ قال غفر لنا بعد المصائب . قـال : ورأيت لمعة سوداء في عنقه ، قلت أي أخي : ما هذا ؟ قال عشـرة دنانير استسلفتـها من فلان اليهودي فـهن في قرني فأعطوه إياها ، واعلم أي أخي أنه لم يحدث في أهلي حدث بعد موتي إلا قد لحق بي خبره ، حتى هرة لنا ماتت منذ أيام ، واعلم أن بنتي تموت إلى سـتة أيام فاستوصوا بهـا معروفاً . فلما أصبحت قلت : إن في هذا لمعلماً . فأتيت أهله فـقالوا : مرحباً بعوف، أهكذا تصنعون بتـركة إخوانكم ؟ لم تقربنا منذ مـات صعب . قال : فاعـتللت بما يعتل به الناس ، فنظرت إلى القـرن ، فأنزلته ، فـانتثلت ما فـيه فوجـدت الصرة التي فيـها الدنانير ، فبـعثت بها إلى اليهودي ، فقلت : هل كـان لك على صعب شيء؟ قال : رحم الله صـعـباً ، كـان من خـيار أصـحـاب رسـول الله ﷺ، هي له ، قلت : لتخـبرني . قـال : نعم ، أسلفتـه عشـرة دنانير ، فنبـذتها إليه ، قـال : هي والله بأعيانها. قال : قلت: هذه واحدة .

قال : فقلت : هل حدث فيكم حدث بـعد موت صعب ؟ قالوا نعم ، حدث فينا كذا حـدث ، قال : قلت اذكروا : قالوا نعم هرة مـاتت منذ أيام ، فقلت هاتان اثنتان . قلت : أين ابنة أخي ؟ قالوا تلعب ، فأتيت بها فمسستها فإذا هي محمومة، فقلت : استوصوا بها معروفاً؟ فماتت في ستة أيام .

وهذا من فقه عوف رحـمه الله ، وكان من الصحابة حيث نفـذ وصية الصعب ابن جثامة بعد موته ، وعلم صحة قـوله بالقرائن التي أخبره بها من أن الدنانير عشرة

وهي في القرن، ثم سأل اليهودي فطابق قوله لها في الرؤيا فجزم عوف بصحة الأمر فأعطى اليهودي الدنانير ، وهذا فقه إنما يليق بأفقه الناس ، وأعلمهم ، وهم أصحاب رسول الله ﷺ . ولعل أكثر المتأخرين ينكر ذلك ويقول كيف جاز لعوف أن ينقل الدنانير من تركة صعب وهي لأيتامه وورثته إلى يهودي بمنام ؟

ونظير هذا من الفقه الذي خصهم الله به دون الناس قصة ثابت بت قيس بن شماس ، وقد ذكرها أبو عمر بن عبد البر وغيره قال أبو عمر : أخبرنا عبد الوارث ابن سفيان ، حدثنا قاسم بن أصبغ ، حدثنا أبو الزنباع روح بن الفرج ، حدثنا سعيد بن عفير وعبد العزيز بن يحيى المدني ، حدثنا مالك بن أنس عن ابن شهاب ، عن إسماعيل بن محمد بن ثابت الأنصاري ، ،عن ثابت بن قيس بن شماس "أن رسول الله ﷺ قال له : يا ثابت أما ترضى أن تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة ؟ قال مالك : فقتل ثابت بن قيس يوم اليمامة شهيداً»(١) .

قال أبو عمر: روى هشام بن عمار عن صدقة بن خالد ، حدثنا عبد الرحمن ابن يزيد بن جابر قال: حدثنا ابن جابر قال : حدثني عطاء الخراساني ، قال: حدثتني ابنة ثابت بن قيس ابن شماس قالت : «لما نزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾(٢) دخل أبوها بيته وأغلق عليه بابه ، ففقده رسول الله ﷺ وأرسل إليه يسأله ما خبره ؟ قال : أنا رجل شديد الصوت ، أخاف أن يكون قد حبط عملي . قال : لست منهم بل تعيش بخير وتموت بخير. قال : ثم أنزل الله ﴿إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴾(٣) فأغلق عليه بابه وطفق يبكي ، ففقده رسول الله ﷺ فأرسل إليه، فأخبره فقال : يا رسول الله إني أحب الجمال ، وأحب أن أسود قومي . فقال : لست منهم بل تعيش حميداً ، وتقتل شهيداً ، وتدخل الجنة . قالت: فلما كان يوم اليمامة خرج مع خالد بن الوليد إلى مسيلمة ، فلما التقوا وانكشفوا قال ثابت وسالم مولى أبي حذيفة : ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ . ثم حفر كل واحد له حفرة فثبتا ، وقاتلا ، حتى قتلا" وعلى ثابت يومئذ درع له نفيسة ، فمر به رجل من المسلمين فأخذها ، فبينما رجل من

(١) رواه الحاكم في مستدركه، كتاب: معرفة الصحابة، (٣/ ٢٣٤)، [٥٠٣٤/ ٦٣٢].

(٢) (الحجرات/ ٢).

(٣) (الحديد/ ٢٣).

المسلمين نائم إذ أتاه ثابت في منامه فقال له أوصيك بوصية، فإياك أن تقول هذا حلم فتضيعه، إني لما قتلت أمس مر بي رجل من المسلمين فأخذ درعي ، ومنزله في أقصى الناس ، وعند خبائه فرس يستن في طوله ، وقد كفأ على الدرع برمة وفوق البرمة رحل ، فأت خالداً فمره أن يبعث إلى درعي فيأخذها . وإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله ﷺ يعني أبا بكر الصديق، فقل له إن علي من الدين كذا وكذا ، وفلان من رقيقي عتيق ، وفلان ، فأتى الرجل خالداً ، فأخبره ، فبعث إلى الدرع فأتى بها، وحدث أبا بكر برؤياه فأجاز وصيته [1].

قال : ولا نعلم أحداً أجيزت وصيته بعد موته غير ثابت بن قيس رحمه الله . انتهى ما ذكره أبو عمرو . فقد اتفق خالد ، وأبو بكر الصديق ، والصحابة معه ، على العمل بهذه الرؤيا، وتنفيذ الوصية بها، وانتزاع الدرع ممن هي في يده، وهذا محض الفقه . وإذا كان أبو حنيفة وأحمد ومالك يقبلون قول المدعي من الزوجين ما يصلح له دون الآخر بقرينة صدقه فهذا أولى . وكذلك أبو حنيفة يقبل قول المدعي للحائط بوجود الآجر[2] إلى جانبه ، وبمعاقد القمط [3]. وقد شرع الله حد المرأة بأيمان الزوج وقرينة تكون لها ، فإن ذلك من أظهر الأدلة على صدق الزوج .

وأبلغ من ذلك قتل المقسم عليه في القسامة[4] بأيمان المدعين مع القرينة الظاهرة

---

(١) [صحيح]: رواه أحمد في مسنده: (٣/ ١٣٧)، والبخاري: كتاب: التفسير، باب: سورة الحجرات، [٤٨٤٦]، ومسلم : كتاب: الإيمان، باب: مخافة المؤمن أن يحبط عمله، [١٨٧]. والحاكم : كتاب: معرفة الصحابة: (٣/ ٢٣٥)، [٥٠٣٥/ ٦٣٣]، [٥٠٣٦/ ٦٣٤]، وكل الروايات ليس فيها ذكر الرؤية العجيبة ما عدا رواية الحاكم، فلتراجع من مواضعها.

(٢) الآجُرُّ: طبيخ الطِّين. آجرُ: آجُورُ: هو الذي يبني به.

(٣) القِمْطُ: ما تُشَدُّ به الأخصاص، ومنه: معاقد القمط. ويروى في حديث شريح: أنه اختصم إليه رجلان في خُصٍّ؛ فقضى بالخُصِّ للذي تليه القمط. وذلك أنه احتكم إليه رجلان في خص ادعياه معًا. وقمطه شرطه الذي يوثق بها ويشد بها، من ليف كانت أو من خوص، فقضى به للذي تليه المعاقد، ومعاقد القمط تلي صاحب الخص. والخص: هو البيت يعمل من القصب.

(٤) القسامة: هي أن يقسم من أولياء الدم خمسون نفرًا على استحقاقهم دم صاحبهم إذا وجدوه قتيلاً بين قوم، ولم يعرف قاتله، فإن لم يكونوا خمسين، أقسم الموجودون خمسين يمينًا، ولا يكون فيهم صبي، ولا امرأة ، ولا مجنون، ولا عبد، أو يقسم بها المتهمون على نفي القتل عنهم، فإن حلف المدعون استحقوا الدية، وإن حلف المتهمون لم تلزمهم الدية. «النهاية» لابن الأثير: (٤/ ٦٢).

من اللوث[(١)] .

وقد شرع الله سبحانه قبول قول المدعين لتركة ميتهم إذا مات في السفر وأوصى إلى رجلين من غير المسلمين ، فاطلع الورثة على خيانة الوصيين فأنهما يحلفان بالله ويستحقانه ، وتكون أيمانهما أولى من أيمان الوصيين ، وهذا أنزله الله سبحانه في آخر الأمر في سورة المائدة ، وهي من آخر القرآن نزولاً ، ولم ينسخها شئ ، وعمل بها الصحابة بعده [(٢)] .

وهذا دليل على أنه يقضى في الأموال باللوث ، وإذا كان الدم يباح باللوث في القسامة فلأن يقضى باللوث وهو القرائن الظاهرة في الأموال أولى وأحرى .

وعلى هذا عمل ولاة العدل في استخراج السرقات من السراق حتى أن كثيراً ممن ينكر ذلك عليهم يستعين بهم إذا سرق ماله .

وقد حكى الله سبحانه عن الشاهد الذي شهد بين يوسف الصديق وامرأة العزيز أنه حكم بالقرينة على صدق يوسف، وكذب المرأة[(٣)]، ولم ينكر الله سبحانه عليه ذلك ، بل حكاه عنه تقريراً له .

---

(١) اللَّوْثُ: عند الشافعي شِبْهُ الدلالة، ولا يكون بينة تامة، وفي حديث القسامة ذكر اللوث، وهو أن يشهد شاهد واحد على إقرار المقتول قبل أن يموت أن فلانًا قتلني أو يشهد شاهدان على عداوة بينهما أو تهديد منه له، أو نحو ذلك، وهو من التَّلَوُّثُ: التلطخ، يقال: لاثه في التراب، لَوَّثَهُ. انظر «لسان العرب» : (٥/ ٤٠٩٣) بتصرف.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين ءامنوا شهادةُ بينكم إذا حضر أحدَكُمُ الْمَوْتُ حين الوصيَّةِ اثنان ذوا عدل منكم أو ءاخَرَانِ منْ غَيْرِكُم إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مُصيبةُ الْمَوْتِ تحبسونهما من بعد الصلاة فيُقْسمَانِ بالله إن ارتبتم لا نشتري به ثمنًا ولو كان ذا قُرْبَى ولا نكتمُ شَهَادَةَ اللَّه إنا إذًا لَّمنَ الآثمين . فَإِنْ عُثِرَ على أنهما استحقا إثمًا فآخَرَانِ يقومانِ مَقَامَهُمَا منَ الذين استحق عليهمُ الأوليانِ فَيُقْسمَانِ بالله لَشَهَادَتُنَا أحقُّ من شهادتهما وما اعتدينا إنا إذًا لَّمنَ الظالمين . ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن تُرَدَّ أيمانٌ بعد أيمانهم واتقوا الله واسمعوا واللهُ لا يهدي القوم الفاسقين﴾ (المائدة/ ١٠٦ : ١٠٨).

(٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصهُ قُدَّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم﴾ (يوسف/ ٢٦ : ٢٨).

وأخبر النبي ﷺ عن نبي الله سليمان بن داود أنه حكم بين المرأتين اللتين ادعتا الولد للصغرى بالقرينة التي ظهرت له لما قال: ائتوني بالسكين أشق الولد بينكما . فقالت الكبرى نعم رضيت بذلك للتسلي بفقد ابن صاحبتها ، وقالت الأخرى : لا تفعل هو ابنها . فقضى به لها للشفقة والرحمة التي قامت بقلبها حتى سمحت به للأخرى ، ويبقى حياً ، وتنظر إليه(١) .

وهذا من أحسن الأحكام وأعدلها ، وشريعة الإسلام تقرر مثل هذا وتشهد بصحته ، وهل الحكم بالقيافة(٢) وإلحاق النسب بها للاعتماد على قرائن الشبه مع اشتباهها وخفائها غالباً .

المقصود أن القرائن التي قامت في رؤيا عوف بن مالك ، وقصة ثابت بن قيس لا تقصر عن كثير من هذه القرائن، بل هي أقوى من مجرد وجود الآجر ومعاقد القمط ، وصلاحية المتاع للمدعي دون الآخر في مسألة الزوجين ، والصانعين ، وهذا ظاهر لا خفاء به ، وفطر الناس وعقولهم تشهد بصحته ، وبالله التوفيق .

والمقصود جواب السائل وأن الميت إذا عرف مثل هذه الجزئيات وتفاصيلها ، فمعرفته بزيارة الحي له وسلامه عليه ودعائه له أولى وأحرى .



(١) هذه القصة رواها أبو هريرة عن النبي ﷺ ، أنه قال: «كانت امرأتان معهما ابناهما، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت صاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك. فتحاكمتا إلى داود، فقضى به للكبرى ، فخرجتا على سليمان بن داود، فأخبرتاه، فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى : لا تفعل -يرحمك الله-، هو ابنها، فقضى به للصغرى» قال أبو هريرة: والله إن سمعت بالسكين إلا يومئذ، وما كنا نقول إلا المُدية» . [حديث صحيح] رواه البخاري: كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب﴾ (ص/ ٣٠) ، [٣٤٢٧]، [٦٧٦٩]، ومسلم : كتاب، الأقضية، باب: بيان اختلاف المجتهدين، [١٧٢٠]، وغيرهما.

(٢) القيافة هي مهنة تعني تتبع الآثار ومعرفتها ومعرفة شبه الرجل بأخيه، وأبيه، ومن يقوم بذلك يسمى: قائف، والجمع: قافة، يقال: فلا يقوف الأثر ويَقْتَافُه قِيَافة، مثل: قفا الأثر واقتفاه. انظر «النهاية» لابن الأثير : (٤/ ١٢١).

المسألة الثانية

في أن أرواح الموتى تتلاقى وتتزوار وتتذاكر أم لا؟.

وهي أيضاً مسألة شريفة كبيرة القدر ، وجوابها أن الأرواح قسمان : أرواح معذبة وأرواح منعمة . فالمعذبة: في شغل بما هي فيه من العذاب عن التزاور والتلاقي[(١)] .

والأرواح المنعمة المرسلة غير المحبوسة تتلاقى وتتزاور وتتذاكر ما كان منها في الدنيا وما يكون من أهل الدنيا ، فتكون كل روح مع رفيقها الذي هو على مثل عملها، وروح نبينا محمد ﷺ في الرفيق الأعلى . قال الله تعالى : ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً﴾[(٢)] وهذه المعية ثابتة في الدنيا وفي دار البرزخ وفي دار الجزاء ، والمرء مع من أحب في هذه الدور الثلاث .

وروى جرير ، عن منصور ، عن أبي الضحى ، عن مسروق قال : قال أصحاب محمد ﷺ : ما ينبغي لنا أن نفارقك في الدنيا ، فإذا مت رفعت فوقنا فلم نرك[(٣)] ، فأنزل الله تعالى : ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً﴾[(٢)] .

وقال الشعبي : «جاء رجل من الأنصار وهو يبكي إلى النبي ﷺ فقال : ما يبكيك يا فلان؟ فقال : يا نبي الله ، والله الذي لا إله إلا هو لأنت أحب إلي من

---

(١) من المعلوم بديهةً أن الزيارة الاختيارية لا تكون إلا للأحبة فقط، ومن زار مبغضًا لديه فإنما ذهب مدفوعًا لأمر ما، والمعذبون تتقطع بينهم الصلات الأنساب والأصهار ولا يكون بينهم محبة ولا مودة، فالمحبة في الآخرة لا تكون إلا للمتقين وصدق الله إذ يقول: ﴿الأخلاء بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾ (الزخرف/ ٦٧). فالحمد لله واصل المحبة الخالصة لوجهه الكريم في الدنيا ويوم الدين.

(٢) (النساء/ ٦٩).

(٣) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم..﴾ الآية ٦٩ من سورة النساء، «جامع البيان» : (٥/ ١٠٤).

أهلي ومـالي، والله الذي لا إله إلا هو لأنت أحب إلي من نفسي ، وأنـا أذكرك أنا وأهلي فيأخذني كذا حتى أراك فذكرت موتك وموتي فعرفت أني لن أجامعك إلا في الدنيـا ، وأنك ترفع بين النبـيين ، وعرفت أني إن دخلت الجـنة كنت في أدنى منزلة منك[1] ، فلم يرد النبي ﷺ شـيئـاً ، فأنزل الله تعـالى : ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليـهم من النبيين والصديقين والشـهداء والصالحين﴾ إلى قوله : ﴿وكفى بالله عليـماً﴾[2]. وقال تعالى : ﴿يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي . وادخلي جنتي﴾[3] أي ادخلي جملتهم وكوني معهم وهذا يقال للروح عند الموت.

وفي قصة الإسـراء من حديث عبد الله بن مسعـود قال : «لما أسري النبي ﷺ لقي إبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فتذاكروا الساعة، فبدأوا بإبراهيم فسألوه عنها فلم يكن عنده منها علم ، ثم بموسى فلم يكن عنده منها علم ، حتى أجـمعوا الحديث إلى عـيسى ، فقال عيـسى : عهد الله إلي فـيما دون وجبتها[4] فذكر خروج الدجال ، قال : فأهبط فأقتله ، ويرجع الناس إلى بلادهم ، فتستقبلهم يأجـوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، فلا يمرون بماء إلا شربوه ، ولا يمرون بشيء إلا أفسدوه ، فيجأرون إلي فأدعو الله فـيميتهم ، فتجأر الأرض إلى الله من ريحهم ، ويجـأرون إلي فأدعو ويرسل الله الـسماء بالماء فيـحمل أجسـامهم فيقذفها في البحر ، ثم ينسف الجبال ويمد الأرض مد الأديم ، فعهد الله إلي إذا كان كذلك فإن الساعة من الناس كالحامل المتم لا يـدري أهلها متى تفجؤهم بولادتها ليلاً

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم .... ﴾ الآية ٦٩ من سورة النساء، «جامع البيان»: (٥/ ١٠٤).

(٢) (النساء/ ٦٩).

(٣) (الفجر/ ٢٨).

(٤) هكذا بالمطبوعة ، والصحيح: (وجبـتها) ومن المعلوم من الدين بالضرورة أن نبي الله عيسى لم يذق الموت بعـد، وأنه لا زال حيًـا، وأنه عند الله -عـز وجل- ولن ينزل إلا كي يقـتل المسيح الدجـال ويضع الجزية، ويكسر الصليب ويهرق الخمر ويصلي خلف المهدي المنتظر في آخر الزمان ، ثم يذوق الموت بعد ذلك كغيره من الأنبياء والمرسلين عليهم صلوات الـله وسلامه ، ولعل مشاركته دون غيره من الأنبياء والمرسلين في ملاحم الساعة آخر الزمان هي مـا قد تكون سبب معرفته بما يعرف إن صح مثل هذا الأثر بغير هذا السند.

أو نهاراً »[(١)]. ذكره الحاكم ، والبيهقي ، وغيرهما .

وهذا نص في تذاكر الأرواح العلم[(٢)] .

(١) [ضعيف] رواه ابن ماجه: كتاب الفتن، باب فتنة الدجال، وخروج عيسى ابن مريم، وخروج يأجوج ومأجوج، [٤٠٨١]، والحاكم في مستدركه: كتاب التفسير، تفسير سورة الأنبياء، (٢/ ٣٨٤)، وضعفه الألباني في «ضعيف ابن ماجه» : [٨٨٥]، وانظر «الضعيفة»، [٤٣١٨]. وبعضه في «صحيح مسلم». والمقصود بقول عيسى عليه السلام: عهد الله إلى فيما دون وجبتها: أي: لا يعرف موعدها بالضبط ، وإنما يعرف أمارات وعلامات اقترابها.

(٢) هناك بعض من الإخوان المتعسفين يقصرون إمكان مجيء الميت في المنام للأحياء على رسول الله ﷺ ، وأنه لا يجوز ذلك لغيره أبدًا مستدلين على ذلك بفهم نحسبه -والله أعلم- خاطئًا معه حديث شهداء أحد أنهم يتمنون الإبلاغ لإخوانهم فيتولى الله عنهم ذلك ولو كان الإبلاغ في الإمكان لأطلقهم الله ، ولكن لا سبيل إلى هذا.

والحديث فيه أنهم تمنوا العودة إلى الدنيا وهذه أمنية مما سبق بها الكتاب، ولم يتمنوا المجيء لهم في المنام، ولم يكن هذا طلبًا مرفوضًا فإن المرفوض هو العودة إلى الدنيا أحياء كما كانوا. ثم إن الرسالة أعظم وأهم من أن تقتصر الحاجة إليها على الأصحاب -رضي الله عنهم- . فكانت لأهميتها أهلاً أن تنزل قرآنًا خالدًا يتلى ما دامت السموات والأرض وما لم تدما بشارة لكل الشهداء وحافزًا لكل المجاهدين .

ومما يعضد ذلك قوله ﷺ : «تسموا باسمي، ولا تكتنوا بكنيتي، ومن رآني في المنام فقد رآني ؛ فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي، ومن كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار» [حديث صحيح] رواه البخاري: كتاب: العلم، باب: إثم من كذب على النبي ﷺ ، [١١٠]، [٣٥٣٩]، ٦١٨٨، ٦١٩٧، ٦٩٩٣]، ومسلم : كتاب الرؤيا ، باب: قول النبي ﷺ : «من رآني في المنام فقد رآني» ، [٢٢٦٦، ٢٢٧٦، ٢٢٦٨]، وغيرهما كثير.

فإن في هذا الحديث دلالة أن الشيطان قد يتهيأ في صورة غير النبي ﷺ . ولو لم يكن رؤية غير النبي ﷺ ممكنة لم تكن للشيطان حاجة أن يتهيأ بهيئته؛ لأننا سنجزم بأن الذي رأيناه هو الشيطان ، وليس روح من أتى في المنام، ولكن لما كان ذلك ممكنًا كان مدعاة للشيطان أن يُلَبِّسَ علينا حقيقة الأمر إذا لم نتحصن بما يمنعنا منه في منامنا بما صح من الأذكار. وهذا وجه استدلال وجيه معتمد لمن كان له من الله تبصرة.

- ووجه آخر من حديث لا يحتمل التعطيل ولا التأويل كما جاء في حديث جابر -رضي الله عنه، أن الطفيل بن عمرو الدوسي أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! هل لك في حصن حصين ومنعة؟ - قال: حصن كان لدوس في الجاهلية-فأبى ذلك النبي ﷺ للذي ذخر الله للأنصار، فلما هاجر =

وقد أخبـر الله سبحانه وتعـالى عن الشهداء بأنهم أحيـاء عند ربهم يرزقون ، وأنهم يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفـهم ، وأنهم يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وهذا يدل على تلاقيهم من ثلاثة أوجه :

(أحدها) أنهم عند ربهم يرزقون ، وإذا كانوا أحياء فهم يتلاقون.

(الثاني) أنهم إنما استبشروا بإخوانهم لقدومهم عليهم ولقائهم لهم .

(الثالث) أن لفظ يستـبشرون يفـيد في اللغة أنـهم يبشر بعـضهم بعضـاً مثل يتباشرون .

وقد تواترت المرائي بذلك ، (فمنها) ما ذكره صالح بن بشير قال : رأيت عطاء السلمي في النوم بعـد موته ، فقلت لـه : يرحمك الله، لقد كنـت طويل الحزن في الدنيا ، فقال : أما والله لقد أعقـبني ذلك فرحاً طويلاً وسروراً دائماً ، فقلت : في أي الدرجات أنت ؟ قال مـع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديـقين والشهداء والصالحين .

وقال عبد الله بن مـبارك : رأيت سفيان الثوري في النوم فـقلت له : ما فعل

=النبي ﷺ إلى المدينة هاجر إلـيه الطفيل بن عمـرو، وهاجر معـه رجل من قومه، فاجـتووا المدينة فمـرض فجَزِعَ فأخـذ مشاقص -جمـع مشقص: وهي حديدة مـدببة لها طرف عـريض- له فقطع براجمه -مفاصل الأصابع- فشخبت يداه -سالت دمًا- حتى مات، فرآه الطفيل بن عمرو في منامه، فرآه وهيئته حـسنة، ورآه مغطيًا يديه، فقال له : ما صنع بك ربك؟، فقال: غـفر لي بهجرتي إلى نبيـه ﷺ فقال: ما لي أراك مـغطيًا يديك؟ قال: قـيل لي: لن نصلح منك ما أفـسدتَ، فقصـها الطفيل على رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : «اللهم وليديه فاغفر» [حديث صحيح] رواه مسلم : كتـاب: الإيمان، باب: الدليل على أن من قتل نفسه لا يكفر، [١١٦] فهـذا صحابي يرى أخًا له في المنام، بل وقد استفـاد الإمام مسلم ونحن من بعد سماحته حكم عدم تكفـير قاتل نفسه كفرًا مخرجًا من الملة، ويتضح هذا من خـلال ترجمة الباب، ويقره النبي ﷺ ذلك، ولو كان ذلك ممنوعًا وتمثل الشيـطان له مجزومًا لنبه النبي ﷺ على ذلك ومـا أقره وما دعا للمتـوفى بأن يتم عليه المولى مغفرته ورحمته، وأما من تسول له نفسه قصر ذلك على الصحابة فهو تعسف سمجٍ، ودعوى لا دليل عليها، وفي هـذا بيان على ما نحتج عليه من إمكان رؤية المـيت في المنام حقًا ، وأن ذلك ليس قـاصراً على الأنبيـاء أو الشهـداء مع الإقرار بأن تمثل الشيـطان جائز عنـد عدم التحـصن منه بالأذكار الواردة، والإقرار أيضًا بأن المنامات لا تؤخذ منها شـرائع ولا أحكام وفي ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . والله تعالى أعلى وأعلم.

الله بك ؟ قال لقيت محمداً وحزبه .

وقال صخر بن راشد : رأيت عبد الله بن المبارك في النوم بعد موته ، فقلت : أليس قد مت ؟ قال : بلى . قلت : فما صنع الله بك ؟ قال : غفر لي مغفرة أحاطت بكل ذنب . قلت : فسفيان الثوري ؟ قال : بخ بخ ذاك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً .

(وذكر) ابن أبي الدنيا من حديث حماد بن زيد ، عن هشام بن حسان ، عن يقظة بنت راشد ، قالت : كان مروان المحلمي لي جاراً ، وكان قاضياً مجتهداً ، قالت : فمات ، فوجدت عليه وجداً شديداً ، قالت : فرأيته فيما يرى النائم ، قلت: أبا عبد الله ما صنع بك ربك ؟ قال : أدخلني الجنة . قلت : ثم ماذا ؟ قال ثم رفعت إلى أصحاب اليمين . قلت : ثم ماذا ؟ قال : ثم رفعت إلى المقربين . قلت : فمن رأيت من إخوانك ؟ قال رأيت الحسن[1] ، وابن سيرين ، وميمون بن سياه . قال حماد : قال هشام بن حسان : فحدثتني أم عبد الله وكانت من خيار نساء أهل البصرة ، قالت : رأيت فيما يرى النائم كأني دخلت داراً حسنة ، ثم دخلت بستاناً ، فذكرت من حسنه ما شاء الله ، فإذا أنا فيه برجل متكئ على سرير من ذهب وحوله الوصفاء بأيديهم الأكاويب ، قالت : فإني لمتعجبة من حسن ما أرى إذ قيل هذا مروان المحلمي أقبل ، فوثب ، فاستوى جالساً على سريره قالت : واستيقظت من منامي فإذا جنازة مروان قد مر بها على بابي تلك الساعة .

وقد جاءت سنة صريحة بتلاقي الأرواح وتعارفها ، (قال) ابن أبي الدنيا : حدثني محمد بن عبد الله بن بزيغ ، أخبرني فضيل بن سليمان النميري ، حدثني يحيى بن عبد الرحمن بن أبي لبيبة ، عن جده ، قال : «لما مات بشر بن البراء بن معرور وجدت عليه أم بشر وجداً شديداً ، فقالت : يا رسول الله إنه لا يزال الهالك

(١) هو: أبو سعيد، تابعي، متكلم، محدث، من المشاهير، وكبار الزهاد، ولد بالمدينة، وسكن البصرة، كان إمام أهل البصرة ، وحبر الأمة في زمانه، وكان فريداً في معرفة الأحكام الشرعية، والتدريس، والوعظ والحديث، أثر تأثيراً عظيماً في جيله من المسلمين -وأقول والله أعلم: بل وفيمن بعده من الأجيال- تخرج عليه عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء ثم انشق عنه، وكان رأس المعتزلة -قبحهم الله وعليهم من الله ما يستحقون- له مكانة عظيمة بين أهل الزهد، والعبادة، والتنسك، والإعراض عن الدنيا، انظر «المنجد» : (٢٢٠: ٢٢١) بتصرف.

يهلك من بني سلمة فهل تتعارف الموتى فأرسل إلى بشر بالسلام ؟ فقال رسول الله ﷺ نعم ، والذي نفسي بيده يا أم بشر إنهم ليتعارفون كما تتعارف الطير في رؤوس الشجر» . وكان لا يهلك هالك من بني سلمة إلا جاءته أم بشر فقالت : يا فلان عليك السلام ، فيقول : وعليك ، فتقول : اقرأ على بشر السلام(١) .

(وذكر) ابن أبي الدنيا من حديث سفيان ، عن عمرو بن دينار ، عن عبيد بن عمير ، قال : أهل القبور يتوكفون(٢) الأخبار ، فإذا أتاهم الميت قالوا : ما فعل فلان؟ فيقول : صالح. ما فعل فلان ؟ يقول : صالح . ما فعل فلان ؟ فيقول : ألم يأتكم أو ما قدم عليكم ؟ فيقولون : لا ، فيقول إنا لله وإنا إليه راجعون ، سلك به غير سبيلنا(٣) .

وقال صالح المري : بلغني أن الأرواح تتلاقى عند الموت ، فتقول أرواح الموتى للروح التي تخرج إليهم : كيف كان مأواك وفي أي الجسدين كنت في طيب أم خبيث؟ ثم بكى حتى غلبه البكاء .

وقال عبيد بن عمير أيضًا : إذا مات الميت تلقته الأرواح يستخبرونه كما يستخبر الراكب : ما فعل فلان؟ ما فعل فلان ؟ فإذا قال توفي ولم يأتهم قالوا ذهب به إلى أمه الهاوية .

---

(١) [ضعيف]لأمور منها:

١- ضعف فضيل بن سليمان النميري، قال عنه يحيى بن معين: ليس بثقة، وسئل عنه أبو زرعة فقال: فضيل بن سليمان لين الحديث، وقال أبو حاتم: ليس بالقوي، وساق ابن عدي له أحاديث فيها غرابة، انظر «ميزان الاعتدال» : (٣/ ٣٦١)، «الجرح والتعديل»: (٧/ ٧٢: ٧٣).

٢- ضعف يحيى بن عبد الرحمن بن أبي لبيبة ، قال عنه يحيى بن معين: ليس بشيء، انظر «الجرح والتعديل»: (٩/ ١٦٦)، «ميزان الاعتدال»: (٤/ ٣٩٣). وجد يحيى أبو لبيبة لم أقف على ترجمته.

(٢) يتوكفون: يتتبعون الآثار أو الأخبار، والتوكف: هو التوقع والانتظار. ويتوكفون: أي: ينتظرون ويسألون، انظر «لسان العرب» : (٦/ ٤٩٠٩) بتصرف.

(٣) نذكر بأن أهل الحديث يعتبرون ما يتكلم به الصحابي مما لا مجال فيه للاجتهاد كالإخبار عن الغيب، أو أهوال القيامة، وما شابه أخبار من السنة الشريفة إذ لا سبيل لهم إلى معرفة ذلك إلا النبي ﷺ وما كانوا ليجزموا بصحة شيء من هذا إلا أن يسمعوه منه ﷺ إذ لا تعويل في الأحكام ولا العقائد على الإسرائيليات. إنما هي للاستئناس فحسب.

(وقال) سعيد بن المسيب : إذا مات الرجل استقبله والده كما يستقبل الغائب .

وقال عبيد بن عمير أيضاً : لو أني آيس من لقاء من مات من أهلي لألفاني قد مت كمداً .

(وذكر) معاوية بن يحيى ، عن عبد الله بن سلمة أن أبا رهم المسمعي حدثه أن أبا أيوب الأنصاري حدثه «أن رسول الله ﷺ قال : إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير في الدنيا ، فيقولون : انظروا أخاكم حتى يستريح ، فإنه كان في كرب شديد ، فيسألونه ماذا فعل فلان ؟ وماذا فعلت فلانة ؟ وهل تزوجت فلانة ، فإذا سألوه عن رجل مات قبله قال إنه قد مات قبلي ، قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون ذهب به إلى أمه الهاوية ، فبئست الأم وبئست المربية»(١) .

وقد تقدم حديث يحيى بن بسطام . حدثني مسمع بن عاصم قال : رأيت عاصماً الجحدري في منامي بعد موته بسنتين ، فقلت: أليس قد مت ؟ قال : بلى ، قلت : وأين أنت ؟ قال أنا والله في روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله المزني ، فنتلقى أخباركم ، قلت أجسامكم أم أرواحكم ؟ قال : هيهات ! بليت الأجسام وإنما تتلاقى الأرواح .



(١) [ضعيف جدًا]رواه الطبراني في الكبير: [٣٨٨٧: ٣٨٨٩]، وضعفه الألباني في «الضعيفة»، وقال: ضعيف جدًا: [٨٦٤]، وذكره الهيثمي في «المجمع»، وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه مسلمة بن علي وهو ضعيف، وقال الألباني: ورواه سلام الطويل عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أبي رهم به، ذكره ابن حبان في «الضعفاء» (١/ ٣٣٦) في ترجمة سلام الطويل، وقال: يروى عن الثقات الموضوعات. والنصف الأول من الحديث له طريق أخرى عن عبد الرحمن بن سلامة بلفظ : «إن نفس المؤمن إذا مات . . . . » وسندها ضعيف أيضًا فيها محمد بن إسماعيل بن عياش، قال عنه أبو داود: ليس بذاك، وقال أبو حاتم: لم يسمع من أبيه شيئًا .

المسألة الثالثة:

هل تتلاقى أرواح الأحياء وأرواح الأموات أم لا؟

شواهد هذه المسألة وأدلتها أكثر من أن يحصيها إلا الله تعالى ، والحس والواقع من أعدل الشهود بهـا ، فتلتقي أرواح الأحياء والأموات كمـا تلتقي أرواح الأحياء ، وقد قال تعالى : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾[1] .

قال أبو عبد الله بن منده : حدثنا أحمد بن محمد بن إبراهيم ، حدثنا عبدالله ابن حسين الحراني ، حـدثنا جدي أحمد بن شعـيب ، حدثنا موسى بن أعين ، عن مطرف ، عن جعفر بن أبي المغيرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، في هذه الآية قال: بلغني أن أرواح الأحـياء والأموات تلتـقي في المنام ، فيتـساءلون بينهم ، فيمسك الله أرواح الموتى، ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها.

وقال ابن أبي حاتم في تفسيره : حدثنا عبد الله بن سليمان ، حدثنا الحسين ، حدثنا عامر ، حدثنا أسـباط ، عن السدي ، وفي قوله تعالى : ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾[1] قال : يتوفـاها في منامها ، فيلتقي روح الحي وروح الميت فـيتذاكران ، ويتعارفـان ، قال : فترجع روح الحي إلى جـسده في الدنيا إلى بقيـة أجلها ، وتريد روح الميت أن ترجع إلى جسده فتحبس .

وهذا أحـد القولين فـي الآية وهو أن الممسكة مـن توفيت وفـاة الموت أولاً ، والمرسلة من توفـيـت وفـاة النوم ، والمعنى على هذا القـول أنه يـتـوفى نفس الميت فيمـسكها ولا يرسلها إلى جسـدها قبل يوم القيامة ، ويتـوفى نفس النائم ثم يرسلها إلى جسدها إلى بقية أجلها فيتوفاها الوفاة الأخرى .

والقول الثاني في الآية أن الممسكة والمرسلة في الآية كلاهما توفى وفاة النوم ،

---

(١) (الزمر/ ٤٢).

فمن استكملت أجلها أمسكها عنده فلا يردها إلى جسدها ، ومن لم تستكمل أجلها ردها إلى جسدها لتستكمله . واختار شيخ الإسلام هذا القول وقال : عليه يدل القرآن والسنة . قال : فإنه سبحانه ذكر إمساك التي قضى عليها الموت من هذه الأنفس التي توفاها وفاة النوم ، وأما التي توفاها حين موتها فتلك لم يصفها بإمساك ولا بإرسال ، بل هي قسم ثالث .

والذي يترجح هو القول الأول[١] لأنه سبحانه أخبر بوفاتين وفاة كبرى وهي وفاة الموت ووفاة صغرى وهي وفاة النوم ، وقسم الأرواح قسمين : قسماً قضى عليها بالموت فأمسكها عنده وهي التي توفاها وفاة الموت ، وقسماً لها بقية أجل فردها إلى جسدها إلى استكمال أجلها ، وجعل سبحانه الإمساك والإرسال حكمين للوفاتين المذكورتين أولاً فهذه ممسكة وهذه مرسلة ، وأخبر أن التي لم تمت هي التي توفاها في منامها . فلو كان قد قسم وفاة النوم إلى قسمين : وفاة موت ووفاة نوم لم يقل: «والتي لم تمت في منامها» ، فإنها من حين قبضت ماتت ، وهو سبحانه قد أخبر أنها لم تمت فكيف يقول بعد ذلك " فيمسك التي قضى عليها الموت» .

ولمن نصر هذا القول أن يقول قوله تعالى : ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾[٢] بعد أن توفاها وفاة النوم ، فهو سبحانه توفاها أولاً وفاة نوم ثم قضى عليها الموت بعد ذلك ، والتحقيق أن الآية تتناول النوعين ، فإنه سبحانه ذكر وفاتين: وفاة نوم ووفاة موت ، وذكر إمساك المتوفاة وإرسال الأخرى ، ومعلوم أنه سبحانه يمسك كل نفس ميت سواء مات في النوم أو في اليقظة، ويرسل نفس من لم يمت فقوله : ﴿يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[٢] يتناول من مات في اليقظة ومن مات في المنام.

---

(١) مع عظيم إجلالنا لسماحة الإمام/ ابن القيم يترجح عندنا ما ترجح لدى شيخ الإسلام / ابن تيمية – قدس الله روحه-. حيث أشارت الآية إلى وفاتين: وفاة الموت، ووفاة النوم، ثم أشارت إلى أن وفاة النوم يحدث فيها إمساك وإرسال. فأما الإمساك فللتي انقضى أجلها أثناء نومها، وأما الإرسال فللتي بقي في أجلها عمر يجب استكمالها له. وهو المعنى الذي يؤيده قوله ﷺ: قبل النوم: " **اللهم إن أمسكت فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين**»والله تعالى أعلى وأعلم.

(٢) (الزمر/ ٤٢).

وقـد دل علي التقـاء أرواح الأحـياء والأمـوات أن الحي يرى الميت في منامـه فيسـتخبره ، ويخـبره الميت بما لا يعلم الحي ، فيصـادف خبره كما أخـبر في الماضي والمستقـبل وربما أخبره بمال دفنه الميت في مكان لم يعلم به سـواه ، وربما أخبر بدين عليه ، وذكر له شواهده وأدلته .

وأبلغ من هذا أنه يخـبر بما عمله من عـمل لم يطلع عليه أحـد من العالمين ، وأبلغ من هذا أنه يخبره أنك تأتينا إلى وقت كذا وكذا فيكون كما أخبر ، وربما أخبره عن أمور يقطع الحي أنه لم يكن يعـرفها غيره ، وقـد ذكرنا قصة الصعب بن جـثامة وقوله لعوف بن مالك ما قال له ، وذكرنا قصة ثابت بن قيس بن شماس وإخباره لمن رآه بدرعه وما عليه من الدين .

وقصة صـدقة بن سليمان الجعـفري وإخبار ابنه له بما عمل من بعـده ، وقصة شبيب بن شيبة وبقول أمـة له بعد الموت جزاك الله خيراً حيث لقنها لا إله إلا الله ، وقصة الفضل بن الموفق مع ابنه وإخباره إياه بعلمه بزيارته .

وقال سعـيد بن المسيب : التقي عـبد الله بن سلام وسلمان الفـارسي ، فقال أحدهما للآخر : إن مت قبلي فالقني فأخبرني ما لقيت من ربك ، وإن أنا مت قبلك لقيتك فأخبرتك ، فقال الآخـر وهل تلتقي الأموات والأحياء ؟ قال نعم أرواحهم في الجنة تذهب حيث تشاء . قـال : فمات فلان فلقيه في المنام ، فـقال : توكل وأبشر فلم أر مثل التوكل قط . وقـال العباس بن عبد المطلب : كنت أشتـهي أن أرى عمر في المنام ، فما رأيته إلا عند قرب الحول ، فرأيته يمسح العرق عن جبينه وهو يقول : هذا أوان فراغي ، إن كاد عرشي ليهد لولا أن لقيت رءوفاً رحيماً .

ولما حضرت شـريح بن عابد الثمالي الوفاة دخل عليه عـفيف بن الحارث وهو يجود بنفسه فقال : يا أبا الحجـاج إن قدرت على أن تأتينا بعد الموت فتخبرنا بما ترى فافعل ، قال : وكـانت كلمة مقبولة في أهل الفقـه قال : فمكث زماناً لا يراه ، ثم رآه في منامه ، فقـال له : أليس قد مت ؟ قال : بلى قال : فـكيف حالك ؟ قال : تجاوز ربنا عنا الذنوب فلم يهلك منا إلا الأحـراض ، قلت : وما الأحراض ؟ قال : الذين يشار إليهم بالأصابع في الشيء .

وقال عبد الله بن عمر بن عـبد العزيز : رأيت أبي في النوم بعد موته كأنه في حديقة، فدفع إلي تفاحات فأولتهن الولد، فقلت أي الأعمال وجدت أفضل ؟ فقال: الاستغفار يا بني .

ورأى مسلمة بن عبد الملك عمر بن عبد العزيز بعد موته فقال : يا أمير المؤمنين ليت شعري إلى أي الحالات صرت بعد الموت ؟ قال يا مسلمة هذه أوان فراغي ، والله ما استرحت إلا الآن . قال : قلت : فأين أنت يا أمير المؤمنين ؟ قال : مع أئمة الهدى في جنة عدن .

قال صالح البراد : رأيت زرارة بن أوفى بعد موته فقلت : رحمك الله ماذا قيل لك وماذا قلت ؟ فأعرض عني . قلت : فماذا صنع الله بك ؟ قال : تفضل علي بجوده وكرمه . قلت : فأبو العلاء بن يزيد أخو مطرف ؟ قال ذاك في الدرجات العلا . قلت : فأي الأعمال أبلغ فيما عندكم ؟ قال التوكل وقصر الأمل .

وقال مالك بن دينار(١) : رأيت مسلم بن يسار بعد موته فسلمت عليه فلم يرد

---

(١) هو: مالك بن دينار، علم العلماء، الأبرار، معدود في الثقات التابعين، وثقه النسائي، وغيره ، واستشهد به البخاري، وحديثه في درجة الحسن، قال علي بن المديني: له نحو من أربعين حديثًا، من أقواله: وددت أن رزقي في حصاة أمتصها، لا ألتمس غيرها حتى أموت.
ومن أقواله: مذ عرفت الناس لم أفرح بمدحهم، ولم أكره ذمهم؛ لأن حامدهم مُفْرِطٌ، وذامهم مُفَرِّطٌ. وإذا تعلم العالم العلم للعمل كسره، وإذا تعلمه لغير العمل زاده فخرًا.
ومن مواقف نصحه للمسلمين ما رواه الأصمعي ، عن أبيه، قال: مر المهلب على مالك بن دينار متبخترًا، فنهاه عن ذلك قائلاً: أما علمت أنها مشية يكرهها الله إلا بين الصفين؟! فقال المهلب: أما تعرفني؟! قال: بلى، أولك نطفة مَذِرةٌ، وآخرك جيفة قذرة، وأنت فيما بين ذلك تحمل العَذِرَة، فانكسر، وقال: الآن عرفتني حق المعرفة.
ومن مواقفه أيضًا أن جاء له سارق فلم يجد ما يسرقه منه، فأراد الانصراف، فناداه مالك قائلاً: لم تجد شيئًا من الدنيا فترغب في شيء من الآخرة؟ قال: نعم، قال: توضأ وصلِّ ركعتين، ففعل، ثم جلس وخرج إلى المسجد ، فسئل من ذا؟ قال: جاء ليسرق فسرقناه.
وعن جعفر بن سليمان ، قال: حدثنا مالك بن دينار، قال: أتينا أنسًا -يعني: بن مالك -رضي الله عنه- أنا ويزيد الرقاشي، وثابت، فنظر إلينا، فقال: ما أشبهكم بأصحاب محمد ﷺ لأنتم أحب إلي من عدة ولدي، إلا أن يكونوا في الفضل مثلكم، إني لأدعو لكم في الأسحار.
ومن شدة بصيرته -رضي الله عنه- وعلمه بسنن الله في خلقه أن الناس عندما كانوا يطلبون منه أن يستسقي فكان يقول لهم: أنتم تنتظرون الغيث، وأنا أنتظر الحجارة، إنكارًا منه على تغيرهم إلى السوء وقد علموا أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. انظر «الجرح والتعديل» : (٨/٢٠٨)، «تهذيب التهذيب» : (١٠/١٣)، «شذرات الذهب»: (١/١٧٣)، «سير أعلام النبلاء»: (٥/٣٦٢).

علي السلام ، فقلت : ما يمنعك أن ترد السلام ؟ قال: أنا ميت فكيف أرد عليك السلام ؟ فقلت له : ماذا لقيت بعد الموت ؟ قال: لقيت والله أهوالاً وزلازل عظاماً شداداً . قال : قلت له : فما كان بعد ذلك ؟ قال : وما تراه يكون من الكريم ؟ قبل منا الحسنات ، وعفا لنا عن السيئات . وضمن عنا التبعات . قال: ثم شهق مالك شهقة وخر مغشياً عليه ، قال: فلبث بعد ذلك أياماً مريضاً ، ثم انصدع قلبه فمات .

وقال سهيل أخو حزم : رأيت مالك بن دينار بعد موته ، فقلت : يا أبا يحيى ليت شعري ماذا قدمت به على الله ؟ قال قدمت بذنوب كثيرة محاها عني حسن الظن بالله عز وجل .

(ولما مات) رجاء بن حيوة رأته امرأة عابدة فقالت : يا أبا المقدام إلى ما صرتم؟ قال إلى خير ولكن فزعنا بعدكم فزعة ظننا أن القيامة قد قامت ، قالت : قلت : ومم ذلك ؟ قال دخل الجراح وأصحابه الجنة بأثقالهم حتى ازدحموا على بابها .

وقال جميل بن مرة : كان مورق العجلي لي أخاً وصديقاً فقلت له ذات يوم : أينا مات قبل صاحبه فليأت صاحبه فليخبره بالذي صار إليه . قال : فمات مورق ، فرأت أهلي في منامها كأنه أتانا كما كان يأتي فقرع الباب كما كان يقرع ، قالت : فقمت ففتحت له كما كنت أفتح وقلت: ادخل يا أبا المعتمر إلى باب أخيك ، فقال: كيف أدخل وقد ذقت الموت ؟! إنما جئت لأعلم جميلاً بما صنع الله بي ، أعلميه أنه قد جعلني في المقربين .

(ولما مات) محمد بن سيرين حزن عليه بعض أصحابه حزناً شديداً ، فرآه في المنام في حال حسنة فقال : يا أخي قد أراك في حال يسرني فما صنع الحسن ؟ قال: رفع فوقي بسبعين درجة ، قلت: ولم ذاك؟ وقد كنا نرى أنك أفضل منه ؟ قال: ذاك بطول حزنه.

وقال ابن عيينة[1]: رأيت سفيان الثوري في النوم فقلت: أوصني، قال: أقل من معرفة الناس.

---

(١) هو: سفيان بن عيينة بن أبي عمران، ميمون، مولى محمد بن مزاحم، أخي الضحاك بن مزاحم، الإمام، الكبير، حافظ العصر، أبو محمد، الهلالي، الكوفي، ثم المكي، ولقد كان خلق من طلبة العلم والحديث يتكلفون الحج، وما يحركهم سوى رغبتهم في لقاء سفيان بن عيينة، لإمامته، وعلو إسناده، قال عنه الشافعي: لولا مالك، وسفيان بن عيينة لذهب علم الحجاز،وقال أيضًا: وجدت =

وقال عمار بن سيف : رأيت الحسن بن صالح في منامي فقلت : قد كنت متمنياً للقائك فماذا عندك فتخبرنا به ؟ فقال: أبشر فإني لم أر مثل حسن الظن بالله شيئاً .

(ولما مات) ضيغم العابد رآه بعض أصحابه في المنام فقال : أما صليت علي ؟ قال فذكرت علة كانت ، فقال: أما لو كنت علي نجت رأسك .

(ولما ماتت) رابعة رأتها امرأة من أصحابها وعليها حلة إستبرق وخمار من سندس ، وكانت كفنت في جبة وخمار من صوف ، فقالت لها ، ما فعلت الجبة التي كفنتك فيها وخمار الصوف ؟ قالت : والله إنه نزع عني ، وأبدلت به هذا الذي ترين علي ، وطويت أكفاني ، وختم عليها ، ورفعت في عليين ليكمل لي ثوابها يوم القيامة ، قالت : فقلت لها : لهذا كنت تعملين أيام الدنيا ، فقالت : وما هذا عندما رأيت من كرامة الله لأوليائه ! فقلت لها: فما فعلت عبدة بنت أبي كلاب ؟ فقالت: هيهات هيهات سبقتنا والله إلى الدرجات العلا ، قالت : قلت : وبم وقد كنت عند الناس أعبد منها ؟ فقالت : إنها لم تكن تبالي على أي حال أصبحت من الدنيا أو أمست ، فقلت فما فعل أبو مالك ؟ تعني ضيغماً ، فقالت : يزور الله تبارك وتعالى متى شاء ، قالت : قلت : فما فعل بشر بن منصور ؟ قالت: بخ بخ أعطي والله فوق ما كان يأمل . قالت : قلت : مريني بأمر أتقرب به إلى الله تعالى قالت: عليك بكثرة ذكر الله فيوشك أن تغتبطي بذلك في قبرك .

(ولما مات) عبد العزيز بن سليمان العابد رآه بعض أصحابه وعليه ثياب خضر وعلى رأسه إكليل من لؤلؤ ، فقال : كيف كنت بعدنا وكيف وجدت طعم الموت

= أحاديث الأحكام كلها عند ابن عيينة سوى ستة أحاديث، ووجدتها كلها عند مالك سوى ثلاثين حديثًا وابن عيينة قد ضم أحاديث العراقيين إلى أحاديث أهل الحجاز، قال علي بن المديني: ما في أصحاب الزهري أحد أتقن من سفيان بن عيينة، ونقل حرملة عن الشافعي: ما رأيت أحدًا فيه من أن العلم ما في سفيان بن عيينة وما رأيت أكف عن الفتيا منه، قال: وما رأيت أحدًا أحسن تفسيراً للحديث منه. انظر : «الجرح والتعديل» : (١/ ٣٢)، «حلية الأولياء»: (٧/ ٢٧٠)، «تاريخ بغداد»: (٩/ ١٧٤)، «وفيات الأعيان» : (٢/ ٣٩١)، «تذكرة الحفاظ»: (١/ ٢٦٢)، «ميزان الاعتدال» : (٢/ ١٧٠)، «تهذيب التهذيب» : (٤/ ١٠٤)، «شذرات الذهب» : (١/ ٣٥٤)، «سير أعلام النبلاء»: (٨/ ٤٥٤).

وكيف رأيت الأمر هناك ؟ قال أما الموت فلا تسأل عن شدة كربه وغمه إلا أن رحمة الله وارت عنا كل عيب ، وما تلقانا إلا بفضله .

وقال صالح بن بشر : لما مات عطاء السلمي رأيته في منامي ، فقلت : يا أبا محمد ألست في زمرة الموتى ؟ قال بلى . قلت فماذا صرت إليه بعد الموت ؟ قال صرت والله إلى خير كثير ورب غفور شكور . قال : قلت أما والله لقد كنت طويل الحزن في دار الدنيا ، فتبسم وقال : والله لقد أعقبني ذلك راحة طويلة وفرحاً دائماً، قلت : ففي أي الدرجات أنت ؟ قال مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء الصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً .

(ولما مات) عاصم الجحدري رآه بعض أهله في المنام فقال : أليس قد مت ؟ قال : بلى . قال : فأين أنت ؟ قال : أنا والله في روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله المزني فنتلقى أخباركم ، قال : قلت : أجسادكم أم أرواحكم ؟ قال : هيهات بليت الأجساد وإنما تتلاقى الأرواح .

(ورئي) الفضيل بن عياض بعد موته فقال : لم أر للعبد خيراً من ربه .

(وكان مرة الهمذاني) قد سجد حتى أكل التراب جبهته ، فلما مات رآه رجل من أهله في منامه وكأن موضع سجوده كهيئة الكوكب الدري فقال : ما هذا الأثر الذي أرى بوجهك ؟ قال كسي موضع السجود بأكل التراب له نوراً ، قال : قلت ، فما منزلتك في الآخرة ؟ قال خير منزل ، دار لا ينتقل عنها أهلها ولا يموتون .

وقال أبو يعقوب القاري : رأيت في منامي رجلاً آدماً طوالاً والناس يتبعونه ، قلت : من هذا ؟ قالوا : أويس القرني ، فاتبعته فقلت : أوصني يرحمك الله ، فكلح في وجهي فقلت : مسترشد فأرشدني رحمك الله ، فأقبل علي فقال : ابتغ رحمة الله عند محبته ، واحذر نقمته عند معصيته ، ولا تقطع رجاءك منه في خلال ذلك ، ثم ولى وتركني .

وقال ابن السماك : رأيت مسعراً في النوم فقلت : أي الأعمال وجدت أفضل؟ قال مجالس الذكر . (وقال الأجلح) : رأيت سلمة بن كهيل في النوم قلت : أي الأعمال وجدت أفضل ؟ قال : قيام الليل (وقال) أبو بكر بن أبي مريم : رأيت وفاء

ابن بشر بعد موته فقلت : ما فعلت يا وفاء؟ قال نجوت بعد كل جهد . قلت : فأي الأعمال وجدتموها أفضل ؟ قال : البكاء من خشية الله عز وجل .

وقال الليث بن سعد: عن موسى بن وردان : إنه رأى عبد الله بن أبي حبيبة بعد موته فقال: عرضت علي حسناتي وسيئاتي فرأيت في حسناتي حبات الرمان التقطتهن فأكلتهن ، ورأيت في سيئاتي خيطي حرير كانا في قلنسوتي .

وقال سنيد بن داود : حدثني ابن أخي جويرية بن أسماء قال : كنا بعبادان ، فقدم علينا شاب من أهل الكوفة متعبد فمات بها في يوم شديد الحر ، فقلت : نبرد ثم نأخذ في جهازه ، فنمت ، فرأيت كأني في المقابر ، فإذا بقبة جوهر تتلألأ حسناً وأنا أنظر إليها إذ انفلقت فأشرفت منها جارية ما رأيت مثل حسنها ، فأقبلت علي فقالت : بالله لا تحبسه عنا إلى الظهر ، قال : فانتبهت فزعاً ، وأخذت في جهازه ، وحفرت له قبراً في الموضع الذي رأيت فيه القبة فدفنته فيه .

وقال عبد الملك بن عتاب الليثي : رأيت عامر بن عبد قيس في النوم فقلت : أي الأعمال وجدت أفضل ؟ قال ما أريد به وجه الله عز وجل .

وقال يزيد بن هارون : رأيت أبا العلاء أيوب بن مسكين في المنام فقلت : ما فعل بك ربك؟ قال غفر لي. قلت: بماذا ؟ قال بالصوم والصلاة ، قلت أرأيت منصور ابن زادان ؟ قال هيهات ذاك نرى قصره من بعيد .

وقال يزيد بن نعامة : هلكت جارية في طاعون الجارف ، فلقيها أبوها بعد موتها ، فقال لها يا بنية أخبريني عن الآخرة ، قالت : يا أبت قدمنا على أمر عظيم نعلم ولا نعمل وتعملون ولا تعلمون ، والله لتسبيحة أو تسبيحتان أو ركعة أو ركعتان في صحيفة عملي أحب إلي من الدنيا وما فيها .

وقال كثير بن مرة : رأيت في منامي كأني دخلت درجة علياء في الجنة ، فجعلت أطوف بها وأتعجب منها ، فإذا أنا بنساء من نساء المسجد في ناحية منها ، فذهبت حتى سلمت عليهن ، ثم قلت : بما بلغتن هذه الدرجة ؟ قلن بسجدات وتكبيرات .

وقال مزاحم مولى عمر بن عبد العزيز: عن فاطمة بنت عبد الملك امرأة عمر ابن عبد العزيز قالت : انتبه عمر بن عبد العزيز ليلة فقال لقد رأيت رؤيا معجبة ،

قالت : فـقلت: جعلت فداءك فـأخبرني بهـا ، فقال : مـا كنت لأخبرك بهـا حتى أصبح، فـلما طلع الفـجر خرج فـصلى ثم عاد إلـى مجلسه ، قـالت : فاغـتنمت خلوته، فـقلت: أخبـرني بالرؤيا التي رأيت ، قـال : رأيت كأني رفـعت إلى أرض خضراء واسعة كـأنها بساط أخضر وإذا فيها قصر أبيض كـأنه الفضة، وإذا خارج قد خرج من ذلك القصر فهتف بأعلى صوته يـقول: أين محمد بن عبد الله بن المطلب؟ أين رسول الله ﷺ ؟ إذ أقبل رسول الله ﷺ حـتى دخل ذلك القصر قال ثم إن آخر خرج من ذلك القصر فنادى أين أبو بكر الصـديق ؟ أين ابن أبي قحافة ؟ إذ أقبل أبو بكر حتى دخل ذلك القصر ، ثم خرج آخر فنادى أين عمر بن الخطاب ؟ فأقبل عمر حتى دخل ذلك القصر ، ثم خرج آخر فنادى أين عثمان بن عفان ؟ فأقبل حتى دخل ذلك القصـر ، ثم خرج آخر فنادى أين على بن أبي طالب ؟ فأقـبل حتى دخل ذلك القصـر، ثم إن آخر خرج فنادى أين عـمر بن عبـد العزيز ؟ قال عـمر فقـمت حتى دخلت تلك القصـر ، قال : فدفـعت إلى رسول الله ﷺ والقوم حـوله فقلت بيني وبين نفسي أين أجلس ؟ فجلست إلى جنب أبي عـمر بن الخطاب ، فنظرت فإذا أبو بكر عن يمين النبي ﷺ وإذا عمـر عن يساره ، فتأملت فـإذا بين رسول الله ﷺ وبين أبي بكر رجل ، فـقـلت من هذا الرجل الذي بين رسـول اللـه ﷺ وبين أبي بكر ؟ فقال: هذا عيـسى ابن مريم ، فسمعت هاتفاً يهتف وبيني وبينه سـتر نور يا عمر بن عـبدالعـزيز تمسك بما أنت عليـه ، واثبت على ما أنـت عليه ، ثم كـأنه أذن لي في الخروج، فـخرجت من ذلك القصـر ، فالتفت خلفي فإذا أنـا بعثمان بن عـفان وهو خارج من ذلك القصر يقـول الحمد لله الذي نصرني وإذا علي بن أبي طالب في أثره خارج من ذلك القصر وهو يقول الحمد لله الذي غفر لي .

وقال سعيـد بن أبي عروبة : عن عمر بن عبـد العزيز ، رأيت رسول الله ﷺ وأبو بكر وعـمر جالسـان عنده ، فسلمت وجلست ، فـبينا أنا جـالس إذ أتي بعلي ومعاوية فأدخلا بيتاً أجيف[1] عليهما الباب وأنا أنظر ، فـما كان بأسرع من أن خرج علي وهو يقول قـضي لي ورب الكعبة ، ومـا كان بأسرع من أن خرج مـعاوية على أثره وهو يقول غفر لي ورب الكعبة .

وقال حماد بـن أبي هاشم : جاء رجل إلى عمر بن عبد العـزيز فقال : رأيت

(١) أُجيفُ: أغلِق. انظر «لسان العرب» (١/ ٧٢٨) بتصرف.

رسول ﷺ في المنام وأبو بكر عن يمينه وعمر عن شماله وأقبل رجلان يختصمان وأنت بين يديه جالس فقال لك: يا عمر إذا عملت فاعمل بعمل هذين لأبي بكر وعمر . فاستحلفه عمر بالله أرأيت هذه الرؤيا ؟ فحلف فبكى عمر .

وقال عبد الرحمن بن غنم : رأيت معاذ بن جبل بعد وفاته بثلاث على فرس أبلق[1] وخلفه رجال بيض عليهم ثياب خضر على خيل بلق وهو قدامهم وهو يقول: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾[2] ثم التفت عن يمينه وشماله يقول: يا ابن رواحة يا ابن مظعون ﴿الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين﴾ ثم صافحني وسلم علي.

وقال قبيصة بن عقبة : رأيت سفيان الثوري في المنام بعد موته فقلت ما فعل الله بك ؟ فقال :

نظرت إلى ربي عياناً فقال لي هنيئاً رضائي عنك يا ابن سعيد
فقد كنت قواماً إذا الليل قد دجا بعبرة محزون وقلب عميد
فدونك فاختر أي قصر تريده وزرني فإني منك غير بعيد

وقال سفيان بن عيينة : رأيت سفيان الثوري بعد موته يطير في الجنة من نخلة إلى شجرة ومن شجرة إلى نخلة وهو يقول : ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ فقيل له: بما أدخلت الجنة ؟ قال : بالورع ، بالورع ، قيل له : فما فعل علي بن عاصم ؟ قال: ما نراه إلا مثل الكوكب .

(وكان) شعبة بن الحجاج ومسعر بن كدام حافظين وكانا جليلين قال أبو أحمد البريدي فرأيتهما بعد موتهما فقلت أبا بسطام ما فعل الله بك ؟ فقال وفقك الله لحفظ ما أقول .

حباني إلهي في الجنان بقبة لها ألف باب من لجين وجوهرا

---

(١) أَبْلَقُ: من (البَلَق) أو (البُلْقة)، وهو ارتفاع التحجيل إلى الفخذين ، أي: فرس أسود، وبياض تحجيله يصل إلى فخذيه. انظر «لسان العرب» : (١/ ٣٤٧) بتصرف.

(٢) (يس/ ٢٦ : ٢٧).

وقال لي الرحمن يا شعبة الذي ... تبحر في جمع العلوم فأكثرا
تنعم بقربي إنني عنك ذو رضاً ... وعن عبدي القوام في الليل مسعرا
كفا مسعراً عزاً بأن سيزورني ... وأكشف عن وجهي الكريم لينظرا
وهذا فعالي بالذين تنسكوا ... ولم يألفوا في سالف الدهر منكرا

قال أحمد بن محمد اللبدي : رأيت أحمد بن حنبل في النوم فقلت : يا أبا عبد الله ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي ثم قال: يا أحمد ضربت في ستين سوطاً؟، قلت: نعم يا رب قال : هذا وجهي قد أبحتك فانظر إليه .

وقال أبو بكر أحمد بن محمد بن الحجاج : حدثني رجل من أهل طرسوس قال : دعوت الله عز وجل أن يريني أهل القبور حتى أسألهم عن أحمد بن حنبل ما فعل الله به ؟ فرأيت بعد عشر سنين في المنام كأن أهل القبور قد قاموا على قبورهم فبادروني بالكلام فقالوا : يا هذا كم تدعو الله عز وجل أن يريك إيانا تسألنا عن رجل لم يزل منذ فارقكم تحليه الملائكة تحت شجرة طوبى ، قال أبو محمد عبد الحق: وهذا الكلام من أهل القبور إنما هو إخبار عن علو درجة أحمد بن حنبل ، وارتفاع مكانه ، وعظم منزلته ، فلم يقدروا أن يعبروا عن صفة حاله وعما هو فيه إلا بهذا وما هو في معناه .

وقال أبو جعفر السقاء صاحب بشر بن الحارث : رأيت بشراً الحافي ومعروف الكرخي[١] وهما جائيان فقلت من أين ؟ فقالا من جنة الفردوس ، زرنا كليم الله

(١) هو: معروف بن فيروز الكرخي، علم الزهاد، بركة العصر، قيل: كان أبواه نصرانيين، فأسلماه إلى مؤدب، كان يقول له : قل: ثالث ثلاثة، فيقول معروف: بل هو الواحد، فيضربه فيهرب، فكان والداه يقولان: ليته رجع -أي: ويعمل ما بدى له، ويقول: ما شاء-، وأسلما فيما بعد، وذكر معروف عند الإمام أحمد، فقيل له : قصير العلم، فقال -رضي الله عنه - كلمة خالدة-: أمسك! وهل يراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف.
ومن أقواله: من كابر الله صرعه، ومن نازعه قمعه، ومن ماكره خدعه، ومن توكل عليه منعه، ومن تواضع له رفعه، كلام العبد فيما لا يعنيه خذلان من الله، وأنشد مرة في السحر:
ما تضر الذنوب لو أعتقتني ... رحمة لي- فقد علاني المشيبُ
انظر «حلية الأولياء»: (٨/ ٣٦٠)، «تاريخ بغداد» : (١٣/ ١٩٩)، «طبقات الحنابلة»: (١/ ٣٨١)، «وفيات الأعيان»: (٥/ ٢٣١)، «شذرات الذهب» : (١/ ٣٦٠)، «سير أعلام النبلاء»: (٩/ ٣٣٩).

موسى .

وقال عاصم الجزري : رأيت في المنام كأني لقيت بشر بن الحارث فقلت : من أين يا أبا نصر؟ قال من عليين ، قلت فما فعل أحمد بن حنبل[(١)] ؟ قال تركته الساعة مع عبد الوهاب الوراق بين يدي الله عز وجل يأكلان ويشربان ، فقلت له : فأنت ؟ قال : علم قلة رغبتي في الطعام فأباحني النظر إليه .

(١) هو: إمام أهل السنة والجماعة بلا منازع، أحمد بن حنبل، هو الإمام حقًا، وشيخ الإسلام صدقًا، الصابر على المحنة، الناصر للسنة، والمناضل عنها، شيخ العصابة، مقتدي الطائفة، إمام المحدثين، الإمام المبجل، والهمام المفضل، لزم الاقتداء، وظفر الاهتداء، علم الزهاد، قلم النقاد، امتحن فكان في المحنة صبورًا، واجتبى فكان للنعمة شكورًا، حفظ ألف ألف حديث، وبلغ عدد شيوخه في «المسند» مئتين وثمانين ونيف، انتهت إليه الإمامة في العلوم كما قال الشافعي -رحمه الله-: «أحمد إمام في ثمان خصال: إمام في الحديث، إمام في الفقه، إمام في اللغة، إمام في القرآن، إمام في الزهد، إمام في الورع، إمام في السنة» .

ما أشبهه -رضي الله عنه- بالأنبياء الصادقين ، والمرسلين المشرفين لا سيما حينما أقامه الله مقام الأنبياء والمرسلين من أولي العزم الكرام ، فما أعظمه وما أجله كأني على طول العهد في الزمان وعظم الفرق في المقام أراه مشدودًا على الأعواد يساوم على دينه فلا يرضى له ثمنًا، ويسام عليه سوء العذاب فلا يكون إلا أن يتلقاه بالاستعذاب ، كأني به -رضي الله عنه- كالجبل الأشم يتفتق السحاب من على قصته وتتفرق الرياح من على جانبيه، قد احتسب كل ما يلقاه في سبيل رضى مولاه، والعجيب في ذلك أن لم يكن له من دون الله ناصر، والأعجب أن الأنبياء حاربهم من يجهرون بإنكار التوحيد، أما إمامنا، وإمام أهل السنة لم يحاربه إلا من زعم كذبًا وزورًا أنه يحارب على التوحيد من علماء السوء، خلفاء الأحبار والكهان فلا حول ولا قوة إلا بالله، ولم يقل على الله إلا ما قاله مولاه عز وجل على نفسه في كتابه أو على لسان رسله ولم يلهج لسانه إلا بأن القرآن كلام الله ليس مخلوقًا معنى ولا لفظًا.

تعالت جليل شمائله أن يحوط بنظمها شاعر أو بنثرها خطيب أو يحوطها لسان أو تحصرها الأقلام. لا أنا ولا من أفردوا فيها مصنفات مستقلة أمثال ابن الجوزي، والبيهقي، والهروي، وغيرهم. وماذا يمكن أن نقول فيمن أرصد نفسه فداءً لعقيدة الأمة أن تبقى سليمة نقية لا يشوبها ما ليس منها مما يريده أعداء الله ومحاربو دينه وأوليائه من المندسين بين صفوفنا يتكلمون بألسنتنا ويتلونون بلون جلودنا وخطرهم لا شك علينا أعظم من خطر اليهود والنصارى وأشباههم من الأعداء الظاهرين لعنهم الله لعنة تمحقهم في الدنيا والآخرة، آمين. وعلى من يرغب في ترجمة أوسع من هذه فليرجع لكتاب مختصر الصواعق المرسلة بتحقيقنا ، طبعة المكتبة التوفيقية، أو أحد الكتب المصنفة في ذلك خاصة لابن الجوزي، والبيهقي، والهروي، وغيرهم.

وقال أبو جعفر السقـاء : رأيت بشر بن الحارث في النوم بعد موته فقلت : أبا نصر ما فعل الله بك ؟ قال : ألطفني ورحمني وقال لي : يا بشر لو سجدت لي في الدنيا علـى الجمر مـا أديت شكر ما حـشوت قلوب عبـادي منك ، وأباح لي نصف الجنة فأسرح فيها حيث شئت ، ووعدني أن يغفر لمن تبع جنازتي ، فقلت ما فعل أبو نصر التمار ؟ فقال : ذاك فوق الناس بصبره على بلائه وفقره .

قال عبد الحق : لعله أراد بقـوله نصف الجنة نصف نعيمها لأن نعيمـها نصفان نصف روحاني ونصف جسـماني ، فيتنعمـون أولاً بالروحاني فإذا ردت الأرواح إلى الأجساد أضـيف لهم النعيم الجسمـاني إلى الروحاني ، وقال غيره نـعيم الجنة مرتب على العلم والعمل وحظ بشر من العمل كان أوفى من حظه في العلم . والله أعلم.

وقال بعض الصالحين : رأيت أبا بكر الشبلي في المنام وكـأنه قاعد في مجلس الرصافة بالموضع الذي كان يقـعد فيه ، وإذا به قد أقبل وعليه ثياب حـسان ، فقمت إليه ، وسلمت عليه ، وجلست بين يديه ، فـقلت له : من أقرب أصحابك إليك ؟ قال ألهجهم بذكر الله ، وأقومهم بحق الله ، وأسرعهم مبادرة في مرضاة الله .

وقال أبو عبد الرحمن الساحلي(١) : رأيت ميسرة بن سليم في المنام بعد موته

(١) هكذا بالمطبوعـة، وأحسبهـا -والله أعلم- أبو عبد الرحـمن السلمي مقرئ الكوفـة، الإمام العلم، عبدالله بن حبيب بن رُبَيِّعة، الكوفي، من أولاد الصحابة، مولده في حياة النبي ﷺ ، قرأ القرآن، وجوده، ومهـر فيه، وعرض على عثمـان فيما بلغنا، وعلى علي، وابن مـسعود، رضي الله عنهم جميعًا، قال أبو عمرو الداني: أخذ القراءة عرضًا عن عثمان، وعلي، وزيد، وأبي، وابن مسعود، قال أبو إسحاق: كـان أبو عبد الرحمن السلمي يقرئ الناس في المسـجد الأعظم أربعين سنة، وكان إمامًا للمسجد، وعن حماد بن زيد، عن عطاء بـن السائب، أن أبا عبد الرحمن قال: أخذنا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزهن إلى العشر الأخر حتى يعلموا ما فيهن فكنا نتعلم القرآن، والعمل به، وسيرث القرآن بعدنا قوم يشربونه شرب الماء لا يجاوز تراقيهم.
وكان رحمـه الله من الأقلين المحتسبين أجـرهم على الله في تعليمهم للقـرآن الكريم، فلا يأخذون عليه من الناس أجـرًا، بل ومن الذين لا يقبلون هدايا من علمـوهم، أو علموا أبناءهم، فعن عـبد الحميد ابن أبي جعفر الفراء، عن أبيه، عن أبي عبد الرحمن السُّلَمي -رضي الله عنه- أنه جاء وفي الدار جِلال وجزور، فقالوا: بعث بها عمرو بن حُرَيْث، وكان أبو عبد الرحمن قد علم ابنه القرآن، فقـال: رُدَّ، إنا لا نأخذ على كـتاب الله أجرًا - أي: من الخلق- ، وذكـروا عن عبـد الرحمن أنه أخبرهم أنه قرأ عامـة القرآن على عثمان، وكان يسأله عن القرآن، فـيقول: إنك تشغلني عن أمر =

فقلت له : طالت غيبتك ، فقال السفر طويل ، فقلت له فما الذي قدمت عليه ؟ فقال : رخص لي لأنا كنا نفتي بالرخص ، فقلت فما تأمرني به ؟ قال : اتباع الآثار وصحبة الأخيار ينجيان من النار ويقربان من الجبار .

وقال أبو جعفر الضرير : رأيت عيسى بن زاذان بعد موته فقلت : ما فعل الله بك ؟ فأنشأ يقول :

لو رأيت الحسان في الخلد حولي وأكاويب معها للشراب
يترنمن بالكتاب جميعاً يتمشين مسبلات الثياب

وقال بعض أصحاب ابن جريج : رأيت كأني جئت إلى هذه المقبرة التي بمكة فرأيت على عامتها سرادقاً ، ورأيت منها قبراً عليه سرادق ، وفسطاط ، وسدرة فجئت حتى دخلت فسلمت عليه ، فإذا مسلم بن خالد الزنجي ، فسلمت عليه وقلت: يا أبا خالد ما بال هذه القبور عليها سرادق وقبرك عليه سرادق وفسطاط وفيه سدرة ؟ فقال : إني كنت كثير الصيام . فقلت : فأين قبر ابن جريج وأين محله ؟ فقد كنت أجالسه ، وأنا أحب أن أسلم عليه ، فقال : هكذا بيده هيهات ، وأدار إصبعه السبابة ، وأين قبر ابن جريج رفعت صحيفته في عليين .

ورأى حماد بن سلمة في النوم بعض الأصحاب فقال له : ما فعل الله بك ؟ فقال : قال لي: طال ما كددت نفسك في الدنيا، فاليوم أطيل راحتك وراحة المتعبين.

هذا باب طويل جداً ، فإن لم تسمح نفسك بتصديقه وقلت هذه منامات وهي غير معصومة فتأمل من رأى صاحباً له ، أو قريباً ، أو غيره فأخبره بأمر لا يعلمه إلا صاحب الرؤيا ، وأخبره بمال دفنه ، أو حذره من أمر يقع ، أو بشره بأمر يوجد فوقع كما قال، أو أخبره بأنه يموت هو أو بعض أهله إلى كذا وكذا فيقع كما أخبر، أو

=الناس، فعليك بزيد بن ثابت، فإنه يجلس للناس، ويتفرغ لهم، ولست أخالفه في شيء من القرآن، قال: وكنت ألقى عليًا، فأسأله، فيخبرني ويقول: عليك بزيد، فأقبلت على زيد، فقرأت عليه القرآن ثلاث عشرة مرة، رضي الله عنهم، ولا عدمت أمتنا أمثال الولي الجلي العالم العابد أبي عبدالرحمن السلمي -رضي الله عنه- . انظر : «تاريخ بغداد» : (٩/ ٤٣٠)، «تهذيب التهذيب» : (٥/ ١٨٣)، «طبقات الحفاظ» للسيوطي: ص٢٧، «سير أعلام النبلاء» : (٤/ ٢٦٧).

أخبره بخصب أو جدب أو عدو أو نازلة أو مرض أو بغرض له فوقع كما أخبره ، والواقع من ذلك لا يحصيه إلا الله ، والناس مشتركون فيه وقد رأينا نحن وغيرنا من ذاك عجائب .

وأبطل من قال : إن هذه كلها علوم وعقائد في النفس تظهر لصاحبها عند انقطاع نفسه عن الشواغل البدنية بالنوم ، وهذا عين الباطل والمحال ، فإن النفس لم يكن فيها قط معرفة هذه الأمور التي يخبر بها الميت ، ولا خطرت ببالها ولا عندها علامة عليها ولا أمارة بوجه ما ، ونحن لا ننكر أن الأمر قد يقع كذلك .

وإن من الرؤيا ما يكون من حديث النفس وصورة الاعتقاد ، بل كثير من مرائي الناس إنما هي مجرد صور اعتقادهم المطابق وغير المطابق .

الرؤيا على ثلاثة أنواع منها الرؤية الصحيحة ، ولها أقسام:

فإن الرؤيا على ثلاثة أنواع : رؤيا من الله ورؤيا من الشيطان ورؤيا من حديث النفس .

والرؤيا الصحيحة أقسام : منها : إلهام يلقيه الله سبحانه في قلب العبد وهو كلام يكلم به الرب عبده في المنام كما قال عبادة بن الصامت وغيره .

ومنها : مثل يضربه له ملك الرؤيا الموكل بها .

ومنها : التقاء روح النائم بأرواح الموتى من أهله وأقاربه وأصحابه وغيرهم كما ذكرنا .

ومنها : عروج روحه إلى الله سبحانه وخطابها له .

ومنها : دخول روحه إلى الجنة ومشاهدتها وغير ذلك فالتقاء أرواح الأحياء والموتى نوع من أنواع الرؤيا الصحيحة التي هي عند الناس من جنس المحسوسات .

وهذا موضع اضطرب فيه الناس (فمن قائل): إن العلوم كلها كامنة في النفس وإنما اشتغالها بعالم الحس يحجب عنها مطالعتها ، فإذا تجردت بالنوم رأت منها بحسب استعدادها ،ولما كان تجردها بالموت أكمل كانت علومها ومعارفها هناك أكمل.

وهذا فيه حق وباطل ، فلا يرد كله ولا يقبل كله ، فإن تجرد النفس يطلعها على علوم ومعارف لا تحصل بدون التجرد ، لكن لو تجردت كل التجرد لم تطلع على علم الله الذي بعث به رسوله ، وعلى تفاصيل ما أخبر به عن الرسل الماضية والأمم

الخالية وتفاصيل المعاد وأشراط الساعة وتفاصيل الأمر والنهي والأسماء والصفات والأفعال وغير ذلك مما لا يعلم إلا بالوحي ، ولكن تجرد النفس عون لها على معرفة ذلك وتلقيه من معدنه أسهل وأقرب وأكثر مما يحصل للنفس المنغمسة في الشواغل البدنية .

ومن قائل : إن هذه المرائي علوم علقها الله في النفس ابتداء بلا سبب، وهذا قول منكري الأسباب والحكم القوي وهو قول مخالف للشرع والعقل والفطرة .

ومن قائل : إن الرؤيا أمثال مضروبة يضربها الله للعبد بحسب استعداده ألفه على يد ملك الرؤيا ، فمرة يكون مثلاً مضروباً ومرة يكون نفس ما رآه الرائي فيطابق الواقع مطابقة العلم لمعلومه .

وهذا أقرب من القولين قبله ، ولكن الرؤيا ليست مقصورة عليه بل لها أسباب أخر كما تقدم من ملاقاة الأرواح وإخبار بعضها بعضاً ومن إلقاء الملك الذي في القلب والروع ومن رؤية الروح للأشياء مكافحة بلا واسطة .

(وقد ذكر) أبو عبد الله بن منده الحافظ في كتاب «النفس والروح» من حديث محمد بن حميد ، حدثنا عبد الرحمن بن مغراء الدوسي ، حدثنا الأزهر بن عبدالله الأزدي ، عن محمد بن عجلان ، عن سالم بن عبد الله ، عن أبيه ، قال : «لقي عمر بن الخطاب علي بن أبي طالب فقال له : يا أبا الحسن ربما شهدت وغبنا وشهدنا وغبت ، ثلاث أسألك عنهن عندك منهن علم ؟ فقال علي بن أبي طالب: وما هن ؟ فقال : الرجل يحب الرجل ولم ير منه خيراً، والرجل يبغض الرجل ولم ير منه شراً، فقال علي نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الأرواح جنود مجندة تلتقي في الهواء فتشام ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف» فقال عمر واحدة. قال عمر : والرجل يحدث الحديث إذ نسيه فبينا هو وما نسيه إذ ذكره فقال نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما في القلوب قلب إلا وله سحابة نسيه القمر بينا القمر مضيء إذا تجللته سحابة فأظلم إذا تجلت فأضاء وبينا القلب يتحدث إذ تجللته سحابة فنسي إذ تجلت عنه فيذكر، قال عمر اثنتان ، قال والرجل يرى الرؤيا فمنها ما يصدق ومنها ما يكذب ، فقال : نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما من عبد ينام يمتلىء نوماً إلا عرج بروحه إلى العرش فالذي لا يستيقظ دون العرش فتلك الرؤيا التي تصدق، والذي يستيقظ دون العرش فهي التي تكذب. فقال عمر :

ثلاث كنت في طلبهن ، فالحمد لله الذي أصبتهن قبل الموت»(١) .

وقال بقية بن الوليد : حدثنا صفـوان بن عمرو ، عن سليم بن عامر الحضرمي قال : قال عمـر بن الخطاب : عجبت لرؤيا الرجل يرى الشيء لم يخطر له على بال

(١) [ضعيف]:بتمام هذا اللفظ من هذا الطريق لأمور منها:
١- لضعف الأزهر بن عـبد الله، قال العـقيلي: حديثـه غير محـفوظ، رواه عنه عبـد الرحمن بن مـغـراء، والمتن من رواية ابن عـجـلان، عن سـالم، عن أبيـه، عن علي رفـعـه: «الأرواح جنود مجندة. . .» الحديث ، وذكر العـقيلي فيه اختلافًا على إسـرائيل عن أبي إسحاق، عن الحارث عن علي في رفعه ووقفه، ورجح وقفه من هذا الوجه وكان الأزهر من الناصبة الذين ناصبوا عليًا العداء وقعوا فيه -رضي الله عنه-. والحديث رواه الحاكم في مستـدركه عن طريق محمد بن مهران الجمال عن عبد الرحمن بـن مغراء الدوسي عن الأزهر بن عبد الله الأودي، عن محـمد بن عجلان، عن سالم بن عـبد الله بن عـمر، عن أبيه قـال: لقي عمـر بن الخطاب علي بن أبي طالب -رضي الله عنهم- فقال: يا أبا الحـسن ، الرجل يرى الرؤيا ، فمنها ما تصدق، ومنهـا ما تكذب، قال: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عـبد ولا أمة ينام فيـمتلئ نومًا إلا عرج بروحـه إلى العرش، فالذي لا يستيـقظ دون العرش فتلك الرؤيا التي تصدق، والذي يستيـقظ دون العرش ، فتلك الرؤيا التي تكذب»رواه الحاكم: كـتاب تعبيـر الرؤيا، (٤/ ٣٩٦: ٣٩٧) وقال الذهبي في تلخيـصه: هذا حديث منكر، لم يتكلم عليه المصنف وكأن الآفـة فيه من الأزهر. وانظر «لسان الميزان» (١/ ٣٧٥). وذكره الهيثـمي في «المجمع» ، وقال: رواه الطبراني في «الأوسط» ، وفيه أزهـر بن عبد الله، قال العقيلي: حـديثه غير محـفوظ عن ابن عجلان، وهذا الحديث يعـرف من حديث إسرائيل عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي موقوفًا ، وبقية رجاله ثقات موثقون. «المجمع» : (١/ ١٦٢).
قلت:هناك بعض أجزاء من الحديث صحت منفردة عن النبي ﷺ من ذلك الحديث الذي رواه يحيى ابن سعيد عن عمرة عن عائشة -رضي الله عنها-، قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: «الأرواح جنود مجندة، فـما تعـارف منها ائتلف، وما تـناكر منها اخـتلف» [حديث صـحيح]رواه البخـاري: كتاب الأنبيـاء، باب: الأرواح جنود مجندة، [٣٣٣٦] ، ومـسلم : كتاب البـر والصلة والآداب، باب: الأرواح جنود مجندة، [٢٦٣٨]، ورواية مـسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قـال رسول الله ﷺ : «الناس معـادن كمعـادن الفضة والذهب خـيارهم في الجـاهلية خيـارهم في الإسلام إذا فقهوا، والأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»وغيرهما.
وأما الـشطر الثاني فـقد رواه أبو نعـيم في «الحلية» وهو قـوله ﷺ : «مـا من القلوب قلب إلا وله سحابة كسحابة القمر، بينا القمر مضيء إذ علته سحابة فأظلم، إذ تجلت عنه فأضاء». [حديث حسن] رواه أبو نعيم في «الحلية» : (٢/ ١٩٦)، وحسنه الألباني في «الـصحيحة» : [٢٢٦٨]، وقال: رواه أبو الطيب الحوراني في «جزئه» (٧٠/ ١)، والديلمي: (٤/ ٨ - ٩).

فيكون كآخذ بيد ، ويرى الشيء فلا يكون شيئاً . فقال علي بن أبي طالب : يا أمير المؤمنين يقول الله عز وجل : ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ (١) قال : والأرواح يعرج بها في منامها ، فما رأت وهي في السماء فهو الحق ، فإذا ردت إلى أجسادها تلقتها الشياطين في الهواء فكذبتها ، فما رأت من ذلك فهو الباطل . قال : فجعل عمر يتعجب من قول علي . قال ابن منده : هذا خبر مشهور عن صفوان بن عمرو وغيره وروي عن أبي الدرداء .

(وذكر) الطبراني من حديث علي بن أبي طلحة أن عبد الله بن عباس قال لعمر ابن الخطاب : يا أمير المؤمنين أشياء أسألك عنها، قال : سل عما شئت . قال : يا أمير المؤمنين مم يذكر الرجل ومم ينسى ومم تصدق الرؤيا ومم تكذب؟ فقال له عمر: إن على القلب طخاء(٢) كطخاء القمر فإذا تغشت القلب نسي ابن آدم فإذا انجلت ذكر ما كان نسي وأما مم تصدق الرؤيا ومم تكذب فإن الله عز وجل يقول : ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها﴾ (١) فمن دخل منها في ملكوت السماء فهي التي تصدق ، وما كان منها دون ملكوت السماء فهي التي تكذب .

(وروى) ابن لهيعة: عن عثمان بن نعيم الرعيني ، عن أبي عثمان الأصبحي ، عن أبي الدرداء ، قال : إذا نام الإنسان عرج بروحه حتى يؤتى بها العرش ، فإن كان طاهراً أذن لها بالسجود ، وإن كان جنباً لم يؤذن لها بالسجود (٣).

(وروى) جعفر بن عون ، عن إبراهيم الهجري ، عن أبي الأحوص ، عن عبدالله بن مسعود ، أنه قال : إن الأرواح جنود مجندة تتلاقى فتشام كما تشام الخيل، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف .

ولم يزل الناس قديماً وحديثاً تعرف هذا وتشاهده ، قال جميل بن معمر

---

(١) (الزمر/ ٤٢).

(٢) الطَّخاء: الطهاء: الطَّخاف: بالمد السحاب الرقيق المرتفع، مفردته: طخاءَة. انظر «لسان العرب» : (٤/ ٢٦٤٨) بتصرف. والمقصود به هنا أن القلب يغطيه غشاء فيحجب عنه نور الإيمان فترة كما يغطي السحاب ضوء القمر.

(٣)[ضعيف]: لأمور منها : وجود ابن لهيعة، لين .

العذري :

أظـل نهاري مستهامـاً[١] وتلتقي مع الليل روحي في المنام وروحها

فإن قيل : فـالنائم يرى غيره من الأحيـاء يحدثه ويخاطبه ، وربما كـان بينهما مسافة بعـيدة ويكون المرء يقظان روحه لم تفارق جسده ، فكيـف التقت روحاهما ؟ قيل : هذا إما أن يكون مـثلاً مضروباً ضـربه ملك الرؤيا للنائم أو يكون حديث نفس من الرائي تجرد له في منامه كما قال حبيب بن أوس :

سـقيـا لطيفك من زور أتاك بـه حديث نفـسك عنه وهو مشغول

وقد تتناسب الروحان ، وتشـتد علاقة إحداهمـا بالأخرى، فيشعـر كل منهما ببعض ما يحدث لصاحبه ، وإن لـم يشعر بما يحدث لغيره لشدة العلاقة بينهما ، وقد شاهد الناس من ذلك عجائب .

والمقـصود أن أرواح الأحـيـاء تتلاقى في الـنوم كمـا تتـلاقى أرواح الأحيـاء والأموات. قـال بعض السلف إن الأرواح تتلاقى في الهـواء فتـتعارف أو تتـذاكر ، فيـأتيهـا ملك الرؤيا بما هو لاقـيها من خـير أو شـر ، قال : وقـد وكل الله بالرؤيا الصادقة ملكاً علمه وألهمـه معرفة كل نفس بعينها واسمها ومتـقلبها في دينها ودنياها وطبعها ومعارفها لا يشتبه عليـه منها شئ ولا يغلط فيها، فتأتيه نسخة من علم غيب الله من أم الكتاب بما هو مصيب لهذا الإنسان من خير وشر في دينه ودنياه، ويضرب له فيه الأمـثال والأشكال على قدر عادته ، فتـارة يبشره بخير قدمـه أو يقدمه وينذره عن معـصية ارتكبهـا أو هم بها ، ويحذره من مكروه انعـقدت أسبابه ليـعارض تلك الأسباب بأسباب تدفعها ، ولغير ذلك من الحكم والمصالح التي جعلها الله في الرؤيا نعمة منـه ورحمة وأحيانًا وتذكـيراً وتعريفاً ، وجـعل أحد طرق ذلك تلاقي الأرواح وتذاكرها وتعارفـها ، وكم ممن كانت توبته وصلاحه وزهده وإقـباله على الآخرة عن منام رآه أو رئي له ، وكم ممن استغنى وأصاب كنزاً دفيناً عن منام .

وفي كتـاب المجالسة لأبي بكر أحمـد بن مروان المالكي ، عن ابن قتيـبة، عن

(١) هكذا بالمطبوعة، ولم يتيسر لي ديوانه، وأحسبهـا -والله أعلم-: مُسْتَهَامًا ، أي: عاشقًا كاد يذهب العشق بعقله، والله أعلم.

أبي حاتم، عن الأصمعي ، عن المعتمر بن سليمان، عمن حدثه قال : خرجنا مرة في سفر وكنا ثلاثة نفر ، فنام أحدنا ، فرأينا مثل المصباح خرج من أنفه فدخل غاراً قريباً منه ثم رجع فدخل أنفه فاستيقظ يمسح وجهه ، وقال : رأيت عجباً ، رأيت في هذا الغار كذا وكذا ، فدخلناه فوجدناه فيه بقية من كنز كان .

وهذا عبد المطلب دل في النوم على زمزم ، وأصاب الكنز الذي كان هناك . وهذا عمير بن وهب أتي في منامه فقيل له : قم إلى موضع كذا وكذا من البيت فاحفره تجد مال أبيك وكان أبوه قد دفن مالاً ومات ولم يوص به ، فقام عمير من نومه فاحتفر حيث أمره فأصاب عشرة آلاف درهم وتبراً كثيراً ، فقضى دينه ، وحسن حاله وحال أهل بيته ، وكان ذلك عقب إسلامه ، فقالت له الصغرى من بناته : يا أبت ربنا هذا الذي حيانا بدينه خير من هبل والعزى ، ولولا أنه كذلك ما ورثك هذا المال ، وإنما عبدته أياماً قلائل .

قال علي بن أبي طالب القيرواني العابد : وما حديث عمير هذا واستخراجه المال بالمنام بأعجب مما كان عندنا وشاهدناه في عصرنا بمدينتنا من أبي محمد عبد الله البغانشي ، وكان رجلاً صالحاً مشهوراً برؤية الأموات وسؤالهم عن الغائبات ونقله ذلك إلى أهلهم وقراباتهم حتى اشتهر بذلك وكثر منه ، فكان المرء يأتيه فيشكو إليه أن حميمه قد مات من غير وصية ، وله مال لا يهتدي إلى مكانه ، فيعده خيراً ويدعو الله تعالى في ليلته ، فيتراءى له الميت الموصوف ، فيسأله عن الأمر فيخبره به .

(فمن نوادره) أن امرأة عجوزاً من الصالحات توفيت ولامرأة عندها سبعة دنانير وديعة ، فجاءت إليه صاحبة الوديعة وشكت إليه ما نزل بها وأخبرته باسمها واسم الميتة صاحبتها ، ثم عادت إليه في الغد فقال لها : تقول لك فلانة : عدي من سقف بيتي سبع خشبات تجدي الدنانير في السابعة في خرقة صوف ، ففعلت ذلك فوجدتها كما وصف لها .

قال : وأخبرني رجل لا أ ظن به كذباً قال: استأجرتني امرأة من أهل الدنيا على هدم دار لها ونبائها بمال معلوم ، فلما أخذت في الهدم لزمت الفعلة هي ومن معها فقلت: ما لك ؟ قالت والله ما لي إلى هدم هذه الدار من حاجة لكن أبي مات

وكان ذا يسار كثير فلم نجد له كثير شئ ، فخلت أن ماله مدفون ، فعمدت إلى هدم الدار لعلي أجد شيئاً ، فقال لها بعض من حضر : لقد فاتك ما هو أهون عليك من هذا ، قالت : وما هو ؟ قال : فلان تمضين إليه وتسألينه أن يبيت[1] قصتك الليلة فلعله يرى أباك فيدلك على مكان ماله بلا تعب ولا كلفة ، فذهبت إليه ثم عادت إلينا ، فزعمت أنه كتب اسمها واسم أبيها عنده ، فلما كان من الغد بكرت إلى العمل ، وجاءت المرأة من عند الرجل ، فقال : إن الرجل قال لي : رأيت أباك وهو يقول : المال في الحنية . قال : فجعلنا نحفر تحت الحنية ، وفي جوانبها حتى لاح لي شق وإذا المال فيه .

قال : فأخذنا في التعجب والمرأة تستخف بما وجدت وتقول: مال أبي كان أكثر من هذا ، ولكني أعود إليه ، فمضت فأعلمته ثم سألته المعاودة ، فلما كان من الغد أتت وقالت : إنه قال لها: إن أباك يقول لك ، احفري تحت الجابية المربعة التي في مخزن الزيت ، قال : ففتحت المخزن فإذا بجابية مربعة في الركن فأزلناها ، وحفرنا تحتها ، فوجدنا كوزاً كبيراً ، فأخذته ، ثم دام بها الطمع في المعاودة ففعلت، فرجعت من عنده وعليها الكآبة فقالت : زعم أنه رآه وهو يقول له : قد أخذت ما قدر لها وأما ما بقي فقد جلس عليه عفريت من الجن يحرسه إلى من قدر له.

والحكايات في هذا الباب كثيرة جداً . وأما من حصل له الشفاء باستعمال دواء رأى من وصفه له في منامه فكثير جداً.

(وقد حدثني) غير واحد ممن كان غير مائل إلى شيخ الإسلام ابن تيمية أنه رآه بعد موته وسأله عن شئ كان يشكل عليه من مسائل الفرائض وغيرها فأجابه بالصواب .

وبالجملة فهذا أمر لا ينكره إلا من هو أجهل الناس بالأرواح وأحكامها وشأنها، وبالله التوفيق .



(١) هكذا بالمطبوعة ، ولعل الصواب: أن يَبتَّ: أي: يقطع في المسألة قطعًا يقينيًا لا يحتمل الظن، انظر «لسان العرب» : (١/ ٢٠٣) بتصرف.

المسألة الرابعة

الروح ، هل تموت أم الموت للبدن وحده؟

اختلف الناس في هذا ، فقالت طائفة تموت الروح وتذوق الموت لأنها نفس ، وكل نفس ذائقة الموت .

قالوا : وقد دلت الأدلة على أنه لا يبقى إلا الله وحده قال تعالى : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[1] . وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾[2] . قالوا وإذا كانت الملائكة تموت فالنفوس البشرية أولى بالموت قالوا وقد قال تعالى عن أهل النار إنهم قالوا : ﴿ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾ . فالموتة الأولى هذه المشهودة وهي للبدن والأخرى للروح .

وقال آخرون : لا تموت الأرواح ، فإنها خلقت للبقاء ، وإنما تموت الأبدان . قالوا : وقد دلت على هذا الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله في أجسادها ، ولو ماتت الأرواح لانقطع عنها النعيم والعذاب وقد قال تعالى : ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾[3] . هذا مع القطع بأن أرواحهم قد فارقت أجسادهم وقد ذاقت الموت .

بحث في معنى موت النفوس:

والصواب أن يقال : موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها . فإن أريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت ، وإن أريد أنها تعدم وتضمحل وتصير عدماً محضاً فهي لا تموت بهذا الاعتبار بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو في عذاب ، كما سيأتي إن شاء الله تعالى بعد هذا، وكما صرح به النص أنها كذلك حتى يردها الله في جسدها .

وقد نظم أحمد بن الحسين الكندي هذا الاختلاف في قوله :

---

(١) (الرحمن / ٢٦: ٢٧). (٢) (القصص/٨٨). (٣) (آل عمران/ ١٦٩: ١٧٠).

تنازع الناس حتى لا اتفاق لهم إلا على شجب والخلف في الشجب

فقيل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء في العطب

ذكر نفخ الصور والصعق ومَن هو مستثنى عنه:

فإن قيل: فعند النفخ في الصور هل تبقى الأرواح حية كما هي أو تموت ثم تحيا؟ قيل: قد قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾(١) فقد استثنى الله سبحانه بعض من في السماوات ومن في الأرض من هذا الصعق.

فقيل: هم الشهداء، هذا قول أبي هريرة، وابن عباس، وسعيد بن جبير.

وقيل: هم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، وهذا قول مقاتل، وغيره.

وقيل: هم الذين في الجنة من الحور العين، وغيرهم، ومن النار من أهل العذاب وخزنتها، قاله: أبو إسحاق بن شاقلا من أصحابنا.

وقد نص الإمام أحمد على أن الحور العين والولدان لا يمتن عند النفخ في الصور، وقد أخبر سبحانه أن أهل الجنة " لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى" وهذا نص على أنهم لا يموتون غير تلك الموتة الأولى فلو ماتوا مرة ثانية لكانت موتتان، وأما قول أهل النار: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾(٢). فتفسير هذه الآية التي في البقرة وهي قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾(٣) فكانوا أمواتاً وهم نطف في أصلاب آبائهم، وفي أرحام أمهاتهم، ثم أحياهم بعد ذلك، ثم أماتهم، ثم يحييهم يوم النشور، وليس في ذلك إماتة أرواحهم قبل يوم القيامة وإلا كانت ثلاث موتات، وصعق الأرواح عند النفخ في الصور لا يلزم منه موتها.

بيان حديث: «الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق»:

ففي الحديث الصحيح: «أن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى آخذ بقائمة العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقه يوم

(١) (الزمر/ ٦٨).

(٢) (غافر/ ١١). (٣) (البقرة/ ٢٨).

الطور﴾[1].

فهذا صعق في موقف القيامة إذا جاء الله تعالى لفصل القضاء، وأشرقت الأرض بنوره، فحينئذ تصعق الخلائق كلهم، قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾﴾[2] ولو كان هذا الصعق موتاً لكانت موتة أخرى، وقد تنبه لهذا جماعة من الفضلاء فقال أبو عبد الله القرطبي: ظاهر هذا الحديث أن هذه صعقة غشي تكون يوم القيامة لا صعقة الموت الحادثة عن نفخ الصور قال: وقد قال شيخنا أحمد بن عمرو: ظاهر حديث النبي ﷺ يدل على أن هذه الصعقة إنما هي بعد النفخة الثانية، نفخة البعث، ونص القرآن يقتضي أن ذلك الاستثناء إنما هو بعد نفخة الصعق، ولما كان هذا قال بعض العلماء: يحتمل أن يكون موسى ممن لم يمت من الأنبياء، وهذا باطل. وقال القاضي عياض: يحتمل أن يكون المراد بهذه صعقة فزع بعد النشور حين تنشق السماوات والأرض، قال: فتستقل الأحاديث والآثار. ورد عليه أبو العباس القرطبي فقال: يرد هذا قوله في الحديث الصحيح: إنه حين يخرج من قبره يلقى موسى آخذاً بقائمة العرش، قال: وهذا إنما عند نفخة الفزع.

قال أبو عبد الله: وقال شيخنا أحمد بن عمرو: الذي يزيح هذا الإشكال إن شاء الله تعالى أن الموت ليس بعدم محض وإنما هو انتقال من حال إلى حال، ويدل

---

(١) [صحيح]: رواه إمام أهل السنة والجماعة أبو عبد الله أحمد بن حنبل: (٢/ ٢٦٤)، والبخاري: كتاب الخصومات، باب: ما يذكر في الإشخاص والخصومة بين المسلم واليهود، [٢٤١١، ٢٤١٢، ٣٣٩٨، ٤٦٣٨، ٦٩١٦، ٦٩١٧، ٧٤٢٧]، ومسلم: كتاب الفضائل، باب: من فضائل موسى على نبينا وعليه وعلى أنبياء الله ورسله وملائكته أشرف الصلاة والسلام، [٢٣٧٣]، وأبو داود: كتاب السنة، باب: في التخيير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، [٤٦٧١].

ومن أعظم دروس هذا الحديث وفوائده أن لا يتكلف الإنسان ما لم يصل إليه علمه ولا ينتفع بذلك، فالنبي ﷺ نفسه لا يعلم حقيقة إفاقة موسى عليه السلام هل هي سابقة على إفاقته أما أنها لم تزل من الأصل ومن هنا يجب علينا التوقف في هذه المسألة كما توقف فيها النبي ﷺ، ولا نتكلف علمًا لو علم الله أنه ينفعنا لأمرنا به وعلمه إيانا، ولكن برحمته الواسعة أخبرنا بما ينفعنا علمه، ونسأله تعالى أن يرفعنا دائمًا وأبدًا بما يرضى به عنا.

ومن الفوائد أيضًا: التواضع، وبيان فضل أولي الفضل وبيان أن كتمان الرجل لمحاسن إخوانه، إنما لا يكون هذا إلا غلاً وحقدًا وحسدًا وحنقًا نعوذ بالله من ذلك.

(٢) (الطور/ ٤٥).

على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين ، وهذه صفة الأحياء في الدنيا .

بحث في معنى الموت:

وإذا كان هذا في الشهداء كـان الأنبياء بذلك أحق وأولى ، مع أنه قد صح عن النبي ﷺ «أن الأرض لا تأكل أجسـاد الأنبيـاء»(١) وأنه ﷺ اجـتمع بالأنـبيـاء ليلة الإسراء في بيت المقدس ، وفي السماء(٢) .

---

(١) [صحيح]: رواه أحمد : (٤/٨)، وأبو داود : كتاب الصلاة، باب: فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة، [١٠٤٧]، والنسائي : كـتاب الجمـعة، باب إكثـار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمـعة، (٣/ ٩١: ٩٢)، وابن ماجه : كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: في فضل الجمعة، [١٠٨٥، ١٦٣٦]، والحاكم : كتاب الجمعة، (١/ ٢٧٨)، وقال الذهبي في «التـلخيص»: على شرط البخاري وصححه الألباني فـي «صحيح ابن مـاجه» : [٨٨٩] ، وانظر «الإرواء» [٤]، «المشكاة» [١٣٦١]، «التـعليق الرغيب» (١/ ٢٤٩)، «التعليق على ابن خزيمـة» (١٧٥٨)، «تخريج فضل الصلاة على النبي ﷺ » (٢٢)، «صحيح أبي داود» (٩٦٢).

(٢) أما اجـتماعه ﷺ بالأنبيـاء والمرسلين في بيت المقدس من أجل الـصلاة بهم، فثبت ذلك كـما رواه عبدالله بن عباس -رضي الله عنهمـا- قال: «ليلة أسري بنبي الله ﷺ . . .» حتى قال: فلما دخل النبي ﷺ المسجد الأقصى، قام يصلي، فالتفت فإذا النبـيون أجمعون، يصلون معه. . .» الحديث. رواه أحمد : (١/ ٢٥٧)، وكما في رواية أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ : «لقد رأيتني في الحـجر، وقريش تسـألني عن مسرايَ فـسألتني عن أشيـاء من بيت المقدس لم أثبتـها فكُرِبْتُ كربة مـا كربت مثله قط، قـال: فرفعه الله لي أنظر إليه ما يسألـوني عن شيء إلا أنبأتهم به، وقد رأيتني في جـماعة من الأنبيـاء فإذا موسى قائم يصلي ، فـإذا رجل ضرب جعد كـأنه من رجال شنوءة وإذا عيسـى ابن مريم عليه السلام قـائم يصلي أقرب الناس به شبهًـا عروة بن مسعـود الثقفي وإذا إبراهيم عليه السـلام قائم يصلي أشبـه الناس به صاحبكم -يعني نفسه- ﷺ، فحانت الصلاة فأممتهم، فلمـا فرغت من الصلاة قال قائل: يا محـمد! هذا مالك صاحب النسار فسلم عليـه فالتفت إليه فـبدأني بالسلام» [حديث صـحيح] رواه مسلم : كتاب الإيمان، بـاب: ذكر المسـيح ابن مريم ، والمسيح الدجّال، [١٧٢].

وأما لقاؤه ﷺ في السماء فكان لقاءً مع كل نبي حسب سكنى الأنبياء عليهم السلام للسماء ، وذلك كمـا في رواية مالك بن صعصـعة -رضي الله عنه- : «أن نبي الله ﷺ حـدثه عن ليلة أسري به، قال: « بينا أنا في الحطيم -وربما قال: في الحجر- مـضجعًا؛ إذ أتاني آت فقَدَّ -قال: وسمـعته يقول: فشق- ما بين هذه إلى هذه، فقلت للجارود وهو إلى جـنبي : ما يعني به؟ قال: من ثغرة نحره إلى =

=شعرته-، وسمعته يقول: من قَصِّه إلى شعرته - فاستخرج قلبي ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيمانًا فغسل قلبي، ثم حشي، ثم أعيد، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض -فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟ قال أنس: نعم- يضع خطوه عند أقصى طرفه فحملت عليه، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح فقيل: من هذا ؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ ، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به فنعم المجيء جاء ، ففتح فلما خلصت فإذا فيها آدم، فقال: هذا أبوك آدم ، فسلِّم عليه، فسلَّمْتُ عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء الثانية فاستفتح، قيل: من هذا ؟ قال جبريل: قيل: ومن معك ؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه ؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت إذا يحيى وعيسى وهما ابنا خالة، قال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما، فسلمت، فردا، ثم قالا: مرحبًا بالأخ الصالح، والنبي الصالح، ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال : جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه ؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت إذا يوسف ، قال: هذا يوسف فسلِّم عليه، فسلمت عليه، فرد ، ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أو قد أرسل إليه ؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت فإذا إدريس، قال: هذا إدريس فسلِّم عليه، فسلَّمْتُ عليه، فرد ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح ، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ ، قيل: وقد أرسل إليه ؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به ، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا هارون، قال: هذا هارون فسلِّم عليه، فسلَّمْتُ عليه، فرد ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح، والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ ، قيل: وقد أرسل إليه، قال: نعم، قيل: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا موسى، قال: هذا موسى فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد ، ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح، فلما تجاوزت بكى، قيل له : ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلامًا بُعثَ بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي، ثم صعد بي إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ ، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به، ونعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك فسلِّم عليه، قال: فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح .... الحديث» [صحيح] رواه أحمد في مواضع منها : (٢٠٨/٤)، والبخاري : كتاب مناقب الأنصار ، باب المعراج ، [٣٨٨٧]، واللفظ له، ومسلم : كتاب الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات، وفرض الصلوات، [٢٥٩]، والنسائي : كتاب الصلاة، باب: فرض الصلاة وذكر اختلاف الناقلين في إسناد حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه- واختلاف ألفاظهم فيه، (٢١٧/١).

وخصوصاً بموسى[١] ، وقد أخبر بأنه ما من مسلم يسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام[٢] ، إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أن غيبوا عنا بحيث لا ندركهم وإن كانوا موجودين ، أحياء وذلك كالحال في الملائكة فإنهم أحياء[٣] موجودون ولا نراهم ، وإذا تقرر أنهم أحياء فإذا نفخ في الصور نفخة الصعق صعق كل من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، فأما صعق غير الأنبياء فموت وأما صعق الأنبياء فالأظهر أنه غشية ، فإذا نفخ في الصور نفخة البعث فمن مات حيي ومن غشي عليه أفاق ، ولذلك قال ﷺ في الحديث المتفق على صحته : فأكون أول من يفيق ، فنبينا أول من يخرج من قبره قبل جميع الناس إلا موسى . فإنه حصل فيه تردد: هل بعث قبله من غشيته أو بقي على الحالة التي كان عليها قبل نفخة الصعق مفيقاً لأنه حوسب بصعقة يوم الطور ؟! وهذا فضيلة عظيمة لموسى ، ولا يلزم من فضيلة واحدة أفضليته على نبينا مطلقاً لأن الشيء الجزئي لا يوجب أمراً كلياً، انتهى .

قال أبو عبد الله القرطبي : إن حمل الحديث على صعقة الخلق يوم القيامة فلا إشكال ، وإن حمل على صعقة الموت عند النفخ في الصور فيكون ذكر يوم القيامة يراد به أوائله ، فالمعنى: إذا نفخ في الصور نفخة البعث كنت أول من يرفع رأسه، فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور .

---

(١) إشارة إلى كثرة مراجعة موسى -عليه السلام- للنبي ﷺ حتى أسقط الله بسببه أداء خمسة وأربعين فريضة عن المسلمين، وفي ذلك أدب جم فمع أن موسى عليه السلام بكى كما في الحديث على أن هناك غلام يبعث بعده يقصد النبي ﷺ يدخل من أمته الجنة أكثر ممن يدخلونها من أمته، أو كما في رواية أخرى ؛ لأنه لم يكن يحب أن هناك من يرفعه الله عليه لم يمنعه كل ذلك من تقديم النصيحة الصادقة للنبي ﷺ ومن أولى من الأنبياء الكرام، والرسل العظام بهذه الأخلاق الرفيعة، والآداب الحميدة، لا سيما أهل العزائم منهم.

(٢) [صحيح]: رواه أحمد : (٢/٥٢٧)، وأبو داود: كتاب المناسك ، باب: زيارة القبور، [٢٠٤١]، وصححه الألباني في «الصحيحة» [٢٢٦٦].

(٣) طبعًا يعني الإمام -رحمه الله- أنهم أحياء عند ربهم بعد أن ذاقوا الموت الذي يجب أن تذوقه كل نفس مخلوقة كما أخبر بذلك ربنا جل وعلا: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ (آل عمران/ ١٨٥).

قلت : وحمل الحديث على هذا لا يصح لأنه ﷺ تردد هل أفـاق موسى قبله أم لم يصعق بل جوزي بصـعقة الطور ، فالمعنى لا أدري أصـعق أم لم يصعق ، وقد قال في الحديث : «فأكون أول من يفيق»[١] .

وهذا يدل على أنه ﷺ يصعق فيمن يصعق، وأن التردد حصل في موسى: هل صعق وأفاق قبله من صعقته أم لم يصعق؟ ، ولو كان المراد به الصعقة الأولى -وهي صعـقة المـوت- لكان ﷺ قد جـزم بموته وتردد هل مات مـوسى أم لم يمت ، وهذا باطل لوجوه كثـيرة ، فعلم أنها صعقـة فزع لا صعقة موت ، وحـينئذ فلا تدل الآية على أن الأرواح كلها تموت عند النفخة الأولى ، نعم تدل على أن موت الخلائق عند النفخة الأولى ، وكل من لم يذق الموت قبلها فإنه يذوقه حينئذ . وأما من ذاق الموت أو من لم يكتب عليه الموت فلا تدل الآية أنه يموت موتة ثانية ، والله أعلم .

(فإن قيل) فكيف تصنعون بقوله في الحديث : «إن الناس يـصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عليه الأرض ، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش»[٢] .

قـيل: لا ريب أن هذا اللفظ قـد ورد هكذا ومنه نشـأ الإشكال ، ولكنه دخل على الراوي حديث في حديث فركب بين اللفظين فجاء هذا . والحديثان هكذا :

(أحدهما) أن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق .

(والثاني) هكذا : أنـا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيـامة ، ففي التـرمذي وغيره من حديـث أبي سعيد الخدري قال : قال رسـول الله ﷺ : «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد ، ولا فخر ، وما من نبي يومئذ آدم فمن سـواه إلا تحـت لوائي ، وأنا أول من تنـشق عنه الأرض ، ولا فـخـر »[٣]. قـال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح .

(١) [صحيح]: سبق تخريجه.

(٢) [صحيح]: سبق تخريجه.

(٣) [صحيح]: رواه أحمد في مواضع، منها : (١/ ٢٨١)، والترمذي : كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سـورة بني إسرائيل، [٣١٤٨]، وابن مـاجه : كـتـاب الزهد، باب: ذكر الشـفاعـة ، [٤٣٠٨]، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» [٣٤٧٧]، وانظر «تخريج الطحاوية» (١٢٧)، «الصحيحة» [١٥٧١].

فدخل علـى الراوي هذا الحديث في الحديـث الآخر وكان شـيخنا أو الحـجاج الحافظ يقول ذلك .

(فإن قيل) فما تصنعون بقوله : فلا أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله عز وجل ؟ والذين استـثناهم الله إنما هم مستـثنون من صعقـة النفخة لا من صعـقة يوم القيـامة ، كما قـال الله تعالى : ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾[1] ولم يقع الاستثناء من صعقة الخلائق يوم القيامة .

قيل: هذا والله أعلم غير محفوظ ، وهو وهم من بعض الرواة ، والمحفوظ ما تواطأت الروايات الصحيحة من قوله : فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور، فظن بعض الرواة أن هذه الصعقة هي صعقة النفخة ، وأن موسى داخل فيمن استثني منها، وهذا لا يلتئم على مساق الحديث قطعاً ، فإن الإفاقة حينئذ هي إفاقة البعث ، فكيف يقول : لا أدري أبعث قبـلي أم جوزي بصعقة الطور؟ فـتأمله ، وهذا بخلاف الصعـقة التي يصعقـها الخلائق يوم القيـامة إذا جاء الله سـبحانه لفصل القـضاء بين العباد، وتجلى لهم ، فـإنهم يصعقون جمـيعاً . وأما موسى ﷺ فـإن كان لم يصعق معهم فيكون قد حـوسب بصعقته يوم تجلى ربه للجبل فجعله دكاً ، فـجعلت صعقة هذا التجلي عوضـاً من صعقة الخـلائق لتجلي الرب يوم القيامة . فـتأمل هذا المعنى العظيم . ولو لم يكن في الجواب إلا كشف هذا الحديث وشأنه لكان حقيقاً أن يعض عليه بالنواجذ ، ولله الحمد والمنة ، وبه التوفيق .



(١) (الزمر/٦٨).

المسألة الخامسة

الأرواح كيف تتميز بعد مفارقة الأبدان بعضها من بعض؟

هذه مسألة لا تكاد تجـد من تكلم فيها ، ولا يظفر فيـها من كتب الناس بطائل ولا غير طائل ، ولا سيما على أصول من يقـول : بأنها مجردة عن المادة وعلائقها ، وليـست بداخل العالم ولا خـارجه ، ولا لهـا شكل ولا قدر ولا شـخص ، فهـذا السؤال علـى أصولهم مما لا جواب لهـم عنه ، وكذلك من يقـول : هي عرض من أعراض البدن ، فتميزها عن غيرها مشروط بقيامها ببدنها ، فلا تميز لها بعد الموت ، بل لا وجود لها على أصـولهم ، بل تعدم وتبطل باضمحلال البدن كـما تبطل سائر صفات الحي ، ولا يمكن جواب هـذه المسألة إلا على أصول أهل السنة التي تظاهرت عليها أدلة القرآن ، والسنة ، والآثار ، والاعتبار ، والعقل .

الروح ذات قائمة بنفسها على أصول أهل السنة:

والقـول إنها ذات قـائمة بـنفسـها تصـعد ، وتـنزل ، وتتصل ، وتنفـصل ، وتخرج، وتذهب ، وتجيء ، وتتحرك ، وتسكن ، وعلى هذا أكثر من مائة دليل قد ذكرناها في كتابنا الكبير في مـعرفة الروح والنفس ، وبينا بطلان ما خالف هذا القول من وجوه كثيرة ، وأن من قال غيره لم يعرف نفسه .

وقد وصفها الله سبحـانه وتعالى بالدخول ، والخروج ، والقبض ، والتوفي ، والرجوع ،وصعودها إلى السماء، وفتح أبوابها لها، وغلقها عنها،فقال تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾(١) وقال تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾(٢) . هذا يقال لها عند المفـارقة للجسد . وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾(٣) فأخبر أنه سوى النفس كما أخبر أنه سوى البدن في قوله : ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾(٤)، فهو

---

(١) (الأنعام/ ٩٣).
(٢) (الفجر/ ٢٧ : ٣٠).
(٣) (الشمس/ ٧ : ٨).
(٤) (الانفطار/ ٧).

سبحانه سوى نفس الإنسان كما سوى بدنه ، كالقالب لنفسه ، فتسوية البدن تابع لتسوية النفس ، والبدن موضوع لها كالقالب لما هو موضوع له .

ومن هاهنا يعلم أنها تأخذ من بدنها صورة تتميز بها عن غيرها ، فإنها تتأثر ، وتنتقل من البدن كما يتأثر البدن وينتقل عنها ، فيكتسب البدن الطيب والخبث من طيب النفس وخبثها ، وتكتسب النفس الطيب والخبث من طيب البدن وخبثه ، فأشد الأشياء ارتباطاً وتناسباً وتفاعلاً وتأثراً من أحدهما بالآخر الروح والبدن ، ولهذا يقال لها عند المفارقة : اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ، النفس ، واخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث .

وقال الله تعالى : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [(١)] فوصفها بالتوفي ، والإمساك ، والإرسال ، كما وصفها بالدخول، والخروج ، والرجوع ، والتسوية ، وقد أخبر النبي ﷺ «أن بصر الميت يتبع نفسه إذا قبضت»[(٢)]. وأخبر أن الملك يقبضها ، فتأخذها الملائكة من يده ، فيوجد لها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، أو كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض[(٣)] . والأعراض لا ريح لها ، ولا تمسك ، ولا تؤخذ من يد إلى يد . وأخبر أنها تصعد إلى السماء ، ويصلي عليها كل ملك لله بين السماء والأرض، وأنها تفتح لها أبواب السماء ، فتصعد من سماء إلى سماء حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل ، فتوقف بين يديه ، ويأمر بكتابة اسمه في ديوان أهل عليين ، أو ديوان أهل سجين ، ثم ترد إلى الأرض ، وإن روح الكافر تطرح طرحاً ، وأنها تدخل مع البدن في قبره للسؤال[(٣)] .

---

(١) (الزمر/ ٤٢).

(٢) إشارة إلى الحديث الصحيح الذي روته أم سلمة -رضي الله عنها- قالت: «دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة ، وقد شق بصره ، فأغمضه ثم قال: «إن الروح إذا قبض تبعه البصر» فضج ناس من أهله ، فقال: «لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون» ثم قال: «اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يارب العالمين، وافسح له في قبره، ونور له فيه» [حديث صحيح] رواه مسلم : كتاب الجنائز، باب: في إغماض الميت والدعاء له، إذا حضر، [٩٢٠].

(٣) انظر تفصيل ذلك في حديث البراء -رضي الله عنه- الطويل وقريب ذكره إن شاء الله.

وقد أخبر النبي ﷺ : «بأن نسمة المؤمن -وهي روحه- طائر يعلق في شجر الجنة ، حتى يردها الله إلى جسدها» .

وأخبر «أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها»(١) .

وأخبر أن «الروح تنعم وتعذب في البرزخ إلى يوم القيامة»(٢) .

وقد أخبر سبحانه عن «أرواح قوم فرعون أنها تعرض على النار غدواً وعشياً قبل يوم القيامة »(٣) .

وقد أخبر سبحانه عن «الشهداء بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون »(٤) .

وهذه حياة أرواحهم ، ورزقها دار ، وإلا فالأبدان قد تمزقت ، وقد فسر رسول الله ﷺ هذه الحياة بأن أرواحهم في جوف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال : هل تشتهون شيئاً؟ قالوا : أي شئ نشتهي ونحن نسرح من الجنة

---

(١) وهذا المعنى مأخوذ من الحديث الصحيح الذي رواه مسروق قال: سألنا عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- عن هذه الآية : ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ (آل عمران / ١٦٩)، قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال ﷺ : «أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة، فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل بهم ذلك ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا».
[حديث صحيح] رواه مسلم : كتاب: الإمارة، باب: بيان أن أرواح الشهداء في الجنة، وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، [١٨٨٧]، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة آل عمران، [٣٠١١]، وابن ماجه : كتاب: الجهاد، باب: فضل الشهادة في سبيل الله ، [٢٨٠١].

(٢) هذا المعنى أشارت إليه الكثير من النصوص الصحيحة والتي يمتلئ بها هذا المصنف القيم ومنها الحديث السابق وسيأتي الكثير منها بعد قليل إن شاء الله.

(٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وحاق بآل فرعون سوء العذاب .النار يعرضون عليها غدوًا وعشيًا ويوم تقوم الساعة أدخلوا ءال فرعون أشد العذاب﴾ (غافر/ ٤٥ : ٤٦).

(٤) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ (آل عمران/ ١٦٩) .

حيث شئنا (فعل بهم ذلك ثلاث مرات)، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا : نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى(١) .

(وصح) عنه ﷺ : أن «أرواح الشهداء في طير خضر تعلق من ثمر الجنة»، وتعلق بضم اللام أي تأكل العلقة .

وقال ابن عباس : "قال رسول الله ﷺ : لما أصيب إخوانكم بأحد ، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مشربهم ، ومأكلهم ، وحسن مقيلهم ، قالوا : يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب ، فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ : ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾(٢)»(٣) الآيات. رواه الإمام أحمد .

وهذا صريح في أكلها ، وشربها ، وحركتها ، وانتقالها ، وكلامها ، وسيأتي مزيد تقرير لذلك عن قريب إن شاء الله تعالى .

وإذا كان هذا شأن الأرواح ، فتميزها بعد المفارقة يكون أظهر من تميز الأبدان ، والاشتباه بينها أبعد من اشتباه الأبدان ، فإن الأبدان تشتبه كثيراً وأما الأرواح فقل ما تشتبه .

يوضح هذا أنا لم نشاهد أبدان الأنبياء والصحابة والأئمة وهم متميزون في علمنا أظهر تميز ، وليس ذلك التميز راجعاً إلى مجرد أبدانهم وإن ذكر لنا من صفات أبدانهم ما يختص به أحدهم من الآخر ، بل التميز الذي عندنا بما علمناه وعرفناه من صفات أرواحهم وما قام بها ، وتميز الروح عن الروح بصفاتها أعظم من تميز البدن عن البدن بصفاته ، ألا ترى أن بدن المؤمن والكافر قد يشتبهان كثيراً وبين روحيهما

---

(١) إشارة إلى حديث صحيح سبق تخريجه قريبًا.

(٢) (آل عمران/ ١٦٩).

(٣) رواه أحمد : (١/٢٦٦)، وأبو داود : كتاب: الجهاد، باب: في فضل الشهادة، [٢٥٢٠]، والحاكم: كتاب: الجهاد، [٢٤٤٤]، (٢/٨٨)، ووافقه الذهبي، وقال في «التلخيص» : على شرط مسلم، وصححه الألباني، والشيخ أحمد شاكر: [٢٣٨٨].

أعظم التباين والتميز ، وأنت ترى أخوين شقيقين مشتبهين في الخلقة غاية الاشتباه وبين روحيهما غاية التباين، فإذا تجردت هاتان الروحان كان تميزهما في غاية الظهور.

وأخبرك بأمر ، إذا تأملت أحوال الأنفس والأبدان شاهدته عياناً ، قل أن ترى بدناً قبيحاً وشكلاً شنيعاً إلا وجدته مركباً على نفس تشاكله وتناسبه ، وقل أن ترى آفة في بدن إلا وفي روح صاحبه آفة تناسبها ، ولهذا تأخذ أصحاب الفراسة أحوال النفوس من أشكال الأبدان وأحوالها ، فقل أن تخطئ ذلك .

(ويحكى) عن الشافعي رحمه الله في ذلك عجائب .

وقل أن ترى شكلاً حسناً ، وصورة جميلة ، وتركيباً لطيفاً ، إلا وجدت الروح المتعلقة به مناسبة له ، هذا ما لم يعارض ذلك ما يوجب خلافه من تعلم وتدرب واعتياد . وإذا كانت الأرواح العلوية -وهم الملائكة- متميزاً بعضهم عن بعض من غير أجسام تحملهم ، وكذلك الجن ، فتميزنا الأرواح البشرية أولى[١] .

---

(١) لعل سماحة الشيخ العلامة ابن القيم يقصد من وراء ذلك أمرًا لا يدركه عوام الناس خلا هؤلاء القلة من أهل العلم الذين أعطاهم الله -عز وجل- قدرًا من الفراسة يدخلون بها إلى عمق النفس البشرية وإلا فإن كلاً من النصوص الشرعية، واستقراء الواقع دَلَّلا على أنه لا علاقة بين حسن الخِلْقة وحسن الخُلُق. فكم من أسود ذميم نحيل مشوه الخلقة دقيق الأعضاء وهو عند الله مع الصديقين، وعلى العكس من ذلك كم من مخلوق مليح الوجه ناضر البشرة بهي الطلعة مُقسَّم الجسد كأحسن ما يكون أخبث نفسًا من الخنزير وأمكر عقلاً من الثعالب وتحضرني في ذلك حال الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه - حيث كان الصحابة -رضي الله عنهم- يعجبون من دقة ساقيه وحال الصحابي الجليل جليبيب-رضي الله عنه-حيث كان أسودًا ذميمًا لا ترضاه سفيهات النساء من اللائي يبحثن عن الوسامة والجمال الجسدي الزائف الفاني، وأما عن أحوالهما عند الله فساق ابن مسعود -رضي الله عنه- أثقل عند الله من جبل أحد، وجليبيب -رضي الله عنه- عندما استشهد غسلته الملائكة في طست من ذهب، وفي المقابل عندنا مثلاً الملعون كعب بن الأشرف وكان على درجة عالية من الجمال الجسدي وكان فاتنًا للنساء الحمقاوات وهو من أعدى أعداء الإسلام قُتل لَعَنَهُ الله عليه اغتيالاً على أيدي جند الحق الأبطال من أتباع النبي ﷺ بتكليف منه ﷺ. انظر قصة قتله سيرة ابن هشام أو مختصر الصواعق المرسلة بتحقيقنا. ويكفينا في هذا الباب قوله تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ (الحجرات / ١٣)، وقوله ﷺ : «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم» وأشار بأصابعه إلى صدره» [حديث صحيح]رواه أحمد: (٢/ ٢٨٥، ٥٣٩)، ومسلم : كتاب البر والصلة والآداب ، باب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، [٢٥٦٤] [٣٣، ٣٤]، وابن ماجه: كتاب: الزهد، باب: القناعة، [٤١٤٣].

المسألة السادسة

هل تعاد الروح في قبره وقت السؤال أم لا ؟

فقد كفانا رسول الله ﷺ أمر هذه المسألة وأغنانا عن أقوال الناس ، حيث صرح بإعادة الروح إليه فقال البراء بن عازب : "كنا في جنازة في بقيع الغرقد ، فأتانا النبي ﷺ فقعد ، وقعدنا حوله كأن على رؤوسنا الطير وهو يلحد له ، فقال: أعوذ بالله من عذاب القبر (ثلاث مرات)، ثم قال : إن العبد إذا كان في إقبال من الآخرة ، وانقطاع من الدنيا ، نزلت إليه ملائكة ، كأن وجوههم الشمس ، فيجلسون منه مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ، ورضوان ، قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن وذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، قال : فيصعدون بها فلا يمرون بها -يعني على ملإٍ من الملائكة- إلا قالوا : ما هذا الروح الطيب ؟! فيقولون : فلان ابن فلان ، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه في الدنيا ، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون له ، فيفتح له ، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها ، حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله تعالى ، فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدي في عليين ، وأعيدوه إلى الأرض ، فإني منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى . قال : فتعاد روحه في جسده ، فيأتيه ملكان ، فيجلسانه ، فيقولان له: من ربك ؟ فيقول : ربي الله ، فيقولان له : ما دينك؟ فيقول : ديني الإسلام ، فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ، فيقولان له : وما علمك بهذا ؟ فيقول : قرأت كتاب الله ، فآمنت به، وصدقت ، فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة ، وافتحوا له باباً من الجنة، قال : فيأتيه من ريحها ، وطيبها ، ويفسح له في قبره مد بصره ، قال: ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول له : من أنت ؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير ، فيقول : أنا عملك الصالح ، فيقول : رب أقم الساعة حتى أرجع

إلى أهلي ومالي . قال : وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه ، معهم المسوح[١] ، فيجلسون منه مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود[٢] من الصوف المبلول، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملإ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الريح الخبيث ؟ فيقولون ، فلان ابن فلان ، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا ، حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا فيستفتح له ، فلا يفتح ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾[٣] فيقول الله عز وجل اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحاً ثم قرأ : ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾[٤] فتعاد روحه في جسده ، ويأتيه ملكان فيقولان له : من ربك ؟ فيقول هاه هاه لا أدري ، فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول هاه هاه لا أدري ، فينادي مناد من السماء أن كذب عبدي فافرشوه من النار ، وافتحوا له باباً إلى النار ، فيأتيه من حرها ، وسمومها ، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوءك ، هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول : من أنت ؟ فوجهك الوجه الذي يجئ بالشر فيقول : أنا عملك الخبيث ، فيقول : رب لا تقم الساعة»[٥] رواه الإمام أحمد ، وأبو داود، وروى النسائي وابن ماجة أوله، ورواه أبو

(١) الْمُسُوحُ: جمع كثرة مفرده: مِسْحٌ وهو : البَلاسُ أو الكساء من الشعر، والجمع القليل منه: أَمْسَاح. انظر «لسان العرب» : (٦/٤١٩٨) بتصرف.

(٢) السَّفُّودُ: بالتشديد حديدة ذات شُعَبٍ مُعَقَّفَةٍ، معروفٌ يُشْوى به اللحم، وجمعه سفافيد. انظر «لسان العرب» : (٣/٢٠٢٤).

(٣) (الأعراف/ ٤٠). (٤) (الحج/ ٣١).

(٥) [صحيح]: رواه أحمد : (٤/٢٨٧، ٢٨٨) ، وأبو داود : كتاب: السنة، باب: في المسألة في القبر وعذاب القبر، [٤٧٥٠]، والنسائي : كتاب: الجنائز، باب: ما يلقى به المؤمن من الكرامة عند خروج نفسه، (٣/٨)، وعبد الرزاق في مصنفه : كتاب: الجنائز، باب: فتنة القبر، [٦٧٣٧]، وصححه الألباني في «صحيح النسائي» : [١٧٢٩]، وانظر «الصحيحة»: ١٣٠٩، و«صحيح الجامع الصغير» ٤٩٠.

عوانة الإسفرايني في صحيحه. وذهب إلى القول بموجب هذا الحديث جميع أهل السنة والحديث من سائر الطوائف .

وقال أبو محمد بن حزم في كتاب الملل والنحل له : وأما من ظن أن الميت يحيا في قبره قبل يوم القيامة فخطأ. إن الآيات التي ذكرناها تمنع من ذلك يعني قوله تعالى : ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾(١) وقوله تعالى : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾(٢) قال : ولو كان الميت يحيا في قبره لكان تعالى قد أماتنا ثلاثاً وأحيانا ثلاثاً ، وهذا باطل، وخلاف القرآن ، إلا من أحياه الله تعالى آية لنبي من الأنبياء ، كالذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله : موتوا ، ثم أحياهم ، والذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها ، ومن خصه نص وكذلك قوله تعالى : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾(٣) فصح بنص القرآن أن أرواح سائر من ذكرنا لا ترجع إلى جسده إلا إلى الأجل المسمى وهو يوم القيامة ، وكذلك أخبر رسول الله ﷺ أنه رأى الأرواح ليلة أسرى به عند سماء الدنيا من عن يمين آدم أرواح أهل السعادة ، وعن شماله أرواح أهل الشقاوة ، وأخبر يوم بدر إذ خاطب الموتى أنهم قد سمعوا قوله قبل أن تكون لهم قبور ولم ينكر على الصحابة قولهم قد جيفوا، واعلم أنهم سامعون قوله مع ذلك ، فصح أن الخطاب والسماع لأرواحهم فقط لا شك ، وأما الجسد فلا حس له وقد قال تعالى : ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾(٤) فنفى السمع عما في القبور وهي الأجساد بلا شك. ولا يشك مسلم أن الذي نفى الله عز وجل عنه السمع هو غير الذي أثبت له رسول الله ﷺ السمع.

قال : ولم يأت قط عن رسول الله ﷺ في خبر صحيح أن أرواح الموتى ترد إلى أجسادهم عند المساءلة، ولو صح ذلك عنه لقلنا به، قال : وإنما تفرد بهذه الزيادة من رد الأرواح في القبور إلى الأجساد المنهال بن عمرو وحده ، وليس بالقوي ،

---

(١) (غافر/ ١١).

(٢) (البقرة/ ٢٨).

(٣) (الزمر/ ٤٢).

(٤) (فاطر/ ٢٢).

تركه شعبة وغيره وقال فيه المغيرة بن مقسم الضبي، وهو أحد الأئمة : ما جازت للمنهال بن عمرو قط شهادة في الإسلام على ما قد نقل وسائر الأخبار الثابتة على خلاف ذلك .

وقال: وهذا الذي قلنا هو الذي صح أيضاً عن الصحابة .

ثم ذكر من طريق بن عيينة، عن منصور بن صفية، عن أمه صفية بنت شيبة ، قالت : دخل ابن عمر المسجد فأبصر ابن الزبير مطروحاً قبل أن يقبر فقيل له : هذه أسماء بنت أبي بكر الصديق ، فمال ابن عمر إليها فعزاها ، وقال : إن هذه الجثث ليست بشيء وإن الأرواح عند الله ، فقالت أمه : وما يمنعني وقد أهدي رأس يحيى ابن زكريا إلى بغي من بغايا بني إسرائيل .

قلت ما ذكره أبو محمد فيه حق وباطل أما قوله : من ظن أن الميت يحيا في قبره فخطأ فهذا فيه إجمال إن أراد به الحياة المعهودة في الدنيا التي تقوم فيها الروح بالبدن وتدبره ، وتصرفه ، وتحتاج معها إلى الطعام ، والشراب ، واللباس ، فهذا خطأ كما قال : والحس والعقل يكذبه ، كما يكذبه النص .

وإن أراد به حياة أخرى غير هذه الحياة ، بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا ، ليسأل ، ويمتحن في قبره ، فهذا حق ونفيه خطأ، وقد دل عليه النص الصحيح الصريح وهو قوله ﷺ : فتعاد روحه في جسده ، وسنذكر الجواب عن تضعيفه للحديث إن شاء الله تعالى .

وأما استدلاله بقوله تعالى : ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾[1]، فلا ينفي ثبوت هذه الإعادة العارضة للروح في الجسد ، كما أن قتيل بني إسرائيل الذي أحياه الله بعد قتله ثم أماته لم تكن تلك الحياة العارضة له للمساءلة معتداً بها ، فإنه يحيى لحظة بحيث قال : فلان قتلني، ثم خر ميتاً . على أن قوله : ثم تعاد روحه في جسده ، لا يدل على حياة مستقرة وإنما يدل على إعادة لها إلى البدن ، وتعلق به، والروح لم تزل متعلقة ببدنها وإن بلي وتمزق .

الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق:

وسر ذلك أن الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام .

(١) (غافر/ ١١).

(أحدها): تعلقها به في بطن الأم جنيناً .

(الثاني): تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض .

(الثالث): تعلقها به في حال النوم فلها به تعلق من وجه ، ومفارقة من وجه .

(الرابع): تعلقها به في البرزخ ، فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقاً كلياً بحيث لا يبقى لها التفات إليه البتة ، وقد ذكرنا في أول الجواب من الأحاديث والآثار ما يدل على ردها إليه وقت سلام المسلم ، وهذا الرد إعادة خاصة لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة .

(الخامس): تعلقها به يوم بعث الأجساد وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن ، ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتاً ولا نوماً ولا فساداً.

وأما قوله تعالى : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾(1) فإمساكه سبحانه التي قضى عليها الموت لا ينافي ردها إلى جسدها الميت في وقت ما رداً عارضاً لا يوجب له الحياة المعهودة في الدنيا .

وإذا كان النائم روحه في جسده وهو حي ، وحياته غير حياة المستيقظ ، فإن النوم شقيق الموت ، فهكذا الميت إذا أعيدت روحه إلى جسده كانت له حال متوسطة بين الحي وبين الميت الذي لم ترد روحه إلى بدنه كحال النائم المتوسطة بين الحي والميت ، فتأمل هذا يزيح عنك إشكالات كثيرة .

رؤيته ﷺ الأنبياء ليلة الإسراء:

وأما إخبار النبي ﷺ عن رؤية الأنبياء ليلة أسري به فقد زعم بعض أهل الحديث أن الذي رآه أشباحهم وأرواحهم ، قال : فإنهم أحياء عند ربهم ، وقد رأى إبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور ، ورأى موسى قائماً في قبره يصلي ، وقد نعت الأنبياء لما رآهم نعت الأشباح فرأى موسى آدماً ضرباً طوالاً كأنه من رجال شنوءة ، ورأى عيسى يقطر رأسه كأنما أخرج من ديماس ، ورأى إبراهيم فشبهه بنفسه .

ونازعهم في ذلك آخرون ، قالوا : هذه الرؤية إنما هي لأرواحهم دون

(1) (الزمر/ ٤٢).

أجسادهم، والأجساد في الأرض قطعاً ، إنما تبعث يوم بعث الأجساد ، ولم تبعث قبل ذلك ، إذ لو بعثت قبل ذلك لكانت قد انشقت عنها الأرض قبل يوم القيامة وكانت تذوق الموت عند نفخة الصور وهذه موتة ثالثة وهذا باطل قطعاً ، ولو كانت قد بعثت الأجساد من القبور لم يعدهم الله إليها بل كانت في الجنة ، وقد صح عن النبي ﷺ : «أن الله حرم الجنة على الأنبياء حتى يدخلها هو ، وهو أول من يستفتح باب الجنة»(١) . وهو أول من تنشق عنه الأرض على الإطلاق ، لم تنشق عن أحد قبله»(٢) . ومعلوم بالضرورة أن جسده ﷺ في الأرض طري مطراً ، وقد سأله الصحابة كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ قال : «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»(٣) . ولو لم يكن جسده في ضريحه لما أجاب بهذا الجواب .

وقد صح عنه أن الله وكل بقبره ملائكة يبلغونه عن أمته السلام(٤) .

(١) إشارة إلى حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ : «آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول: محمد ، فيقول: بك أمرت ، لا أفتح لأحد قبلك» [حديث صحيح]رواه مسلم : كتاب الإيمان، باب: في قول النبي ﷺ : «أنا أول الناس يشفع في الجنة، وأنا أكثر الأنبياء تبعًا»[١٩٧]، وغيره.

(٢) إشارة إلى حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: «بينا رسول الله ﷺ جالس، جاء يهودي فقال: يا أبا القاسم ! ضرب وجهي رجل من أصحابك . فقال: "من"؟ قال: رجل من الأنصار. قال: "ادعوه". فقال: "أضربته"؟ قال: سمعته بالسوق يحلف: والذي اصطفى موسى على البشر، قلت: أي: خبيث! على محمد ﷺ ؟ فأخذتني غضبة ضربت وجهه. فقال النبي ﷺ: "لا تخيروا بين الأنبياء. فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من تنشق عنه الأرض، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش. فلا أدري أكان فيمن صَعِق، أم حوسب بصعقة الأولى"» [حديث صحيح]رواه البخاري : كتاب: الخصومات، باب: ما يُذْكر في الأشخاص، والخصومة بين المسلم واليهود، [٢٤١٢]، وانظر [٣٣٩٨، ٤٦٣٨، ٦٩١٦، ٦٩١٧، ٧٤٢٧]، وغيره كثير.

(٣) [صحيح]: سبق تخريجه.

(٤) إشارة إلى الحديث الذي رواه عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ : «إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني من أمتي السلام» [حديث صحيح]رواه أحمد في مواضع منها : (١/ ٣٨٧، ٤٤١، ٤٥٢)، والنسائي: كتاب السهو ، باب السلام على النبي ﷺ ، (٣/ ٤٣)، وابن حبان : كتاب الرقائق، باب: الأدعية، [٩١٤]، وعبد الرزاق في مصنفه: كتاب : الصلاة، أبواب التشهد، باب: الصلاة على النبي ﷺ ، [٣١١٦]، وصححه الألباني في «صحيح النسائي: [١٢١٥]، وانظر «المشكاة» : (٩٢٤)، فضل الصلاة على النبي ﷺ : (٢١)، وشعيب الأرنؤوط في الإحسان : [٩١٤].

وصح عنه أنه خرج بين أبي بكر وعمر وقال : هكذا نبعث[(١)] .

هذا مع القطع بأن روحه الكريمة في الرفيق الأعلى في أعلى عليين مع أرواح الأنبياء . وقد صح عنه أنه رأى موسى قائماً يصلي في قبره ليلة الإسراء[(٢)] ، ورآه في السماء السادسة أو السابعة . فالروح كانت هناك ولها اتصال بالبدن في القبر ، وإشراف عليه ، وتعلق به بحيث يصلي في قبره ويرد سلام من سلم عليه وهي في الرفيق الأعلى .

ولا تنافي بين الأمرين فإن شأن الأرواح غير شأن الأبدان ، وأنت تجد الروحين المتماثلتين المتناسبتين في غاية التجاور والقرب وإن كان بينهما بعد المشرقين ، وتجد الروحين المتنافرتين المتباغضتين بينهما غاية البعد وإن كان جسداهما متجاورين متلاصقين .

وليس نزول الروح وصعودها وقربها وبعدها من جنس ما للبدن ، فإنها تصعد إلى ما فوق السماوات ثم تهبط إلى الأرض ما بين قبضها ووضع الميت في قبره ،

(١) هذا المعنى مأخوذ من لفظ حديث ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: خرج رسول الله ﷺ بين أبي بكر وعمر، فقال: «هكذا نبعث» [هذا الحديث بهذا اللفظ ضعيف] رواه الترمذي : كتاب : المناقب، باب: في مناقب أبي بكر وعمر كليهما، [٣٦٦٩]، وابن ماجه : كتاب المقدمة، [٩٩]، والحاكم: كتاب: معرفة الصحابة، (٣/ ٧١: ٧٢)، [٤٤٢٨]، وتعقبه الذهبي قائلاً: سعيد بن مسلمة القرشي ضعيف. وضعفه الألباني في «ضعيف الترمذي» [٧٥٥]، وضعيف ابن ماجه : [١٨] ، وانظر «ضعيف المشكاة» (٦٠٥٤)، «ضعيف الجامع الصغير» (٦٠٨٩) . إلا أن هذا المعنى قد صح عن النبي ﷺ كما في الحديث الذي رواه ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: وُضِع عمر على سويرة، فتكنفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع -وأنا فيهم- فلم يربني إلا رجل آخذ منكبي فإذا علي بن أبي طالب، فترحم على عمر، وقال: ما خلفت أحدًا أحب إلي أن ألقى الله بمثل عمله منك، وايم الله إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك ، وحسبت أني كثيرًا أسمع النبي ﷺ يقول: ذهبت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر» [حديث صحيح] رواه البخاري : كتاب فضائل الصحابة ، باب: مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي -رضي الله عنه-، [٣٦٨٥]. وكثيرًا ما كان يقول النبي ﷺ : «فإني أومن به أنا وأبو بكر وعمر ، فإني أومن بذلك أنا وأبو بكر وعمر -رضي الله عنهما- » كما صح ذلك في «مسند أحمد» وعند البخاري ومسلم، وغيرهم.

(٢) [صحيح]: رواه أحمد : (٣/ ٢٤٨)، ومسلم : كتاب الفضائل ، باب: من فضائل موسى ﷺ ، [٢٣٧٥]، والنسائي : كتاب: قيام الليل وتطوع النهار، (٣/ ٢١٥).

وهو زمن يسير لا يصعد البدن وينزل في مثله ، وكذلك صعودها وعودها إلى البدن في النوم واليقظة ، وقد مثلها بعضهم بالشمس وشعاعها فإنها في السماء وشعاعها في الأرض ، قال شيخنا : وليس هذا مثلاً مطابقاً ، فإن نفس الشمس لا تنزل من السماء ، والشعاع الذي على الأرض ليس هو الشمس ولا صفتها ، بل هو عرض حصل بسبب الشمس والجرم المقابل لها. والروح نفسها تصعد وتنزل وأما قول الصحابة للنبي ﷺ في قتلى بدر : كيف تخاطب أقواماً قد جيفوا ؟ مع إخباره بسماعهم كلامه ، فلا ينفي ذلك رد أرواحهم إلى أجسادهم ذلك الوقت رداً يسمعون به خطابه والأجساد قد جيفت ، فالخطاب للأرواح المتعلقة بتلك الأجساد التي قد فسدت[1] . أما قوله تعالى : ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾[2] فسياق الآية يدل على أن المراد منها أن الكافر الميت القلب لا تقدر على إسماعه إسماعاً ينتفع به، كما أن من في القبور لا تقدر على إسماعهم إسماعاً ينتفعون به ، ولم يرد سبحانه أن أصحاب القبور لا يسمعون شيئاً ألبته ، كيف وقد أخبر النبي ﷺ أنهم يسمعون خفق نعال المشيعين[3] .

(٢) يشير إلى الحديث الذي رواه أبو طلحة -رضي الله عنه- أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقذفوا في طوى من أطواء بدر خبيث مُخْبِث، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها، ثم مشى وأتبعه أصحابه ، وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته، حتى قام على شفى الركى، فجعل يناديهم بأسمائهم، وأسماء آبائهم : يا فلان بن فلان، ويا فلان ابن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًا ؟ قال : فقال عمر : يا رسول الله ، ما تكلم من أجساد لا روح لها؟ ! فقال رسول الله ﷺ : «والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» [حديث صحيح] رواه البخاري كتاب : المغازي، باب: قتل أبي جهل [٣٩٧٦] والحديث به بيان واضح لسماع الموتى لمن يحدثهم.

(٢) (فاطر/ ٢٢).

(٣) إشارة إلى حديث أنس بن مالك ، قال: قال نبي الله ﷺ : «إن العبد إذا وضع في قبره، وتولى عنه أصحابه، إنه ليسمع قرع نعالهم» قال: «يأتيه ملكان فيقعدانه، فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ قال: فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله ، قال: فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدًا من الجنة» قال نبي الله ﷺ : «فيراهما جميعًا» قال قتادة : وذُكِر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعًا ، ويملأ عليه خضرًا إلى يوم يبعثون. [حديث صحيح] رواه مسلم : كتاب الجنة ، وصفة نعيمها، وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه [٢٨٧٠].

وأخبر أن قتلى بدر سمعوا كلامه وخطابه ، وشرع الإسلام عليهم بصيغة الخطاب للحاضر الذي يسمع ، وأخبر أن من سلم على أخيه المؤمن رد عليه السلام !

هذه الآية نظير قوله : ﴿إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين﴾[1] وقد يقال نفي إسماع الصم مع نفي إسماع الموتى يدل على أن المراد عدم أهلية كل منهما للسماع ، وأن قلوب هؤلاء لما كانت ميتة صماء كان إسماعها ممتنعاً بمنزلة خطاب الميت والأصم ، وهذا حق ولكن لا ينفي إسماع الأرواح بعد الموت إسماع توبيخ وتقريع بواسطة تعلقها بالأبدان في وقت ما ، فهذا غير الإسماع المنفي، والله أعلم .

وحقيقة المعنى أنك لا تستطيع أن تسمع من لم يشأ الله أن يسمعه ، إن أنت إلا نذير، أي إنما جعل الله لك الاستطاعة على الإنذار الذي كلفك إياه لا على إسماع من لم يشأ الله إسماعه . وأما قوله : إن الحديث لا يصح لتفرد المنهال بن عمرو وحده ، به وليس بالقوي ، فهذا من مجازفته رحمه الله ، فالحديث صحيح لا شك فيه وقد رواه عن البراء بن عازب جماعة غير زاذان منهم عدي بن ثابت ومحمد ابن عقبة ومجاهد .

ذكر حالة النزع لروح المؤمن ولروح الكافر ، وما يمضي عليهما في القبر :

قال الحافظ أبو عبد الله بن منده في كتاب الروح والنفس : أخبرنا محمد بن يعقوب بن يوسف ، حدثنا محمد بن إسحق الصفار ، أنبانا أبو النضر هاشم بن القاسم ، حدثنا عيسى بن المسيب ، عن عدي بن ثابت ، عن البراء بن عازب ، قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار ، فانتهينا إلى القبر ، ولما يلحد، فجلسنا وجلس كأن على أكتافنا فلق الصخر ، وعلى رؤوسنا الطير فأرم قليلاً، والإرمام السكوت ، فلما رفع رأسه قال : إن المؤمن إذا كان في قبل من الآخرة ودبر من الدنيا وحضره ملك الموت نزلت عليه ملائكة معهم كفن من الجنة ، وحنوط[2] من الجنة ، فجلسوا منه مد البصر ، وجاء ملك الموت فجلس عند رأسه ، ثم قال : اخرجي أيتها النفس المطمئنة ، اخرجي إلى رحمة الله ورضوانه فتنسل[3]

(١) (النمل/ ٨).

(٢) الحَنُوطُ: طيب يُخْلَطُ للميت خاصة، انظر «لسان العرب» : (٢/ ١٠٢٤) بتصرف.

(٣) السَّلُّ: انتزاع الشيء وإخراجه في رِفْقٍ . انظر «لسان العرب» : (٣/ ٢٠٧٤) بتصرف.

نفسه كما تقطر القطرة من السقاء ، فإذا خرجت نفسه صلى عليه كل من بين السماء والأرض إلا الثقلين ، ثم يصعد به إلى السماء ، فتفتح له السماء ، ويشيعه مقربوها إلى السماء الثانية ، والثالثة ، والرابعة ، والخامسة ، والسادسة ، والسابعة، إلى العرش مقربو كل سماء فإذا انتهى إلى العرش كتب كتابه في عليين ويقول الرب عز وجل : ردوا عبدي إلى مضجعه فإني وعدتهم أني منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى ، فيرد إلى مضجعه فيأتيه منكر ونكير يثيران الأرض بأنيابهما ، ويفحصان الأرض بأشعارهما فيجلسانه ، ثم يقال له : يا هذا من ربك ؟ فيقول : ربي الله ، فيقولان : صدقت ، ثم يقال له : ما دينك ؟ فيقول : ديني الإسلام ، فيقولان : صدقت . ثم يقال له : من نبيك ؟ فيقول محمد رسول الله ، فيقولان : صدقت ، ثم يفسح له في قبره مد بصره ، ويأتيه رجل حسن الوجه ، طيب الريح حسن الثياب ، فيقول : جزاك الله خيرا فو الله ما علمت إن كنت لسريعاً في طاعة الله بطيئاً عن معصية الله ، فيقول : وأنت جزاك الله خيراً فمن أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح ، ثم يفتح له باب إلى الجنة فينظر إلى مقعده ومنزله منها حتى تقوم الساعة ، وإن الكافر إذا كان في دبر من الدنيا وقبل من الآخرة وحضره الموت نزلت عليه من السماء ملائكة معهم كفن من النار وحنوط من نار ، قال : فيجلسون منه مد بصره ، وجاء ملك الموت فيجلس عند رأسه ثم قال : اخرجي أيتها النفس الخبيثة ، اخرجي إلى غضب الله ، وسخطه ، فتفرق روحه في جسده كراهية أن تخرج لما ترى وتعاين ، فيستخرجها كما يستخرج السفود من الصوف المبلول ، فإذا خرجت نفسه لعنه كل شئ بين السماء والأرض إلا الثقلين ، ثم يصعد به إلى السماء فتغلق دونه فيقول الرب عز وجل : ردوا عبدي إلى مضجعه فإني وعدتهم أني منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى ، فترد روحه إلى مضجعه فيأتيه منكر ونكير يثيران في الأرض بأنيابهما ويفحصان الأرض بأشعارهما ، أصواتهما كالرعد القاصف ، وأبصارهما كالبرق الخاطف ، فيجلسانه ثم يقولان ، يا هذا من ربك ؟ فيقول : لا أدري ، فينادى من جانب القبر لا دريت، فيضربانه بمرزبة من حديد لو اجتمع عليها من بين الخافقين[1] لم تقل ، ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ،

(١) الخافقان: قُطْر الهواء : أُفُق المشرق والمغرب ، انظر «لسان العرب» (٢/ ١٢١٥) بتصرف.

منتن الريح ، فيقول : جزاك الله شراً فو الله ما علمت إن كنت لبطيئاً عن طاعة الله، سريعاً في معصية الله ، فيقول : ومن أنت ؟ فيقول : أنا عملك الخبيث ، ثم يفتح له باب إلى النار فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الساعة»(١) .

رواه الإمام أحمد ومحمود بن غيلان وغيرهما عن أبي النضر.

ففيه أن الأرواح تعاد إلى القبر ، وأن الملكين يجلسان الميت ويستنطقانه .

(ثم ساقه) ابن منده من طريق محمد بن سلمة ، عن خصيف الجزري، عن مجاهد، عن البراء بن عازب، قال: كنا في جنازة رجل من الأنصار ومعنا رسول الله ﷺ فانتهينا إلى القبر، ولم يلحد ووضعت الجنازة، وجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : «إن المؤمن إذا احتضر أتاه ملك الموت في أحسن صورة وأطيبه ريحاً فجلس عنده لقبض روحه ، وأتاه ملكان بحنوط من الجنة ، وكفن من الجنة ، وكانا منه على بعد ، فاستخرج ملك الموت روحه من جسده رشحاً، فإذا صارت إلى ملك الموت ابتدرها الملكان فأخذاها منه ، فحنطاها بحنوط من الجنة ، وكفناها بكفن من الجنة ، ثم عرجا به إلى الجنة ، فتفتح له أبواب السماء ، وتستبشر الملائكة بها ، ويقولون : لمن هذه الروح الطيبة التي فتحت لها أبواب السماء؟ ويسمى بأحسن الأسماء التي كان يسمى بها في الدنيا ، فيقال : هذه روح فلان ، . فإذا صعد بها إلى السماء شيعها مقربو كل سماء حتى توضع بين يدي الله عند العرش فيخرج عملها من عليين فيقول الله عز وجل للمقربين : اشهدوا أني قد غفرت لصاحب هذا العمل ويختم كتابه فيرد في عليين ، فيقول الله عز وجل : ردوا روح عبدي إلى الأرض فإني وعدتهم أني أردهم فيها ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾(٢) .

فإذا وضع المؤمن في قبره فتح له باب عند رجليه إلى الجنة فيقال له : انظر إلى ما أعد الله لك من الثواب ، ويفتح له باب عند رأسه إلى النار فيقال له : انظر ما صرف الله عنك من العذاب ، ثم يقال له : نم قرير العين ، فليس شيء أحب إليه

(١) [ضعيف]: من هذا الطريق لأمور منها : ضعف عيسى بن المسيب، فعن الشعبي وغيره، قال يحيى، والنسائي والدارقطني : ضعيف، وقال أبو حاتم، وأبو زرعة : ليس بالقوي ، وتكلم فيه ابن حبان وغيره. وقال أبو داود : هو قاضي الكوفة ضعيف. وعن ابن حبان أنه قال فيه : كان قاضي خراسان، يقلب الأخبار، ولا يفهم، ويخطئ، حتى خرج عن حد الاحتجاج به.

(٢) (طه/ ٥٥).

من قيام الساعة»(١) .

وقال رسول الله ﷺ : «إذا وضع المؤمن في لحده تقول له الأرض : إن كنت لحبيباً إلي وأنت على ظهري فكيف إذا صرت اليوم في بطني ؟! سأريك ما أصنع بك، فيفسح له في قبره مد بصره » (٢).

وقال رسول الله ﷺ إذا وضع الكافر في قبره أتاه منكر ونكير فيجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : لا أدري فيقولان له : لا دريت فيضربانه ضربة فيصير رماداً ، ثم يعاد فيجلس فيقال له : ما قولك في هذا الرجل ؟ فيقول : أي رجل ؟ فيقولان : محمد ﷺ ، فيقول : قال الناس : إنه رسول الله ﷺ فيضربانه ضربة فيصير رماداً».

هذا حديث ثابت مشهور مستفيض صححه جماعة من الحفاظ ، ولا نعلم أحداً من أئمة الحديث طعن فيه ، بل رووه في كتبهم وتلقوه بالقبول وجعلوه أصلاً من أصول الدين في عذاب القبر ونعيمه ومساءلة منكر ونكير وقبض الأرواح

(١) [ضعيف]: من هذا الطريق لأمور منها : ضعف خُصَيْف الجزري. هو خُصَيْف بن عبد الرحمن الجزري الحراني، أبو عون، من موالي بني أمية، ضعفه أحمد، وقال مرة: ليس بقوي، وقال ابن معين: صالح، وقال أبو حاتم : تُكُلِّم في سوء حفظه، وقال أحمد : تكلم في الإرجاء، وقال يحيى القطان: كنا نتجنب خصيفًا، وعن علي بن المديني عن يحيى بن سعيد يقول: كنا تلك الأيام نجتنب حديث خصيف، وكان يحيى يضعف خصيفًا ، وعن عبد الرحمن قال: سمعت أبي يقول: خصيف صالح يخلط ، وتكلم في سوء حفظه.

(٢) [ضعيف]: رواه الترمذي عن أبي سعيد -رضي الله عنه- قال: دخل رسول الله ﷺ مصلاه، فرأى ناسًا كأنهم يكتشرون -أي: يضحكون- قال: «أما إنكم لو أكثرتم ذكر هاذم اللذات لشغلكم عما أرى -الموت- فأكثروا من ذكر هاذم اللذات: الموت، فإنه لم يأت على القبر يوم إلا تكلم فيه ، فيقول: أنا بيت الغربة، أنا بيت الوحدة، أنا بيت التراب، وأنا بيت الدود، فإذا دفن العبد المؤمن قال له القبر : مرحبًا وأهلاً، أما إن كنت لأحب من يمشي على ظهري إلي، فإذا وليتك اليوم وصرت إلي فسترى صنيعي بك، فيتسع له مد بصره، ويفتح له باب إلى الجنة، وإذا دفن العبد الفاجر أو الكافر، قال له القبر : لا مرحبًا، ولا أهلاً ، أما إن كنت من يمشي على ظهري إلي، فإذا وليتك اليوم وصرت إلي فسترى صنيعي بك، قال : فيلتئم عليه حتى يلتقي عليه وتختلف أضلاعه» . رواه الترمذي : كتاب: صفة القيامة، باب: ٢٦، [٢٤٦٠] ، وضعفه الألباني في «ضعيف الترمذي» : [٤٣٧ - ٢٥٩١] . وقال : ضعيف جدًا. انظر «الضعيفة» [٤٩٩٠] ، ضعيف الجامع الصغير: [١٢٣١]، لكن جملة : هاذم اللذات صحيحة.

وصعودها إلى بين يـدي الله ثم رجوعها إلى القبـر ، وقول أبي محمـد لم يروه غير زاذان فوهم منه ، بل رواه عن البراء غيـر زاذان ورواه عنه عدي بن ثابت ، ومجاهد ابن جبيـر ، ومحمد بن عقبة ، وغيرهم ، وقد جمع الدارقـطني طرقه في مصنف مفرد، وزاذان من الثـقاة روى عن أكابر الصحـابة كعمر وغيـره وروى له مسلم في صحيحه .

قال يحيى بن معين[١] : ثقة وقال حـميد بن هلال وقد سـئل عنه : هو ثقة لا تسأل عن مثل هؤلاء ، وقال ابن عدي : أحاديثه لا بأس بها إذا روى عن ثقة .

وقوله : إن المنهـال بن عمرو[٢] تفرد بهـذه الزيادة وهي قوله فتعـاد روحه في جسده وضـعفه . فالمنهال أحد الثـقاة العدول ، قال ابن معين : المنهـال ثقة ، وقال العجلي : كـوفي ثقة . وأعظم مـا قيل فيه إنـه سمع من بيتـه صوت غناء وهذا لا يوجب القدح في روايتـه ، واطراح حديثه ، وتضعيف ابن حـزم له لا شيء فإنه لم يذكر موجباً لتضعيفه غير تفـرده بقوله فتعاد روحه في جسده وقد بينا أنه لم يتفرد بها بل قد رواها غيره ، وقد روي ما هو أبلغ منها أو نظيـرها كقوله : فترد إليه روحه ، وقوله : فتصير إلى قبره . وقوله: فيستوي جالساً ، وقوله فيجلسانه ، وقوله فيجلس في قبره، وكلها أحاديث صحاح لا مغمز فـيها . وقد أعل غيره بأن زاذان لم يسمعه من البـراء ، وهذه العلة باطلة فإن أبا عـوانة الإسفـرائيني رواه في صحـيحـه بإسناد وقال: عن أبي عمرو زاذان الكندي قال : سمعت البراء بن عازب ، وقال الحافظ أبو عبد الله بن مندة : هذا إسناد متصل مشهور رواه جماعة عن البراء .

ولو نزلنا عن حديث البراء فـسائر الأحاديث الصحيحة صـريحة في ذلك مثل

---

(١) هو: الإمام الحافظ الجهـبذ ، شيخ المحدثين، أبو زكريا يحـيى بن معين بن عون بن زياد بن بسطام، قال النسائي : أبو زكـريا أحد الأئمة في الحديث، ثقـة، مأمون، كان أبوه معين عـاملاً على خراج الري، فمـات، فخلف ليحيى ابنه ألف ألف درهم، فـأنفقه كله على الحـديث حتى لم يبق له نعل يلبسه. انظر «سير أعلام النبلاء» : (١١/ ٧١).

(٢) المنهـال بن عمـرو: قال عنـه يحيى بن مـعين ، والنسائي ، والعِـجْلي: ثقة، وقـال الدارقطني وابن حجر: صدوق، وتركه شعبة قائلاً : سُمِع من داره الغناء، وإنما كان ينبغي أن يسأل عن ذلك، فلقد دخل الكلب بيت النبي ﷺ ونام تحت سريره ﷺ ، وهو لا يعلم حـتى منع دخول جـبريل علـيه السلام كما هو في الصحيح، فلعل المنهال كان غائبًا لا يدري بما حدث في داره، والله أعلم.

حديث ابن أبي ذئب ، عن محمد بن عمرو بن عطاء ، عن سعيد بن يسار ، عن أبي هريرة "أن رسول لله ﷺ قال : إن الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قال : اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ، اخرجي حميدة وأبشري بروح ، وريحان ، ورب غير غضبان ، قال : فيقول ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها فيقال : من هذا ؟ فيقولون: فلان فيقولون : مرحباً بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة وأبشري بروح ريحان ورب غير غضبان ، فيقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل . وإذا كان الرجل السوء قال : اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ، أخرجي ذميمة وأبشري بحميم[١] وغساق[٢] وآخر من شكله أزواج فيقولون ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال : من هذا ؟ فيقولون : فلان ، فيقولون لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ، ارجعي ذميمة فإنها لن تفتح لك أبواب السماء ، فترسل بين السماء والأرض ، فتصير إلى القبر ، فيجلس الرجل الصالح في قبره غير فزع ولا معوق ، ثم يقال : فما كنت تقول في الإسلام، يا هذا الرجل ؟ فيقول : محمد رسول الله جاءنا بالبينات من قبل الله فآمنا وصدقنا»[٣] . وذكر تمام الحديث .

قال الحافظ أبو نعيم : هذا حديث متفق على عدالة ناقليه ، اتفق الإمامان محمد بن إسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج ، عن ابن أبي ذئب ومحمد بن عمرو ابن عطاء وسعيد بن يسار وهم من شرطهما ، ورواه المتقدمون الكبار عن ابن أبي ذئب مثل ابن أبي فديك وعبد الرحيم بن ابراهيم انتهى . ورواه عن ابن أبي ذئب غير واحد.

(وقد احتج) أبو عبد الله بن منده على إعادة الروح إلى البدن بأن قال : حدثنا

---

(١) الحميم: الماء الساخن الحار، انظر «لسان العرب» : (٢/ ١٠٠٨) بتصرف.

(٢) الغسَّاق: هو الماء الْمُنْتِنُ الذي يَغْسِقُ ويسيل من جلود أهل النار، وصديدهم . (٥/ ٣٢٥٦) بتصرف.

(٣) [صحيح]: رواه أحمد : (٢/ ٣٦٤)، (٦/ ١٤٠)، وابن ماجه : كتاب الزهد، باب: ذكر الموت والاستعداد له، [٤٢٦٢]، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» : [٣٤٣٧]، وانظر «المشكاة» ١٦٢٧، تخريج ما دل عليه القرآن ص ١٤٦، التعليق الرغيب ٤/ ١٨٧ . وروى النسائي رواية قريبة من هذا المعنى سبق تخريجها قريبًا، وهي صحيحة إن شاء الله .

محمـد بن الحسين بن الحسن ، حدثنا محمـد بن زيد النيسابوري ، حـدثنا حماد بن قيراط ، حـدثنا محمد بن الفـضل عن يزيد بن عبد الرحـمن الصائغ البلخي ، عن الضحاك بن مزاحم ، عن ابن عباس أنه قـال : "بينما رسول الله ﷺ ذات يوم قاعد تلا هذه الآية : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾[1] الآية قال : والذي نفس محمد بيده ما من نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة أو النار ، ثم قـال: فإذا كان عـند ذلك صف له سمـاطان من الملائكة ينتظمان مـا بين الخافـقين كأن وجوههم الشمس ، فـينظر إليهم ما ترى غـيرهم وإن كنتم ترون أنهم ينظرون إليكم مع كل منهم أكفان ، وحنوط ، فإن كـان مؤمناً بشروه بالجنة وقالوا : اخرجي أيتها النفس الطيبة إلى رضوان الله وجنته فقد أعد الله لك من الكرامة ما هو خيـر من الدنيا وما فـيها ، فلا يزالـون يبشرونه ويحفـون به فلهم ألطف وأرأف من الوالدة بولدها ثم يسلون روحه من تحت كل ظفـر ومفصل ، ويموت الأول فالأول ، ويهـون عليه ، وإن كنتم ترونه شـديداً حتـى تبلغ ذقنه، قال : فلهي أشـد كراهيـة للخروج من الجسـد من الولد حين يخرج من الرحم ، فيبـتدرها كل ملك منهم أيهم يقبضهـا ، فيتولى قبضـها ملك الموت ، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[2] فيتلقاها بأكفـان بيض ، ثم يحتضنها إليه ، فلهو أشد لزوماً لها من المرأة إذا ولدتها ، ثم يفوح منها ريح أطيب من المسك فيستنشقـون ريحها ويتباشرون بها ويقولون : مرحـباً بالروح الطيبة والروح الطيب ، اللهم صل عليه روحاً وعلى جسد خرجت منه ، قال : فيصعدون بها ولله عز وجل خلق في الهـواء لا يعلم عـدتهم إلا هو ، فيـفـوح لهم منهـا ريح أطيب من المسك فيصلون عليها، ويتباشرون ، ويفتح لهم أبواب السماء فيصلي عليها كل ملك في كل سماء تمر بهم حتى ينتـهي بها بين يدي الملك الجبار فيقول الجبـار جل جلاله : مرحباً بالنفس الطيبة وبجسد خرجت مـنه ، وإذا قال الرب عز وجل للشيء مرحباً رحب له كل شئ ويذهب عنه كل ضـيق ، ثم يقـول لهذه النفس الـطيبـة : أدخلوها الجنة ، وأروها مقعدها من الجـنة ، واعرضوا عليها ما أعددت لهـا من الكرامة والنعيم ، ثم اذهبوا بها إلى الأرض فـإني قضيت أني منها خلقتـهم وفيها أعيدهم ومنهـا أخرجهم

---

(١) (الأنعام/ ٩٣).

(٢) (السجدة/ ١١).

تارة أخري ، فو الذي نفس محمد بيده لهي أشد كراهية للخروج منها حين كانت تخرج من الجسد وتقول : أين تذهبون بي إلى ذلك الجسد الذي كنت فيه ؟ قال : فيقولون إنا مأمورون بهذا فلا بد لك منه ، فيهبطون به على قدر فراغهم من غسله ، وأكفانه ، فيدخلون ذلك الروح بين جسده وأكفانه»[(١)].

فدل هذا الحديث أن الروح تعاد بين الجسد والأكفان ، وهذا عود غير التعلق الذي كان لها في الدنيا بالبدن وهو نوع آخر ، وغير تعلقها به حال النوم ، وغير تعلقها به وهي في مقرها ، بل هو عود خاص للمساءلة .

قال شيخ الإسلام : الأحاديث الصحيحة المتواترة تدل على عود الروح إلى البدن وقت السؤال ، وسؤال البدن بلا روح قول قاله طائفة من الناس وأنكره الجمهور، وقابلهم آخرون فقالوا : السؤال للروح بلا بدن وهذا قاله ابن مرة ، وابن حزم ، وكلاهما غلط ، والأحاديث الصحيحة ترده ، ولو كان ذلك على الروح فقط لم يكن للقبر بالروح اختصاص .

فصل: هل عذاب القبر على النفس والبدن؟ أو عن النفس دون البدن؟، أو على البدن دون النفس؟ وهل يشارك البدن النفسَ في النعيم والعذاب، أم لا؟.

وهذا يتضح بجواب المسألة : وهي قول السائل هل عذاب القبر على النفس والبدن ؟

أو على النفس دون البدن ؟ أو على البدن دون النفس ؟

وهل يشارك البدن النفس في النعيم والعذاب أم لا ؟

وقد سئل شيخ الإسلام عن هذه المسألة ونحن نذكر لفظ جوابه فقال : بل العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعاً باتفاق أهل السنّة والجماعة ، تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن ، وتنعم وتعذب متصلة بالبدن والبدن متصل بها ، فيكون النعيم والعذاب عليهما في هذه الحال مجتمعين كما تكون على الروح منفردة عن البدن . وهل يكون العذاب والنعيم للبدن بدون الروح ؟ هذا فيه قولان مشهوران

(١) [ضعيف]: لأمور منها : حماد بن قيراط ضعيف، قال ابن حبان : لا تجوز الرواية عنه يجيء بالطامات، وقال ابن عدي: عامة ما يرويه فيه نظر، وقال أبو حاتم: مضطرب الحديث، يكتب حديثه ولا يحتج به وعن أبي زرعة قال: كان صدوقًا.

لأهل الحديث والسنة وأهل الكلام ، وفي المسألة أقوال شاذة ليست من أقوال أهل السنة والحديث . قول من يقول : إن النعيم والعذاب لا يكون إلا على الروح ، وأن البدن لا ينعم ولا يعذب ، وهذا تقوله الفلاسفة المنكرون لمعاد الأبدان ، وهؤلاء كفار بإجماع المسلمين ، ويقوله كثير من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم الذين يقرون بمعاد الأبدان لكن يقولون : لا يكون ذلك في البرزخ وإنما يكون عند القيام من القبور . لكن هؤلاء ينكرون عذاب البدن في البرزخ فقط ويقولون : إن الأرواح هي المنعمة أو المعذبة في البرزخ ، فإذا كان يوم القيامة عذبت الروح والبدن معاً ، وهذا القول قاله طوائف من المسلمين من أهل الكلام والحديث وغيرهم ، وهو اختيار ابن حزم ، وابن مرة ، فهذا القول ليس من الأقوال الثلاثة الشاذة بل هو مضاف إلى قول من يقول بعذاب القبر ، ويقر بالقيامة ، ويثبت معاد الأبدان والأرواح ، ولكن هؤلاء لهم في عذاب القبر ثلاثة أقوال :

(أحدها): أنه على الروح فقط .

(الثاني): أنه عليها وعلى البدن بواسطتها .

(الثالث): أنه على البدن فقط ، وقد يضم إلى ذلك القول الثاني وهو قول من يثبت عذاب القبر ويجعل الروح هي الحياة ويجعل الشاذ قول منكر عذاب الأبدان مطلقاً ، وقول من ينكر عذاب الروح مطلقاً ، فإذا جعلت الأقوال الشاذة ثلاثة فالقول الثاني الشاذ قول من يقول إن الروح بمفردها لا تنعم ولا تعذب وإنما الروح هي الحياة، وهذا يقوله طوائف من أهل الكلام من المعتزلة والأشعرية كالقاضي أبي بكر وغيره وينكرون أن الروح تبقى بعد فراق البدن ، وهذا قول باطل ، وقد خالف أصحابه أبو المعالي الجويني وغيره بل قد ثبت بالكتاب والسنة واتفاق الأمة أن الروح تبقى بعد فراق البدن وأنها منعمة أو معذبة ، والفلاسفة الإلهيون يقرون بذلك لكن ينكرون معاد الأبدان ، وهؤلاء يقرون بمعاد الأبدان لكن ينكرون معاد الأرواح ونعيمها وعذابها بدون الأبدان ، وكلا القولين خطأ وضلال لكن قول الفلاسفة أبعد عن أقوال أهل الإسلام وإن كان قد يوافقهم عليه من يعتقد أنه متمسك بدين الإسلام بل من يظن أنه من أهل المعرفة والتصوف والتحقيق والكلام .

والقول الثالث الشاذ قول من يقول : إن البرزخ ليس فيه نعيم ولا عذاب بل لا

يكون ذلك حتى تقوم الساعة الكبرى كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة ونحوهم ممن ينكر عذاب القبر ونعيمه بناء على أن الروح لا تبقى بعد فراق البدن وأن البدن لا ينعم ولا يعذب ، فجميع هؤلاء الطوائف ضلال في أمر البرزخ لكنهم خير من الفلاسفة فإنهم مقرون بالقيامة الكبرى .

[فصل] : في أن مذهب السلف أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب مع الروح والبدن:

فإذا عرفت هذه الأقوال الباطلة فلتعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب ، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه ، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة ، وأنها تتصل بالبدن أحياناً ويحصل له معها النعيم أو العذاب ، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد وقاموا من قبورهم لرب العالمين ، ومعاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى .

[فصل] : في ذكر أحاديث عذاب القبر ، ومساءلة منكر ونكير:

ونحن نثبت ما ذكرناه ، فأما أحاديث عذاب القبر ومساءلة منكر ونكير فكثيرة متواترة عن النبي ﷺ كما في «الصحيحين» عن ابن عباس أن النبي ﷺ مر بقبرين فقال : «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ، أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة» ، ثم دعا بجريدة رطبة فشقها نصفين فقال : «لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا»(١) .

(وفي صحيح مسلم) عن زيد بن ثابت قال : «بينا رسول الله ﷺ في حائط لبني النجار على بغلته ونحن معه إذ حادت به فكادت تلقيه فإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة فقال : من يعرف أصحاب هذه القبور؟ فقال رجل : أنا ، قال : فمتى مات هؤلاء؟ قال : ماتوا في الإشراك . فقال : إن هذه الأمة تبتلى في قبورها ، فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه ، ثم أقبل علينا

---

(١) [صحيح]: رواه أحمد : (١/ ٢٢٥)، والبخاري : كتاب الجنائز، باب: عذاب القبر من الغيبة والبول، [١٣٧٨] ، ومسلم : كتاب الطهارة ، باب: الدليل على نجاسة البول، ووجوب الاستبراء منه، [٢٩٢]، وأبو داود : كتاب: الطهارة، باب: الاستبراء من البول، [٢٠]، والترمذي : كتاب: أبواب الطهارة، باب: التشديد في البول، [٧٠]، والنسائي: كتاب الطهارة، باب: التنزه عن البول، (١/ ٢٨: ٣٠)، وابن ماجه : كتاب الطهارة وسننها، باب: التشديد في البول، [٣٤٦].

بوجهه فقال: تعوذوا بالله من عذاب النار، قالوا : نعوذ بالله من عذاب النار ، قال: تعوذوا بالله من عذاب القبر، قالوا : نعوذ بالله من عذاب القبر ، قال : تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، قالوا: نعـوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، قال : تعوذا بالله من فتنة الدجال، قالوا : نعوذ بالله من فتنة الدجال»(١) .

(وفي صحيح مسلم) وجميع السنن عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : «إذا فرغ أحدكم من التشهـد الأخير فليتعوذ بالله من أربع : مـن عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال»(٢) .

(وفي صحيح مسلم) أيضاً وغيره عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يعلمهم هذا الدعـاء كما يـعلمهم السـورة من القرآن، «اللهم إني أعـوذ بك من عذاب جـهنم ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال»(٣) .

(وفي الصحيحين) عن أبي أيوب قال : خرج النبي ﷺ وقد وجبت الشمس ، فسمع صوتاً فقال : «يهود تعذب في قبورها»(٤).

(١) [صحيح]: رواه أحمد: (٥/ ١٩٠)، ومسلم : كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عـذاب القبر، والتعوذ منه، [٢٨٦٧]، وابن حـبان : كتاب: الرقائق، باب: ذكر الأمر بالاستعاذة بالله جل وعلا من الفتن ما ظهر منها وما بطن، [١٠٠٠].

(٢) [صحيح]. رواه أحمـد: (٢/ ٢٣٧)، والبخاري: كتـاب: الجنائز، باب: التعوذ من عذاب القـبر، [١٣٧٧]، ومسلم : كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: ما يستـعاذ منه في الصلاة، [٥٨٨]، وأبو داود : كتـاب : الصلاة، باب: ما يقـول بعد التشهـد، [٩٨٣]، والنسائي: كتـاب: تطفيف الصلاة، باب: التـعوذ في الصلاة، نوع آخـر منه، (٣/ ٥٨)، وابن ماجة : كـتاب: إقامـة الصلاة والسنة فيها، باب: ما يقال في التشهد والصلاة على النبي ﷺ ، [٩٠٩].

(٣) [صحـيح]: رواه أحمـد : (١/ ٢٤٢، ٢٥٨، ٢٩٨، ٣١١)، ومسلم : كتـاب: المساجـد ومواضع الصـلاة، باب: ما يستـعاذ منه في الصـلاة، [٥٩٠]، وأبو داود : كـتاب : الصـلاة، باب: في الاستعـاذة، [١٥٤٢]، والترمذي : كتاب: الدعوات، باب: [٧٧]، [٣٤٩٤]، النسـائي : كتاب: الجنائز، باب: التعوذ من عذاب القبر، (٤/ ١٠٤)، وابن ماجة: كتاب: الدعاء، باب: ما تعوذ منه رسول الله ﷺ ، [٣٨٤٠].

(٤) [صحيح]: رواه أحمد : (٥/ ٤١٧، ٤١٩)، والبـخاري: كتاب: الجنائز، باب: التـعوذ من عذاب القبـر، [١٣٧٥]، ومسلم : كـتاب الجنة وصفـة نعيـمها وأهلهـا، [٢٨٦٩]، والنسائي : كـتاب: الجنائز، باب: عذاب القبر، (٤/ ١٠٢).

عذاب القبر تسمعه البهائم:

(وفي الصحيحين) عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخلت علي عجوز من عجائز يهود المدينة فقالت : إن أهل القبور يعذبون في قبورهم ، قالت : فكذبتها ولم أنعم أن أصدقها ، قالت : فخرجت ودخل علي رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله إن عجوزاً من عجائز يهود أهل المدينة دخلت فزعمت أن أهل القبور يعذبون في قبورهم ، قال : «صدقت إنهم يعذبون عذاباً تسمعه البهائم كلها»، قالت: فما رأيته بعد في صلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر[١] .

(وفي صحيح ابن حبان) "عن أم مبشر قالت : دخل علي رسول الله ﷺ وهو يقول : تعوذوا بالله من عذاب القبر، فقلت : يا رسول الله وللقبر عذاب ؟ قال : «إنهم ليعذبون في قبورهم عذاباً تسمعه البهائم»[٢] .

قال بعض أهل العلم : ولهذا السبب يذهب الناس بدوابهم إذا مغلت[٣] إلى قبور اليهود والنصارى والمنافقين كالإسماعيلية والنصيرية والقرامطة من بني عبيد وغيرهم الذين بأرض مصر والشام ، فإن أصحاب الخيل يقصدون قبورهم لذلك كما يقصدون قبور اليهود والنصارى ، قال : فإذا سمعت الخيل عذاب القبر أحدث لها ذلك فزعاً وحرارة تذهب بالمغل .

حكاية عجيبة لاستماع الدابة عذاب القبر بمرأى الناس:

وقد قال عبد الحق الإشبيلي : حدثني الفقيه أبو الحكم بن برخان -وكان من

---

(١) [صحيح]: رواه أحمد: (٦/ ٤٤: ٤٥، ١٧٤)، والبخاري: كتاب: الدعوات، باب: التعوذ من عذاب القبر، [٦٣٦٦]، ومسلم : كتاب: المساجد ومواضع الصلاة ، باب: استحباب التعوذ من عذاب القبر، [٥٨٦]، والنسائي : كتاب: السهو، باب: التعوذ في الصلاة، نوع آخر، (٣/ ٥٦)، وكتاب: الجنائز، باب: التعوذ من عذاب القبر، (٤/ ١٠٥).

(٢) [صحيح]: رواه أحمد : (٦/ ٣٦٢)، والطبراني في الكبير : (٢٥/ ٣-١٠١)، [٢٦٨]. وابن حبان : كتاب الجنائز ، فصل في أحوال الميت في قبره، ذكر الإخبار بأن البهائم تسمع أصوات من عذب في قبره من الناس، [٣١٢٥]، وصححه شعيب الأرنؤوط قائلاً: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٣) معنت تَمْغَلُ: فهي مَغِلَةٌ. من المَغَل: وهو وجع البطن. المَغْلُ : المَغَلُ: اللبن الذي ترضعه المرأة ولدها وهي حامل، وقد مَغَلَتْ به وأمغلته وهي مُمْغِل. انظر «لسان العرب» : (٦/ ٤٢٤١) بتصرف.

أهل العلم العمل- أنهم دفنوا مـيتاً بقريتهم في شـرق أشبيلية ، فلمـا فرغوا من دفنه قعدوا ناحية يتـحدثون ودابة ترعى قريباً منهم فإذا بالدابة قد أقبلت مـسرعة إلى القبر فجعلت أذنها عليـه كأنها تسمع ، ثم ولت فارة ، ثم عادت إلى القبـر فجعلت أذنها عليه كأنها تسمع ثم ولت فارة ، فعلت ذلك مرة بعد أخرى .

قال أبو الحكم : فـذكرت عـذاب القبر وقـول النبي ﷺ إنهم ليعـذبون عذاباً تسمعه البـهائم . ذكر لنا هذه الحكاية ونحن نسمع عليه كتـاب مسلم لما انتهى القارئ إلى قول النبي ﷺ : إنهم يعذبون عذاباً تسمعه البهائم .

وهذا السـماع واقع على أصـوات المعذبـين . قال هناد بن السـري في كتـاب الزهد: حدثـنا وكيع ، عن الأعمـش ، عن شقيق ، عن عـائشة رضي الله عـنها، قالت: دخلت علـي يهودية فذكـرت عذاب القبـر فكذبتها، فـدخل النبي ﷺ علي فذكـرت ذلك له فقال : «والذي نفـسي بيده إنهم ليعـذبون في قبورهم حـتى تسمع البهائم أصواتهم»(١) .

(قلت): وأحاديث المساءلة في القبر كثيرة كما في الصحيحين والسنن .

تمثل الأعمال في القبر لوقاية صاحبها:

عن البراء بن عازب "أن رسـول الله ﷺ قال :المسلم إذا سئل في قبره فـشهد أن لا إله إلا الله وأن محـمداً رسول الله فـذلك قول الله : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾(٢)»(٣) . وفي لفظ نزلت في عذاب القبر يقال له: من ربك ؟ فيقول : الله ربي ومـحمد نبيي ، فذلك قول الله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾(٢)»(٣) .

وهذا الحديث قد رواه أهل السنن والمسانيد مطولاً كما تقـدم . وقد صرح في هذا الحديث بإعادة الروح إلى البدن وباختلاف أضلاعه وهذا بين في أن العذاب على الروح والبدن مـجتمعين . وقـد روى مثل حديث البراء قـبض الروح ، والمساءلة ، والنعيم ، والعذاب ، أبو هريرة .

(١)[صحيح]: سبق تخريجه قريبًا. (٢) (إبراهيم / ٢٧).

(٣)[صحيح]: رواه البخاري : كتاب: التفسير، باب: ﴿يثبت الله الذين ءامنوا﴾ (إبراهيم/ ٢٧)، [٤٦٩٩].

تتمثل الشمس في القبر كأنها تغرب:

(وحديثه) في المسند وصحيح أبي حاتم "أن النبي ﷺ قال: إن الميت إذا وضع في قبره أنه يسمع حفق نعالهم حين يولون عنه فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه، والصيام عن يمينه، والزكاة عن شماله، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان عند رجليه، فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى من يمينه فيقول الصيام: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى من يساره فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى من قبل رجليه فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان ما قبلي مدخل، فيقال له: اجلس، فيجلس قد مثلت له الشمس وقد أخذت الغروب، فيقال له: هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه وماذا تشهد به عليه؟ فيقول: دعوني حتى أصلي، فيقولون: إنك ستصلي أخبرنا عما نسألك عنه، أرأيتك هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه وما تشهد عليه؟ فيقول: محمد، أشهد أنه رسول الله جاء بالحق من عند الله، فيقال له: على ذلك حييت، وعلى ذلك مت، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله، ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له: هذا مقعدك وما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسروراً، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً، وينور له فيه ويعاد الجسد لما بدئ منه وتجعل نسمته في النسم الطيب، وهي طير معلق في شجر الجنة، قال: فذلك قول الله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ (١) وذكر في الكافر ضد ذلك إلى أن قال: ثم يضيق عليه في قبره إلى أن تختلف فيه أضلاعه فتلك المعيشة الضنك التي قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾(٢)»(٣).

---

(١) (إبراهيم / ٢٧). (٢) (طه/ ١٢٤).

(٣) [حسن]: رواه أحمد: (٢/ ٤٤٥) مختصراً، وعبد الرزاق في مصنفه، (٣/ ٥٦٧)، [٦٧٠٣]، وابن حبان: كتاب: الجنائز، فصل في أحوال الميت في قبره، ذكر الخبر المدحض قول من زعم أن الميت إذا وضع في قبره لا يحرك منه شيء إلا أن يبلى، [٣١١٣]، والحاكم في مستدركه: كتاب: الجنائز، (١/ ٣٧٩: ٣٨٠، ٣٨٠: ٣٨١)، وقال: هذا حديث على شرط مسلم، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي قائلاً: تابعه حماد بن سلمة عن محمد بنحوه، على شرط مسلم. وذكره الهيثمي في «المجمع»، وقال: رواه الطبراني في «الأوسط»، وإسناده حسن، وحسنه الأرنؤوط.

(وفي الصحيحين) من حديث قتادة عن أنس أن النبي ﷺ قال : «إن الميت إذا وضع في قـبـره ، وتولى عنه أصـحابه ، إنه ليـسـمع خـفق نعـالهم ، أتاه ملكان فيقعدانه، فـيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ؟ فـأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، قال : فيقول : انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة، قال رسول الله ﷺ فيراهما جميعاً». قال قتادة وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سـبعون ذراعاً ويملأ عليـه خضراً إلى يوم يبعثـون ، ثم رجع إلى حديث أنس قال : «فأما الكافر والمنافق فيقـولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقولان. لا دريت ولا تليت، ثم يضرب بمطراق من حديد بين أذنيه فيصيح صيحة فيسمعها من عليها غير الثقلين»(١).

(وفي صحيح أبي حاتم) عن أبي هريرة قـال : قال رسول الله ﷺ : «إذا قبر أحدكم أو الإنسان أتاه ملكان أسـودان أزرقان يقال لأحدهما المـنكر والآخر النكير ، فيقـولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل محـمد ﷺ ؟ فهو قائل مـا كان يقول ، فإن كان مؤمناً قال : هو عبد الله ورسـوله أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسـوله ، فيقولان له : إن كنا لنعلم أنك تقول ذلك ، ثم يفـسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ذراعًا ، وينور له فيه ، ويقال له : نم ، فيقول : أرجع إلى أهلي ومالي فأخـبرهم ، فيقولان : نم كنومـة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه ، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك ، وإن كان منافقاً قال : لا أدري كنت أسمع الناس يقولون شيئاً فكنت أقوله ، فـيقولان له : كنا نعلم أنك تقول ذلك ، ثم يقال للأرض التئمي عليـه فتلتئم عليه حتى تختلـف فيها أضلاعه ، فلا يزال مـعذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك»(٢) . وهذا صريح في أن البدن يعذب .

---

(١) [صحيح]: رواه أحمد : (٣/١٢٦، ٢٣٣)، والبـخاري : كتاب الجنائز، باب: الميت يـسمع خفق النعال، [١٣٣٨ : ١٣٧٤]، ومسلم : كـتاب: الجنة وصفة نعيمـها وأهلها، [٢٨٧٠]، وأبو داود : كتـاب: الجنائز، باب: المشي في النعل بين القبـور، [٣٢٣١]، والنسائي : كـتاب: الجنائز، باب: المسألة في القبر، (٤/٩٧).

(٢) [حسن]: رواه التـرمذي : كتـاب: الجنائز، باب: مـا جاء في عـذاب القبر، [١٠٧١]، وقـال أبو عيسى: حديث أبي هريرة حديث حسن غريب، وابن حبان في صحيحه: كتاب: الجنائز ، فصل : في أحوال الميت في قبـره، ذكر الإخبار عن اسم الملكين اللذين يسألان الناس في قـبورهم ثبتنا الله بتفضله لسؤالهما في ذلك الوقت، [٣١١٧]، والآجري في «الشريعة» : ص ٣٦٥، وأورده الألباني في «صحيح الترمذي» ، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده قوي.

(وعن أبي هريرة) أن النبي ﷺ قال : «إذا احتضر المؤمن أتته الملائكة بحريرة بيضاء فيقولون : اخرجي أيتها الروح الطيبة راضية مرضياً عنك إلى روح وريحان ورب غير غضبان ، فتخرج كأطيب من ريح المسك حتى أنه ليناوله بعضهم بعضاً حتى يأتوا به باب السماء فيقولون : ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض ! فيأتون به أرواح المؤمنين فلهم أشد فرحاً به من أحدكم بغائبه يقدم عليه ، فيسألونه : ماذا فعل فلان ؟ قال : فيقولون : دعوه يستريح ، فإنه كان في غم الدنيا ، فإذا قال: أتاكم فيقولون : إنه ذهب به إلى أمه الهاوية ، وإن الكافر إذا احتضر أتته ملائكة العذاب بمسح ، فيقولون اخرجي مسخوطاً عليك إلى عذاب الله فتخرج كأنتن ريح جيفة حتى يأتوا به باب الأرض فيقولون : ما أنتن هذه الروح حتى يأتوا به أرواح الكفار»(١) . رواه النسائي والبزار ومسلم مختصراً .

(وأخرجه أبو حاتم في صحيحه) وقال : «إن المؤمن إذا حضره الموت حضرته ملائكة الرحمة ، فإذا قبض جعلت روحه في حريرة بيضاء فينطلق بها إلى باب السماء فيقولون : ما وجدنا ريحاً أطيب من هذه ،! فيقال : ما فعل فلان ؟ ما فعلت فلانة ؟ فيقال : دعوه يستريح فإنه كان في غم الدنيا ، وأما الكافر إذا قبضت نفسه ذهب بها إلى الأرض فتقول خزنة الأرض : ما وجدنا ريحاً أنتن من هذه ! فيبلغ بها إلى الأرض السفلى»(٢) .

(وروى) النسائي في سننه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : «هذا الذي تحرك له العرش ، وفتحت له أبواب السماء ، وشهد له

---

(١) [صحيح]: سبق تخريجه.

(٢) [صحيح]: رواه النسائي : كتاب: الجنائز، باب: ما يلقى به المؤمن من الكرامة عند خروج نفسه، (٨/٤:٩)، والحاكم : كتاب الجنائز، (٣٥٢/١: ٣٥٣)، وقال الذهبي في «التلخيص»: تابعه هشام الدستوائي عن قتادة، وقال همام بن يحيى عن قتادة عن أبي الجوزاء عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ بنحوه، والكل صحيح، وشاهدها حديث البراء (في كتاب الإيمان)، وصححه الألباني في «صحيح النسائي» : [١٧٢٩]، وانظر «الصحيحة» : [١٣٠٩]، «صحيح الجامع الصغير» ٤٩٠، ورواه ابن حبان أيضًا في صحيحه : كتاب: الجنائز، فصل : في الموت وما يتعلق به، [٣٠١٣، ٣٠١٤]، وصححه شعيب الأرنؤوط. وروى مسلم قريبًا من معناه : كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر، والتعوذ منه، [٢٨٧٢].

سبعون ألفاً من الملائكة ، لقد ضم ضمة ثم فرج عنه»[1]، قال النسائي : يعني سعد ابن معاذ .

(وروى) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «للقبر ضغطة لو نجا منها أحد لنجا منها سعد بن معاذ»[2] . رواه من حديث شعبة .

(١) [صحيح]: رواه النسائي : كتاب: الجنائز، باب: ضمة القبر وضغطته، (٤/ ١٠٠ : ١٠١)، وصححه الألباني في «صحيح النسائي» : [١٩٤٢]، وانظر «الصحيحة» : ١٦٩٥، و«صحيح الجامع» ٦٩٨٧، والحديث له أجزاء موجودة في المسند والصحيحين، وانظر لذلك «مسند الإمام أحمد» عن جابر -رضي الله عنه-: (٣/ ٣٢٧)، والبخاري : كتاب: مناقب الأنصار، باب: مناقب سعد بن معاذ -رضي الله عنه- [٣٨٠٣]، ومسلم : كتاب: فضائل الصحابة ، باب: من فضائل سعد بن معاذ -رضي الله عنه- ، [٢٤٦٦]، وابن حبان : كتاب: إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، رجالهم ونسائهم، باب: ذكر فتح أبواب السماء لوفاة سعد بن معاذ -رضي الله عنه-، [٧٠٣٣]، والحاكم في مستدركه : كتاب: معرفة الصحابة ، (٣/ ٢٠٦)، [٤٩٢٢، ٤٩٢٣، ٤٩٢٥]، وقال على أول رواية : هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، وقال الذهبي في «التلخيص»: على شرط مسلم، وقال الذهبي على الرواية الثانية في «التلخيص»: صحيح، وقال الحاكم خلف الثالثة : صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي في «التلخيص»: صحيح.

(٢) [ضعيف]: رواه أحمد : (٦/ ٥٥، ٩٨) ، من طريقين كلاهما عن سعد بن إبراهيم عن نافع عن إنسان مجهول عن عائشة -رضي الله عنها- ، وهو ضعيف لأمور ، منها : جهة من روى عن نافع. وهذا الحديث مع ضعفه فيه ثلاث دلالات :

الدلالة الأولى: أن ضمة القبر لن ينجو منها أحد أبدًا مهما كان صالحًا.

ثانيًا: أن الله عز وجل لو كان معافيًا أحدًا من ضمة القبر لكان أولى من يعافيه هو سعد بن معاذ -رضي الله عنه-.

ثالثًا: أن سيدنا سعد بن معاذ -رضي الله عنه- حدثت له ضمة القبر ثم فرج عنه.

وأما الفائدتان الأولى والثانية فلم أجد من النصوص الصحيحة ما يؤيد هاتين الفائدتين. ومن ثم فهما غير صحيحتين ما لم تكن هناك نصوص صحيحة تؤيدهما أو إحداهما ولم أصل إليهما بعد.

وأما الفائدة الثالثة وهي أن سعد -رضي الله عنه- حدثت له ضمة القبر، فهذا المعنى قد أشار إليه حديث صحيح، وقد سبق قريبًا ، وتم تخريجه عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- ، وفيه : «. . . لقد ضم ضمة ثم فرج عنه . . .» الحديث.

والأمر كما هو واضح فيه دلالة على وقوع ضمة القبر لسيدنا سعد -رضي الله عنه- ، وليست فيه إشارة أن هذه الضمة لابد أن تقع لكل أحد، ولربما وقعت لسيدنا سعد -رضي الله عنه- لأمر وقع منه بينه وبين الله -عز وجل- وهو من الأمور المستوجبة لهذه الضمة، هذا مع عظيم قدره ورفيع شأنه -رضي الله عنه- كما أشار إليهما العديد من النصوص الصحيحة ، وما فيها الحديث الذي=

وقال هناد بن السري : حدثنا محمد بن فضيل ، عن أبيه ، عن ابن أبي مليكة، قال : «ما أجير من ضغطة القبر أحد ولا سعد بن معاذ الذي منديل من مناديله خير من الدنيا وما فيها»(١) .

أحاديث ضغطة القبر:

قال : وحدثنا عبدة عن عبيد الله بن عمر ، عن نافع ، قال : لقد بلغني أنه شهد جنازة سعد بن معاذ سبعون ألف ملك لم ينزلوا إلى الأرض قط ، ولقد بلغني أن رسول الله ﷺ قال : «لقد ضم صاحبكم في القبر ضمة»(٢).

وقال علي بن معبد : حدثنا عبيد الله ، عن زيد بن أبي أنيسة ، عن جابر ، عن نافع ، قال : أتينا صفية بنت أبي عبيد امرأة عبد الله بن عمر وهي فزعة فقلنا: ما شأنك ؟ . فقالت : جئت من عند بعض نساء النبي ﷺ قالت : فحدثتني أن رسول الله ﷺ قال : «إن كنت لأرى لو أن أحداً أعفي من عذاب القبر لأعفي منه سعد بن معاذ، لقد ضم فيه ضمة»(٣) .

(وحدثنا) مروان بن معاوية عن العلاء بن المسيب ، عن معاوية العبسي ، عن زاذان(٤) بن عمرو قال : «لما دفن رسول الله ﷺ ابنته ، فجلس عند القبر فتربد

=جاء فيه خبر الضمة، نسأله تعالى برحمته التي وسعت كل شيء، وبرحمته التي سبقت غضبه أن ينظر إلينا نظرة رحمة، وعطف، وشفقة، وحنان فيرحم بها ضعفنا، وذلنا فيعصمنا من كل ما نستحق به العذاب في الدنيا أو القبر أو يوم القيامة وما بعده فمن أولى منه بذلك وهو أرحم الراحمين جل وعلا، آمين ، والله تعالى أعلى وأعلم.

(١) هذا أثر ، وإن صح لا تثبت به حجة، لا سيما وأن الحديث السابق الموافق له ضعيف جداً، وفيه دلالات فصلنا فيها القول بلا حول ولا قوة إلا بالله.

(٢) [صحيح]: سبق تخريجه.

(٣) [ضعيف]: لأمور منها: ضعف جابر بن يزيد بن الحارث الجُعفي، أبو عبد الله الكوفي، ضعيف، رافضي، من الخامسة، انظر «تقريب التهذيب» لابن حجر (١/ ١٢٣)، وقد وثقه بعض أهل العلم ثقة مشروطة بأن يقول: سمعت أو حدثنا وذلك كما قال زهير : كان جابراً إذا قال : سمعت أو سألت فهو من أصدق الناس، ولعله كان حسنًا ثم انقلبت حاله حتى إن هناك من كان يحدث عنه ثم تركه مثل عبد الرحمن، وعندما سئل عنه إمام أهل السنة والجماعة أبو عبد الله أحمد بن حنبل قال: تركه يحيى وعبد الرحمن وقال عنه يحيى بن معين: هو ضعيف. وعلى كلٍ فهو هنا لم يقل: حدثنا أو سمعت، فلا يقبل منه على جميع أقوال أهل العلم من وثقه أو ضعفه، والله أعلم.

(٤) هكذا كما في النسخة المطبوعة وزاذان ليس هو ابن عمر -رضي الله عنهما- بل كان يروي عنه هو أبو عمر الكندي البزاز، ويكنى عبد الله أيضًا.

وجهه ثم سري عنه فـقال له أصحابه : رأينا وجهك آنفاً ثـم سري فقال النبي ﷺ : ذكرت ابنتي وضـعفها وعـذاب القبر ، فدعـوت الله ، ففرج عنهـا ، وايم الله لقد ضمت ضمة سمعها من بين الخافقين[1] .

(وحدثنا) شعـيب عن ابن دينار عن إبراهيم الغنوي عن رجل قال : كنت عند عائشـة رضي الله عنها فمـرت جنازة صبي صغيـر فبكت فقلت لهـا ما يبكيك يا أم المؤمنين ؟ فقالت : هذا الصبي بكيت له شفقة عليه من ضمة القبر»[2] .

ومعلوم أن هذا كله للجسد بواسطة الروح .

[فصل]: في أن عذاب القبر حق باتفاق أهل السنة:

وهذا كمـا أنه مقتضى السنة الصـحيحة فـهو متفق عليـه بين أهل السنة . قال المروزي : قال أبو عبد الله : عذاب القبر حق لا ينكره إلا ضال أو مضل . وقال ابن حنبل : قلت لأبي عبد الله في عـذاب القبر فقال : هذه أحاديث صـحاح نؤمن بها ونقر بهـا، كلها جاءت عن النبي ﷺ بإسناد جـيد أقررنا به . إذا لم نقـر بما جاء به رسول الله ﷺ ودفعناه ورددناه على الله أمـره ، قال الله تعالى : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾[3] قلت له : وعذاب القـبر حق ؟ قال : حق ، يعذبون في القـبور . قال وسمعت أبا عبد الله يقول : نؤمن بعذاب القبر وبمنكر ونكير وأن العبد يسأل في قبره فـ ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾[4] في القبر .

وقال أحمد بن القاسم : قلت : يا أبا عـبد الله نقر بمنكر ونكير وما يروى في عذاب القـبر ؟ فقـال : سبحـان الله ، نعم نقر بذلك ونقـوله ، قلت : هذه اللفظة تقول منكر ونكير ، هكذا أو تقول ملـكين ؟ قال : منكر ونكير ، قلت : يقولون : ليس في حديث منكر ونكير ، قال : هو هكذا يعني أنهما منكر ونكير .

وأما أقوال أهل البدع والضلال فقال أبو الهذيل والمريسي : من خرج عن سمة

(١) [ضعيف]: لأمور منها: مروان بن معاوية بن الحارث، ثقـة حافظ، كان يدلس أسماء الشيوخ، وقد عنعن، انظر «تقريب التهذيب» : (٢/٢٣٩)، [١٠٢٦]، ومعاوية العبسي لم أقف له على ترجمة، وزاذان، صدوق كان يرسل ، وفيه شيعية، ولم يصرح هنا بالسماع من ابن عمر .

(٢) [ضعيف]: لأمور منها: جهالة الرجل الذي روى عنه إبراهيم الغنوي.

(٣) (الحشر/ ٧). (٤) (إبراهيم: ٢٧).

الإيمان فإنه يعذب بين النفختين ، والمسألة في القبر إنما تقع في ذلك الوقت . وأثبت الجبائي وابنه البلخي عذاب القبر ولكنهم نفوه عن المؤمنين وأثبتوه لأصحاب التخليد من الكفار والفساق على أصولهم . وقال كثير من المعتزلة : لا يجوز تسمية ملائكة الله بمنكر ونكير، وإنما المنكر ما يبدو من تلجلجه إذا سئل والنكير تقريع الملكين له.

وقال الصالحي: وصالح فيه عذاب القبر يجري على المؤمن من غير رد الأرواح إلى الأجساد ، والميت يجوز أن يألم ويحس ويعلم بلا روح ، وهذا قول جماعة من الكرامية .

وقال بعض المعتزلة : إن الله سبحانه يعذب الموتى في قبورهم ، ويحدث فيهم الآلام وهم لا يشعرون ، فإذا حشروا وجدوا تلك الآلام وأحسوا بها ، قالوا : وسبيل المعذبين من الموتى كسبيل السكران والمغشي عليه ، لو ضربوا لم يجدوا الآلام، فإذا عاد عليهم العقل أحسوا بألم الضرب . وأنكر جماعة منهم عذاب القبر رأساً مثل ضرار بن عمرو ويحيى بن كامل ، وهو قول المريسي ، فهذه أقوال أهل الخزي والضلالة .

[فصل] في أن عذاب القبر ينال من هو مستحق له قبر أو لم يقبر ، ولو أكلته السباع:

ومما ينبغي أن يعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه قبر أو لم يقبر ، فلو أكلته السباع أو أحرق حتى صار رماداً ونسف في الهواء أو صلب أو غرق في البحر وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى القبور .

ذكر عذاب القبر لمن يحدث بالكذب:

(وفي صحيح البخاري) عن سمرة بن جندب قال : كان النبي ﷺ إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال : "من رأى منكم الليلة رؤيا؟ قال : فإن رأى أحد رؤيا قصها فيقول : ما شاء الله ، فسألنا يوماً فقال : هل رأى أحد منكم رؤيا ؟ قلنا : لا، قال: لكني رأيت الليلة رجلين أتياني ، فأخذا بيدي ، وأخرجاني إلى الأرض المقدسة، فإذا رجل جالس ورجل قائم بيده كلوب من حديد يدخله في شدقه حتى يبلغ قفاه ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك ويلتئم شدقه هذا فيعود فيصنع مثله ،

قلت: ما هذا ؟ قالا : انطلق فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه ورجل قائم على رأسه بصخرة أو فهر فيشدخ بها رأسه فإذا ضربه تدهده الحجر فانطلق إليه ليأخذه ، فلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه وعاد رأسه كما هو ، فعاد إليه فضربه. قلت : ما هذا ؟ قالا ، انطلق فانطلقنا إلى نقب مثل التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يوقد تحته نار فإذا فيه رجال ونساء عراة فيأتيهم اللهب من تحتهم، فإذا اقترب ارتفعوا حتى كادوا يخرجوا فإذا خمدت رجعوا ، فقلت : ما هذا ؟ قالا : انطلق فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم وعلى وسط النهر رجل بين يديه حجارة ، فأقبل الرجل الذي في النهر ، فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر في فيه فرده حيث كان ، فجعل كلما جاء ليخرج رمى في فيه بحجر فرجع كما كان ، فقلت : ما هذا ؟ قالا : انطلق فانطلقنا حتى أتينا إلى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة وفي أصلها شيخ وصبيان ، وإذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها، فصعدا بي الشجرة وأدخلاني داراً لم أر قط أحسن منها ، فيها شيوخ وشبان ، ثم صعدا بي فأدخلاني داراً هي أحسن وأفضل ، قلت : طوفتماني الليلة فأخبراني عما رأيت ، قالا : نعم . الذي رأيته يشق شدقه كذاب يحدث بالكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق فيصنع به إلى يوم القيامة ، والذي رأيته يشدخ رأسه فرجل علمه الله القرآن فنام عنه بالليل ولم يعمل به بالنهار يفعل به إلى يوم القيامة ، وأما الذي رأيت في النقب فهم الزناة ، والذي رأيته في النهر فآكل الربا . وأما الشيخ الذي في أصل الشجرة فإبراهيم والصبيان حوله فأولاد الناس ، والذي يوقد النار فمالك خازن النار، والدار الأولى دار عامة المؤمنين ، وأما هذه الدار فدار الشهداء وأنا جبريل وهذا ميكائيل ، فارفع رأسك فرفعت رأسي فإذا قصر مثل السحابة قالا : ذلك منزلك ، قلت : دعاني أدخل منزلي ، قالا : إنه بقي لك عمر لم تستكمله فلو استكملته أتيت منزلك»(١) .

وهذا نص في عذاب البرزخ فإن رؤيا الأنبياء وحي مطابق لما في نفس الأمر .

(١) [صحيح]: رواه أحمد : (٥/٨: ٩، ١٤: ١٥)، والبخاري : كتاب الجنائز، باب: [٩٣]، [١٣٨٦]، [٧٠٤٧]، ومسلم : كتاب الرؤيا، باب: رؤيا النبي ﷺ ، [٢٢٧٥]، والترمذي : كتاب الرؤيا، باب: ما جاء في رؤيا النبي ﷺ الميزان والدلو، [٢٢٩٤]، وابن حيان : كتاب: الرقائق، باب: الخوف والتقوى، ذكر ما يجب على المرء من مجانبته من أفعال يتوقع لمرتكبها العقوبة في العقبى بها، [٦٥٥].

عذاب من صلى بغير طهور، أو مر على مظلوم فلم ينصره:

(وقد ذكر)(١) الطحاوي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : «أمر بعبد من عباد الله أن يضرب في قبره مائة جلدة فلم يزل يسأل الله ويدعوه حتى صارت واحدة فامتلأ قبره عليه ناراً فلما ارتفع عنه أفاق فقال علام جلدتموني ؟ قالوا : إنك صليت صلاة بغير طهور ومررت على مظلوم فلم تنصره»(٢) .

ذكر قصة الإسراء:

(وذكر البيهقي) حديث الربيع بن أنس عن أبي العالية ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ هذه الآية : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾(٣) إلا أنه قال: أتي بفرس فحمل عليه قال : "كل خطوة منتهى أقصى بصره ، فسار وسار معه جبريل ، فأتى على قوم يزرعون في يوم ما يحصدون في يوم كلما حصدوا عاد كما كان ، فقال : يا جبريل من هؤلاء؟ قال : هؤلاء المهاجرون في سبيل الله يضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾(٤) .

عذاب متهاوني الصلاة:

ثم أتى على قوم ترضخ رءوسهم بالصخر كلما رضخت عادت كما كانت لا يفتر عنهم شئ من ذلك ، قال : يا جبريل من هؤلاء؟ قال : هؤلاء الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة.

---

(١) بل قد روي.

(٢) [حسن]: رواه الطحاوي في شرح مشكل الآثار باب بيان مشكل ما روي عن رسول الله ﷺ في الذي أمر بجلده في قبره مائة جلدة فلم يزل يسأل ويدعو حتى رُدَّ إلى جلدة واحدة (٨/ ٢١٢) [٣١٨٥].

(٣) (الإسراء/ ١).

(٤) [ضعيف]: رواه ابن جرير الطبري في تفسيره عن علي بن سهل ثنا الحجاج قال: أخبرنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية الرياحي عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أو غيره -شك أبو جعفر- .... الحديث مطولاً، والحديث ضعيف لأمور ، منها : وجود أبو جعفر هو أبو جعفر الرازي، التميمي، مولاهم، عيسى بن أبي عيسى عبد الله بن ماهان، وأصله من مرو، صدوق، سيء الحفظ، وقال أحمد والنسائي: ليس بالقوي، وكان ابن المديني يقول: ثقة كان يخلط وقال الفلاس: سيئ الحفظ، وقال ابن حبان : ينفرد بالمناكير عن المشاهير، وقال أبو زرعة: يهم كثيراً، وقال الذهبي : وروى حاتم بن إسماعيل، وهاشم أبو النضر، وحجاج بن محمد، وغيرهم عن أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية ، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أو غيره، عن النبي ﷺ حديثًا طويلاً في المعراج فيه ألفاظ منكرة.

عذاب مانعي الزكاة:

قال : ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الأنعام على الضريع(١) ، والزقوم(٢) ، ورضف جهنم(٣) وحجارتها قال : ما هؤلاء يا جبرائيل ؟ قال : هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم وما ظلمهم الله، وما الله بظلام للعبيد .

عذاب الزناة المحصنين بالزواج(٤):

ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم من قدر نضيج ولحم آخر خبيث فجعلوا يأكلون من الخبيث ويدعون النضيج الطيب ، فقال : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هذا الرجل يقوم وعنده امرأة حلالاً طيباً فيأتي المرأة الخبيثة فتبيت معه حتى تصبح .

عذاب خائن الأمانة(٤):

ثم أتى على خشبة على الطريق لا يمر بها شئ إلا قصفته يقول الله تعالى : ﴿وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾(٥) ثم مر على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها وهو يريد أن يزيد عليها قال : يا جبريل ما هذا ؟ قال : هذا رجل من أمتك عليه أمانة لا يستطيع أداءها وهو يزيد عليها .

عذاب خطباء الفتنة(٤):

ثم أتى على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت كما كانت لا يفتر عنهم شئ ، قال : يا جبريل من هؤلاء؟ قال : هؤلاء خطباء الفتنة.

عذاب من لا يضبط لسانَه:

ثم أتى على جحر صغير يخرج منه نور عظيم فجعل النور يريد أن يدخل من

(١) الضَّرِيعُ: نبات أخضر مُنْتِن خفيف يرمى به البحر وله جوف انظر «لسان العرب»(٤/ ٢٥٨١) بتصرف.

(٢) الزَّقُّوم: كل طعام يقتل، وقد ذم الله الشجرة التي سُمِّيت بذلك في القرآن بقوله تعالى: ﴿إن شجرة الزقوم . طعام الأثيم . كالمهل يغلي في البطون . كغلي الحميم﴾ (الدخان/ ٤٣ : ٤٦). وغير ذلك من المواضع في القرآن الحكيم، نعوذ بالله منها ، ومن أهلها، آمين يا أرحم الراحمين.

(٣) الرَّضْف: الحجارة التي حَمِيت بالشمس أو النار مفردها رَضْفَةٌ. انظر «لسان العرب»(٣/ ١٦٦١) بتصرف.

(٤) هذه العناوين لم تكن بالنسخة المطبوعة ، وإنما وضعتها تماشيًا مع سائر العناوين الموضوعة.

(٥) (الأعراف/ ٨٦).

حيث خرج ولا يستطيع ، قال : ما هذا يا جبريل ؟ قال هذا الرجل يتكلم بالكلمة فيندم عليها فيريد أن يردها فلا يستطيع » وذكر الحديث[(١)] .

وذكر البيهقي أيضاً في حديث الإسراء من رواية أبي سعيد الخدري « عن النبي ﷺ قال : فصعدت أنا وجبريل فاستفتح جبريل فإذا بآدم كهيئته يوم خلقه الله على صورته تعرض عليه أرواح ذريته المؤمنين فيقول : روح طيبة ونفس طيبة اجعلوها في عليين ثم تعرض عليه أرواح ذريته الفجار فيقول : روح خبيثة ونفس خبيثة اجعلوها في سجين ، ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بأخونة[(٢)] عليها لحم مشرح ليس بقربها أحد، وإذا أخوانة أخرى عليها لحم قد أروح ونتن وعندها ناس يأكلون منها قلت : يا جبريل من هؤلاء؟ قال : هؤلاء يتركون الحلال ويأتون الحرام، قال : ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بأقوام بطونهم أمثال البيوت كلما نهض أحدهم خر يقول : اللهم لا تقم الساعة، قال : وهم على سابلة آل فرعون قال فتجيء السابلة فتطؤهم فيصيحون، قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء : ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾ قال : ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بقوم مشافرهم كمشافر الإبل فتفتح أفواههم فيلقمون الجمر ثم يخرج من أسافلهم فسمعتهم يصيحون قلت : من هؤلاء ؟ قال : ﴿الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾ ، ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بنساء معلقات بثديهن فسمعتهن يصحن . قلت : من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الزواني ، ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بقوم يقطع من جنوبهم اللحم فيلقمون فيقال : كل كما كنت تأكل لحم أخيك ، قلت : من هؤلاء؟ قال : الهمازون من أمتك»[(٣)] وذكر الحديث بطوله .

---

(١) سبق تخريجه ، وهو ضعيف.

(٢) أَخْوِنَةٌ: جمع قليل مفرده : خُوَانٌ، خِوَانٌ: وهو الذي يؤكل عليه، وجمع الكثرة له : خُونٌ. انظر «لسان العرب» : (٢/ ١٢٩٥).

(٣) [ضعيف جدًا]: رواه ابن جرير الطبري في تفسيره : (١٥/ ١٠ : ١٢) مطولاً جدًا، وهو ضعيف جدًا، لأمور ، منها: لوجود أبي هارون العبدي، وهو عمارة بن جوين، كذبه حماد بن زيد، وقال شعبة: لئن أقدم فتضرب عنقي أحب إليّ من أن أحدث عن أبي هارون، وقال أحمد: ليس بشيء، وقال ابن معين: ضعيف، لا يصدق في حديثه، وقال النسائي: متروك الحديث، وقال الدارقطني: متلون خارجي وشيعي. وقال ابن حبان عنه : كان يروي عن أبي سعيد ما ليس من حديثه، قال الجوزجاني: أبو هارون كذاب مفتر، وعن شعبة أنه قال: أتيت أبا هارون فقلت له : أخرج إليّ ما سمعته من أبي سعيد، فأخرج إليّ كتابًا ، فإذا فيه : حدثنا أبو سعيد أن عثمان أدخل حفرته، وإنه لكافر بالله فدفعت الكتاب في يده وقمت، وكفاه بذلك خبلاً وشرًا ، نعوذ بالله من ذلك الخذلان.

وفي سنن أبي داود من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»(١) .

وقال أبو داود الطيالسي في مسنده ، حدثنا شعبة ، عن الأعمش ، عن مجاهد، عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ أتى على قبرين فقال : «إنهما ليعذبان في غير كبير أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس وأما الآخر فكان صاحب نميمة ، ثم دعا بجريدة فشقها نصفين فوضع نصفها على هذا القبر ونصفها على هذا القبر وقال: عسى أن يخفف عنهما ما دامتا رطبتين»(٢) .

وقد اختلف الناس في هذين هل كانا كافرين أو مؤمنين ؟ فقيل: كانا كافرين وقوله : وما يعذبان في كبير يعني بالإضافة إلى الكفر والشرك قالوا : ويدل عليه أن العذاب لم يرتفع عنهما وإنما خفف ، وأيضاً فإنه خفف مدة رطوبة الجريدة فقط ، وأيضاً فإنهما لو كانا مؤمنين لشفع فيهما ودعا لهما النبي ﷺ فرفع عنهما بشفاعته ، وأيضاً ففي بعض طرق الحديث أنهما كانا كافرين ، وهذا التعذيب زيادة على تعذيبهما بكفرهما وخطاياهما وهو دليل على أن الكافر يعذب بكفره وذنوبه جميعاً . وهذا اختيار أبي الحكم بن برخان .

وقيل : كانا مسلمين لنفيه ﷺ التعذيب بسبب غير السببين المذكورين ولقوله: وما يعذبان في كبير والكفر والشرك أكبر الكبائر على الإطلاق ولا يلزم أن يشفع النبي ﷺ لكل مسلم يعذب في قبره على جريمة من الجرائم ، فقد أخبر عن صاحب الشملة(٣) الذي قتل في الجهاد أن الشملة تشتعل عليه ناراً في قبره وكان مسلماً مجاهداً، ولا يعلم ثبوت هذه اللفظة وهي قوله كانا كافرين ، ولعلها لو صحت

(١) [صحيح]: رواه أحمد : (٣/ ٢٢٤)، وأبو داود : كتاب : الأدب، باب: في الغيبة، [٤٨٧٨]، وصححه الألباني ، انظر «الصحيحة» : [٥٣٣].

(٢) [صحيح]: وهو في «المسند» للإمام أحمد، والصحيحين، بل الكتب الستة وغيرها أيضًا. وموضعه في مسند أبي داود ص ٣٤٤، [٢٦٤٦]، وقد سبق تخريجه قريبًا.

(٣) يشير إلى الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة -رضي الله عنه- قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ عام خيبر، فلم نغنم ذهبًا ولا ورقًا، إلا الأموال الثياب والمتاع، قال: فأهدى رفاعة بن زيد لرسول الله ﷺ غلامًا أسود، يقال له : مِدْعَم ، فوجه رسول الله ﷺ إلى وادي القرى، حتى إذا كنا بوادي القُرى بينما مِدْعَم يحط رحل رسول الله ﷺ إذ جاءه سهم غائر، فأصابه فقتله، فقال =

[وكلا][1] فهي من قول بعض الرواة ، والله أعلم .

وهذا اختيار أبي عبد الله القرطبي .



=الناس: هنيئًا له الجنة، فقال رسول الله ﷺ : «كلا والذي نفسي بيده، إن الشملة التي أخذ يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه نارًا» قال: فلما سمع الناس ذلك، جاء رجل بشراك أو شراكين إلى رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : «شراك من نار أو شراكان من نار» [حديث صحيح] وَجَّه: توجه. عائر: لا يُدرى من رمى به، أو هو المنفلت من صاحبه كالحائد عن هدفه، انظر «لسان العرب» : (٤/ ٣١٨٥: ٣١٨٩) بتصرف، والشملة: هي الكساء يلف على الجسد بغير إخراج يد، وقيل: إنها تسمى شملة إذا كان لها هدب، انظر «فتح الباري» : (١٤/ ١٤٠) بتصرف، شراك: هو سَيْر النعل على ظهر القدم.

والحديث رواه مالك في موطأه: كتاب: الجهاد، باب: ما جاء في الغلول، [٢٥]، والبخاري: كتاب: المغازي ، باب: غزوة خيبر ، [٤٢٣٤]، [٦٧٠٧]، ومسلم : كتاب: الإيمان، باب: غلظ تحريم الغلول، [١١٥]، وأبو داود : كتاب: الجهاد، باب: في تعظيم الغلول، [٢٧١١]، والنسائي: كتاب: الأيمان والنذور، باب: هل تدخل الأرضون في المال إذا نذر، (٧/ ٢٤)، وابن حبان : كتاب: السير ، باب: الغلول، ذكر نفي دخول الجنان عن الشهيد في سبيل الله إذا كان قد غل، وإن كان ذلك الغلول شيئًا يسيرًا ، [٤٨٥١] .

وما أعظم ما في هذا الحديث من الدلالة والدحض لمزاعم أهل الإرجاء -قبحهم الله- القائلين بأنه لا يضر مع الإيمان ذنب ما لم يستحله، فهذا مؤمن ، بل وثبتت له الصحابة، والشهادة في سبيل الله، ومع ذلك لم يعصمه توحيده ولا إيمانه ولا صحبته ولا شهادته مع معقوبة ما جنت يداه، اللهم سلم سلم، وامتن علينا برحمتك بتوبة نصوحة لا تؤاخذنا بها على ذنب في الدنيا ولا في الآخرة، آمين يا رب العالمين.

(١) هكذا بالمطبوعة، وأحسبها خطأ مطبعيًا.

المسألة السابعة

الرد على الملاحدة والزنادقة المنكرين لعذاب القبر ونعيمه، وما يتعلق بهما

وأما المسألة السابعة : وهي قول السائل : ما جوابنا للملاحدة والزنادقة المنكرين لعذاب القبر ، وسعته ، وضيقه ، وكونه حفرة من حفر النار، أو روضة من رياض الجنة ، وكون الميت لا يجلس ولا يقعد فيه .

قالوا : فإنا نكشف القبر فلا نجد فيه ملائكة عمياً صماً يضربون الموتى بمطارق من حديد، ولا نجد هناك حيات ولا ثعابين ولا نيراناً تأجج ، ولو كشفنا حاله في حالة من الأحوال لوجدناه لم يتغير ، ولو وضعنا على عينيه الزئبق وعلى صدره الخردل لوجدناه على حاله ، وكيف يفسح مد بصره أو يضيق عليه ونحن نجده بحاله ونجد مساحته على حد ما حفرناها لم يزد ولم ينقص ، وكيف يسع ذلك اللحد الضيق له وللملائكة وللصورة التي تؤنسه أو توحشه ؟ قال إخوانهم من أهل البدع والضلال : وكل حديث يخالف مقتضى العقول والحس يقطع بتخطئة قائله ، قالوا : ونحن نرى المصلوب على خشبة مدة طويلة لا يسأل ، ولا يجيب ، ولا يتحرك ، ولا يتوقد جسمه ناراً ، ومن افترسته السباع ونهشته الطيور وتفرقت أجزاؤه في أجواف السباع وحواصل الطيور وبطون الحيتان ومدارج الرياح ، كيف تسأل أجزاؤه مع تفرقها ؟ ! وكيف يتصور مسألة الملكين لمن هذا وصفه ؟! وكيف يصير القبر على هذا روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار ؟! وكيف يضيق عليه حتى تلتئم أضلاعه ؟! ونحن نذكر أموراً يعلم بها الجواب .

[فصل] في ذكر الأمور التي يعلم بها الجواب للملاحدة والزنادقة:

(الأمر الأول): أن يعلم أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم لم يخبروا بما تحيله العقول وتقطع باستحالته بل إخبارهم قسمان :

(أحدهما): ما تشهد به العقول والفطن .

و(الثاني): ما لا تدركه العقول بمجردها كالغيوب التي أخبروا بها عن تفاصيل

البرزخ واليوم الآخر ، وتفاصيل الثواب والعقاب ، ولا يكون خبرهم محالاً في العقول أصلاً ، وكل خبر يظن أن العقل يحيله فلا يخلو من أحد أمرين ، إما يكون الخبر كذباً عليهم أو يكون ذلك العقل فاسداً وهو شبهة خيالية يظن صاحبها أنها معقول صريح ، قال تعالى : ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾(١) وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾(٢) وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾(٣) والنفوس لا تفرح بالمحال ، وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾(٤) والمحال لا يشفي ولا يحصل به هدى ولا رحمة ولا يفرح به. فهذا أمر من لم يستقر في قلبه خير ولم يثبت له على الإسلام قدم وكان أحسن أحواله الحيرة والشك .

[فصل] (الأمر الثاني) :

أن يفهم عن الرسول ﷺ مراده ، من غير غلو ولا تقصير ، فلا يحمل كلامه ما لا يحتمله ولا يقصر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان .

وقد حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب وما لا يعلمه إلا الله ، بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام ، بل هو أصل كل خطأ في الأصول والفروع ولا سيما إن أضيف إليه سوء القصد، فيتفق سوء الفهم في بعض الأشياء من المتبوع مع حسن قصده وسوء القصد من التابع ، فيا محنة الدين وأهله ! والله المستعان .

وهل أوقع القدرية، والمرجئة، والخوارج، والمعتزلة، والجهمية، والرافضة، وسائر طوائف أهل البدع إلا سوء الفهم عن الله ورسوله حتى صار الدين بأيدي أكثر الناس هو موجب هذه الأفهام ، والذي فهمه الصحابة ومن تبعهم عن الله ورسوله فمهجور لا يلتفت إليه ولا يرفع هؤلاء به رأساً . ولكثرة أمثلة هذه القاعدة تركناها فإنا لو ذكرناها لزادت على عشرة ألوف حتى أنك لتمر على الكتاب من أوله إلى

---

(١) (سبأ/ ٦). (٢) (الرعد/ ١٩).

(٣) (الرعد/ ٣٦). (٤) (يونس/ ٥٧ : ٥٨).

آخره فلا تجد صاحبه فهم عن الله ورسوله ومراده كما ينبغي في موضع واحد .

وهذا إنما يعرفه من عـرف ما عند الناس ، وعرضه على مـا جاء به الرسول ، وأما من عكس الأمر بعرض مـا جاء به الرسول على ما اعتقده وانـتحله وقلد فيه من أحسن به الظن فليس يجدي الكلام معـه شيئاً فدعه وما اختـاره لنفسه ووله ما تولى واحمد الذي عافاك مما ابتلاه به .

[فصل] (الأمر الثالث) : توجيه لطيف في إثبات عذاب القبر:

أن الله سبـحانه جعل الدور ثلاثاً ، دار الدنيا ، ودار البـرزخ ، ودار القرار ، وجعل لكل دار أحكامـاً تختص بها ، وركب هذا الإنسـان من بدن ونفس ، وجعل أحكام دار الدنيا على الأبدان ، والأرواح تبـعاً لها ، ولهـذا جعل أحكامه الشرعـية مرتبـة على ما يظهر من حـركات اللسان والجـوارح وإن أضمرت النفوس خـلافه . وجعل أحكام البـرزخ على الأرواح والأبدان تبعاً لها ، فكمـا تبعت الأرواح الأبدان في أحكام الدنيا فتألمت بألمـها والتذت براحتها وكانت هي التي باشـرت أسباب النعيم والعذاب تبعت الأبدان الأرواح في نعيمها وعـذابها ، والأرواح حينئذ هي التي تباشر العذاب والـنعيم ، فـالأبدان هنا ظاهرة والأرواح خفـية ، والأبدان كـالقبـور لها ، والأرواح هناك ظاهرة والأبدان خفية في قـبورها ، تجري أحكام البرزخ على الأرواح فتسـري إلى أبدانها نعيـماً أو عذاباً كمـا تجري أحكام الدنيا على الأبدان فتـسري إلى أرواحها نعيـماً أو عذاباً ، فأحط بهذا الموضع علماً واعرفـه كما ينبغي يزيل عنك كل إشكال يورد عليك من داخل وخارج .

وقد أرانا الله سـبحانه بلطفه ورحـمته وهدايته من ذلك أنموذجـاً في الدنيا من حال النائم ، فإن مـا ينعم به أو يعذب في نومه يجري على روحـه أصلاً والبدن تبع له، وقد يقـوى حتى يؤثر في البدن تـأثيراً مشـاهداً فيرى النائم في نومـه أنه ضرب فيصبح وأثر الضـرب في جسمه ، ويرى أنه قد أكل أو شرب فيسـتيقظ وهو يجد أثر الطعام والشراب في فيه ويذهب عنه الجوع والظمأ.

وأعجب من ذلك أنك ترى النائم يقوم في نومـه ويضرب ويبطش ويدافع كأنه يقظان ، وهو نـائم لا شـعـور له بشيء من ذلك ، وذلك أن الحـكم لما جـرى على الروح استـعانت بالبدن من خارجـه ولو دخلت فيه لاسـتيقظ وأحسن ، فـإذا كانت

الروح تتألم وتتنعم ويصل ذلك إلى بدنها بطريق الاستتباع ، فهكذا في البرزخ بل أعظم ، فإن تجرد الروح هنالك أكمل وأقوى وهي متعلقة ببدنها لم تنقطع عنه كل الانقطاع ، فإذا كان يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد ظاهراً أبدياً أصلاً .

ومتى أعطيت هذا الموضع حقه تبين لك أن ما أخبر به الرسول من عذاب القبر ونعيمه وضيقه وسعته وضمه وكونه حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة مطابق للعقل ، وأنه حق لا مرية فيه ، وأن من أشكل عليه ذلك فمن سوء فهمه وقلة علمه أتى كما قيل :

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

وأعجب من ذلك أنك تجد النائمين في فراش واحد ، وهذا روحه في النعيم ويستيقظ وأثر النعيم على بدنه، وهذا روحه في العذاب ويستيقظ وأثر العذاب على بدنه ، وليس عند أحدهما خبر بما عند الآخر ، فأمر البرزخ أعجب من ذلك .

[فصل] (الأمر الرابع) : قصة سلام الملائكة على المحتضر وجوابه:

أن الله سبحانه جعل أمر الآخرة وما كان متصلاً بها غيباً ، وحجبها عن إدراك المكلفين في هذه الدار ، وذلك من كمال حكمته ، وليتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم ، فأول ذلك أن الملائكة تنزل على المحتضر وتجلس قريباً منه ويشاهدهم عياناً ويتحدثون عنده ومعهم الأكفان والحنوط إما من الجنة وإما من النار ، ويؤمنون على دعاء الحاضرين بالخير والشر ، وقد يسلمون على المحتضر ويرد عليهم تارة بلفظه وتارة بإشارته وتارة بقلبه حيث لا يتمكن من نطق ولا إشارة .

(وقد سمع) بعض المحتضرين يقول أهلاً وسهلاً ومرحباً بهذه الوجوه .

(وأخبرني) شيخنا[١] عن بعض المحتضرين فلا أدري أشاهده أو أخبر عنه أنه سمعه وهو يقول : عليك السلام هاهنا فاجلس ، وعليك السلام هاهنا فاجلس .

(١) هو: شيخ الإسلام ، الإمام، العالم الرباني، والحبر البحر، القطب النوراني، إمام الأئمة، مفتي الأمة، وبركتها، سيد الحفاظ، علامة العلماء، قريعة الدهر، ووريث الأنبياء، حجة الله على عباده، الجامع بين العلوم النقلية والعقلية، حجة الأعلام، برهان المتعلمين، قامع المبتدعين، سيف المناظرين، بحر العلوم، كنز المستفيدين، ترجمان القرآن، أعجوبة الزمان، فريد العصر والأوان، تقي الدين، أحمد بن عبد الحليم ، المعروف بابن تيمية الحراني، ثم الدمشقي، أبو العباس بن شهاب =

قصة خبر النساج رحمه الله:

(وقصة) خبر النساج رحـمه الله مشهورة حيث قال عند الموت : اصـبر عافاك الله فإن ما أمرت به لا يفوت وما أمرت به يفوت ، ثم استدعى بماء فتوضأ وصلى ثم قال : امض لما أمرت به ومات .

قصة وفاة عمر بن عبد العزيز: (وذكر) ابن أبي الدنيا أن عمر بن عبد العزيز لما كان في يومـه الذي مات فـيه قال : أجلسـوني، فأجلسـوه فقال : أنـا الذي أمرتني فقـصرت ، ونهيتني فـعصيت ، (ثلاث مـرات) ولكن لا إله إلا الله ، ثم رفع رأسه فأحـد النظر ، فـقالوا : إنك لتنظر نظراً شـديداً يا أميـر المؤمنين فقـال : إني لأرى حضرة ما هم بإنس ولا جن ، ثم قبض .

وقال مسلمة بن عبد الملك لما احتضر عمر بن عبد العزيز كنا عنده في قبة فأومأ إلينا أن اخرجوا ، فخـرجنا ، فقعدنا حول القبة وبقي عنده وصيف ، فـسمعناه يقرأ هذه الآية : ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] ما أنتم بإنس ولا جـان ، ثم خرج الوصيف فأومـأ إلينا أن ادخلوا فدخلنا

= الدين، قال عنه الذهبي : «قرأ القرآن، والفقه، وناظر، واستدل وهو دون البلوغ، وبرع في العلم والتفـسير وأفـتى ودرس وهو دون العشرين، وصنف التـصانيف وصار من كـبار العلماء في حـياة شيـوخه، وتصانيـفه تزيد على أربعة آلاف كـراسة، وكان دائم الابتـهال ، كثيـر الاستغـاثة، قوي التوكل، رابط الجأش، له أوراد وأذكار يدمنـها، وكان يذكر الله تعالى بعد الفجـر في مصلاه حتى الضحى، وعندما رآه تلميـذه ابن القيم، قال: هذه غدوتي لو تركتها خـارت قواي. وكان ابن القيم يذهب إليه مع بعض تلامذته في المحن العـظيمة، والكرب الشنيعة، فينقلبـون من عنده، وقد فرج الله كربهم، وثبـتهم في محنهم هذا مع ما كـان هو فيه من الحبس، والتهـديد، والترويع، وترقب القتل من شـدة الافتراءات ، والتـهم الباطلة من قـبل علماء السوء الحـاقدين، رد الله كـيدهم في نحرهم، وكان قـدس الله روحه فائقًا في كل علم وفن على أبرع أبنائه والمنفـردين بدراسته، وليس لي أن أطمع في شيء من الإتيـان على بعض شمائله، وفـضائله، فليس لي إلى ذلك سـبيل، ولا غيري، ومن أعظم تلامذتـه الإمام ابن القيم، وكان -قدس الله روحه- سببًا في هداية ابن القيم ، ورده إلى عقيـدة السلف الصالح، بغيـر تعطيل ولا تأويل، وكان ابن القيم أنجب تلامذتـه وأكثرهم صحبة له، فلزمه سـبعة عشر سنة لا يفارقه إلى غيره ، حتى إنه حُبِس معه منفردًا عنه، ولم يفرج عنه إلا بعـد موت شيـخه ابن تيـميـة -قدس الله روحـه- ، وله ترجمـة موسعـة عن ذلك، انظر «مختصر الصواعق المرسلة» بتحقيقنا ، طبعة المكتبة التوفيقية.

(١) (القصص/ ٨٣).

فإذا هو قد قبض .

وقال فضالة بن دينار: حضرت محمد بن واسع وقد سجى للموت ، فجعل يقول : مرحباً بملائكة ربي ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وشممت رائحة طيب لم أشم قط أطيب منها ، ثم شخص ببصره فمات .

والآثار في ذلك أكثر من أن تحصر وأبلغ ويكفي من ذلك كله قول الله عز وجل : ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾[1] أي أقرب إليه بملائكتنا ورسلنا ، ولكنكم لا ترونهم ، فهذا أول الأمر وهو غير مرئي لنا ولا مشاهد وهو في هذه الدار.

ثم يمد الملك يده إلى الروح فيقبضها ويخاطبها والحاضرون لا يرونه ولا يسمعونه ، ثم تخرج فيخرج لها نور مثل شعاع الشمس ورائحة أطيب من رائحة المسك والحاضرون لا يرون ذلك ولا يشمونه .

ثم تصعد بين سماطين من الملائكة والحاضرون لا يرونهم .

ثم تأتي الروح فتشاهد غسل البدن وتكفينه ، وحمله ، وتقول : قدموني قدموني ، أو إلى أين تذهبون بي ؟ ولا يسمع الناس ذلك ، فإذا وضع في لحده وسوي عليه التراب لم يحجب التراب الملائكة عن الوصول إليه بل لو نقر له حجر فأودع فيه وختم عليه بالرصاص لم يمنع وصول الملائكة إليه فإن هذه الأجسام الكثيفة لا تمنع خرق الأرواح لها ، بل الجن لا يمنعها ذلك ، بل قد جعل الله سبحانه الحجارة والتراب للملائكة بمنزلة الهواء للطير واتساع القبر وانفساحه للروح بالذات والبدن تبعاً فيكون البدن في لحد أضيق من ذراع وقد فسح له مد بصره تبعاً لروحه ، وأما عصرة القبر حتى تختلف بعض أجزاء الموتى فلا يرده حس ولا عقل ولا فطرة ، ولو قدر أن أحداً نبش عن ميت فوجد أضلاعه كما هي لم تختلف لم يمنع أن تكون قد عادت إلى حالها بعد العصرة فليس مع الزنادقة والملاحدة إلا مجرد تكذيب الرسول ﷺ .

ولقد أخبر بعض الصادقين أنه حفر ثلاثة أقبر فلما فرغ منها اضطجع ليستريح فرأى فيما يرى النائم ملكين نزلا فوقفا على أحد الأقبر فقال أحدهما لصاحبه :

---

(١) (الواقعة/ ٨٣: ٨٥).

اكتب فـرسخاً في فـرسخ ، ثم وقف على الثاني فقـال : اكتب ميـلاً في ميل ، ثم وقف على الثالث فقال : اكتب فتراً في فتر ، ثم انتبه فجيء برجل غريب لا يؤبه له فدفن في القبـر الأول ، ثم جيء برجل آخر فدفن في القبـر الثاني ، ثم جيء بامرأة مترفة من وجوه البلد حـولها ناس كثير ، فدفنت في القبر الضـيق الذي سمعه يقول فتراً في فتر والفتر ما بين الإبهام والسبابة .

[فصل] (الأمر الخامس والسادس):

أن النار التي في القـبـر والخـضرة ليـست من نار الدنيـا ولا من زروع الدنيـا فيشاهده من شاهد نار الدنيا وخضرها ، وإنما هي من نار الآخرة وخضرها وهي أشد من نار الدنيا، فـلا يحس به أهل الدنيا، فإن الله سـبحانه يحمي عليـه ذلك التراب والحجارة التي عليه وتحته حتى يكون أعظم حـراً من جمر الدنيا ولو مسها أهل الدنيا لم يحسـوا بذلك ، بل أعجب من هذا أن الرجلين يدفنان أحدهمـا إلى جنب الآخر وهذا في حفرة من حفـر النار لا يصل حرها إلى جاره ، وذلك في روضة من رياض الجنة لا يصل روحهـا ونعيـمها إلى جـاره . وقدرة الرب تعالـى أوسع وأعجب من ذلك، وقد أرانا الله من آيات قدرته في هذه الدار ما هو أعجب من ذلك بكثير ولكن النفوس مولعة[1] بالتكذيب بما لم تحط به علماً إلا من وفـقه الله وعصمه . فـيفرش للكافر لوحـان من نار فيشـتعل عليـه قبره بهـما كما يـشتعل التنور ، فـإذا شاء الله سبحـانه أن يطلع على ذلك بعض عبيده أطلعـه وغيبه عن غيـره ، إذ لو أطلع العباد كلهم لزالت كلمة التكليف ، والإيمان بالغيب ، ولما تدافن الناس كما في الصحيحين عنه ﷺ : «لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمع»[2] .

(١) مُولَعَة: مُغراة أو متعلقة بشيء تعلقًا شديدًا، انظر «لسان العرب»: (٦/ ٤٩١٦ : ٤٩١٧) بتصرف.

(٢) [صحيح]: وهو من حديث أبي سـعيد الخـدري -رضي الله عنه- قال: بينما نـحن في حائط لبني النجار مع رسول الله ﷺ ، وهو على بغلة ، فـحادت به بغلته، فإذا في الحائط أقبـر، فقال رسول الله ﷺ : «من يعرف هؤلاء الأقْبُر؟» فقال رجل: أنا يـا رسول الله ، قال: «ما هم؟» قال: ماتوا في الشرك. قال: «لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم عذاب القبر الذي أسمع منه، إن هذه الأمة تبتلى في قبورها» ثم أقبل علينا بوجهه، فقال: «تعوذوا بالله من عذاب النار، وعذاب القبر، وتعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها ومـا بطن، تعوذوا بالله من فتنة الدجال» رواه أحمد (٥/ ١٩٠)، ومسلم : كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبـر والتعوذ منه، [٢٨٦٧]، وابن حبان : كـتاب : الرقائق، باب: الاستعـاذة، ذكر الأمر بالاستعاذة بالله -جل وعلا- من الفتن ما ظهر منها،وما بطن،[١٠٠٠]،ولم أقف عليه عند البخاري.

ذكر الحكمة في ستر العذاب من الناس دون البهائم:

ولما كانت هذه الحكمة منفية في حق البهائم سمعت ذلك وأدركته كما حادت برسول الله ﷺ بغلته وكادت تلقيه لما مر بمن يعذب في قبره[١].

(وحدثني) صاحبنا أبو عبد الله محمد بن الوزير الحراني أنه خرج من داره بعد العصر بآمد إلى بستان قال: فلما كان قبل غروب الشمس توسطت القبور، فإذا بقبر منها وهو جمرة نار مثل كوز الزجاج والميت في وسطه، فجعلت أمسح عيني أقول: أنائم أنا أم يقظان؟ ثم التفت إلى سور المدينة وقلت: والله ما أنا بنائم، ثم ذهبت إلى أهلي وأنا مدهوش، فأتوني بطعام فلم أستطع أن آكل، ثم دخلت البلد فسألت عن صاحب القبر فإذا به مكاس[٢] قد توفي ذلك اليوم. فرؤية هذه النار في القبر كرؤية الملائكة والجن تقع أحياناً لمن شاء الله أن يريه ذلك.

عذاب القبر يظهر أحيانًا إذا شاء الله:

(وقد ذكر) ابن أبي الدنيا في كتاب القبور عن الشعبي أنه ذكر رجلاً قال للنبي ﷺ: مررت ببدر فرأيت رجلاً يخرج من الأرض فيضربه رجل بمقمعة حتى يغيب في الأرض، ثم يخرج فيفعل به ذلك، فقال رسول الله ﷺ: ذلك أبو جهل بن هشام يعذب إلى يوم القيامة.

(وذكر) من حديث حماد بن سلمة، عن عمرو بن دينار، عن سالم بن عبد الله، عن أبيه، قال: بينا أنا أسير بين مكة والمدينة على راحلة وأنا محقب[٣] إداوة إذ مررت بمقبرة فإذا رجل خارج من قبره يلتهب ناراً وفي عنقه سلسلة يجرها فقال: يا عبد الله انضح، يا عبد الله انضح، فوالله ما أدري أعرفني باسمي أم كما تدعو الناس؟ قال: فخرج آخر فقال: يا عبد الله لا تنضح، يا عبد الله لا تنضح، ثم اجتذب السلسلة فأعاده في قبره.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني أبي، حدثنا موسى بن داود، حدثنا حماد بن

(١) يشير إلى الحديث الصحيح السابق تخريجه.

(٢) المَكَّاس: صيغة مبالغة من اسم الفاعل: مَاكِس، وهو العَشَّار الذي يأخذ الجباية أو الضرائب وهو أمر محرم، والمكاس الجنة عليه حرام. انظر «لسان العرب»: (٦/ ٤٢٤٨) بتصرف.

(٣) المُحقَب: هو حبل يعتبر من أدوات الرَّحْل، كما قال الأزهري، ويوضع هذا الحبل مما يلي الثِّيل، أو الثِّيل، أي: قضيب البعير أو الوعاء الذي يوضع فيه، والمعنى أنه كان معه إداوة فيها ماء مربوطة في هذا الحبل. انظر «لسان العرب»: (١/ ٥٢٥: ٥٢٦)، (٢/ ٩٣٦: ٩٣٨) بتصرف.

سلمة ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، قال : بينما راكب يسير بين مكة والمدينة إذ مر بمقبرة فإذا برجل قد خرج من قبر يلتهب ناراً مصفداً في الحديد فقال : يا عبد الله انضح ، يا عبد الله انضح ، قال : وخرج آخر يتلوه قال : يا عبد الله لا تنضح ، يا عبد الله لا تنضح ، قال : وغشي على الراكب ، وعدلت به راحلته إلى العرج ، قال : وأصبح قد ابيض شعره ، فأخبر عثمان بذلك ، فنهى أن يسافر الرجل وحده.

(وذكر) من حديث سفيان ، حدثنا داود بن شابور ، عن أبي قزعة ، قال : مررنا في بعض المياه التي بيننا وبين البصرة، فسمعنا نهيق حمار فقلنا لهم : ما هذا النهيق ؟ قالوا : هذا رجل كان عندنا ، كانت أمه تكلمه بالشيء فيقول لها انهقي نهيقك ، فلما مات سمع هذا النهيق من قبره كل ليلة .

عذاب تأخير الصلاة، والصلاة بغير طهور:

(وذكر) أيضاً عن عمرو بن دينار قال : كان رجل من أهل المدينة وكانت له أخت في ناحية المدينة فاشتكت ، وكان يأتيها يعودها ، ثم ماتت ، فدفنها ، فلما رجع ذكر أنه نسي شيئاً في القبر كان معه ، فاستعان برجل من أصحابه قال : فنبشنا القبر ووجدت ذلك المتاع ، فقال للرجل : تنح حتى أنظر على أي حال أختي ، فرفع بعض ما على اللحد فإذا القبر مشتعل ناراً فرده ، وسوى القبر ، فرجع إلى أمه فقال: ما كان حال أختي ؟ فقالت : ما تسأل عنها وقد هلكت ؟ فقال : لتخبريني ، قالت : كانت تؤخر الصلاة ، ولا تصلي فيما أظن بوضوء ، وتأتي أبواب الجيران فتلقم أذنها أبوابهم ، وتخرج حديثهم .

عذاب المشي تبختراً:

(وذكر) عن حصين الأسدي قال : سمعت مرثد بن حوشب ، قال : كنت جالساً عند يوسف بن عمر وإلى جنبه رجل كأن شقة وجهه صفحة من حديد ، فقال له يوسف : حدث مرثداً بما رأيت ، فقال : كنت شاباً قد أتيت هذه الفواحش، فلما وقع الطاعون قلت: أخرج إلى ثغر من هذه الثغور ، ثم رأيت أن أحفر القبور ، فإذا بي ليلة بين المغرب والعشاء قد حفرت قبراً وأنا متكئ على تراب قبر آخر إذ جيء بجنازة رجل حتى دفن في ذلك ، وسووا عليه ، فأقبل طائران أبيضان من المغرب مثل البعيرين حتى سقط أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه ، ثم أثاراه ، ثم تدلى

أحدهما في القبر والآخر على شفيره ، فجئت حتى جلست على شفير القبر ، وكنت رجلاً لا يملأ جوفي شئ ، قال : فسمعته يقول : ألست الزائر أصهارك في ثوبين ممصرين تسحبهما كبراً تمشي الخيلاء ؟ فقال : أنا أضعف من ذلك ، قال: فضربه ضربة امتلأت القبر حتى فاض ماء ودهناً ثم عاد ، فأعاد إليه القول حتى ضربه ثلاث ضربات، كل ذلك يقول ذلك ويذكر أن القبر يفيض ماء ودهناً ، قال : ثم رفع رأسه فنظر إلي فقال : انظر أين هو جالس بلسه الله ، قال : ثم ضرب جانب وجهي فسقطت ، فمكثت ليلتي حتى أصبحت ، قال : ثم أخذت أنظر إلى القبر فإذا هو على حاله .

فهذا الماء والدهن في رأي العين لهذا الرائي هو نار تأجج للميت كما أخبر النبي ﷺ عن الدجال أنه يأتي معه بماء ونار ، فالنار ماء بارد والماء نار تأجج .

(وذكر) ابن أبي الدنيا أن رجلاً سأل أبا إسحاق الفزاري عن النباش هل له توبة؟ فقال : نعم إن صحت نيته وعلم الله منه الصدق. فقال له الرجل : كنت أنبش القبور ، وكنت أجد قوماً وجوههم لغير القبلة فلم يكن عند الفزاري في ذلك شئ، فكتب إلى الأوزاعي يخبره بذلك ، فكتب إليه الأوزاعي : تقبل توبته إذا صحت نيته ، وعلم الله الصدق من قبله ، وأما قوله إنه كان يجد قوما وجوههم لغير القبلة فأولئك قوم ماتوا على غير السنة .

وقال ابن أبي الدنيا : حدثني عبد المؤمن بن عبد الله بن عيسى القيسي ، أنه قيل لنباش قد تاب : ما أعجب ما رأيت ؟ قال : نبشت رجلاً قال: فإذا هو مسمر بالمسامير في سائر جسده ومسمار كبير في رأسه وآخر في رجليه .

قال : وقيل لنباش آخر : ما أعجب ما رأيت ؟ قال : رأيت جمجمة إنسان مصبوب فيها رصاصاً .

قال : وقيل لنباش آخر : ما كان سبب توبتك ؟ قال : عامة من كنت أنبش كنت أراه محول الوجه عن القبلة .

قلت : وحدثني صاحبنا أبو عبد الله محمد بن مساب السلامي -وكان من خيار عباد الله ، وكان يتحرى الصدق- قال : جاء رجل إلى سوق الحدادين ببغداد فباع مسامير صغار ، المسمار برأسين ، فأخذها الحداد وجعل يحمي عليها فلا تلين

معه حتى عجز عن ضربها، فطلب البائع فوجده ، فقال : من أين لك هذه المسامير؟ فقال : لقيتها، فلم يزل به حتى أخبره أنه وجـد قبراً مفتوحاً وفيه عظام ميت منظومة بهذه المسامير ، قال : فعالجتهـا على أن أخرجها فلم أقدر ، فأخذت حجراً فكسرت عظامه ، وجمـعتها ، قال : وأنا رأيت تلك المـسامير ، قلت له : فكيف صفـتها ؟ قال: المسمار صغير برأسين .

(قال) ابن أبي الدنيا : وحدثني أبي ، عن أبي الحريس، عن أمه ، قالت : لما حفر أبو جعفر خندق الكوفة حـول الناس موتاهم ، فرأينا شاباً ممن حول عاضاً على يده .

(وذكر) عن سماك بن حرب قال : مـر أبو الدرداء بين القبور فقال : ما أسكن ظواهرك وفي داخلك الدواهي .

وقال ثابت البناني : بينا أنا أمشي في المقـابر وإذا صوت خلفي وهو يقول : يا ثابت لا يغرنك سكونها فكم من مغموم فيها ، فالتفت فلم أر أحداً .

(ومر) الحسن على مـقبرة فقال : يا لهم من عسكر مـا أسكنهم وكم فيهم من مكروب ! .

(وذكر) ابن أبي الدنيـا أن عمر بن عبـد العزيز قال لمسلمة بن عـبد الملك : يا مسلمة من دفن أباك ؟ قـال : مولاي فلان ، قال: فمن دفن الوليـد ؟ قال : مولاي فلان ، قـال : فأنا أحـدثك ما حـدثني به أنه لما دفن أباك والوليـد فوضـعهمـا في قبورهما وذهب ليحل العقد عنهما وجد وجوههما قد حولت في أقفيتهما ، فانظر يا مسلمة إذا أنا مت فالتمس وجهي فانظر هل نزل بي ما نزل بالقوم أو هل عوفيت من ذلك ؟ قال مسلمة : فلما مات عمر وضعته في قبره فلمست وجهه فإذا هو مكانه .

(وذكر) ابن أبي الدنيا عن بعض السلف ، قال : ماتت ابنة لي فأنزلتها القبر ، فذهبت أصلح اللبنة فإذا هي قـد حولت عن القبلة ، فأغتمـمت لذلك غماً شديداً ، فرأيتها في النوم فقالت : يا أبت أغتممت لما رأيت ؟ فإن عامة من حولي ، محولين عن القبلة ، قال: كأنها تريد الذين ماتوا مصرين على الكبائر .

وقال عمرو بن ميمون : سمعت عمر بن عبد العزيز يقول : كنت في من دلى الوليد بن عبد الملك في قبره ، فنظرت إلى ركبتيـه قد جمعتا في عنقه ، فقال ابنه :

عاش أبي ورب الكعبة ، فقلت : عوجل أبوك ورب الكعبة ، فاتعظ بها عمر بعده .

وقال عمر بن عبد العزيز ليزيد بن المهلب لما استعمله على العراق : يا يزيد اتق الله فإني حين وضعت الوليد في لحده فإذا هو يركض في أكفانه .

وقال يزيد بن هارون : أخبرنا هشام بن حسان ، عن واصل مولى أبي عيينة ، عن عمر بن زهدم ، عن عبد الحميد بن محمود ، قال: كنت جالساً عند ابن عباس فأتاه قوم فقالوا: إنا خرجنا حجاجاً ومعنا صاحب لنا إذ أتينا فإذا الصفاح مات، فهيأناه ، ثم انطلقنا، فحفرنا له ، ولحدنا له ، فلما فرغنا من لحده إذا نحن بأسود قد ملأ اللحد ، فحفرنا له آخر فإذا به قد ملأ لحده ، فحفرنا له آخر فإذا به . . . فقال ابن عباس : ذاك الغل الذي يغل به ، انطلقوا فادفنوه في بعضها ، فو الذي نفسي بيده لو حفرتم الأرض كلها لوجدتموه فيه ، فانطلقنا فوضعنا في بعضها ، فلما رجعنا أتينا أهله بمتاع له معنا ، فقلنا لامرأته : ما كان يعمل زوجك ؟ قالت : كان يبيع الطعام ، فيأخذ منه كل يوم قوت أهله ، ثم يقرض الفضل مثله ، فيلقيه فيه .

عذاب سوء الأدب في شأن الصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين-:

وقال ابن أبي الدنيا : حدثني محمد بن الحسين قال : حدثني أبو إسحاق صاحب الشرط ، قال : دعيت إلى ميت لأغسله ، فلما كشفت الثوب عن وجهه إذا بحية قد تطوقت على حلقه ، فذكر من غلظها ، فخرجت فلم أغسله ، فذكروا أنه كان يسب الصحابة رضي الله عنهم .

(وذكر) ابن أبي الدنيا ، عن سعيد بن خالد بن يزيد الأنصاري ، عن رجل من أهل البصرة ، كان يحفر القبور قال : حفرت قبراً ذات يوم ، ووضعت رأسي قريباً منه ، فأتتني امرأتان في منامي فقالت إحداهما : يا عبد الله نشدتك بالله ألا صرفت عنا هذه المرأة ولم تجاورنا بها ، فاستيقظ فزعاً فإذا بجنازة امرأة قد جيء بها فقلت : القبر وراءكم ، فصرفتهم عن ذلك القبر ، فلما كان الليل إذا أنا بالمرأتين في منامي تقول إحداهما : جزاك الله عنا خيراً فلقد صرفت عنا شراً طويلاً ، قلت : ما لصاحبتك لا تكلمني كما تكلميني أنت ؟ قالت : إن هذه ماتت عن غير وصية، وحق لمن مات عن غير وصية ألا يتكلم إلى يوم القيامة .

وهذه الأخبار وأضعافها وأضعاف أضعافها مما لا يتسع لها الكتاب مما أراه الله

سبحانه لبعض عباده من عذاب القبر ونعيمه عياناً .

وأما رؤية المنام فلو ذكرناها لجاءت عدة أسفـار ، ومن أراد الوقوف عليها فعليه بكتاب المـنامات لابن أبي الدنيـا و كتاب البـستـان للقيـرواني وغيرهمـا من الكتب المتضمنة لذلك ، وليس عند الملاحدة والزنادقة إلا التكذيب بما لم يحيطوا بعلمه .

[فصل] (الأمر السابع):

أن الله سبـحانه وتعالى يحـدث في هذه الدار ما هو أعجب من ذلك ، فـهذا جبريل كان ينزل على النبيﷺ ، ويتمثل له رجلاً[(١)] ، فيكلمه بكلام يسمعه ، ومن إلى جانب النبيﷺ لا يراه ولا يسمـعه ، وكذلك غيره من الأنبيـاء ، وأحياناً يأتيه الوحي في مثل صـلصلة الجرس[(٢)] ولا يسمـعه غيره من الحـاضرين ، وهؤلاء الجن يتحدثون ويتكلمـون بالأصوات المرتفعة بيننا ونحن لا نسمعـهم ، وقد كانت الملائكة تضرب الـكفار بالسـياط ، وتضرب رقـابهم ، وتصيح بهـم ، والمسلمون مـعهم لا يرونهم ولا يسمعون كلامهم[(٣)] ، والله سبحانه قد حجب بني آدم عن كثير مما يحدثه في الأرض وهو بينهـم ، وقـد كـان جبـريـل يقـرئ النبيﷺ ، ويدارسـه القـرآن

---

(١) وكثيراً مـا كان يحدث هذا كما في حديث المجادلة عن زوجهـا أن المسلم أو المسلمة يأتيان للنبيﷺ يسألانه عما أهمهما ، فإذا بالوحي يكفي النبيﷺ مؤنة الإجابة ، وصاحب السؤال جالس لا يرى شيئًا ثم يفيق النبيﷺ ، وقد أوحى الله ما شاء من أمره عز وجل إليه.

(٢) وذلك كما في الحـديث الذي روته أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنهـا- أن الحارث بن هشام سأل رسول اللهﷺ ، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول اللهﷺ : «أحيانًا يأتيني في مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ ، فيفصم عني ، وقد وعيت ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلاً، فيكلمني فأعي ما يقول» قالت عائشة: ولقـد رأيته ينزل عليه في اليوم الشديد البرد فيـفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقًا.

رواه مـالك : كـتاب: القـرآن، باب: مـا جـاء في القـرآن، [٧]، وأحمـد: (٦/ ١٥٨، ٢٥٧)، والبخاري: كـتاب: بدء الوحي، [٢] ، [٢]، [٣٢١٥]، ومسلم : كتاب : الفـضائل، باب: عرق النبيﷺ في البـرد، وحين يأتيه الوحي، [٢٣٣٣]، والتـرمذي : كـتاب: المناقب، باب: مـا جاء كيف ينزل الوحي على النبيﷺ : [٣٦٣٤]، والنسائي: كتاب الافـتتاح، باب: جامع ما جاء في القرآن، (٢/ ١٤٦: ١٤٩)، وابـن حبان : كـتاب : الوحي، باب: ذكـر وصف نزول الوحي على رسول اللهﷺ ، [٣٨].

(٣) كما حدث في بدر على سبيل المثال، وسبق تخريج هذا الحديث.

والحاضرون لا يسمعونه .

وكيف يستنكر من يعرف الله سبحانه ، ويقر بقدرته ، أن يحدث حوادث يصرف عنها أبصار بعض خلقه حكمة منه ورحمة بهم ، لأنهم لا يطيقون رؤيتها وسماعها ، والعبد أضعف بصراً وسمعاً من أن يثبت لمشاهدة عذاب القبر ، وكثيراً ممن أشهده الله ذلك صعق ، وغشي عليه ، ولم ينتفع بالعيش زمناً ، وبعضهم كشف قناع قلبه فمات ، فكيف ينكر في الحكمة الإلهية إسبال غطاء يحول بين المكلفين وبين مشاهدة ذلك حتى إذا كشف الغطاء رأوه وشاهدوه عياناً .

ثم إن العبد قادر على أن يزيل الزئبق والخردل عن عين الميت وصدره ثم يرده بسرعة ، فكيف يعجز عنه الملك ؟! وكيف لا يقدر عليه من هو على كل شئ قدير؟! وكيف تعجز قدرته عن إبقائه في عينيه وعلى صدره لا يسقط عنه ؟! وهل قياس أمر البرزخ على ما يشاهده الناس في الدنيا إلا محض الجهل والضلال وتكذيب أصدق الصادقين وتعجيز رب العالمين؟ وذلك غاية الجهل والظلم.

وإذا كان أحدنا يمكنه توسعة القبر عشرة أذرع ، ومائة ذراع ، وأكثر طولاً وعرضاً وعمقاً ، ويستر توسيعه عن الناس ، ويطلع عليه من يشاء ، فكيف يعجز رب العالمين أن يوسعه ما يشاء على من يشاء ويستر ذلك عن أعين بني آدم فيراه بنو آدم ضيقاً وهو أوسع شئ وأطيبه ريحاً وأعظمه إضاءة ونوراً وهم لا يرون ذلك[(١)]؟! .

عدم كشف عذاب القبر رحمة للعباد:

وسر المسألة أن هذه السعة والضيق والإضاءة والخضرة والنار ليس من جنس المعهود في هذا العالم ، والله سبحانه إنما أشهد بني آدم في هذه الدار ما كان فيها ومنها ، فأما ما كان من أمر الآخرة فقد أسبل عليه الغطاء ليكون الإقرار به والإيمان سبباً لسعادتهم ، فإذا كشف عنهم الغطاء صار عياناً مشاهداً ، فلو كان الميت بين الناس موضوعاً لم يمتنع أن يأتيه الملكان ويسألانه من غير أن يشعر الحاضرون بذلك ،

(١) رحم الله الإمام ابن القيم، هكذا منهجه غالبًا بعد استقصاء الأدلة النقلية على صحة القول، يسرد الأقيسة العقلية استئناسًا بها، ولا شك أن مرجع المؤمن الموحد في أي مسألة غيبية كالتي يتحدث فيها ابن القيم الآن هو النصوص الشرعية الصحيحة وحدها، ولا حاجة ألبتة لأي مسلم موحد صادق في إيمانه إلى أي نوع من الأقيسة العقلية.

ويجيبهما من غير أن يسمعوا كلامه ، ويضربانه من غير أن يشاهد الحاضرون ضربه ، وهذا الواحد منا ينام إلى جنب صاحبه فيعذب في النوم ، ويضرب ، ويألم ، وليس عند المستيقظ خبر من ذلك البتة ، وقد سرى أثر الضرب والألم إلى جسده .

ومن أعظم الجهل استبعاد شق الملك الأرض والحجر وقد جعلهما الله سبحانه له كالهواء للطير ، ولا يلزم من حجبها للأجسام الكثيفة أن تتولج فيها حجبها للأرواح اللطيفة ، وهل هذا إلا من أفسد القياس ؟ وبهذا وأمثاله كذبت الرسل صلوات الله وسلامه عليهم .

[فصل] (الأمر الثامن): أنه غير ممتنع أن ترد الروح إلى المصلوب ، والغريق ، والمحرق ، ونحن لا نشعر بها ، لأن ذلك الرد نوع آخر غير المعهود ، فهذا المغمى عليه ، والمسكوت ، والمبهوت، أحياء وأرواحهم معهم ، ولا تشعر بحياتهم ، ومن تفرقت أجزاؤه لا يمتنع على من هو على كل شئ قدير أن يجعل للروح اتصالاً بتلك الأجزاء على تباعد ما بينها وقربه ويكون في تلك الأجزاء شعور بنوع من الألم واللذة .

[تفسير آية ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾(١)]:

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد جعل في الجمادات شعوراً وإدراكاً تسبح ربها به ، وتسقط الحجارة من خشيته، وتسجد له الجبال والشجر ، وتسبحه الحصى والمياه والنبات قال تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾(١) ولو كان التسبيح هو مجرد دلالتها على صانعها لم يقل : ﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾(١) فإن كل عاقل يفقه دلالتها على صانعها وقال تعالى : ﴿إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق﴾(٢) والدلالة على الصانع لا تختص بهذين الوقتين ، وكذلك قوله تعالى : ﴿يا جبال أوبي معه﴾(٣) والدلالة لا تختص معيته وحده ، وكذب على الله من قال : التأويب رجع الصدى ، فإن هذا يكون لكل مصوت ، وقال تعالى : ﴿ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس﴾(٤) .

---

(١) (الإسراء/ ٤٤). (٢) (ص/ ١٨).
(٣) (سبأ/ ١٠). (٤) (الحج/ ١٨).

والدلالة على الصانع لا تختص بكثير من الناس، وقد قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾(١). فهذه صلاة وتسبيح حقيقة يعلمها الله وإن جحدها الجاهلون المكذبون وقد أخبر تعالى عن الحجارة أن بعضها يزول عن مكانه ويسقط من خشيته ، وقد أخبر عن الأرض والسماء أنهما يأذنان له وقولهما ذلك أي يستمعان كلامه ، وأنه خاطبهما فسمعا خطابه وأحسنا جوابه ، فقال لهما : ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾(٢) .

إذا وقع الشعور للأشجار والأحجار فالأجسام ذات الأرواح أولى بذلك:

وقد كان الصحابة يسمعون تسبيح الطعام وهو يؤكل(٣) ، وسمعوا حنين الجذع اليابس في المسجد(٤) ، فإذا كانت هذه الأجسام فيها الإحساس والشعور ، فالأجسام التي كانت فيها الروح والحياة أولى بذلك ، وقد أشهد الله سبحانه عباده في هذه الدار إعادة حياة كاملة إلى بدن قد فارقته الروح فتكلم ومشى وأكل وشرب وتزوج وولد له كالذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾(٥) وكقتيل بني

---

(١) (النور: ٤١). (٢) (فصلت/ ١١).

(٣) يشير إلى الحديث الصحيح الذي رواه علقمة عن عبد الله، قال: كنا نعد الآيات بركة، وأنتم تعدونها تخويفًا، كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فقل الماء، فقال : «اطلبوا فضلة من ماء» فجاءوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء ثم قال: «حي على الطهور المبارك، والبركة من الله» فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ ، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل. [حديث صحيح] رواه البخاري: كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام ، [٣٥٧٩].

(٤) يشير إلى الحديث الصحيح الذي رواه جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة فقالت امرأة من الأنصار -أو رجل- : يا رسول الله ، ألا نجعل لك منبرًا؟ قال: «إن شئتم» فجعلوا له منبرًا، فلما كان يوم الجمعة رُفع إلى المنبر فصاحت النخلة صياح الصبي ، ثم نزل النبي ﷺ فضمه إليه يئن أنين الصبي الذي يُسكّن، قال: «كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها» [حديث صحيح] رواه البخاري: كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، [٣٥٨٤]، وانظر أيضًا: [٣٥٨٣ ، ٣٥٨٥].

(٥) (البقرة/ ٢٥٩).

إسرائيل ، أو كالذين قالوا لموسى: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ فأماتهم الله ثم بعثهم مـن بعد موتهم[(١)] ، وكأصحاب الكهف[(٢)] ، وكقصـة إبراهيم في الطيور الأربعة[(٣)]، فإذا أعـاد الحياة التامـة إلى هذه الأجساد بعـد ما بردت بالموت ، فكيف يمتنع على قدرته الباهرة أن يعـيد إليها بعد موتها حيـاة ما غير مستقـرة يقضّي بها ما أمرها فيها ويستـنطقها بها ويعذبها أو ينعمها بأعـمالها ؟! وهل إنكار ذلك إلا مجرد تكذيب وعناد وجحود ؟ وبالله التوفيق .

[فصل] (الأمر التاسع): عذاب القبر هو عذاب البرزخ:

أنه ينبغي أن يعلم أن عـذاب القبر ونعيمـه اسم لعذاب البرزخ ونعيـمه وهو ما بين الدنيا والآخرة، قال تعالى : ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[(٤)] وهَذا البرزخ يشرف أهله فيـه على الدنيا والآخرة ، وسمي عـذاب القبر ونعيـمه ، وأنه روضة أو حفرة نار ، باعتـبار غالب الخلق فالمصلوب والحرق والغرق وأكـيل السباع والطيور له من عذاب البـرزخ ونعيـمه قسطه الذي تقـتضـيه أعمـاله وإن تنوعت أسبـاب النعيم والعذاب وكـيفياتهـما ، فقـد ظن بعض الأوائل أنه إذا حرق جسـده بالنار ، وصار رماداً، وذري بعضه في البحر وبعضه في البر في يوم شديد الريح أنه ينجو من ذلك، فأوصى بنيه أن يفعلوا به ذلك ، فـأمر الله البحر فجمع ما فيه ، وأمـر البر فجمع ما فيه ، ثـم قال: قم فإذا هو قائم بين يدي الله ، فـسأله ما حملك على مـا فعلت ؟ فقال : خشيتك يا رب وأنت أعلم ، فما تلافاه أن رحمه[(٥)].

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمـن لك حتى نرى الله جهرة فـأخذتكم الصاعـقة وأنتم تنظرون . ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾ (البقرة/ ٥٤ : ٥٥).

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أم حسبت أن أصـحاب الكهف والرقيم كانوا من ءاياتنا عـجبًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ولا تستفت فيهم منهم أحدًا﴾ (الكهف/ ٩: ٢٢).

(٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فـخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كـل جبل منهن جزءًا ثم ادعهن يأتينك سعيًا واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ (البقرة/ ٢٦٠).

(٤) (المؤمنون/ ١٠٠).

(٥) يشير إلـى الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة -رضي الله عنه- أن رسـول الله ﷺ قال : «قال رجل لم يعمل حسنة قط لأهله: إذا مات فحرقوه، ثم اذروا نصـفه في البر، ونصفه في البحر، فوالله لئن قدر الله عليه ليعـذبنه عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين، فلما مـات الرجل، فعلوا ما أمرهم به، =

فلم يفت عذاب البرزخ ونعيمه لهذه الأجزاء التي صارت في هذه الحال حتى لو علق الميت على رؤوس الأشجار في مهاب الرياح لأصاب جسده من عذاب البرزخ حظه ونصيبه ، ولو دفن الرجل الصالح في أتون من النار لأصاب جسده من نعيم البرزخ وروحه نصيبه وحظه ، فيجعل الله النار على هذا برداً وسلاماً ، والهواء على ذلك ناراً وسموماً ، فعناصر العالم ومواده منقادة لربها وفاطرها وخالقها يصرفها كيف يشاء ولا يستعصي عليه منها شئ أراده ، بل هي طوع مشيئته مذللة منقادة لقدرته ، ومن أنكر هذا فقد جحد رب العالمين ، وكفر به ، وأنكر ربوبيته .

[فصل] (الأمر العاشر): أن الموت معاد وبعث أول:

فإن الله سبحانه وتعالى جعل لابن آدم معادين وبعثين يجزي فيهما الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى .

فالبعث الأول: مفارقة الروح للبدن ومصيرها إلى دار الجزاء الأول .

والبعث الثاني: يوم يرد الله الأرواح إلى أجسادها ويبعثها من قبورها إلى الجنة أو النار ، وهو الحشر الثاني ، ولهذا في الحديث الصحيح "وتؤمن بالبعث الآخر" ، فإن البعث الأول لا ينكره أحد وإن أنكر كثير من الناس الجزاء فيه والنعيم والعذاب.

ذكر القيامة الصغرى والقيامة الكبرى:

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هاتين القيامتين وهما الصغرى والكبرى في سورة المؤمنين، وسورة الواقعة ، وسورة القيامة ، وسورة المطففين ، وسورة الفجر ، وغيرها من السور ، وقد اقتضى عدله وحكمته أن جعلها دار جزاء المحسن والمسيء ولكن توفية الجزاء إنما يكون يوم المعاد الثاني في دار القرار كما قال تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (١) .

=فأمر الله البر فجمع ما فيه، وأمر البحر فجمع ما فيه، ثم قال: لم فعلت هذا؟ قال: من خشيتك يا رب، وأنت أعلم، قال: فغفر له» [حديث صحيح] رواه مالك في موطأه: كتاب: الجنائز، باب: جامع الجنائز، [٥١]، وأحمد: (٥/ ٣٩٥، ٤٠٧ : ٤٨٠)، والبخاري: كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، [٣٤٥٢]، [٣٤٧٩، ٦٤٨٠]، وابن ماجة: كتاب: الزهد، باب: ذكر التوبة، [٤٢٥٥].

(١) (آل عمران/ ١٨٥).

وقد اقتضى عدله وأوجبت أسماؤه الحسنى وكماله المقدس تنعيم أبدان أوليائه وأرواحهم ، وتعذيب أبدان أعدائه وأرواحهم ، فلا بد أن يذيق بدن المطيع له وروحه من النعيم واللذة ما يليق به ، ويذيق بدن الفاجر العاصي له وروحه من الألم والعقوبة ما يستحقه . هذا موجب عدله وحكمته وكماله المقدس .

البرزخ أول دار الجزاء:

ولما كانت هذه الدار دار تكليف وامتحان لا دار جزاء لم يظهر فيها ذلك ، وأما البرزخ فأول دار الجزء ، فظهر فيها من ذلك ما يليق بتلك الدار وتقتضي الحكمة إظهاره ، فإذا كان يوم القيامة الكبرى وفي أهل الطاعة وأهل المعصية ما يستحقونه من نعيم الأبدان والأرواح وعذابهما ، فعذاب البرزخ ونعيمه أول عذاب الآخرة ونعيمها وهو مشتق منه ، وواصل إلى أهل البرزخ هناك كما دل عليه القرآن والسنة الصحيحة الصريحة في غير موضع دلالة صريحة كقوله ﷺ : فيفتح له باب إلى الجنة فيأتيه من روحها ونعيمها ، وفي الفاجر فيفتح له باب إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها[1] .

ومعلوم قطعاً أن البدن يأخذ حظه من هذا الباب كما تأخذ الروح حظها ، فإذا كان يوم القيامة دخل من ذلك الباب إلى مقعده الذي هو داخله ، وهذان البابان يصل منهما إلى العبد في هذه الدار أثر خفي محجوب بالشواغل والغواشي الحسية والعوارض، ولكن يحس به كثير من الناس وإن لم يعرف سببه ولا يحسن التعبير عنه، فوجود الشيء غير الإحساس به والتعبير عنه ، فإذا مات كان وصول ذلك الأثر إليه من ذينك البابين أكمل ، فإذا بعث كمل وصول ذلك الأثر إليه . فحكمة الرب تعالى منتظمة لذلك أكمل انتظام في الدور الثلاث .



(١) [صحيح]: سبق تخريجه.

المسألة الثامنة

وهي قول السائل: ما الحكمة في كون عذاب القبر لم يذكر في القرآن مع شدة الحاجة إلى معرفته والإيمان له ليحذر ويتقى؟

فالجواب في وجهين: مجمل، ومفصل.

أما المجمل فهو أن الله سبحانه وتعالى أنزل على رسوله وحيين وأوجب على عباده الإيمان بهما والعمل بما فيهما وهما الكتاب والحكمة، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (١) وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ (٣).

والكتاب هو القرآن والحكمة هي السنة باتفاق السلف، وما أخبر به الرسول عن الله فهو في وجوب تصديقه والإيمان به كما أخبر به الرب تعالى على لسان رسوله، هذا أصل متفق عليه بين أهل الإسلام لا ينكره إلا من ليس منهم، وقد قال النبي ﷺ: إني أوتيت الكتاب ومثله معه(٤).

---

(١) (النساء/ ١١٣). (٢) (الجمعة/ ٢).

(٣) (الأحزاب/ ٣٤).

(٤) [صحيح]: وتمامه عن المقدام بن معد يكرب عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «إني أوتيت الكتاب وما يعدله، يوشك شبعان على أريكته أن يقول: بيني وبينكم هذا الكتاب، فما كان فيه من حلال أحللناه، وما كان فيه من حرام حرمناه، ألا وإنه ليس كذلك» رواه أحمد: (٤/ ١٣١، ١٣٢)، وأبو داود: كتاب: السنة، باب: في لزوم السنة، [٤٦٠٤]، والترمذي: كتاب: العلم، باب: ما نُهِيَ عنه أن يقال عند حديث النبي ﷺ، [٢٦٦٣]، وابن ماجة: المقدمة، باب: تعظيم حديث رسول الله ﷺ، والتغليظ على من عارضه، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجة»: [١٢]، وانظر تخريج «المشكاة»: [١٦٣]، وابن حبان: كتاب: المقدمة، باب: الاعتصام بالسنة، ذكر الخبر المُصرِّح بأن سنن المصطفى ﷺ كلها عن الله لا من تلقاء نفسه، [١٢].

وأما الجواب المفصل فهو أن نعيم البرزخ وعذابه مذكور في القرآن في غير موضع . فمنها قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾(١) وهذا خطاب لهم عند الموت وقد أخبرت الملائكة وهم الصادقون أنهم حينئذ يجزون عذاب الهون ، ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا لما صح أن يقال لهم اليوم تجزون .

(ومنها) قوله تعالي : ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾(٢) فذكر عذاب الدارين ذكراً صريحاً لا يحتمل غيره .

(ومنها) قوله تعالي : ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٣) وهذا يحتمل أن يراد به عذابهم بالقتل وغيره في الدنيا، وأن يراد به عذابهم في البرزخ وهو أظهر ، لأن كثيراً منهم مات ولم يعذب في الدنيا، وقد يقال : وهو أظهر ، أن من مات منهم عذب في البرزخ ، ومن بقي منهم عذب في الدنيا بالقتل وغيره فهو وعيد بعذابهم في الدنيا وفي البرزخ .

(ومنها) قوله تعالى : ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٤) وقد احتج بهذه الآية جماعة منهم عبد الله بن عباس على عذاب القبر، وفي الاحتجاج بها شئ ، لأن هذا عذاب في الدنيا يستدعي به رجوعهم عن الكفر ، ولم يكن هذا مما يخفى على حبر الأمة وترجمان القرآن ، لكن من فقهه في القرآن ودقة فهمه فيه فهم منها عذاب القبر فأنه سبحانه أخبر أن له فيهم عذابين أدنى وأكبر فأخبر أنه يذيقهم بعض الأدنى ليرجعوا ، فدل على أنه بقي لهم من الأدنى بقية يعذبون بها بعد عذاب الدنيا ، ولهذا قال : من العذاب الأدنى ولم يقل : ولنذيقنهم العذاب الأدنى ، فتأمله. وهذا نظير قول النبي ﷺ ، فيفتح له طاقة إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها(٥) ولم يقل فيأتيه حرها وسمومها ، فإن الذي وصل إليه بعض ذلك وبقي له أكثره ، والذي ذاقه أعداء الله في الدنيا بعض العذاب الأدنى وبقي لهم ما هو أعظم منه .

(١) (الأنعام/ ٩٣). (٢) (غافر/ ٤٥: ٤٦).
(٣) (الطور/ ٤٥: ٤٧). (٤) (السجدة/ ٢١).
(٥) هو جزء من حديث البراء بن عازب الطويل، وهو صحيح قد سبق تخريجه.

(ومنها) قوله تعالى: ﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم ﴿٨٣﴾ وأنتم حينئذ تنظرون ﴿٨٤﴾ ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون ﴿٨٥﴾ فلولا إن كنتم غير مدينين ﴿٨٦﴾ ترجعونها إن كنتم صادقين ﴿٨٧﴾ فأما إن كان من المقربين ﴿٨٨﴾ فروح وريحان وجنة نعيم ﴿٨٩﴾ وأما إن كان من أصحاب اليمين ﴿٩٠﴾ فسلام لك من أصحاب اليمين ﴿٩١﴾ وأما إن كان من المكذبين الضالين ﴿٩٢﴾ فنزل من حميم ﴿٩٣﴾ وتصلية جحيم ﴿٩٤﴾ إن هذا لهو حق اليقين ﴿٩٥﴾ فسبح باسم ربك العظيم ﴿٩٦﴾﴾ (١) فذكر هاهنا أحكام الأرواح عند الموت وذكر في أول السورة أحكامها يوم المعاد الأكبر وقدم ذلك على هذا تقديم الغاية للعناية إذ هي أهم وأولى بالذكر وجعلهم عند الموت ثلاثة أقسام كما جعلهم في الآخرة ثلاثة أقسام.

(ومنها) قوله تعالى: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ﴿٢٧﴾ ارجعي إلى ربك راضية مرضية ﴿٢٨﴾ فادخلي في عبادي ﴿٢٩﴾ وادخلي جنتي﴾ (٢) وقد اختلف السلف متى يقال لها ذلك؟ فقالت طائفة: يقال لها عند الموت، وظاهر اللفظ مع هؤلاء فإنه خطاب للنفس التي قد تجردت عن البدن وخرجت منه، وقد فسر ذلك النبي ﷺ بقوله في حديث البراء وغيره: فيقال لها: اخرجي راضية مرضياً عنك(٣)، وسيأتي تمام تقرير هذا في المسألة التي يذكر فيها مستقر الأرواح في البرزخ إن شاء الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿فادخلي في عبادي﴾ (٢) مطابق لقوله ﷺ اللهم الرفيق الأعلى(٤).

وأنت إذا تأملت أحاديث عذاب القبر ونعيمه وجدتها تفصيلاً وتسفيراً لما دل عليه القرآن، وبالله التوفيق.

(١) (الواقعة/ ٨٣: ٩٦). (٢) (الفجر/ ٢٧: ٣٠).

(٣) جزء من حديث طويل سبق تخريجه.

(٤)[صحيح]: رواه مالك في موطأه: كتاب: الجنائز، باب: جامع الجنائز، [٤٦]، وأحمد في مسنده: (٦/ ٤٥، ٤٨، ٧٤، ٨٩)، وفي مواضع أخر، والبخاري: كتاب: المغازي، باب: مرض النبي ﷺ ووفاته، [٤٤٣٧]، ومسلم: كتاب: فضائل الصحابة، باب: في فضل عائشة -رضي الله تعالى عنها-، [٢٤٤٤]، والترمذي: كتاب: الدعوات، باب: [٧٧]، [٣٤٩٦]، وابن ماجة: كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في ذكر مرض رسول الله ﷺ، [١٦١٩]، ونصه عند ابن ماجة عن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: كان النبي ﷺ يتعوذ بهؤلاء الكلمات: «أذهب الباس، رب الناس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاءً لا يغادر سقمًا» فلما ثقل النبي ﷺ في مرضه الذي مات فيه أخذت بيده، فجعلت أمسحها وأقولها، فنزع يده من يدي ثم قال: «اللهم اغفر لي، وألحقني بالرفيق الأعلى» قالت: فكان هذا آخر ما سمعت من كلامه ﷺ.

المسألة التاسعة

وهي قول السائل : ما الأسباب التي يعذب بها أصحاب القبور؟

فجوابها من وجهين : مجمل ومفصل : أما المجمل فإنهم يعذبون على جهلهم بالله ، وإضاعتهم لأمره ، وارتكابهم لمعاصيه، فلا يعذب الله روحاً عرفته وأحبته وامتثلت أمره واجتنبت نهيه، ولا بدناً كانت فيه أبداً، فإن عذاب القبر وعذاب الآخرة أثر غضب الله وسخطه على عبده ، فمن أغضب الله وأسخطه في هذه الدار ثم لم يتب ومات على ذلك كان له من عذاب البرزخ بقدر غضب الله وسخطه عليه، فمستقل، ومستكثر، ومصدق، ومكذب.

وأما الجواب المفصل : فقد أخبر النبي ﷺ عن الرجلين اللذين رآهما يعذبان في قبورهما يمشي أحدهما بالنميمة بين الناس[١] ويترك الآخر الاستبراء من البول ، فهذا ترك الطهارة الواجبة ، وذلك ارتكب السبب الموقع للعداوة بين الناس بلسانه وإن كان صادقاً، وفي هذا تنبيه على أن الموقع بينهم العداوة بالكذب والزور والبهتان أعظم عذاباً ، كما أن في ترك الاستبراء من البول تنبيهاً على أن من ترك الصلاة التي الاستبراء من البول بعض واجباتها وشروطها فهو أشد عذاباً ، وفي حديث شعبة أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس فهذا مغتاب وذاك نمام[٢] ، وقد تقدم حديث ابن مسعود رضي الله عنه في الذي ضرب سوطاً امتلأ القبر عليه به ناراً ، لكونه صلى صلاة واحدة بغير طهور ومر على مظلوم فلم ينصره[٢] .

وقد تقدم حديث سمرة[٢] في صحيح البخاري في تعذيب من يكذب الكذبة فتبلغ الآفاق ، وتعذيب من يقرأ القرآن ثم ينام عنه بالليل ولا يعمل به بالنهار ، وتعذيب الزناة والزواني ، وتعذيب آكل الربا ، كما شاهدهم النبي ﷺ في البرزخ .

---

(١) [صحيح]: سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

وتقدم حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي فيه: رضخ رؤوس أقوام بالصخر لتثاقل رؤوسهم عن الصلاة ، والذين يسرحون بين الضريع والزقوم لتركهم زكاة أموالهم ، والذين يأكلون اللحم المنتن الخبيث لزناهم ، والذين تقرض شفاههم بمقاريض من حديد لقيامهم في الفتن بالكلام والخطب(١) .

وتقدم حديث أبي سعيد وعقوبة أرباب تلك الجرائم(١) فمنهم من بطونهم أمثال البيوت وهم على سابلة آل فرعون وهم أكلة الربا. ومنهم من تفتح أفواههم فيلقمون الجمر حتى يخرج من أسافلهم وهم أكلة أموال اليتامى ، ومنهم المعلقات بثديهن وهن الزواني. ومنهم من تقطع جنوبهم ويطعمون لحومهم وهم المغتابون . ومنهم من لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم وهم الذين يغمزون أعراض الناس .

وقد أخبرنا النبي ﷺ عن صاحب الشملة التي غلها ، من المغنم أنها تشتعل عليه ناراً في قبره(١) هذا وله فيها حق ، فكيف بمن ظلم غيره ما لا حق له فيه. فعذاب القبر عن معاصي القلب، والعين، والأذن، والفم، واللسان، والبطن، والفرج، واليد، والرجل، والبدن كله، فالنمام، والكذاب، والمغتاب، وشاهد الزور، وقاذف المحصن، والموقع في الفتنة، والداعي إلى البدعة، والقائل على الله ورسوله ما لا علم له به ، والمجازف في كلامه ، وآكل الربا، وآكل أموال اليتامى ، وآكل السحت من الرشوة والبرطيل(٢) ونحوهما، وآكل مال أخيه المسلم بغير حق ، أو مال المعاهد ، وشارب المسكر، وآكل لقمة الشجرة الملعونة، والزاني، واللوطي، والسارق، والخائن، والغادر، والمخادع، والماكر، وآخذ الربا ومعطيه وكاتبه وشاهداه والمحلل والمحلل له ، والمحتال على إسقاط فرائض الله وارتكاب محارمه ، ومؤذي المسلمين ومتتبع عوراتهم ، والحاكم بغير ما أنزل الله ، والمفتي بخلاف ما شرعه الله، والمعين على الإثم والعدوان ، وقاتل النفس التي حرم الله ، والملحد في حرم الله ، والمعطل لحقائق أسماء الله وصفاته الملحد فيها، والمقدم رأيه وذوقه وسياسته على سنة رسول الله ﷺ ، والنائحة والمستمع إليها، ونواحو جهنم وهم المغنون الغناء.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) البِرْطِيل: حجر أو حديد طويل صُلْب خِلْقَةً ليس مما يُطَوِّله الناس، ولا يُحَدِّدُنَّه تُنْقَرُ به الرَّحَى، وهو الرِّشْوة أيضًا، يقال: بَرْطَلَهُ فَتَبَرْطَلَ: أي: رَشَاهُ فَارتَشَى.

الذي حرمه الله ورسوله والمستمع إليـهم، والذين يبنون المساجد على القبور ويوقدون عليها القناديل والسرج ، والمطففون في استيفاء مالهم إذا أخذوه وهضم ما عليهم إذا بذلوه، والجبارون، والمتكبرون، والمراؤون، والهـمازون، واللمازون، والطاعنون على السلف، والذين يأتون الكهنة والمنجمين والعرافين فيسألونهم ويصدقونهم ، وأعوان الظلمة الذين قـد باعوا آخرتهم بدنيا غـيرهم ، والذي إذا خوفتـه بالله وذكرته به لم يرعو ولم ينزجر فإذا أخوفته بمخلوق مـثله خاف وارعوى وكف عما هو فيه ، والذي يهدى بكلام الله ورسوله فلا يهتدي ولا يرفع بـه رأساً فإذا بلغه عمن يحسن به الظن ممن يصيب ويخطئ عض علـيه بالنواجذ ولـم يخالفـه ، والذي يقرأ عليه القـرآن فلا يؤثر فيه، وربما استثقل به فإذا سمع قـرآن الشيطان ورقية الزنا ومادة النفاق طاب سره وتواجد وهاج من قلبـه دواعي الطرب وود أن المغني لا يسكت ، والذي يحلف بالله ويكذب فإذا حلف بالـبندق أو برأس شيخـه أو قريبه أو سـراويل الفتوة أو حـياة من يحبـه ويعظمه من المخلوقين لم يكذب ولو هدد وعـوقب ، والذي يفتـخر بالمعصـية ويتكثر بها بين إخوانه وأضرابه وهو المجـاهر ، والذي لا تأمنه على مالك وحرمتك، والفاحش اللسان البـذيء الذي تركه الخلق اتقاء شره وفحشـه ، والذي يؤخر الصلاة إلى آخر وقـتها وينقرها ولا يذكـر الله فيها إلا قليـلاً، ولا يؤدي زكاة ماله طيبـة بها نفسـه ، ولا يحج مع قدرته عـلى الحج ، ولا يؤدي ما عليـه من الحقوق مـنع قدرته عليـهـا ، ولا يتـورع من لحظة ولا لفظة ولا أكـلة ولا خطوة ولا يبـالي بما حـصل [من][1] المال من حـلال أو حرام ، ولا يصل رحـمـه ولا يرحم المسكين ولا الأرملة ولا اليتيم ولا الحيوان البهيم ، بل يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين ، ويرائي للعالمين ويمنع الماعون ويشتغل بعيوب الناس عن عيبه وبذنوبهم عن ذنبه ، فكل هؤلاء وأمثالهم يعذبون في قبورهم بهذه الجرائم بحسب كثرتها وقلتها وصغيرها وكبيرها[2].

(١) لم تكن في المطبوعة ، ولكن وضعتها ليحصل بها المعنى.

(٢) ألا فليتأمل كل منا حال نفسـه ، هل سلمت من التلطخ بشيء من هذه القاذورات والنجاسات؟ فإذا لم تكن قد سلمت فهل لنا بعقوبة ما تلطـخنا به طاقة أو قبل؟! فإن كنا عن عذاب الله في الدنيا أو البرزخ وما بعد أضعف الضعفاء ، فحري بنا أن نصون أنفسنا عن ذلك بصادق التوبة النصوح، وفي الزجر القامع للنفس عن مثل هذه النجاسات ، ننصح أنفسنا وإخواننا بقراءة كتاب الكبائر للذهبي، أو «الترغيب والتـرهيب» للمنذري، وكتاب الرقائق في الكتب السـتـة، و«الموطأ» عسى أن يحيي الله بذلك موت قلوبنا، آمين يا رب العالمين.

ولما كان أكثر الناس كذلك كان أكثر أصحاب القبور معذبين ، والفائز منهم قليل ، فظواهر القبور تراب وبواطنها حسرات ، وعذاب ظواهرها بالتراب والحجارة المنقوشة مبنيات وفي باطنها الدواهي والبليات تغلي بالحسرات كما تغلي القدور بما فيها ، ويحق لها وقد حيل بينها وبين شهواتها وأمانيها، تالله لقد وعظت فما تركت لواعظ مقالاً، ونادت يا عمار الدنيا لقد عمرتم داراً موشكة بكم زوالاً ، وخربتم داراً أنتم مسرعون إليها انتقالاً، عمرتم بيوتاً لغيركم منافعها وسكناها، وخربتم بيوتاً ليس لكم مساكن سواها، هذه دار الاستباق ومستودع الأعمال وبذر الزرع ، وهذه محل للعبر رياض من رياض الجنة أو حفر من حفر النار.



المسائلة العاشرة

الأسباب المنجية من عذاب القبر

جوابها أيضاً من وجهين : مجمل ومفصل :

أما المجمل فهو تجنب الأسباب التي تقتضي عذاب القبر، ومن أنفعها أن يجلس الرجل عندما يريد النوم لله ساعة يحاسب نفسه فيها على ما خسره وربحه في يومه، ثم يجدد له توبة نصوحاً بينه وبين الله، فينام على تلك التوبة ويعزم على أن لا يعاود الذنب إذا استيقظ، ويفعل هذا كل ليلة، فإن مات من ليلته مات على توبة وإن استيقظ استيقظ مستقبلاً للعمل مسروراً بتأخير أجله حتى يستقبل ربه ويستدرك ما فاته، وليس للعبد أنفع من هذه النومة ولا سيما إذا عقب ذلك بذكر الله واستعمال السنن التي وردت عن رسول الله ﷺ عند النوم حتى يغلبه النوم، فمن أراد الله به خيراً وفقه لذلك، ولا قوة إلا بالله .

ذكر محاسبة النفس عند النوم:

وأما الجواب المفصل فنذكر أحاديث عن رسول الله ﷺ فيما ينجي من عذاب القبر.

(فمنها) ما رواه مسلم في صحيحه عن سلمان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات أجري عليه عمله الذي كان يعمله وأجري عليه رزقه وأمن الفتان»[1] .

وفي جامع الترمذي من حديث فضالة بن عبيد عن رسول الله قال : «كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطاً في سبيل الله فإنه ينمى له عمله إلى يوم

(١) [صحيح]: رواه أحمد : (٥/ ٤٤٠)، ومسلم : كتاب: الإمارة، باب: فضل الرباط في سبيل الله عز وجل، [١٩١٣]، والترمذي : كتاب: فضائل الجهاد، باب: ما جاء في فضل المرابط، [١٦٦٥]، والنسائي: كتاب: الجهاد، باب: فضل الرباط، (٦/ ٣٩)، وابن حبان: كتاب: السير، باب: فضل الجهاد، [٤٦٢٣]، [٤٦٢٦]، وفي إحدى روايات ابن حبان ما نصه: «**من مات مرابطًا في سبيل الله، أومن عذاب القبر، ونما له أجره إلى يوم القيامة**» ابن حبان : [٤٦٢٥].

القيامة، ويأمن من فتنة القبر»(١)، قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح

وفي سنن النسائي عن رشدين(٢) بن سعد عن رجل من أصحاب النبي ﷺ : أن رجلاً قال: يا رسول الله : ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ قال : «كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة»(٣).

ذكر فضائل الشهداء:

(وعن المقدام بن معد يكرب) قال : قال رسول الله ﷺ: «للشهيد عند الله ست خصال : يغفر له في أول دفعة من دمه ، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويشفع في سبعين من أقاربه»(٤). رواه ابن ماجة والترمذي وهذا لفظه وقال : هذا حديث حسن

(١) [صحيح]: رواه أحمد : (٦/ ٢٠)، وأبو داود : كتاب: الجهاد، باب: في فضل الرباط، [٢٥٠٠]، والترمذي : كتاب: فضائل الجهاد، باب: ما جاء في فضل من مات مرابطًا، [١٦٢١] ، وقال أبو عيسى: وفي الباب عن عقبة بن عامر، وجابر، وحديث فضالة حديث حسن صحيح، وابن ماجة : كتاب: الجهاد، باب: فضل الرباط في سبيل الله ، [٢٧٦٧]، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجة» ، [٢٢٣٤]، وانظر «الروض» ١٠١٣ ، «التعليق الرغيب»: (٢/ ١٥١).

(٢) هكذا بالمطبوعة ، وهو تصحيف بَشِعٌ فادح: وذلك أن رِشْدِين هو ابن سَعْد بن مُفْلِح بن هلال المَهْرِيُّ، أبو الحجاج المصري، وهو رِشْدين بن أبي رِشْدين، ضعيف ، قال عنه إمام أهل السنة والجماعة أبو عبد الله أحمد بن حنبل رضي الله عنه: رِشْدين بن سعد ليس يُبَالي عن من روى ، لكنه رجل صالح، وقال: ليس به بأس في أحاديث الرقائق. ، ولو كان هو المقصود لاعتل به الحديث وصار من أجله ضعيفًا إذ لا يثبت بمثله نص، أو تقوم على روايته حجة، وليس كذلك، إنما الصواب هو أنه راشد بن سعد المقرائي ، ويقال: الحُبْراني ، الحِمْصي، ثقة، قال عنه إمام أهل السنة والجماعة أبو عبد الله أحمد بن حنبل -رضي الله عنه- : لا بأس به.

وليست ثمة علة في الحديث لوجوده، ولا يُعَلُّ الحديث من ناحيته، وحديثه هنا صحيح رواه النسائي: كتاب: الجنائز ، باب: الشهيد، (٤/ ٩٩)، وصححه الألباني في «صحيح النسائي» : [١٩٤٠]، وانظر «الأحكام» ٣٦، التعليق الرغيب (٢/ ١٩٧).

(٣) [صحيح]: سبق تخريجه.

(٤) [صحيح]: رواه أحمد: (٤/ ١٣١)، والترمذي : كتاب: فضائل الجهاد، باب: في ثواب الشهيد، [١٦٦٣]، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب، وابن ماجة : كتاب: الجهاد، باب: فضل الشهادة في سبيل الله ، [٢٧٩٩]، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجة»: [٢٢٥٧]، وانظر «الأحكام» ص ٣٦، «المشكاة» ٣٨٣٤، «التعليق الرغيب» ٢/ ١٩٤.

صحيح.

فضيلة سورة الملك:

(وعن ابن عباس رضي الله عنهما) قال: ضرب رجل من أصحاب رسول الله ﷺ خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ضربت خبائي على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فقال النبي ﷺ: «هي المانعة، هي المنجية تنجيه من عذاب القبر»(١). قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(وروينا) في مسند عبد بن حميد، عن إبراهيم بن الحكم، عن أبيه عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال لرجل: ألا أتحفك بحديث تفرح به؟ قال الرجل: بلى. قال: اقرأ " تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير "، احفظها، وعلمها أهلك وولدك وصبيان بيتك وجيرانك، فإنها المنجية والمجادلة تجادل أو تخاصم يوم القيامة عند ربها لقارئها وتطلب له إلى ربها أن ينجيه من عذاب النار إذا كانت في جوفه وينجي الله بها صاحبها من عذاب القبر، قال رسول الله ﷺ: «لوددت أنها في قلب كل إنسان من أمتي»(٢).

قال أبو عمر بن عبد البر: وصح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن سورة ثلاثين آية شفعت في صاحبها حتى غفر له ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾»(٣).

---

(١) [ضعيف]: رواه الترمذي: كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل سورة الملك، [٢٨٩٠]، وضعفه الألباني في «ضعيف الترمذي»: [٥٤٦]، وقال معقبًا: ضعيف، وإنما يصح منه قوله: «هي المانعة ....» «الصحيحة» ١١٤٠، «ضعيف الجامع الصغير» ٦١٠١، و«المشكاة»: ٢١٥٤.

(٢) [ضعيف]: لأمور منها: وجود إبراهيم بن الحكم، هو إبراهيم بن الحكم بن أبان، أبو إسحاق العَدَني، عن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: سألت يحيى بن معين عنه فقال: ليس بشيء، ليس بثقة، وسألت أبي عنه فقال: وقت ما رأيناه لم يكن به بأس، ثم قال: أظنه كان حديثه يزيد بعدنا، ولم يحمده. وعن يحيى أنه قال عنه: ضعيف.

(٣) [صحيح]: رواه أحمد، (٢/ ٢٩٩، ٣٢١)، وأبو داود: كتاب: الصلاة، باب: في عدد الآي، [١٤٠٠]، والترمذي: كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في سورة الملك، [٢٨٩١]، وقال: هذا حديث حسن، وابن ماجة: كتاب: الأدب، باب: ثواب القرآن، [٣٧٨٦]، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجة»: [٣٠٥٣]، وانظر: «الروض النضير»: ٦٤، «التعليق الرغيب»: ٢/ ٢٢٢-٢٢٣، «صحيح أبي داود»: [١٢٦٥].

وفي سنن ابن ماجة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه : «من مات مبطوناً مات شهيداً، ووقي فتنة القبر وغدي وريح عليه برزق من الجنة»(١).

وفي سنن النسائي عن جامع بن شداد قال : سمعت عبد الله بن يشكر يقول : كنت جالساً مع سليمان بن صرد وخالد بن عرفطة فذكروا أن رجلاً مات ببطنه فإذا هما يشتهيان أن يكونا شهدا جنازته فقال أحدهما للآخر : ألم يقل رسول الله ﷺ : «من قتله بطنه لم يعذب في قبره ؟»(٢).

وقال أبو داود الطيالسي في مسنده : حدثنا شعبة : حدثني أحمد بن جامع بن شداد، قال أبي : فذكره وزاد ، فقال الآخر : بلى.

من مات يوم الجمعة وليلة الجمعة أجير من عذاب القبر:

(وفي الترمذي) من حديث ربيعة بن سيف ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : «ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر»(٣)، قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب ، وليس إسناده بمتصل. ربيعة بن سيف إنما يروي عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو ، ولا يعرف لربيعة بن سيف سماع من عبد الله بن عمرو . انتهى.

---

(١) [ضعيف جداً]: رواه ابن ماجة : كتاب: الجنائز، باب: من جاء فيمن مات مريضًا، [١٦١٥]، بلفظ: مريضًا بدلاً من مبطون، وضعفه الألباني في «ضعيف ابن ماجة» : [٣٥٥]، وانظر : «المشكاة»: [١٥٩٥]، «الضعيفة» : [٤٦٦١].

(٢) [صحيح]: رواه أحمد : (٤/ ٢٦٢)، (٥/ ٢٩٢)، والترمذي : كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في الشهداء من هم؟، [١٠٦٤]، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب في هذا الباب، وقد روي من غير هذا الوجه، والنسائي: كتاب: الجنائز، باب: من قتله بطنه، (٤/ ٩٨)، وابن حبان : كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في الصبر وثواب الأمراض، ذكر نفي عذاب القبر عمن مات من الإطلاق ، [٢٩٣٣]، وصححه الألباني في «صحيح النسائي» : [١٩٣٩]، وانظر الترمذي : [١٠٧٦]، أحكام الجنائز: ٣٨.

(٣) [ضعيف]: رواه أحمد: (٢/ ١٦٩)، والترمذي : كتاب الجنائز، باب: ما جاء في من يموت يوم الجمعة، [١٠٧٤]، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، قال: وهذا حديث ليس إسناده بمتصل، ربيعة بن سيف، إنما يروي عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي عن عبد الله بن عمرو، ولا نعرف لربيعة بن سيف سماعًا من عبد الله بن عمرو، وضعفه الشيخ أحمد شاكر لانقطاعه في تحقيقه لمسند الإمام أحمد : [٦٥٨٢]، (٦/ ١٥٣ : ١٥٤).

وقد روى الترمذي الحكيم من حديث ربيعة بن سيف هذا عن عياض بن عقبة الفهري عن عبد الله بن عمرو. وقد رواه أبو نعيم الحافظ ، عن محمد بن المنكدر، عن جابر مرفوعاً ولفظه : «من مات ليلة الجمعة أو يوم الجمعة أجير من عذاب القبر وجاء يوم القيامة وعليه طابع الشهداء»(١) . تفرد به عمر بن موسى الوجيهي وهو مدني ضعيف .

وقوله ﷺ : «كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة»(٢) . معناه والله أعلم قد امتحن نفاقه من إيمانه ببارقة السيف على رأسه فلم يفر ، فلو كان منافقاً لما صبر

---

(١) [ضعيف]: رواه أحمد : (٢/١٧٦، ٢٢٠)، وعبد بن حميد : ٣٢٣ عن يزيد بن هارون، وأما روايتا أحمد، فإحداهما عن سريج، والأخرى عن إبراهيم بن أبي العباس، ثلاثتهم عن بقية، قال: حدثنا معاوية بن سعيد التُّجيبي، سمعت أبا قبيل المصري يقول: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله ﷺ .... الحديث.

هذا وقد ضعف فضيلة الشيخ الأستاذ أحمد شاكر رواية سريج عن بقية، وأعل روايته بتدليس بقية، بينما صحح الرواية الأخرى والتي هي رواية إبراهيم بن أبي العباس وذلك بتصريحه أو بقوله حدثنا.

وهذا مع عظيم إجلالنا لسماحته لا ترفع به علة الضعف ، وذلك أن بقية لم يكن خطؤه في العنعنة فحسب، بل كان يفعل ما هو أخطر من ذلك ، فكان يذكر الضعفاء بكُنى الثقات مما يحط من روايته، ولا يجعلها تقوم بها حجة ، أو يثبت بها دليل، قال عنه ابن المبارك: صدوق، لكن يكتب عمن أقبل وأدبر. وقال يحيى بن معين: عند بقية ألف حديث صحاح عن شعبة. وقال ابن حبان: سمع من شعبة ومالك وغيرهما أحاديث مستقيمة، ثم سمع من أقوام كذابين عن شعبة ومالك، فروى عن الثقات بالتدليس ما أخذ عن الضعفاء. وقال الذهبي : وبقية ذو غرائب وعجائب ومناكير. والموضوع الذي يتناوله الحديث موضوع عقائدي، غيبي، لا يثبت إلا بسند هيئته كما نعلم جميعًا من حيث القوة والوضوح والسلامة من الشبهات. ومن ثَمَّ لا يُقْبَل مِثْلُ هذا الحديث من مثل هذا الراوي أبدًا، ولا يعول عليه على الإطلاق ما لم يكن هناك من الثقات العدول من روى حديثه معضدًا له. وهذا الذي يطمئن به وله القلب تبرئة لعقيدة الأمة وشريعتها من أن يدخل فيها ما ليس منها، والحمد لله ذي المنة وحده على حفظ ذلك وولاية أمره فلا أحد سواه يقدر على ذلك أبدًا. وإذا أضفنا إلى كل ذلك أن أحد رواة الحديث ذكر بكنيته وهو أبو قَبيل، فما أدرانا أنه هو حي بن هانئ الذي قال فيه ابن حجر : صدوق يهم؟. لعله غيره من المتروكين المجهولين ، وقد ذكره بكنيته تدليسًا بشعًا كما ذكر عنه أهل العلم في الأقوال السالفة أنه يذكر المناكير عن المشاهير، فمن يؤمنا أن هذا الحديث، من هذا النوع فسند كهذا لا تقوم به حجة، ولا يثبت به دليل البتة، والله تعالى أعلى وأعلم.

(٢) سبق تخريجه.

لبارقة السيف على رأسه ، قدل على أن إيمانه هو الذي حمله على بذل نفسه لله وتسليمها له ، وهاج من قلبه حمية الغضب لله ورسوله وإظهار دينه وإعزاز كلمته ، فهذا قد أظهر صدق ما في ضميره حيث برز للقتل فاستغنى بذلك عن الامتحان في قبره .

قال أبو عبد الله القرطبي : إذا كان الشهيد لا يفتن فالصديق أجل خطراً وأعظم أجراً أن لا يفتن لأنه مقدم ذكره في التنزيل على الشهداء ، وقد صح في المرابط الذي هو دون الشهيد أنه لا يفتن فكيف بمن هو أعلى رتبة منه ومن الشهيد .

والأحاديث الصحيحة ترد هذا القول وتبين أن الصديق يسأل في قبره كما يسأل غيره ، وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأس الصديقين وقد قال للنبي ﷺ لما أخبره عن سؤال الملك في قبره فقال : وأنا على مثل حالتي هذه ؟ فقال : نعم ، وذكر الحديث .

وقد اختلف في الأنبياء هل يسألون في قبورهم ؟ على قولين وهما وجهان في مذهب أحمد وغيره ، ولا يلزم من هذه الخاصية التي أختص بها الشهيد أن يشاركه الصديق في حكمها وإن كان أعلى منه ، فخواص الشهداء قد تنتفي عمن هو أفضل منهم وإن كان أعلى منهم درجة .

وأما حديث ابن ماجة «من مات مريضاً مات شهيداً ووقي فتنة القبر»(١) فمن إفراد ابن ماجة وفي إفراده غرائب ومنكرات ، ومثل هذا الحديث مما يتوقف فيه ولا يشهد به على رسول الله ﷺ ، فإن صح فهو مقيد بالحديث الآخر وهو الذي يقتله بطنه ، فإن صح عنه أنه قال : «المبطون شهيد»(٢)، فيحمل هذا المطلق على ذلك المقيد. والله أعلم .

ذكر مدافعة أنواع العذاب بأنواع الأعمال مفصلاً:

(وقد جاء) فيما ينجي من عذاب القبر حديث فيه الشفاء رواه أبو موسى المديني

---

(١) [ضعيف]: سبق تخريجه.

(٢) [صحيح]: رواه ابن ماجة: كتاب: الجهاد، باب: ما يرجى فيه الشهادة، [٤/٢٨٠]، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجة» : [٢٢٦٢]، وانظر : «الأحكام» : ٣٦، و٣٨. والحديث له شواهد في المسند وصحيح مسلم وغيرهما صحيحة.

ويين علته في كتابه في الترغيب والترهيب وجعله شرحاً له . رواه من حديث الفرج ابن فضالة ، حدثنا هلال أبو جبلة، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الرحمن بن سمرة، قال : «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في صفة بالمدينة، فقام علينا فقال : إني رأيت البارحة عجباً ! رأيت رجلاً من أمتي أتاه ملك الموت ليقبض روحه فجاء بره بوالديه فرد ملك الموت عنه، ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الشياطين فجاء ذكر الله فطير الشياطين عنه . ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم ورأيت رجلاً من أمتي يلهث عطشاً كلما دنا من حوض منع وطرد فجاءه صيام شهر رمضان فأسقاه وأرواه ، ورأيت رجلاً من أمتي ورأيت النبيين جلوساً حلقاً حلقاً، كلما دنا إلى حلقة طرد ومنع ، فجاءه غسله من الجنابة فأخذ بيده فأقعده إلى جنبي ، ورأيت رجلاً من أمتي من بين يديه ظلمة ومن خلفه ظلمة وعن يمينه ظلمة وعن يساره ظلمة ومن فوقه ظلمة وهو متحير فيه ، فجاءه حجه وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه في النور، ورأيت رجلاً من أمتي يتقي وهج النار وشررها فجاءته صدقته فصارت ستراً بينه وبين النار وظلاً على رأسه، ورأيت رجلاً من أمتي يكلم المؤمنين ولا يكلمونه فجاءته صلته لرحمه فقالت : يا معشر المؤمنين إنه كان وصولاً لرحمه فكلموه فكلمه المؤمنون وصافحوه وصافحهم ، ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الزبانية فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذه من أيديهم وأدخله في ملائكة الرحمة، ورأيت رجلاً من أمتي جاثياً على ركبتيه وبينه وبين الله حجاب فجاءه حسن خلقه فأخذ بيده فأدخله على الله عز وجل، ورأيت رجلاً من أمتي قد ذهبت صحيفته من قبل شماله فجاءه خوفه من الله عز وجل فأخذ صحيفته فوضعها في يمينه ، ورأيت رجلاً من أمتي خف ميزانه فجاءه أفراطه فثقلوا ميزانه ، ورأيت رجلاً من أمتي على شفير جهنم فجاءه رجاؤه من الله عز وجل فاستنقذه من ذلك ومضى ، ورأيت رجلاً من أمتي قد هوى في النار فجاءته دمعته التي قد بكى من خشية الله عز وجل فاستنقذته من ذلك ، ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على الصراط يرعد كما ترعد السعفة في ريح عاصف فجاءه حسن ظنه بالله عز وجل فسكن روعه ومضى ، ورأيت رجلاً من أمتي يزحف على الصراط يحبو أحياناً ويتعلق أحياناً فجاءته صلاته فأقامته على قدميه وأنقذته ، ورأيت رجلاً من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة فغلقت الأبواب دونه فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة»(١) .

---

(١) [ضعيف]: ذكره الهندي في «كنز العمال» ، وعزاه للحكيم، والبيهقي عن عبد الرحمن بن سمرة، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» : [٢٠٨٦].

قال الحافظ أبو موسى : هذا حديث حسن جداً رواه عن سعيد بن المسيب وعمر بن ذر وعلي بن زيد بن جدعان . ونحو هذا الحديث مما قيل فيه : إن رؤيا الأنبياء وحي فهو على ظاهره لا كنحو ما روي عنه ﷺ أنه قال : «رأيت كأن سيفي انقطع فأولته كذا وكذا . ورأيت بقراً تنحر، ورأيت كأنا في دار عقبة بن رافع»[1].

رؤيا الأنبياء وحي:

وقد روي في رؤياه الطويلة من حديث سمرة في الصحيح[2] ومن حديث على وأبي إمامة وروايات هؤلاء الثلاثة قريب بعضها من بعض مشتملة على ذكر عقوبات جماعة من المعذبين في البرزخ فأما في هذه الرواية فذكر العقوبة وأتبعها بما ينجي صاحبها من العمل ، وراوي هذا الحديث عن ابن المسيب هلال أبو جبلة مدني لا يعرف بغير هذا الحديث ، ذكره ابن أبي حاتم عن أبيه هكذا ذكره الحاكم أبو أحمد والحاكم أبو عبد الله أبو جبل بلاهاء، وحكياه عن مسلم ورواه عن الفرج بن فضالة، وهو وسط في الرواية ليس بالقوي ولا المتروك، ورواه عنه بشر بن الوليد الفقيه المعروف بأبي الخطيب كان حسن المذهب جميل الطريقة، وسمعت شيخ الإسلام يعظم أمر هذا الحديث وقال : أصول السنة تشهد له وهو من أحسن الأحاديث .



(١) [صحيح]: رواه البخاري: كتاب: المغازي، باب: من قتل من المسلمين يوم أحد، [٤٠٨١]، [٧٠٣٥]، ومسلم : كتاب: الرؤيا، باب: رؤيا النبي ﷺ ، [٢٢٧٢].

(٢) سبق تخريجه.

المسألة الحادية عشرة

وهي أن السؤال في القبر هل هو عام في حق المسلمين والمنافقين والكفار أو يختص بالمسلم والمنافق ؟

قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب التمهيد: والآثار الدالة تدل على أن الفتنة في القبر لا تكون إلا لمؤمن أو منافق كان منسوباً إلى أهل القبلة ودين الإسلام بظاهر الشهادة، وأما الكافر الجاحد المبطل فليس ممن يسأل عن ربه ودينه ونبيه، وإنما يسأل عن هذا أهل الإسلام ، فيثبت الله الذين آمنوا ويرتاب المبطلون .

والقرآن والسنة تدل على خلاف هذا القول وأن السؤال للكافر والمسلم ، قال الله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾[1] وقد ثبت في الصحيح أنها نزلت في عذاب القبر حين يسأل من ربك وما دينك ومن نبيك ؟ .

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال : «إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم»[2]، وذكر الحديث : زاد البخاري «وأما المنافق والكافر فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدري ، كنت أقول ما يقول الناس ، فيقال : لا دريت ولا تليت ويضرب بمطرقة من حديد يصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين»[2]. هكذا في البخاري ، وأما المنافق والكافر بالواو وقد تقدم في حديث أبي سعيد الخدري الذي رواه ابن ماجة والإمام أحمد، "كنا في جنازة مع النبي ﷺ فقال: يا أيها الناس إن هذه الأمة تبتلى في قبورها فإذا الإنسان دفن وتولى عنه أصحابه جاء ملك وفي يده مطراق فأقعده فقال : ما تقول في هذا الرجل؟ فإن كان مؤمناً قال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول له : صدقت ، فيفتح له باب إلى النار، فيقول : هذا منزلك لو كفرت بربك ، وأما الكافر والمنافق فيقول له : ما تقول

(١) (إبراهيم/ ٢٧).

(٢) سبق تخريجه.

في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، فيقال: لا دريت ولا اهتديت، ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقول له : هذا منزلك لو آمنت بربك، فأما إذ كفرت فإن الله أبدلك به هذا، ثم يفتح له باب إلى النار ثم يقمعه الملك بالمطراق قمعة يسمعه خلق الله إلا الثقلين ، فقال بعض الصحابة : يا رسول الله ما أحد يقوم على رأسه ملك إلا هيل عند ذلك فقال رسول الله ﷺ : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾(١)»(٢).

(وفي حديث) البراء بن عازب الطويل : "وأما الكافر إذا كان في قبل من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزل عليه الملائكة من السماء معهم مسوح(٣). وذكر الحديث إلى أن قال : ثم تعاد روحه في جسده في قبره"، وذكر الحديث ، وفي لفظ "فإذا كان كافراً جاءه ملك الموت فجلس عند رأسه فذكر الحديث إلى قوله : ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون فلان بأسوأ أسمائه، فإذا انتهى به إلى سماء الدنيا أغلقت دونه ، قال: فيرمى به من السماء ، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾(٤) قال : فتعاد روحه في جسده ، ويأتيه ملكان شديدا الانتهار فيجلسانه وينتهرانه فيقولان : من ربك ؟ فيقول: هاه لا أدري، فيقولان لا دريت ، فيقولان : ما هذا النبي الذي بعث فيكم ؟ فيقول : سمعت الناس يقولون ذلك ، لا أدري . فيقولان له : لا دريت ، وذلك قوله تعالى : ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾(٥)» وذكر الحديث .

واسم الفاجر في عرف القرآن والسنة يتناول الكافر قطعاً كقوله تعالى : ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾(٦) وقوله تعالى : ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾(٧) وفي لفظ آخر في حديث البراء "وإن الكافر إذا كان في قبل من

(١) (إبراهيم/ ٢٧).

(٢) الحديث المتقدم عن أبي سعيد -رضي الله عنه- وإن كان فيه : «إن هذه الأمة تبتلى في قبورها ....» إلا أن هذا ليس تمامه ، وهو في «مسند أحمد»، و«صحيح مسلم»، وقد سبق تخريجه، أما هذا الحديث فرواه أحمد في «المسند» : (٣/٣: ٤)، ولم أقف عليه في «سنن ابن ماجة» .

(٣) سبق تخريجه.

(٤) (الحج/ ٣١).

(٥) (إبراهيم/ ٢٧).

(٦) (الانفطار/ ١٤).

(٧) (المطففين/ ٧).

الآخرة وانقطاع من الدنيا نزل إليـه ملائكة شداد غضاب معـهم ثياب من نار وسرابيل من قطران فيـحتوشـونه، فتنزع روحه كـما ينزع السفـود الكثير الشـعب من الصوف المبتل، فـإذا أخرجت لعنه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك فـي السماء»[(١)].

وذكر الحديث إلى أن قال : "إنه ليسمع خـفق نعالهم إذا ولوا مدبرين فيقال : يا هذا من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيقول : لا أدري فيقال : لا دريت»[(٢)] . وذكر الحديـث رواه حمـاد بن سلمة عن يونس بن خـباب ، عن المنهـال بن عمـرو، عن زاذان، عن البراء.

وفي حديث عـيسى بن المسـيب، عن عدي بن ثابت، عن البـراء، خرجنا مع رسـول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصـار، وذكـر الحديث إلى أن قـال : "وإن الكافر إذا كان في دبر من الدنـيا وقبل من الآخرة وحضره المـوت نزلت عليه ملائكة معـهم كفن من نار وحنوط من نار" . فذكـر الحديث إلى أن قال: "فتـرد روحه إلى مضجـعه فيأتيه منكر ونكيـر يثيران الأرض بأنيابهـما ويفحصان الأرض بأشـعارهما، أصواتهما كالرعد القاصف، وأبصارهما كالبرق الخاطف، فيجلسانه، ثم يقولان : يا هذا من ربك؟ فيقـول : لا أدري فينادى من جانب القبر : لا دريت فـيضربانه بمرزبة من حديد لو اجتـمع عليها من بين الخافـقين لم تقل ويضيق عليه قبـره حتى تختلف أضلاعه»[(٣)]. وذكر الحديث.

ورواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي النضـر هاشم بن القاسم ، حدثنا عيسى ابن المسيب ، فذكره .

(وفي حديث) محمد بن سلمة، عن خصيف، عن مجاهد، عن البراء، قال : كنا في جنازة رجل من الأنصـار ومعنا رسول الله ﷺ فـذكر الحـديث إلى أن قال : وقال رسول الله ﷺ : «وإذا وضع الكافر أتاه منكر ونكير فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : لا أدري ، فيقولان له : لا دريت»[(٤)] . الحديث وقد تقدم .

(١، ٢) سبق تخريجه.

(٣) [ضعيف]: لأمور منها: وجود عيسى بن المسـيب البجلي، الكوفي، قال يحيى بن معين، والنسائي، والدارقطني: ضعيف.

(٤) سبق تخريجه.

وبالجملة فعامة من روى حديث البراء بن عازب قال فيه : وأما الكافر بالجزم ، وبعضهم قال : وأما الفاجر، وبعضهم قال : وأما المنافق والمرتاب ، وهذه اللفظة من شك بعض الرواة هكذا في الحديث لا أدري أي ذلك قال .

وأما من ذكر الكافر والفاجر فلم يشك، ورواية من لم يشك -مع كثرتهم- أولى من رواية من شك -مع انفراده- على أنه لا تناقض بين الروايتين فإن المنافق يسأل كما يسأل الكافر والمؤمن فيثبت الله أهل الإيمان ويضل الله الظالمين وهم الكفار والمنافقون .

(وقد جمع) أبو سعيد الخدري في حديثه الذي رواه أبو عامر العقدي، حدثنا عباد بن راشد، عن داود بن أبي هند، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، قال : شهدنا مع رسول الله ﷺ جنازة . فذكر الحديث[1] .

وقال : وإن كان كافراً أو منافقاً يقول له : ما تقول في هذا الرجل؟ فيقول : لا أدري، وهذا صريح في أن السؤال للكافر والمنافق ، وقول أبي عمر رحمه الله : وأما الكافر الجاحد المبطل فليس ممن يسأل عن ربه ودينه ونبيه، فيقال له : ليس كذلك بل هو من جملة المسؤولين وأولى بالسؤال من غيره .

وقد أخبر الله في كتابه أنه يسأل الكافر يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾[2] . وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[3] . وقال تعالى : ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾[4] فإذا سئلوا يوم القيامة فكيف لا يسألون في قبورهم ؟! فليس لما ذكره أبو عمر رحمه الله وجه .



(١) سبق تخريجه.

(٢) (القصص/ ٦٥).

(٣) (الحجر/ ٩٢).

(٤) (الأعراف/ ٦).

المسألة الثانية عشرة

وهي أن سؤال منكر ونكير هل هو مختص بهذه الأمة أو يكون لها ولغيرها؟

هذا موضع تكلم فيه الناس فقال أبو عبد الله الترمذي إنما سؤال الميت في هذه الأمة خاصة لأن الأمم قبلنا كانت الرسل تأتيهم بالرسالة فإذا أبوا كفت الرسل واعتزلوهم، وعوجلوا بالعذاب، فلما بعث الله محمداً ﷺ بالرحمة إماماً للخلق كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[(١)] أمسك عنهم العذاب وأعطي السيف حتى يدخل في دين الإسلام من دخل لمهابة السيف، ثم يرسخ الإيمان في قلبه، فأمهلوا، فمن هاهنا ظهر أمر النفاق، وكانوا يسرون الكفر ويعلنون الإيمان، فكانوا بين المسلمين في ستر، فلما ماتوا قيض الله لهم فتاني القبر ليستخرجا سرهم بالسؤال و﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾ فـ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾.

وخالف في ذلك آخرون منهم عبد الخالق الأشبيلي والقرطبي وقالوا: السؤال لهذه الأمة ولغيرها. وتوقف في ذلك آخرون منهم أبو عمر بن عبد البر فقال: وفي حديث زيد بن ثابت عن النبي ﷺ أنه قال: «إن هذه الأمة تبتلى في قبورها»[(٢)]. ومنهم من يرويه تسأل، وعلى هذا اللفظ يحتمل أن تكون هذه الأمة خصت بذلك فهذا أمر لا يقطع عليه. وقد احتج من خصه بهذه الأمة بقوله ﷺ إن هذه الأمة تبتلى في قبورها[(٣)]، وبقوله: أوحي إلي أنكم تفتنون في قبوركم[(٤)]. وهذا ظاهر

(١) (الأنبياء/ ١٠٧).

(٢، ٣) سبق تخريجه.

(٤) [صحيح]: رواه البخاري: كتاب العلم، باب: من أجاب الفتيا بإشارة اليد أو الرأس، [٨٦، ١٨٤، ٩٢٢، ١٠٥٣، ١٠٥٤، ١٠٦١، ١٢٣٥، ١٣٧٣، ٢٥١٩، ٢٥٢٠، ٧٢٨٧]، ومسلم: كتاب المساجد، ومواضع الصلاة، باب: استحباب التعوذ من عذاب القبر، [٥٨٤]، وهي عبارة من حديث طويل، وحديث البخاري غير مسلم إلا أنهما ورد فيهما هذه العبارة، وحديث البخاري لفظه: أن أسماء قالت: أتيت عائشة وهي تصلي، فقلت: ما شأن الناس؟ فأشارت إلى السماء،=

في الاختصاص بهذه الأمة، قالوا : ويدل عليه قول الملكين له : ما كنت تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول المؤمن: أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فهذا خاص بالنبي ﷺ وقوله في الحديث الآخر «إنكم بي تمتحنون وعني تسألون».

وقال آخرون : لا يدل هذا على اختصاص السؤال بهذه الأمة دون سائر الأمم، فإن قوله إن هذه الأمة إما أن يراد به أمة الناس كما قال تعالى : ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾(١) .

وكل جنس من أجناس الحيوان يسمى أمة. وفي الحديث «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها»(٢) .

وفيه أيضاً حديث النبي الذي قرصته نملة فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله

= فإذا الناس قيام، فقالت : سبحان الله، قلت: آية، فأشارت برأسها -أي: نعم- فقمت حتى تجلاني الغشي، فجعلت أصب على رأسي الماء، فحمد الله -عز وجل- النبي ﷺ ، وأثنى عليه، ثم قال: «ما من شيء لم أكن أريته إلا رأيته في مقامي ، حتى الجنة والنار، فأوحي إلي أنكم تفتنون في قبوركم مثل أو قريب -لا أدري أي ذلك قالت أسماء- من فتنة المسيح الدجال، يقال: ما علمك بهذا الرجل؟ فأما المؤمن أو الموقن - لا أدري بأيهما قالت أسماء- فيقول: هو محمد رسول الله ، جاءنا بالبينات والهدى، فأجبنا واتبعنا، هو محمد (ثلاثًا) فيقال: نم صالحًا، قد علمنا إن كنت لموقنًا به، وأما المنافق أو المرتاب -لا أدري أي ذلك قالت أسماء - فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته» الحديث. اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، وثبت جوابنا عند السؤال برحمتك يا حنان يا منان ، آمين.

(١) (الأنعام/ ٣٨).

(٢) [صحيح]: رواه أحمد : (٥/ ٥٤، ٥٦، ٥٦ : ٥٧)، ومسلم : كتاب: الطهارة، باب: حكم ولوغ الكلب، [٢٨٠]، وأبو داود : كتاب الصيد، باب: في اتخاذ الكلب للصيد، [٢٨٤٥]، والترمذي: كتاب الأحكام والفوائد، باب: ما جاء في قتل الكلاب، [١٤٨٦]، والنسائي: كتاب الصيد والذبائح، باب: صفة الكلاب التي أمر بقتلها : (٧/ ١٨٥) ، وابن ماجة مقتصراً على شطره الأخير فحسب، كتاب: المساجد والجماعات، باب: الصلاة في أعطان الإبل ومُراح الغنم، [٧٦٨]، وابن حبان: كتاب: الحظر والإباحة، باب: قتل الحيوان، ذكر إرادة المصطفى ﷺ الأمر بقتل الكلاب كلها، [٥٦٥٧، ٥٦٥٨، ٥٦٥٩]، وتمامه عن عبد الله بن المُغَفَّل قال: قال رسول الله ﷺ : «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها، فاقتلوا منها الأسود البهيم» قال: «وأيما قوم اتخذوا كلبًا ليس بكلب حرث أو صيد أو ماشية نقص من أجرهم كل يوم قيراط» قال: وكنا نؤمر أن نصلي في مرابض الغنم، ولا نصلي في أعطان الإبل؛ فإنها خلقت من الشياطين.

إليه من أجل أن قرصتك نملة واحدة أحرقت أمة من الأمم تسبح الله(١) .

وإن كان المراد به أمته ﷺ الذي بعث فيهم لم يكن فيه ما ينفي سؤال غيرهم من الأمم . بل قد يكون ذكرهم إخباراً بأنهم مسؤولون في قبورهم وأن ذلك لا يختص بمن قبلهم لفضل هذه الأمة وشرفها على سائر الأمم .

وكذلك قوله ﷺ : «أوحي إلي أنكم تفتنون في قبوركم»(٢) .

وكذلك إخباره عن قول الملكين ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ هو إخبار لأمته بما تمتحن به في قبورها، والظاهر -والله أعلم- أن كل نبي مع أمته كذلك وأنهم معذبون في قبورهم بعد السؤال لهم وإقامة الحجة عليهم كما يعذبون في الآخرة بعد السؤال وإقامة الحجة ..والله سبحانه وتعالى أعلم .



(١) [صحيح]:رواه أحمد : (٢/٤٠٣)، والبخاري : كتاب: الجهاد، باب: [١٥٣]، [٣٠١٩]، ومسلم: كتاب: السلام، باب: النهي عن قتل النمل، [٢٢٤١]، وأبو داود : كتاب: الأدب، باب: في قتل الذر، [٥٢٦٥، ٥٢٦٦] ، والنسائي : كتاب: الذبائح والصيد، باب: قتل النمل، (٧/ ٢١٠: ٢١١)، وابن ماجة : كتاب: الصيد ، باب: ما ينهى عن قتله، [٣٢٢٥].

(٢) سبق تخريجه.

المسألة الثالثة عشرة

وهي أن الأطفال هل يمتحنون في قبورهم؟

اختلف الناس في ذلك على قولين : هما وجهان لأصحاب أحمد.

وحجة من قال إنهم يسألون أنه يشرع الصلاة عليهم، والدعاء لهم، وسؤال الله أن يقيهم عذاب القبر وفتنة القبر (كما ذكر) مالك في موطئه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ صلى على جنازة صبي فسمع من دعائه : «اللهم قه عذاب القبر»[1].

(واحتجوا) بما رواه علي بن معبد عن عائشة رضي الله عنها : أنه مر عليها بجنازة صبي صغير فبكت فقيل لها : ما يبكيك يا أم المؤمنين ؟ فقالت : هذا الصبي بكيت له شفقة عليه من ضمة القبر.

(واحتجوا) بما رواه هناد بن السري ، حدثنا أبو معاوية، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إنه كان ليصلي على المنفوس ما إن عمل خطيئة قط فيقول : اللهم أجره من عذاب القبر .

قالوا : والله سبحانه يكمل لهم عقولهم ليعرفوا بذلك منزلتهم ، ويلهمون الجواب عما يسألون عنه .

قالوا : وقد دل على ذلك الأحاديث الكثيرة التي فيها أنهم يمتحنون في الآخرة وحكاه الأشعري عن أهل السنة والحديث: فإذا امتحنوا في الآخرة لم يمتنع امتحانهم في القبور.

(قال الآخرون): السؤال إنما يكون لمن عقل الرسول والمرسل فيسأل : هل آمن بالرسول وأطاعه أم لا ؟ فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟

---

(١) لم أقف عليه في «الموطأ» كما ذكر العلامة ابن القيم، وما هديت إليه أثر موقوف على أبي هريرة – رضي الله عنه– غير مرفوع. رواه سعيد بن المسيب، قال: صليت وراء أبي هريرة –رضي الله عنه– على صبي لم يعمل خطيئة قط، فسمعته يقول: اللهم أعذه من عذاب القبر، رواه مالك في «الموطأ» : كتاب : الجنائز ، باب: ما يقول المصلي على الجنازة ، [١٨].

فأما الطفل الذي لا تمييز له بوجه ما فكيف يقال له : ما كنت تقوك في هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟! ولو رد إليه عقله في القبر فإنه لا يسأل عما لم يتمكن من معرفته والعلم به ، ولا فائدة في هذا السؤال ، وهذا بخلاف امتحانهم في الآخرة، فإن الله سبحانه يرسل إليهم رسولاً ويأمرهم بطاعة أمره وعقولهم معهم فمن أطاعه منهم نجا، ومن عصاه أدخله النار، فذلك امتحان بأمر يأمرهم به ويفعلونه ذلك الوقت لا أنه سؤال عن أمر مضى لهم في الدنيا من طاعة أو عصيان كسؤال الملكين في القبر.

وأما حديث أبي هريرة رضي الله عنه فليس المراد بعذاب القبر فيه عقوبة الطفل على ترك طاعة أو فعل معصية قطعاً فإن الله لا يعذب أحداً بلا ذنب عمله ، بل عذاب القبر قد يراد به الألم الذي يحصل للميت بسبب غيره وإن لم يكن عقوبة على عمل عمله . ومنه قوله ﷺ : «إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه»(١) .

أي يتألم بذلك ويتوجع منه لا أنه يعاقب بذنب الحي ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾(٢) .

وهذا كقول النبي ﷺ: «السفر قطعة من العذاب»(٣). فالعذاب أعم من

---

(١) [صحيح]: رواه أحمد : (١/ ٤١، ٤١: ٤٢، ٤٢، ٤٥) ، والبخاري : كتاب: الجنائز، باب: ما يكره من النياحة على الميت، [١٢٩١، ١٢٩٢] ، ومسلم : كتاب: الجنائز، باب: الميت يعذب ببكاء أهله عليه، [٩٢٧].

وحاصل المسألة أن هذا يقع للميت ليس بذنب الحي، إنما بذنب عدم تأديبه لأهله وتربيته لهم على أخلاق الإسلام، فيعذب لتقصيره في ذلك، وأما إن كان قد قدم من التأديب والتربية والتزكية والتوعية لأهله ما يعذره أمام الله فحاش لله أن يؤاخذه بإعراض أهله عن الهدى الذي قدمه لهم قبل موته، ولبيان هذه المسألة والجمع بين هذا الحديث ، وقوله تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ (الأنعام/ ١٦٤). انظر «مختصر الصواعق المرسلة» لابن القيم بتحقيق محقق هذا الكتاب، طبعة المكتبة التوفيقية.

(٢) (الأنعام/ ١٦٤).

(٣) [صحيح]: رواه أحمد : (٢/ ٤٩٦)، والبخاري: كتاب: العمرة، باب: السفر قطعة من العذاب، [١٨٠٤]، [٣٠٠١، ٥٤٢٩]، ومسلم : كتاب: الإمارة، باب: السفر قطعة من العذاب ، واستحباب تعجيل المسافر إلى أهله بعد قضاء شغله، [١٩٢٧]، وابن ماجة : كتاب: المناسك ، باب: الخروج إلى الحج، [٢٨٨٢]، وابن حبان : كتاب: الصلاة، باب: المسافر ، [٢٧٠٨].

العقوبة.

ولا ريب أن في القبر من الآلام والهموم والحسرات ما قد يسري أثره إلى الطفل فيتألم به ، فيشرع للمصلي عليه أن يسأل الله تعالى له أن يقيه ذلك العذاب . والله أعلم(١) .



(١) من المعلوم من الدين بالضرورة أنه بخروج الروح من الجسد ينتقل الإنسان من حياة العمل إلى حياة الجزاء، فما من نعيم ينعم به الإنسان إلا وهو جزاء وفضل لما كسبت يداه كما أخبر المولى عز وجل: ﴿كلوا واشربوا هنيئًا بما كنتم تعملون﴾ (الطور/ ١٩) ، (المرسلات/ ٤٣)، وكما قال تعالى: ﴿كلوا واشربوا هنيئًا بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ (الحاقة / ٢٤)، كذلك ما يتألم ولا ييأس إلا جزاء وفاقا لما كسبت يداه ، كما قال تعالى: ﴿اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ (الطور/ ١٦)، وإذا كان من الممكن أن يتنعم الطفل إذا مات قبل أن يعي تفضلاً منه سبحانه وتعالى فحاش لله عز وجل أن يجد الطفل ألمًا في دار الجزاء وهو لم يجر عليه القلم أصلاً، والحمد لله رب العالمين . وأما دعاء أبي هريرة -رضي الله عنه- للطفل في «الموطأ» فلعله جرى على عادة ما يحدث عمومًا، ولو صح ذلك عن النبي ﷺ لسلمنا به مفوضين الحكمة لله، ولكنه لم يصح عنه ذلك، والله تعالى أعلى وأعلم.

المسألة الرابعة عشرة

وهي قوله هل عذاب القبر دائم أو منقطع ؟

جوابها أنه نوعان (نوع دائم) سوى ما ورد في بعض الأحاديث أنه يخفف عنهم ما بين النفختين، فإذا قاموا من قبورهم﴿ قالوا: يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا﴾ ويدل على دوامه قوله تعالى : ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾[١] ويدل عليه أيضاً ما تقدم في حديث سمرة[٢] الذي رواه البخاري في رؤيا النبي ﷺ وفيه فهو يفعل به ذلك إلى يوم القيامة[٣].

وفي حديث ابن عباس في قصة الجريدتين[٤] لعله يخفف عنهما ما لم تيبسا[٥]، فجعل التخفيف مقيداً بعدة رطوبتهما فقط .

وفي حديث الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي هريرة : ثم أتى على قوم ترضخ رؤوسهم بالصخر كلما رضخت عادت لا يفتر عنهم من ذلك شئ[٦]، وقد تقدم ، وفي الصحيح في قصة «الذي لبس بردين وجعل يمشي يتبختر فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»[٧].

وفي حديث البراء بن عازب في قصة الكافر «ثم يفتح له باب إلى النار فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الساعة»[٨]. رواه الإمام أحمد، وفي بعض طرقه : «ثم يخرق له خرقاً إلى النار فيأتيه من غمها ودخانها إلى يوم القيامة»[٩].

(النوع الثاني) إلى مدة ثم ينقطع وهو عذاب بعض العصاة الذين خفت جرائمهم فيعذب بحسب جرمه ، ثم يخفف عنه كما يعذب في النار مدة ثم يزول عنه العذاب .

---

(١) (غافر/ ٤٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) سبق تخريجه.

(٧) سبق تخريجه.

(٨) سبق تخريجه.

(٩) سبق تخريجه.

وقد ينقطع عنه العذاب بدعاء ، أو صدقة، أو استغفار، أو ثواب حج، أو قراءة تصل إليه من بعض أقاربه أو غيرهم، وهذا كما يشفع الشافع في المعذب في الدنيا فيخلص من العذاب بشفاعته ، لكن هذه شفاعة قد لا تكون بإذن المشفوع عنده والله سبحانه وتعالى لا يتقدم أحد بالشفاعة بين يديه إلا من بعد إذنه فهو الذي يأذن للشافع أن يشفع إذا أراد أن يرحم المشفوع له ، ولا تغتر بغير هذا فإنه شرك وباطل يتعالى الله عنه ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ ﴿ما من شفيع إلا من بعد إذنه﴾ ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾- ﴿قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السماوات والأرض﴾

(وقد ذكر) ابن أبي الدنيا حدثني محمد بن موسى الصائغ ، حدثنا عبد الله بن نافع ، قال : مات رجل من أهل المدينة فرآه رجل كأنه من أهل النار فاغتم لذلك ثم أنه بعد ساعة أو ثانية رآه كأنه من أهل الجنة فقال : ألم تكن قلت : إنك من أهل النار؟، قال : قد كان ذلك ، إلا أنه دفن معنا رجل من الصالحين فشفع في أربعين من جيرانه فكنت أنا منهم . قال ابن أبي الدنيا : وحدثنا أحمد بن يحيى قال : حدثني بعض أصحابنا قال: مات أخي فرأيته في النوم فقلت : ما كان حالك حين وضعت في قبرك؟ قال : أتاني آت بشهاب من نار فلولا أن داعياً دعا لي لرأيت أنه سيضربني به . وقال عمر بن جرير: إذا دعا العبد لأخيه الميت أتاه بها ملك إلى قبره فقال : يا صاحب القبر الغريب هدية من أخ عليك شفيق . وقال بشار بن غالب رأيت رابعة في منامي وكنت كثير الدعاء لها فقالت لي : يا بشار بن غالب هداياك تأتينا على أطباق من نور مخمرة بمناديل الحرير، قلت : كيف ذلك ؟ قالت : هكذا دعاء المؤمنين الأحياء إذا دعوا للموتى استجيب لهم وجعل ذلك الدعاء على أطباق النور وخمر بمناديل الحرير ثم أتي بها الذي دعي له من الموتى فقيل : هذه هدية فلان إليك. قال ابن أبي الدنيا: وحدثني أبو عبيد بن بحير قال : حدثني بعض أصحابنا قال : رأيت أخاً لي في النوم بعد موته فقلت : أيصل إليكم دعاء الأحياء؟ قال : أي والله يترفرف مثل النور ثم نلبسه. وسيأتي إن شاء الله تعالى تمام لهذه في جواب السؤال عن انتفاع الأموات بما تهديه إليهم الأحياء[1] .

(١) وقد ينقطع الألم فوراً بعد الضمة الأولى كما حدث لسيدنا معاذ -رضي الله عنه- في الحديث الصحيح المتقدم ذكره.

المسألة الخامسة عشرة

وهي اين مستقر الأرواح ما بين الموت إلى يوم القيامة؟

هل هي في السمـاء أم في الأرض؟ وهل هي فـي الجنة أم لا؟ وهل تودع في أجساد غير أجسادها التي كانت فيها فتنعم وتعذب فيها أم تكون مجردة؟

هذه مسألة عظيـمة تكلم فيهـا الناس واختلفوا فيهـا وهي إنما تتلقى من السمع فقط واختلف في ذلك فقال قائلون : أرواح المؤمنين عند الله في الجنة شهداء كانوا أم غيـر شهداء إذا لم يحتبسهم عـن الجنة كبيـرة ولا دين، وتلقاهم ربهم بالعـفو عنهم والرحمة لهم، وهذا مذهب أبي هريرة وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم .

وقالت طائفة : هم بفناء الجنة على بابها يأتيهم من روحها ونعيمها ورزقها

وقالت طائفة : الأرواح على أفنية قبورها .

وقال مالك : بلغني أن الروح مرسلة تذهب حيث شاءت .

وقال الإمـام أحمـد في رواية ابنه عـبد الله ، أرواح الكفـار في النار وأرواح المؤمنين في الجنة .

وقال أبو عبد الله بن منده : وقال طائفة من الصحابة والتابعين: أرواح المؤمنين عند الله عـز وجل ولم يزيدوا على ذلك، قـال: وروي عن جمـاعـة من الصحـابة والتابعين : أن أرواح المؤمنين بالجابية، وأرواح الكفار ببرهوت بئر بحضرموت .

وقال صـفوان بن عـمرو : سـألت عامـر بن عبـد الله أبا اليمـان هل لأنفس المؤمنين مجتمع ؟ فقال : إن الأرض التي يقول الله تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾[1] قال : هي الأرض التي يجتمع إليها أرواح المؤمنين حتى يكون البعث ، وقـالوا : هي الأرض التي يورثها الله المؤمنين في الدنيا، وقال كعب : أرواح المؤمنين في عليين في السماء السابعة، وأرواح الكفار في سجين في الأرض السابعة تحت خد إبليس .

---

(١) (الأنبياء/ ١٠٥).

وقالت طائفة : أرواح المؤمنين ببئر زمزم ، وأرواح الكفار ببئر برهوت . وقال سلمان الفارسي: أرواح المؤمنين في برزخ من الأرض تذهب حيث شاءت وأرواح الكفار في سجين. وفي لفظ عنه : نسمة المؤمنين تذهب في الأرض حيث شاءت. وقالت طائفة : أرواح المؤمنين عن يمين آدم ، وأرواح الكفار عن شماله. وقالت طائفة أخرى منهم ابن حزم: مستقرها حيث كانت قبل خلق أجسادها.

وقال : والذي نقول به في مستقر الأرواح هو ما قاله الله عز وجل ونبيه ﷺ لا نتعداه ، فهو البرهان الواضح ، وهو أن الله عز وجل قال : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾(١) وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾(٢) فصح أن الله تعالى خلق الأرواح جملة، وكذلك أخبر ﷺ أن «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»(٣). وأخذ الله عهدها وشهادتها له بالربوبية وهي مخلوقة مصورة عاقلة قبل أن يأمر الملائكة بالسجود لأدم ، وقبل أن يدخلها في الأجساد، والأجساد يومئذ تراب وماء، ثم أقرها حيث شاء وهو البرزخ الذي ترجع إليه عند الموت ، ثم لا يزال يبعث منها الجملة بعد الجملة فينفخها في الأجساد المتولدة من المني. إلى أن قال: فصح أن الأرواح أجساد حاملة لأعراضها من التعارف والتناكر وأنها عارفة مميزة فيبلوهم الله في الدنيا كما يشاء، ثم يتوفاها، فترجع إلى البرزخ الذي رآها فيه رسول الله ﷺ ليلة أسري به عند سماء الدنيا أرواح أهل السعادة عن يمين آدم وأرواح أهل الشقاوة عن يساره وذلك عند منقطع العناصر، ويعجل أرواح الأنبياء والشهداء إلى الجنة . قال : وقد ذكر محمد بن نصر المروزي عن إسحاق بن راهويه ، أنه ذكر هذا الذي قلنا بعينه . قال : وعلى هذا أجمع أهل العلم . قال ابن حزم : وهو قول أهل الإسلام ، قال : وهذا هو قول الله تعالى : ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾(٤) وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾(٥) إلى آخرها

---

(١) (الأعراف/ ١٧٢).

(٢) (الأعراف/ ١١).

(٣) [صحيح]: سبق تخريجه.

(٤) (الواقعة/ ٨: ١٤).

(٥) (الواقعة / ٨٨).

فلا تزال الأرواح هنالك حتى يتم عدد الأرواح كلها بنفخها في الأجساد ثم برجوعها إلى البرزخ ، فتقـوم الساعة ويعيد الله عز وجل الأرواح إلى أجـسادها ثانية ، وهي الحياة الثانية يحاسب الخلق ، فريق في الجنة وفريق في السعير مخلدين أبداً. انتهى.

وقال أبو عـمر بن عبد البـر: أرواح الشهداء في الجنة، وأرواح عـامة المؤمنين على أفنية قبورهم . ونحن نذكر كلامه وما احتج به ونبين ما فيه .

وقال ابن المبارك عن ابن جريج فيما قرىء عليه عن مجاهد: ليس هي في الجنة ولكن يأكلون من ثمارها ويجدون ريحها .

وذكر معاوية بن صالح عن سعـيد بن سويد، أنه سأل ابن شـهاب عن أرواح المؤمنين فقال : بلغني أن أرواح الشهداء كطير خـضر معلقة بالعرش تغدو وتروح إلى رياض الجنة تأتي ربها في كل يوم تسلم عليه (١).

وقال أبو عـمر بن عبـد البر في شرح حـديث ابن عمر: إن أحـدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال له : هذا مقعدك حتى يبعثك الله إلى يوم القيامة(٢)، قال : وقد استدل به من ذهب إلى أن الأرواح على أفنية القبور، وهو أصح ما ذهب إليه في ذلك ، والله أعلم لأن الأحاديث بذلك أحسن مجيئاً وأثبت نقلاً من غيرها.

قال: والمعنى عندي أنها قد تكون على أفنية قبورها لا على أنها تلزم ولا تفارق أفنية القبور كما قال مالك رحمه الله: إنه بلغنا أن الأرواح تسرح حيث شاءت.

قال : وعن مجاهد أنه قال : الأرواح على أفنيـة القبور سبعة أيام من يوم دفن الميت لا تفارق ذلك . والله أعلم .

وقالت فرقة : مستـقرها العدم المحض وهذا قول من يقول : إن النفس عرض

---

(١) **[صحيح]**:رواه أحمـد: (٦/ ٣٨٦)، ومسلم : كتـاب: الإمارة، باب: بيان أن أرواح الشـهداء في الجنة، وأنهم أحـياء عند ربهم يرزقـون، [١٨٨٧]، وأبو داود : كتـاب: الجهاد، باب: فـي فضل الشهادة ، [٢٥٢٠] ، والترمذي : كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة آل عمران ، [٣٠١١]، وابن ماجة : كتـاب: الجنائز، باب: ما جاء فيما يقـال عند المريض إذا حضر ، [١٤٤٩]، بلفظ : أرواح المؤمنين بدلاً من أرواح الشهداء.

(٢) **[صحيح]**:سبق تخريجه.

من أعراض البدن كحياته وإدراكه فتعدم بموت البدن كما تعدم سائر الأعراض المشروطة بحياته . وهذا قول مخالف لنصوص القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين كما سنذكر ذلك إن شاء الله. والمقصود أن عند هذه الفرقة المبطلة أن مستقر الأرواح بعد الموت العدم المحض .

وقالت فرقة : مستقرها بعد الموت أرواح أخر تناسب أخلاقها وصفاتها التي اكتسبتها في حال حياتها، فتصير كل روح إلى بدن حيوان يشاكل تلك الأرواح فتصير النفس السبعية إلى أبدان السباع ، والكلبية إلى أبدان الكلاب ، والبهيمية إلى أبدان البهائم ، والدنية والسفلية إلى أبدان الحشرات ، وهذا قول المتناسخة منكري المعاد ، وهو قول خارج عن أقوال أهل الإسلام كلهم .

فهذا ما تخلص لي من جمع أقوال الناس في مصير أرواحهم بعد الموت، ولا تظفر به مجموعاً في كتاب واحد غير هذا ألبتة، ونحن نذكر مأخذ هذه الأقوال وما لكل قول وما عليه وما هو الصواب من ذلك الذي دل عليه الكتاب والسنة على طريقتنا التي من الله بها وهو مرجو الإعانة والتوفيق .

[فصل]: بيان قول من قال: إن الأرواح في الجنة:

فأما من قال : هي في الجنة فاحتج بقوله تعالى: ﴿فأما إن كان من المقربين * فروح وريحان وجنة نعيم﴾(١) قال : وهذا ذكره سبحانه عقيب ذكر خروجها من البدن بالموت، وقسم الأرواح إلى ثلاثة أقسام (مقربين) وأخبر أنها في جنة النعيم (وأصحاب يمين) حكم لها بالإسلام وهو يتضمن سلامتها من العذاب (ومكذبة ضالة) وأخبر أن لها نزلاً من حميم وتصلية جحيم . قالوا : وهذا بعد مفارقتها للبدن قطعاً، وقد ذكر سبحانه حالها يوم القيامة في أول السورة فذكر حالها بعد الموت وبعد البعث. واحتجوا بقوله تعالى : ﴿يا أيتها النفس المطمئنة .ارجعي إلى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادي . وادخلي جنتي﴾(٢) وقد قال غير واحد من الصحابة والتابعين إن هذا يقال لها عند خروجها من الدنيا يبشرها الملك بذلك ، ولا ينافي ذلك قول من قال : إن هذا يقال في الآخرة، فإنه يقال لها عند الموت وعند البعث ،

---

(١) (الواقعة / ٨٨).

(٢) (الفجر/ ٢٨).

وهذه من البشرى التي قال تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾[١] هذا التنزل يكون عند الموت، ويكون في القبر، ويكون عند البعث، وأول بشارة الآخرة عند الموت . وقد تقدم في حديث البراء بن عازب أن الملك يقول لها عند قبضها: أبشري بروح وريحان وهذا من ريحان الجنة[٢] .

واحتجوا بما رواه مالك في الموطأ عن ابن شهاب ، عن عبد الرحمن بن كعب ابن مالك ، أنه أخبره أن أباه كعب بن مالك كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال : «إنما نسمة المؤمن طائر تعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى حياة يوم يبعثه»[٣] . قال أبو عمر: وفى رواية مالك هذه بيان سماع الزهري لهذا الحديث من عبد الرحمن ابن كعب بن مالك ، وكذلك رواه يونس عن الزهري قال : سمعت عبد الرحمن بن كعب بن مالك يحدث عن أبيه ، وكذلك رواه الأوزاعي عن الزهري حدثني عبدالرحمن بن كعب . وقد أعل محمد بن يحيى الذهلي هذا الحديث بأن شعيب بن أبي حمزة ومحمد بن أخي الزهري وصالح بن كيسان رووه عن الزهري عن عبدالرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن جده كعب، فيكون منقطعاً، وقال صالح بن كيسان، عن ابن شهاب، عن عبد الرحمن : إنه بلغه أن كعباً بن مالك كان يحدث، قال الذهلي وهذا المحفوظ عندنا وهو الذي يشبهه حديث صالح وشعيب وابن أخي الزهري ، وخالفه في هذا غيره من الحفاظ فحكموا لمالك والأوزاعي ، قال أبو عمر : فاتفق مالك ويونس بن يزيد والأوزاعي ، والحارث بن فضيل على رواية هذا الحديث عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه وصححه الترمذي وغيره .

قال أبو عمرو : لا وجه عندي لما قاله محمد بن يحيى من ذلك ، ولا دليل

(١) (فصلت/ ٣٠).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) [صحيح]: رواه مالك في «الموطأ» : كتاب: الجنائز، باب: جامع الجنائز، [٤٩]، وأحمد في «المسند» : (٣/ ٤٥٥)، والنسائي : كتاب: الجنائز، باب: أرواح المؤمنين، (٤/ ٨: ١٠٩)، وابن ماجة : كتاب: الزهد، باب: ذكر القبر والبلى، [٤٢٧١]، وصححه الألباني في «صحيح النسائي»: [١٩٦٠]، وانظر «صحيح ابن ماجة» : [٤٢٧١].

عليه ، واتفاق مالك ويونس بن زيد والأوزاعي ومحمد بن إسحاق أولى بالصواب ، والنفس إلى قولهم وروايتهم أسكن ، وهم من الحفظ والاتقان بحيث لا يقاس بهم من خالفهم في هذا الحديث. انتهى. وقد قال محمد الذهلي: سمعت علي بن المديني يقول ولد كعب خمسة: عبد الله، وعبيد الله، ومعبد، وعبد الرحمن، ومحمد . قال الذهلي : فسمع الزهري من عبد الله بن كعب وكان قائد أبيه حين عمي ، وسمع من عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب وروى عن بشير بن عبدالرحمن ابن كعب ولا أراه سمع منه. انتهى. فالحديث إن كان لعبد الرحمن عن أبيه كعب كما قال مالك ومن معه فظاهر، وإن كان لعبد الرحمن بن عبد الله بن كعب عن جده كما قال شعيب ومن معه فنهايته أن يكون مرسلاً من هذا الطريق وموصولاً من الأخرى والذين وصلوه ليسوا بدون الذين أرسلوه قدراً ولا عدداً، فالحديث من صعاب الأحاديث وإنما لم يخرجه صاحبا الصحيح لهذه العلة . والله أعلم .

قال أبو عمرو: أما قوله نسمة المؤمن فالنسمة هاهنا الروح ، يدل على ذلك قوله ﷺ في الحديث نفسه : حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه، وقيل : النسمة الروح والنفس والبدن ، وأصل هذه اللفظة -أعني النسمة- الإنسان بعينه، وإنما قيل للروح نسمة -والله أعلم- لأن حياة الإنسان بروحه ، وإذا فارقه عدم أو صار كالمعدوم ، والدليل على أن النسمة الإنسان قوله ﷺ: من أعتق نسمة مؤمنة وقول علي رضي الله عنه ، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، وقال الشاعر :

فأعظم منك تقي في الحساب   إذا النسمات نفضن الغبارا

يعني إذا بعث الناس من قبورهم يوم القيامة ، وقال الخليل بن أحمد: النسمة الإنسان، قال : والنسمة الروح، والنسيم هبوب الريح، وقوله تعالى في شجر الجنة يروى بفتح اللام وهو الأكثر ويروى بضم اللام والمعنى واحد وهو الأكل والرعي ، يقول : تأكل من ثمار الجنة وتسرح بين أشجارها، والعلوقة والعلوق الأكل والرعي ، تقول العرب : ما ذاق اليوم علوقاً أي طعاماً، قال الربيع بن زياد يصف الخيل :

ومجنبات ما يذقن علوقة   يمصعن بالمهرات والأمهار

وقال الأعشى :

وفلاة كأنها ظهر ترس   ليس فيها إلا الرجيع علاق

قلت : ومنه قول عائشة: والنساء إذ ذاك خفاف لم يغشهن اللحم ، وإنما يأكلن العلقة من الطعام ، وأصل اللفظة من التعلق وهو ما يعلق القلب والنفس من الغذاء.

قال : واختلف العلماء في معنى هذا الحديث فقال قائلون منهم : أرواح المؤمنين عند الله في الجنة شهداء كانوا أم غير شهداء إذا لم يحبسهم عن الجنة كبيرة ولا دين وتلقاهم ربهم بالعفو عنهم والرحمة لهم . قال : واحتجوا بأن هذا الحديث لم يخص فيه شهيداً من غير شهيد.

واحتجوا أيضاً بما روي عن أبي هريرة أن أرواح الأبرار في عليين وأرواح الفجار في سجين . وعن عبد الله بن عمرو مثل ذلك ، قال أبو عمر: وهذا قول يعارضه من السنة ما لا مدفع في صحة نقله ، وهو قوله : إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال له : هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة[١].

وقال آخرون: إنما معنى هذا الحديث في الشهداء دون غيرهم لأن القرآن والسنة إنما يدلان على ذلك. أما القرآن فقوله تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾[٢] الآية.

وأما الآثار فذكر حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه من طريق بقي بن مخلد مرفوعاً : «الشهداء يغدون ويروحون ثم يكون مأواهم إلى قناديل معلقة بالعرش فيقول لهم الرب تبارك وتعالى : هل تعلمون كرامة أفضل من كرامة أكرمتكموها؟ فيقولون : لا ، غير أنا وددنا أنك أعدت أرواحنا في أجسادنا حتى نقاتل مرة أخرى فنقتل في سبيلك»[٣] . رواه عن هناد ، عن اسماعيل بن المختار ، عن عطية عنه .

---

(١) [صحيح]:سبق تخريجه.

(٢) (آل عمران/ ١٦٩).

(٣) [ضعيف]:بهذا السند لأمور منها: ضعف إسماعيل بن المختار، قال ابن عدي : ليس بمعروف، وقال البخاري : لم يصح حديثه، وقال ابن معين: لا أعرفه، إلا أن المعنى الذي يشير إليه الحديث صحيح، وقد سبق تخريجه.

(ثم ساق حديث) ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «لما أصيب إخوانكم -يعني يوم أحد- جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب مدلاة في ظل العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: من يبلغ إخواننا أنا أحياء في الجنة نرزق لئلا ينكلوا عن الحرب ولا يزهدوا في الجهاد؟ قال : فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ [١]»[٢] والحديث في مسند أحمد وسنن أبي داود.

(ثم ذكر حديث) الأعمش عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، قال سئل عبدالله بن مسعود ، رضي الله عنه عن هذه الآية ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ [١] فقال : «أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال: أرواحهم في جوف طير خضر تسرح في الجنة في أيها شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربك اطلاعة فقال : هل تشتهون شيئاً؟ قالوا : وأي شئ نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ! ففعل بهم ذلك ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لم يتركوا من أن يسألوا قالوا : يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا»[٣]. والحديث في صحيح مسلم .

قلت : وفي صحيح البخاري عن أنس أن أم الربيع بنت البراء وهي أم حارثة ابن سراقة أتت النبي ﷺ فقالت : يا نبي الله ألا تحدثني عن حارثة؟ -وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غرب- فإن كان في الجنة صبرت وإن كان في غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء، قال : «يا أم حارثة إنها جنان وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى»[٤] .

(ثم ساق) من طريق بقي بن مخلد حدثنا يحيى بن عبد الحميد ، حدثنا ابن

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) (آل عمران/ ١٦٩).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) [صحيح]: رواه أحمد : (٣/ ٢٦٠)، والبخاري : كتاب: الجهاد، باب: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، [٢٨١٠]، [٢٨٠٩، ٣٩٨٢، ٦٥٥٠، ٦٥٦٧]، والترمذي : كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المؤمنون، [٣١٧٤].

عيينة ، عن عبيد الله بن أبي يزيد، سمع ابن عباس يقول : أرواح الشهداء تجول في أجواف طير خضر تعلق في ثمر الجنة .

(ثم ذكر) عن معمر، عن قتادة، قال : بلغنا أن أرواح الشهداء في صور طير بيض تأكل من ثمار الجنة .

(ومن طريق) أبي عاصم النبيل، عن ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، عن عبد الله بن عمرو : أرواح الشهداء في طير كالزرازير يتعارفون ويرزقون من ثمر الجنة .

قال أبو عمر : هذه الآثار كلها تدل على أنهم الشهداء دون غيرهم ، وفي بعضها في صور طير ، وفي بعضها في أجواف طير ، وفي بعضها كطير خضر ، قال: والذي يشبه عندي والله أعلم أن يكون القول قول من قال : كطير أو صور طير لمطابقته لحديثنا المذكور (يريد حديث كعب بن مالك)، وقوله فيه : نسمة المؤمن كطائر، ولم يقل في جوف طائر .

قال : وروى عيسى بن يونس حديث ابن مسعود عن الأعمش عبد الله بن مرة عن مسروق، عن عبد الله، كطير خضر .

قلت : والذي في صحيح مسلم في أجواف طير خضر .

قال أبو عمر : فعلى هذا التأويل كأنه ﷺ قال : إنما نسمة المؤمن من الشهداء طائر يعلق في شجر الجنة .

(قلت) لا تنافي بين قوله ﷺ :«نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة»[1]، وبين قوله : «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار، فمن أهل النار»[2]، وهذا الخطاب يتناول الميت على فراشه والشهيد ، كما أن قوله : «نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة»[3] يتناول الشهيد وغيره ، ومع كونه يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي ترد روحه أنهار الجنة وتأكل من ثمارها . وأما المقعد الخاص به والبيت الذي أعد له فإنه

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

إنما يدخله يوم القيامة ويدل عليه أن منازل الشهداء ودورهم وقصورهم التي أعد الله لهم ليست هي تلك القناديل التي تأوي إليها أرواحهم في البرزخ قطعاً، فهم يرون منازلهم ومقاعدهم من الجنة، ويكون مستقرهم في تلك القناديل المعلقة بالعرش، فإن الدخول التام الكامل إنما يكون يوم القيامة؛ ودخول الأرواح الجنة في البرزخ أم دون ذلك .

ونظير هذا أهل الشقاء تعرض أرواحهم على النار غدواً وعشياً، فإذا كان يوم القيامة دخلوا منازلهم ومقاعدهم التي كانوا يعرضون عليها في البرزخ فتنعم الأرواح بالجنة في البرزخ شئ ، وتنعمها مع الأبدان يوم القيامة بها شئ آخر فغذاء الروح من الجنة في البرزخ دون غذائها مع بدنها يوم البعث، ولهذا قال : تعلق في شجر الجنة أي تأكل العلقة، وتمام الأكل والشرب واللبس والتمتع فإنما يكون إذا ردت إلى أجسادها يوم القيامة، فظهر أنه لا يعارض هذا القول من السنن شئ ، وإنما تعاضده السنة وتوافقه .

وأما قول من قال : إن حديث كعب في الشهداء دون غيرهم فتخصيص ليس في اللفظ ما يدل عليه وهو حمل اللفظ العام على أقل مسمياته ، فإن الشهداء بالنسبة إلى عموم المؤمنين قليل جداً والنبي ﷺ علق هذا الجزاء بوصف الإيمان فهو المقتضى له ولم يعلقه بوصف الشهادة . ألا ترى أن الحكم الذي اختص بالشهداء علق بوصف الشهادة كقوله في حديث المقدام بن معد يكرب : للشهيد عند الله ست خصال : يغفر له في أول دفقة من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ، ويحلى حلة الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين من الحور العين، ويشفع في سبعين إنساناً من أقاربه»[١] ، فلما كان هذا يختص بالشهيد قال : إن للشهيد ولم يقل إن للمؤمن .

وكذلك قوله في حديث قيس الجذامي: « يعطى للشهيد ست خصال»[١] ، وكذلك سائر الأحاديث والنصوص التي علق فيها الجزاء بالشهادة . وأما ما علق الجزاء بالإيمان فإنه يتناول كل مؤمن شهيداً كان أو غير شهيد .

---

(١) سبق تخريجه.

وأما النصـوص والآثار التي ذكرت في رزق الشهداء وكـون أرواحهم في الجنة فكلها حق وهي لا تدل عـلى انتفاء دخـول أرواح المؤمنين الجنة ولا سيمـا الصديقين الذين هم أفضل من الشهداء بلا نزاع بين الناس، فيقال لهؤلاء: ما تقولون في أرواح الصديقين ؟ هل هي في الجنة أم لا ؟

فإن قالوا إنها في الجنة، ولا يسوغ لهم غير هذا القول، فثبت أن هذه النصوص لا تدل على اختصـاص أرواح الشهداء بذلك . وإن قالوا : ليـست في الجنة، لزمهم من ذلك أن تكون أرواح سادات الصحابة كأبي بـكر الصديق، وأبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود، وأبي الدرداء، وحذيفة بن اليمان، وأشباههم رضي الله عنهم ليست في الجنة وأرواح شهداء زماننا في الجنة، وهذا معلوم البطلان ضرورة .

فإن قـيل : فإن كـان هذا حكم يختص بالشـهداء فمـا الموجب لتخـصيـصهم بالذكر في هذه النصوص ؟ قلت : التنبيه على فضل الشهادة وعلو درجتها، وأن هذا مضـمون لأهلها، ولا بد وأن لهم منهـا أوفر نصيب ، فنـصيبهم مـن هذا النعيم في البرزخ أكمل من نصيب غيرهم من الأمـوات على فراشهم وإن كان الميت على فراشه أعلى درجة منهم فله نعيم يختص به لا يشاركه فيه من هو دونه.

ويدل على هذا أن الله سبحـانه جعل أرواح الشهداء في أجواف طيـر خضر، فإنهم لما بذلوا أنفسهم لله حتى أتلفها أعداؤه فـيه أعاضهم منها في البرزخ أبداناً خيراً منها تكون فيهـا إلى يوم القيامة ويكون نعيمهـا، بواسطة تلك الأبدان أكمل من نعيم الأرواح المجردة عنهـا، ولهذا كانت نسـمة المؤمن في صـورة طير أو كطير، ونسـمة الشهيـد في جوف طير، وتأمل لفظ الحديثين فـإنه قال : نسمة المؤمن طيـر فهذا يعم الشهيد وغيره، ثم خص الشهيـد بأن قال : هي في جوف طير ومعلوم أنها إذا كانت في جوف طير صدق عليـها أنها طير، فصلوات الله وسلامـه على من يصدق كلامه بعضه بعضاً ويدل على أنه حق من عند الله ، وهذا الجمع أحسن من جمع أبي عمر وترجيـحه رواية من روى : أرواحهم كطيـر خضر، بل الروايتان حق وصـواب فهي كطير خضر وفي أجواف طير خضر.

[فصل]: في بيان قول مجاهد : إن الأرواح ليست في الجنة:

وأما قول مجاهد: ليس هي في الجنة ولكن يأكلون من ثمارها ويجدون ريحها

فقد احتج لهذا القول بما رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث ابن اسحق، عن عاصم بن عمر، عن محمود بن لبيد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية»(١).

وهذا لا ينافي كونهم في الجنة، فإن ذلك النهر من الجنة، ورزقهم يخرج عليهم من الجنة، فهم في الجنة وإن لم يصيروا إلى مقاعدهم منها. فمجاهد نفى الدخول الكامل من كل وجه،والتعبير يقصر عن الإحاطة بتمييز هذا من هذا، وأكمل العبارة أدلها على المراد عبارة رسول الله ﷺ، ثم عبارة أصحابه. وكلما صعدت رأيت الشفاء والهدى والنور وكلما نزلت رأيت الحيرة والدعاوى والقول بلا علم.

قال أبو عبد الله بن منده: وروى موسى بن عبيدة، عن عبد الله بن يزيد، عن أم كبشة بنت المعرور، قالت: دخل علينا رسول الله ﷺ فسألناه عن هذه الأرواح؟ فوصفها صفة أبكى أهل البيت فقال: "إن أرواح المؤمنين في حواصل طير خضر ترعى في الجنة، وتأكل من ثمارها، وتشرب من مائها، وتأوي إلى قناديل من ذهب تحت العرش يقولون: ربنا ألحق بنا إخواننا وآتنا ما وعدتنا، وأن أرواح الكفار في حواصل طير سود تأكل من النار، وتشرب من النار، وتأوي إلى جحر في النار يقولون: ربنا لا تلحق بنا إخواننا ولا تؤتنا ما وعدتنا»(٢).

وقال الطبراني: حدثنا أبو زرعة الدمشقي، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني معاوية بن صالح، عن ضمرة بن حبيب، قال: سئل النبي ﷺ عن أرواح المؤمنين؟ فقال: «في طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، قالوا: يا رسول الله وأرواح الكفار؟ قال محبوسة في سجين»(٣). رواه أبو الشيخ عن هشام بن

(١) [صحيح]: رواه أحمد من حديث يعقوب، قال: ثنا أبي، عن ابن إسحاق، قال: حدثني الحرث ابن فضيل الأنصاري عن محمود بن لبيد الأنصاري، عن ابن عباس -رضي الله عنهما- ... الحديث (١/ ٢٦٦)، ولم أجد في إسناده عاصم بن عمرو، وصححه أحمد شاكر: [٢٣٩٠].

(٢) [ضعيف]: لأمور، منها: وجود موسى بن عبيدة، قال أحمد: لا يكتب حديثه، وقال النسائي وغيره: ضعيف. قال ابن عدي: الضعف على رواياته بيِّن، وقال ابن معين: ليس بشيء، وقال مرة: لا يحتج بحديثه. وعن يحيى بن سعيد: كنا نتقي حديثه.

(٣) [ضعيف]: لأمور، منها: إرسال ضمرة بن حبيب، وعدم ذكره الصحابي، فلا ندري أخذه عن صحابي أم تابعي.

يونس ، عن عبد الله بن صالح ، (ورواه) أبو المغيرة عن أبي بكر بن أبي مريم ، عن ضمرة بن حبيب .

(وذكر) أبو عبد الله بن منده من حديث غنجار، عن الثوري، عن ثور ابن يزيد، عن خالد بن معدان، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : «أرواح المؤمنين في طير خضر كالزرازير تأكل من ثمر الجنة»(١)،(ورواه) غيره موقوفاً.

وذكر يزيد الرقاشي عن أنس ، وأبو عبد الله الشامي عن تميم الداري ، عن النبي ﷺ : «إذا عرج ملك الموت بروح المؤمن إلى السماء استقبله جبرائيل في سبعين ألفاً من الملائكة كل منهم يأتيه ببشارة من السماء سوى بشارة صاحبه ، فإذا انتهى به إلى العرش خر ساجداً فيقول الله عز وجل لملك الموت : انطلق بروح عبدي فضعه في سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب»(٢). رواه بكر بن خنيس، عن ضرار بن عمرو، عن يزيد وأبي عبد الله .

[فصل] وأما قول من قال : الأرواح على أفنية قبورها:

فإن أراد أن هذا أمر لازم لها لا تفارق أفنية القبور أبداً فهذا خطأ ترده نصوص الكتاب والسنة من وجوه كثيرة قد ذكرنا بعضها وسنذكر منها ما لم نذكره إن شاء الله. وإن أراد أنها تكون على أفنية القبور وقتاً، أولها إشراف على قبورها وهي في مقرها فهذا حق ولكن لا يقال مستقرها أفنية القبور.

وقد ذهب إلى هذا المذهب جماعة منهم أبو عمر بن عبد البر، قال في كتابه في شرح حديث ابن عمر : إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي(٣)، وقد استدل به من ذهب إلى أن الأرواح على أفنية القبور ، وهو أصح ما ذهب إليه في ذلك من طريق الأثر ، ألا ترى أن الأحاديث الدالة على ذلك ثابتة

(١) سبق بمعناه.

(٢) [ضعيف]: لأمور، منها : ضعف يزيد بن أبان الرقاشي واتفقوا على ضعفه حتى إن شعبة قال: لأن أقطع الطريق أحب إلي من أن أروي عن يزيد الرقاشي، وعنه أنه قال: لأن يفعل الرجل بزنا خير له من أن يروي عن أبان ويزيد الرقاشي، وقال عنه الإمام أحمد : منكر الحديث، وكان قاصًا واعظًا بكاءً عابدًا ومع ذلك لا تقبل روايته أبدًا لشدة ضعفه.

(٣) سبق تخريجه.

متواترة وكذلك أحاديث السلام على القبور.

قلت : يريد الأحاديث المتواترة مثل حديث ابن عمر هذا ومثل حديث البراء بن عازب الذي تقدم وفيه هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة[١].

ومثل حديث أنس : «إن العبد إذا وضع في قبره ، وتولى عنه أصحابه ، إنه ليسمع قرع نعالهم»[٢].

وفيه أنه يرى مقعده من الجنة والنار، وأنه يفسح للمؤمن في قبره سبعين ذراعاً ويضيق على الكافر، ومثل حديث جابر: «إن هذه الأمة تبتلى في قبورها فإذا دخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه أتاه ملك»[٣] الحديث ، وأنه يرى مقعده من الجنة فيقول : دعوني أبشر أهلي فيقال له : أسكن فهذا مقعدك أبداً[٤]، ومثل سائر أحاديث عذاب القبر ونعيمه التي تقدمت ، ومثل أحاديث السلام على أهل القبور وخطابهم ومعرفتهم بزيارة الأحياء لهم ، وقد تقدم ذكر ذلك كله .

وهذا القول ترده السنة الصحيحة والآثار التي لا مدفع لها، وقد تقدم ذكرها، وكل ما ذكره من الأدلة فهو يتناول الأرواح التي هي في الجنة بالنص ، وفي الرفيق الأعلى، وقد بينا أن عرض مقعد الميت عليه من الجنة والنار لا يدل على أن الروح في القبر ولا على فنائه دائماً من جميع الوجوه ، بل لها إشراف واتصال بالقبر وفنائه، وذلك القدر منها يعرض عليه مقعده ، فإن للروح شأناً آخر تكون في الرفيق الأعلى في أعلى عليين ، ولها اتصال بالبدن بحيث إذا سلم المسلم على الميت رد الله عليه روحه فيرد عليه السلام وهي في الملأ الأعلى، وإنما يغلط أكثر الناس في هذا الموضع حيث يعتقد أن الروح من جنس ما يعهد من الأجسام التي إذا شغلت مكاناً لم يمكن أن تكون في غيره ، وهذا غلط محض ، بل الروح تكون فوق السماوات في أعلى عليين وترد إلى القبر فترد السلام وتعلم بالمسلم وهي في مكانها هناك ، وروح رسول الله ﷺ في الرفيق الأعلى دائماً ويردها الله سبحانه إلى القبر فترد السلام على من سلم عليه وتسمع كلامه ، وقد رأى رسول الله ﷺ موسى قائماً يصلي في قبره ورآه في السماء السادسة والسابعة[٥]، فإما أن تكون سريعة الحركة

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) سبق تخريجه.
(٥) سبق تخريجه.

والانتقال كلمح البصر، وإما أن يكون المتصل منها بالقبر وفنائه بمنزلة شعاع الشمس وجرمها في السماء .

روح النائم تصعد فتسجد بين يدي العرش:

وقد ثبت أن روح النائم تصعد حتى تخترق السبع الطباق ، وتسجد لله بين يدي العرش ، ثم ترد إلى جسده في أيسر زمان ، وكذلك روح الميت تصعد بها الملائكة حتى تجاوز السماوات السبع ، وتقف بين يدي الله فتسجد له ويقضي فيها قضاء ويريها الملك ما أعد الله لها في الجنة، ثم تهبط فتشهد غسله وحمله ودفنه ، وقد تقدم في حديث البراء بن عازب أن النفس يصعد بها حتى توقف بين يدي الله فيقول تعالى: اكتبوا كتاب عبدي في عليين ثم أعيدوه إلى الأرض، فيعاد إلى القبر، وذلك في مقدار تجهيزه وتكفينه ، فقد صرح به في حديث ابن عباس حيث قال : فيهبطون على قدر فراغه من غسله وأكفانه فيدخلون ذلك الروح بين جسده وأكفانه.

(وقد ذكر) أبو عبد الله بن منده من حديث عيسى بن عبد الرحمن ، حدثنا ابن شهاب ، حدثنا عامر بن سعد ، عن اسماعيل بن طلحة بن عبيد الله ، عن أبيه، قال : «أردت مالي بالغابة فأدركني الليل فأويت إلى قبر عبد الله بن عمر بن حرام فسمعت قراءة من القبر ما سمعت أحسن منها، فجئت إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فقال : ذلك عبد الله ، ألم تعلم أن الله قبض أرواحهم فجعلها في قناديل من زبرجد وياقوت ثم علقها وسط الجنة، فإذا كان الليل ردت إليهم أرواحهم فلا يزال كذلك حتى إذا طلع الفجر ردت أرواحهم إلى مكانهم الذي كانت به ؟»[1] .

ففي هذا الحديث بيان سرعة انتقال أرواحهم من العرش إلى الثرى، ثم انتقالها من الثرى إلى مكانها، ولهذا قال مالك وغيره من الأئمة : إن الروح مرسلة تذهب حيث شاءت ، وما يراه الناس من أرواح الموتى ومجيئهم إليهم من المكان البعيد أمر يعلمه عامة الناس ولا يشكون فيه . والله أعلم .

وأما السلام على أهل القبور وخطابهم فلا يدل على أن أرواحهم ليست في الجنة وأنها على أفنية القبور، فهذا سيد ولد آدم الذي روحه في أعلى عليين مع الرفيق الأعلى ﷺ يسلم عليه عند قبره ويرد سلام المسلم عليه ، وقد وافق أبو عمر رحمه الله على أن أرواح الشهداء في الجنة ويسلم عليهم عند قبورهم كما يسلم على

(١) [ضعيف]: لأمور ، منها : لوجود عيسى بن عبد الرحمن ، وهو ضعيف .

غيرهم كما علمنا النبي ﷺ أن نسلم عليهم وكما كان الصحابة يسلمون على شهداء أحد وقد ثبت أن أرواحهم في الجنة تسرح حيث شاءت كما تقدم ، ولا يضيق عقلك عن كون الروح في الملأ الأعلى تسرح في الجنة حيث شاءت وتسمع سلام المسلم عليها عند قبرها وتدنو حتى ترد عليه السلام ، وللروح شأن آخر غير شان البدن ، وهذا جبريل صلوات الله وسلامه عليه رآه النبي ﷺ وله ستمائة جناح منها جناحان قد سد بهما ما بين المشرق والمغرب ، وكان من النبي ﷺ حتى يضع ركبتيه بين ركبتيه ويديه على فخذيه، وما أظنك يتسع بظنك أنه كان حينئذ في الملأ الأعلى فوق السماوات حيث هو مستقره وقد دنا من النبي ﷺ هذا الدنو، فإن التصديق بهذا له قلوب خلقت له وأهلت لمعرفته ، ومن لم يتسع بطانه لهذا فهو أضيق أن يتسع للإيمان بالنزول الإلهي إلى سماء الدنيا كل ليلة وهو فوق سماواته على عرشه لا يكون فوقه شئ ألبتة بل هو العالي على كل شئ وعلوه من لوازم ذاته. وكذلك دنوه عشية عرفة من أهل الموقف[1]، وكذلك مجيئه يوم القيامة لمحاسبه خلقه وإشراق الأرض بنوره[2]، وكذلك مجيئه إلى الأرض حين دحاها وسواها ومدها وبسطها وهيأها لما

---

(١) أحاديث النزول الإلهي في الثلث الأخير من الليل متواترة وصحيحة كالشمس ، ويجب الإيمان بها من غير خوض في كيفية ذلك ، فالمولى عز وجل أعلى وأجل من إدراك كنه ذاته وكيفية أفعاله، فالنزول الإلهي علم موجود، وكيفية النزول علم مفقود، وإنكار العلم الموجود كفر، وطلب العلم المفقود كفر، ولا تثبت قدم الإسلام إلا بالإيمان بالعلم الموجود ، وترك طلب العلم المفقود.

ولو صحت أحاديث بأن الروح أو جبريل عليه السلام يكونون في كل مكان، وهم عند الله فوق السماوات السبع لآمنا بذلك يقينًا ، ولكن أين هذه الأحاديث الملزمة لنا باعتقاد ذلك. لست أجزم بنفيها إذ لم يحط علمي الضئيل بكل ما تفضل به الله علينا برحمته وفضله من أقوال النبي ﷺ ، ولكن لا يجوز لي الإيمان بما ليس لي عليه نص صحيح، والله أعلم. وانظر أحاديث النزول الإلهي في «مختصر الصواعق المرسلة» بتحقيق محقق هذا الكتاب ، طبعة المكتبة التوفيقية، وحديث دنو الرب جل وعلا يوم عرفة صحيح عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- قالت: إن رسول الله ﷺ قال : «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنوا ثم يباهي بهم الملائكة ، فيقول: ماذا أراد هؤلاء؟ » [حديث صحيح] رواه أحمد : (٢/٢٢٤)، ومسلم : كتاب: الحج، باب: في فضل الحج والعمرة ، ويوم عرفة ، [١٣٤٨]، والنسائي : كتاب: مناسك الحج، باب: ما ذكر في يوم عرفة، (٥/٢٥١: ٢٥٢)، وابن ماجة : كتاب: المناسك ، باب: الدعاء بعرفة، [٣٠١٤].

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون﴾ (الزمر/ ٦٩).

يراد منها. وكذلك مجيئه يوم القيامة حين يقبض من عليها ولا يبقى بها أحد كما قال النبي ﷺ: فأصبح ربك يطوف في الأرض وقد خلت عليه البلاد. هذا وهو فوق سماواته على عرشه .

[فصل] : شأن الروح يختلف بحسب حال الأرواح:

ومما ينبغي أن يعلم أن ما ذكرنا من شأن الروح يختلف بحسب حال الأرواح من القوة والضعف والكبر والصغر، فللروح العظيمة الكبيرة من ذلك ما ليس لمن هو دونها، وأنت ترى أحكام الأرواح في الدنيا كيف تتفاوت أعظم تفاوت بحسب تفارق الأرواح في كيفياتها وقواها وإبطائها وإسراعها والمعاونة لها، فللروح المطلقة من أسر البدن وعلائقه وعوائقه من التصرف والقوة والنفاذ والهمة وسرعة الصعود إلى الله والتعلق بالله ما ليس للروح المهينة المحبوسة في علائق البدن وعوائقه ، فإذا كان هذا وهي محبوسة في بدنها فكيف إذا تجردت وفارقته واجتمعت فيها قواها وكانت في أصل شأنها روحاً علية زكية كبيرة ذات همة عالية؟! فهذه لها بعد مفارقة البدن شأن آخر وفعل آخر.

وقد تواترت الرؤيا في أصناف بني آدم على فعل الأرواح بعد موتها ما لا تقدر على مثله حال اتصالها بالبدن من هزيمة الجيوش الكثيرة بالواحد والاثنين والعدد القليل ونحو ذلك ، وكم قد رئي النبي ﷺ ومعه أبو بكر وعمر في النوم قد هزمت أرواحهم عساكر الكفر والظلم فإذا بجيوشهم مغلوبة مكسورة مع كثرة عددهم وعددهم وضعف المؤمنين وقلتهم .

ومن العجب أن أرواح المؤمنين المتحابين المتعارفين تتلاقى وبينها أعظم مسافة وأبعدها فتتألم وتتعارف فيعرف بعضها بعضاً كأنه جليسه وعشيره ، فإذا رآه طابق ذلك ما كان عرفته روحه قبل رؤيته .

قال عبد الله بن عمرو : إن أرواح المؤمنين تتلاقى على مسيرة يوم وما رأى أحدهما صاحبه قط . ورفعه بعضهم إلى النبي ﷺ(١) .

وقال عكرمة ومجاهد : إذا نام الإنسان فإن له سبباً يجري فيه الروح وأصله في

(١) [ضعيف]: رواه أحمد: (٢/ ١٧٥، ٢٢٠)، لأمور، منها : وجود ابن لهيعة في الإسنادين وهو ضعيف.

الجسد ، فتبلغ حيث شاء الله ما دام ذاهباً ، فالإنسان نائم فإذا رجع إلى البدن انتبه الإنسان وكان بمنزلة شعاع الشمس الذي هو ساقط بالأرض فأصله متصل بالشمس .

وقد ذكر أبو عبد الله بن منده عن بعض أهل العلم أنه قال : إن الروح يمتد من منخر الإنسان ومركبه ، وأصله في بدنه ، فلو خرج الروح بالكلية لمات كما أن السراج لو فرق بينه وبين الفتيلة ، ألا ترى أن مركب النار في الفتيلة وضوؤها وشعاعها يملأ البيت ؟ فكذلك الروح تمتد من منخر الإنسان في منامه حتى تأتي السماء، وتجول في البلدان وتلتقي مع أرواح الموتى، فإذا أراه الملك الموكل بأرواح العباد ما أحب أن يريه، وكان المرئي في اليقظة عاقلاً ذكياً صدوقاً لا يلتفت في يقظته إلى شئ من الباطل رجع إليه روحه فأدى إلى قلبه الصدق مما أراه الله عز وجل على حسب خلقه، وإن كان خفيفاً نزقاً يحب الباطل والنظر إليه فإذا نام وأراه الله أمراً من خير أو شر رجعت روحه إليه ، فحيث ما رأى شيئاً من مخاريق الشيطان أو الباطل وقفت روحه عليه كما تقف في يقظته ، فكذلك لا يؤدي إلى قلبه فلا يعقل ما رأى لأنه خلط الحق بالباطل ، فلا يمكن معبر أن يعبر له وقد خلط الحق بالباطل .

وهذا من أحسن الكلام وهو دليل على معرفة قائله وبصيرته بالأرواح وأحكامها .

وأنت ترى الرجل يسمع العلم والحكمة وما هو أنفع شئ له ثم يمر بباطل ولهو من غناء ، أو شبهة ، أو زور ، أو غيره ، فيصغي إليه ويفتح له قلبه حتى يتأدى إليه، فيتخبط عليه ذلك الذي سمعه من العلم والحكمة ويلتبس عليه الحق بالباطل ، فهكذا شأن الأرواح عند النوم ، وأما بعد المفارقة فإنها تعذب بتلك الاعتقادات والشبه الباطلة التي كانت حظها حال اتصالها بالبدن ، وينضاف إلى ذلك عذابها بتلك الإرادات والشهوات التي حيل بينها وبينها ، وينضاف إلى ذلك عذاب آخر ينشئه الله لها ولبدنها من الأعمال التي اشتركت معه فيها وهذه هي المعيشة الضنك في البرزخ والزاد الذي تزود به إليه .

والروح الزكية العلوية المحقة التي لا تحب الباطل ولا تألفه بضد ذلك كله تنعم بتلك الاعتقادات الصحيحة والعلوم والمعارف التي تلقتها من مشكاة النبوة وتلك الإرادات والهمم الزكية ، وينشئ الله سبحانه لها من أعمالها نعيماً ينعمها به في البرزخ فتصير لها روضة من رياض الجنة ولتلك حفرة من حفر النار .

[فصل] : وأمـا قول من قـال : أرواح المؤمنين عند الله تعـالى، ولم يزد على ذلك، فإنه تأدب مع لفـظ القرآن حيث يقـول الله عز وجل: ﴿بل أحيـاء عند ربهم يرزقون﴾(١).

وقد احتج أرباب هذا القول بحجج (منها) ما رواه مـحمد بن اسحاق الصغاني حدثنا يحيى بن أبي بكيـر، حدثنا محمد بن عبدالرحـمن بن أبي ذئب ، عن محمد بن عمرو بـن عطاء، عن سعيد بن يسـار، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال : «إن الميت إذا خرجت نفسه يعرج بها إلى السماء حـتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل ، وإذا كـان الرجل السـوء يعرج بها إلـى السماء فـإنه لا يفتح لـها أبواب السماء فترسل من السمـاء فتصير إلى القبر»(٢). وهذا إسناد لا تسأل عن صحته وهو في مسند أحمد وغيره .

وقال أبو داود الطيالسـي : حدثنا حمد بن سلمة، عن عـاصم بن بهدلة، عن أبي وائل، عن مـوس الأشعـري، قـال : تخرج روح المـؤمن أطيب من ريح المسك فتنطق بها الملائكة من دون السماء فيقولون : ما هذا ؟ فيقولون : هذا فلان ابن فلان كان يعمل كيت وكيت -لمحاسن عمله- فيقولون : مرحباً بكم وبه : فيقبضونها منهم فيصـعد بها من الباب الذي كـان يصعد منه عملـه فتشرق في السمـاوات ولها برهان كبـرهان الشـمس حتى ينتـهي إلى العرش ، وأمـا الكافر فـإذا قبض انطلق بـروحه فيقولون: مـا هذا ؟ فيقولون : هذا فلان ابن فلان كان يعـمل كيت وكيت -لمساوئ عمله- فيقولون : لا مرحباً لا مرحباً ردوه فيرد إلى أسفل الأرض إلى الثرى .

وقـال الملكي بن إبراهـيم عن داود بن يزيد الأودي ، قـال : أراه عن عـامـر الشعبي، عـن حذيفة بن اليمان، أنـه قال : الأرواح موقوفة عند الرحـمن عز وجل تنتظر موعده حتى ينفخ فيها.

(وذكر) سفيـان بن عيينة، عن منصور بن صفيـة، عن أمه، أنه دخل ابن عمر

(١) (آل عمران / ١٦٩).

(٢) هذا المعنى قـد سبق مرارًا في أحـاديث سبق تخـريجهـا ، وهو في «مسند أحـمد» : (٢/ ٣٦٤: ٣٦٥)، وابن ماجة : كتاب الزهد، باب: ذكر الموت والاستعداد له، [٤٢٦٢].

المسجد بعد قتل ابن الزبير وهو مصلوب ، فأتى أسماء يعزيها فقال لها: عليك بتقوى الله والصبر فإن هذه الجثث ليست بشيء وإنما الأرواح عند الله ، فقالت : وما يمنعني من الصبر وقد أهدي رأس يحيى بن زكريا إلى بغي من بغايا بني إسرائيل.

بيان سدرة المنتهي وسجين وعليين:

(وذكر) جرير بن الأعمش، عن شمر بن عطية، عن هلال بن يساف قال: كنا جلوساً إلى كعب والربيع بن خيثم وخالد بن عرعرة في أناس فجاء ابن عباس فقال : هذا ابن عم نبيكم قال: فأوسع له فجلس ، فقال : يا كعب كل ما في القرآن قد عرفت غير أربعة أشياء فأخبرني عنهن، ما سجين وما عليون وما سدرة المنتهى وما قول الله لإدريس: ﴿ورفعناه مكانًا عليًا﴾[1]؟ قال: أما عليون فالسماء السابعة فيها أرواح المؤمنين ،وأما سجين فالأرض السابعة السفلى وأرواح الكفار تحت خد إبليس، وأما قول الله سبحانه لإدريس: ﴿ورفعناه مكانًا عليًا﴾[1] فأوحى الله إليه أني رافع لك كل يوم مثل أعمال بني آدم، وكلم صديقاً له من الملائكة أن يكلم له ملك [الموت][2] فيؤخره حتى يزداد عملاً ، فحمله بين جناحيه فعرج به حتى إذا كان في السماء السابعة لقيه ملك الموت فكلمه في جناحته[3] فقال: وأين هو؟ قال: هو ذا بين جناحي قال: فالعجب أني أمرت أن أقبض روحه في السماء الرابعة فقبض روحه[4].

وجه تسمية سدرة المنتهى:

وأما سدرة المنتهى فإنها سدرة على رؤوس حملة العرش ينتهي إليها علم الخلائق ، ثم ليس لأحد وراءها علم فلذلك سميت سدرة المنتهى . (قال) ابن منده: ورواه وهب بن جرير عن أبيه ، ورواه يعقوب القمي عن شمر، ورواه خالد بن عبدالله بن العوام بن حوشب ، عن القاسم بن عوف ، عن الربيع بن خيثم ، قال : كنا جلوساً عند كعب . فذكره [5].

(١) (مريم / ٥٧). (٢) ليست في المطبوعة، ولكنها في الأثر عند ابن جرير.

(٣) هكذا بالمطبوعة، ولعلها [حاجته].

(٤) [منكر]رواه ابن جرير الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿ورفعناه مكانًا عليًا﴾ (مريم/ ٥٧)، والأثر من الإسرائيليات التي لا يعول عليها في بيان حجة، وهو مع ذلك باطل المعنى، فالأجل بيد الله - عز وجل- إذا أراد أحد أن يمد الله في عمره فعليه أن يسأل الله ذلك، وليس ملك الموت الذي ليس بيده تقديم ولا تأخير إلا العمل بما أمر. ونبي الله إدريس عليه السلام أعلم منا بذلك قطعًا.

(٥) من المعلوم من الدين بالضرورة أن قول كعب -رضي الله عنه- من الإسرائيليات التي لا تقوم بها حجة، ولا يعول عليها بيان أمر.

وذكر يعلى بن عبيد عن الأجلح، عن الضحاك، قال: إذا قبض روح العبد المؤمن عرج به إلى السماء الدنيا فينطلق معه المقربون إلى السماء الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة حتى ينتهي به إلى سدرة المنتهى . قلت للضحاك : لم سميت سدرة المنتهى؟ قال : ينتهي إليها كل شئ من أمر الله عز وجل لا يعدوها فيقول ربي! عبدك فلان ، وهو أعلم به منهم فيبعث الله إليه بصك مختوم يؤمنه من العذاب وذلك قوله تعالى : ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾[1] وهذا القول لا ينافي قول من قال: هم في الجنة، فإن الجنة عند سدرة المنتهى، والجنة عند الله، وكأن قائله رأى أن هذه العبارة أسلم وأوفق، وقد أخبر الله سبحانه أن أرواح الشهداء عنده، وأخبر النبي ﷺ أنها تسرح في الجنة حيث شاءت .

[فصل] وأما قول من قال : إن أرواح المؤمنين بالجابية ، وأرواح الكفار بحضرموت ببرهوت فقال أبو محمد بن حزم : هذا من قول الرافضة، وليس كما قال، بل قد قاله جماعة من أهل السنة .

(قال) أبو عبيد الله بن منده : وروي عن جماعة من الصحابة والتابعين أن أرواح المؤمنين بالجابية ، ثم قال : أخبرنا محمد بن محمد بن يونس ، حدثنا أحمد ابن عاصم ، حدثنا أبو داود سليمان بن داود، حدثنا همام ، حدثني قتادة، حدثني رجل، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الله بن عمرو أنه قال : إن أرواح المؤمنين تجتمع بالجابية وأن أرواح الكفار تجتمع في سنجة بحضرموت يقال لها برهوت[2] .

ثم ساق من طريق حماد بن سلمة عن عبد الجليل بن عطية، عن شهر بن حوشب ، أن كعباً رأى عبد الله بن عمرو وقد تكاب الناس عليه يسألونه فقال له رجل : سله أين أرواح المؤمنين وأرواح الكفار ؟ فسأله فقال : أرواح المؤمنين بالجابية وأرواح الكفار ببرهوت .

(قال) ابن منده : ورواه أبو داود وغيره عن عبد الجليل ، ثم ساق من حديث

---

(١) (المطففين/ ١٨ : ٢١).

(٢) [ضعيف جدًا]: رواه ابن حبان : كتاب: الجنائز: فصل : في الموت وما يتعلق به، [٣٠١٣]. وضعفه لأمور، منها : جهالة من حدث قتادة عن سعيد بن المسيب.

سفيان عن فرات القزاز عن أبي الطفيل عن علي قال: خير بئر في الأرض زمزم وشر بئر في الأرض برهوت بئر في حضرموت . وخير واد في الأرض وادي مكة والوادي الذي أهبط فيه آدم بالهند منه طيبكم ، وشر واد في الأرض الأحقاف وهو في حضرموت ترده أرواح الكفار .

(قال) ابن منده : وروى حمد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، عن علي، قال: أبغض بقعة في الأرض واد بحضرموت يقال له برهوت فيه أرواح الكفار وفيه بئر ماؤها بالنهار أسود كأنه قيح تأوي إليه الهوام .

ثم ساق من طريق إسماعيل بن إسحاق القاضي ، حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا سفيان، حدثنا أبان بن تغلب ، قال : قال رجل : رأيت فيه -يعني وادي برهوت- فكأنما حشرت فيه أصوات الناس وهم يقولون : يا دومة يا دومة ! قال أبان: فحدثنا رجل من أهل الكتاب أن دومة هو الملك الذي على أرواح الكفار . (وقال) سفيان : وسألنا الحضرميين فقالوا : لا يستطيع أحد أن يبيت فيه بالليل .

فهذا جملة ما علمته في هذا القول فإن أراد عبد الله بن عمرو بالجابية التمثيل والتشبيه وأنها تجمع في مكان فسيح يشبه الجابية لسعته وطيب هوائه فهذا قريب ، وإن أراد نفس الجابية دون سائر الأرض فهذا لا يعلم إلا بالتوقيف، ولعله مما تلقاه عن بعض أهل الكتاب .

[فصل]: وأما قول من قال : إنها تجتمع في الأرض التي قال الله فيها : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(١) فهذا إن كان قاله تفسير الآية فليس هو تفسيراً لها . وقد اختلف الناس في الأرض المذكورة هنا فقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : هي أرض الجنة ، وهذا قول أكثر المفسرين . وعن ابن عباس قول آخر إنها الدنيا التي فتحها الله على أمة محمد ﷺ ، وهذا القول هو الصحيح ونظيره قوله تعالى في سورة النور : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾(٢) وفي الصحيح

---

(١) (الأنبياء/ ١٠٥).

(٢) (النور/ ٥٥).

عن النبي ﷺ قال زويت لي الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها". وقالت طائفة من المفسرين : المراد بذلك . أرض بيت المقدس .

وهي من الأرض التي أورثها الله عباده الصالحين وليست الآية مختصة بها.

[فصل] :وأما قول من قال : إن أرواح المؤمنين في عليين في السماء السابعة وأرواح الكفار في سجين في الأرض السابعة فهذا قول قد قاله جماعة من السلف والخلف ويدل عليه قول النبي ﷺ : اللهم الرفيق الأعلى(١) . وقد تقدم حديث أبي هريرة : إن الميت إذا خرجت روحه عرج بها إلى السماء حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة التي فيها الله عز وجل. وتقدم قول أبي موسى: إنها تصعد حتى تنتهي إلى العرش ، وقول حذيفة إنها موقوفة عند الرحمن ، وقول عبد الله بن عمر : إن هذه الأرواح عند الله ، وتقدم قول النبي ﷺ «إن أرواح الشهداء تأوي إلى قناديل تحت العرش»، وتقدم حديث البراء بن عازب أنها تصعد من سماء إلى سماء ويشيعها من كل سماء مقربوها حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة(٢) ، وفي لفظ إلى السماء التي فيها الله عز وجل . ولكن هذا لا يدل على استقرارها هناك بل يصعد بها إلى هنالك للعرض على ربها فيقضي فيها أمره ويكتب كتابه من أهل عليين أو من أهل سجين ، ثم تعود إلى القبر للمسألة، ثم ترجع إلى مقرها التي أودعت فيه، فأرواح المؤمنين في عليين بحسب منازلهم وأرواح الكفار في سجين بحسب منازلهم .

[فصل]: في إبطال كون الأرواح في بئر زمزم:

وأما قول من قال : إن أرواح المؤمنين تجتمع ببئر زمزم فلا دليل على هذا القول من كتاب ولا سنة يجب التسليم لها ولا قول صاحب يوثق به ، وليس بصحيح ، فإن تلك البئر لا تسع أرواح المؤمنين جميعهم(٣) وهو مخالف لما ثبتت به السنة الصريحة من أن نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة(٤) .

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبحان الله عز وجل ، من أين لنا بعلم حجم الأرواح، وما يمكن أن تستوعبه البئر؟ هذا غيب لا علم لنا به، وإنما يرد لعدم ورود الدليل عليه.

(٤) سبق تخريج الحديث الدال على ذلك.

وبالجملة فهذا من أبطل الأقوال وأفسدها وهو أفسد من قول من قال إنها بالجابية فإن ذلك مكان متسع فضاء بخلاف البئر الضيقة .

[فصل]: وأما قول من قال : إن أرواح المؤمنين في برزخ من الأرض تذهب حيث شاءت فهذا مروي عن سلمان الفارسي ، والبرزخ هو الحاجز بين شيئين ، وكأن سلمان أراد بها في أرض بين الدنيا والآخرة مرسلة هناك تذهب حيث شاءت ، وهذا قول قوي فإنها قد فارقت الدنيا ولم تلج الآخرة بل هي في برزخ بينهما ، فأرواح المؤمنين في برزخ واسع فيه الروح والريحان والنعيم ، وأرواح الكفار في برزخ ضيق فيه الغم والعذاب قال تعالى : ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١) فالبرزخ هنا ما بين الدنيا والآخرة وأصله الحاجز بين الشيئين .

[فصل] : وأما قول من قال : إن أرواح المؤمنين عن يمين آدم وأرواح الكفار عن يساره فلعمر الله لقد قال قولاً يؤيده الحديث الصحيح وهو حديث الإسراء ، فإن النبي ﷺ رآهم كذلك . ولكن لا يدل ذلك على تعادلهم في اليمين والشمال بل يكون هؤلاء عن يمينه في العلو والسعة وهؤلاء في يساره في السفل والسجن .

وقد قال أبو محمد بن حزم : إن ذلك البرزخ الذي رآها فيه رسول الله ﷺ ليلة أسري به عند سماء الدنيا قال: وذلك عند منقطع العناصر ، قال : وهذا يدل على أنها عنده تحت السماء حيث تنقطع العناصر وهي : الماء والتراب والنار والهواء .

وهو دائماً يشنع على من قال قولاً لا دليل عليه، فأي دليل له على هذا القول من كتاب وسنة ؟! وسيأتي إشباع الكلام على قوله إذا انتهينا إليه إن شاء الله تعالى .

فإن قيل : فإذا كانت أرواح أهل السعادة عن يمين آدم وآدم في السماء الدنيا وقد ثبت أن أرواح الشهداء في ظل العرش ، والعرش فوق السماء السابعة، فكيف تكون عن يمينه وكيف يراها النبي ﷺ هناك في السماء الدنيا ؟! فالجواب من وجوه :

(أحدها): أنه لا يمتنع كونها عن يمينه في جهة العلو كما كانت أرواح الأشقياء عن يساره في جهة السفل .

---

(١) (المؤمنون/ ١٠٠).

(الثاني): أنه غير ممتنع أن تعرض على النبي ﷺ في سماء الدنيا وإن كان مستقرها فوق ذلك.

(الثالث): أنه لم يخبر أنه رأى أرواح السعداء جميعاً هناك بل قال : فإذا عن يمينه أسودة، وعن يساره أسودة، ومعلوم قطعاً أن روح إبراهيم وموسى فوق ذلك في السماء السادسة والسابعة وكذلك الرفيق الأعلى أرواحهم فوق ذلك، وأرواح السعداء بعضها أعلى من بعض بحسب منازلهم كما أن أرواح الأشقياء بعضها أسفل من بعض بحسب منازلهم . والله أعلم .

[فصل] : وأما قول أبي محمد بن حزم : إن مستقرها حيث كانت قبل خلق أجسادها فهذا بناء منه على مذهبه الذي اختاره وهو أن الأرواح مخلوقة قبل الأجساد، وهذا فيه قولان للناس ، وجمهورهم على أن الأرواح خلقت بعد الأجساد، والذين قالوا : إنها خلقت قبل الأجساد ليس معهم على ذلك دليل من كتاب ولا سنة ولا إجماع إلا ما فهموه من نصوص لا تدل على ذلك أو أحاديث لا تصح كما احتج به أبو محمد بن حزم من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾[1] الآية وبقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾[2] قال : فصح أن الله خلق الأرواح جملة وهي الأنفس ، وكذلك أخبر عليه السلام أن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف[3]، قال : وأخذ عز وجل عهدها وشهادتها وهي مخلوقة مصورة عاقلة قبل أن يأمر الملائكة بالسجود لآدم وقبل أن يدخلها في الأجساد والأجساد يومئذ تراب . وقال : لأن الله تعالى خلق ذلك بلفظة ثم التي توجب التعقيب والمهلة ، ثم أقرها سبحانه وتعالى حيث شاء وهو البرزخ الذي ترجع إليه عند الموت .

وسنذكر ما في هذا الاستدلال عند جواب سؤال السائل عن الأرواح هي مخلوقة مع الأبدان أم قبلها ؟ إذ الغرض هنا الكلام على مستقر الأرواح بعد الموت ، وقوله إنها تستقر في البرزخ الذي كانت فيه قبل خلق الأجساد مبني على هذا الاعتقاد الذي اعتقده ، وقوله إن أرواح السعداء عن يمين آدم وأرواح الكفار الأشقياء عن

(١) (الأعراف/ ١٧٢).

(٢) (الأعراف/ ١١).

(٣) سبق تخريج الحديث الدال على ذلك.

يساره حق كما أخبر به النبي ﷺ ، وقوله إن ذلك عند منقطع العناصر لا دليل عليه من كتاب ولا سنة ولا يشبه أقوال أهل الإسلام . والأحاديث الصحيحة تدل على أن الأرواح فوق العناصر في الجنة عند الله ، وأدلة القرآن تدل على ذلك ، وقد وافق أبو محمد على أن أرواح الشهداء في الجنة ، ومعلوم أن الصديقين أفضل منهم فكيف تكون روح أبي بكر الصديق وعبد الله بن مسعود وأبي الدرداء وحذيفة بن اليمان وأشباههم رضي الله عنهم عند منقطع العناصر، وذلك تحت هذا الفلك الأدنى وتحت السماء الدنيا وتكون أرواح شهداء زماننا وغيرهم فوق العناصر وفوق السماوات؟! وأما قوله قد ذكر محمد بن نصر المروزي ، عن إسحاق بن راهويه ، أنه ذكر هذا الذي قلنا بعينه قال : وعلى هذا جميع أهل العلم وهو قول جميع أهل الإسلام .

قلت : محمد بن نصر المروزي ذكر في كتاب الرد على ابن قتيبة في تفسير قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (١) الآثار التي ذكرها السلف من استخراج ذرية آدم من صلبه ، ثم أخذ الميثاق عليهم وردهم في صلبه ، وأنه أخرجهم مثل الذر ، وأنه سبحانه قسمهم إذ ذاك إلى شقي وسعيد ، وكتب آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وما يصيبهم من خير وشر، ثم قال: قال إسحاق : أجمع أهل العلم أنها الأرواح قبل الأجساد استنطقهم ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ هذا نص كلامه وهو كما ترى لا يدل على أن مستقر الأرواح ما ذكر أبو محمد حيث تنقطع العناصر بوجه من الوجوه ، بل ولا يدل على أن الأرواح كائنة قبل خلق الأجساد، بل إنما يدل على أنه سبحانه أخرجها حينئذ فخاطبها ثم ردها إلى صلب آدم ، وهذا القول وإن كان قد قاله جماعة من السلف والخلف فالقول الصحيح غيره كما ستقف عليه إن شاء الله إذ ليس الغرض في جواب هذه المسألة الكلام في الأرواح هل هي مخلوقة قبل الأجساد أم لا؟ حتى لو سلم لأبي محمد هذا كله لم يكن فيه دليل على أن مستقرها حيث تنقطع العناصر ولا أن ذلك الموضع كان مستقرها أولاً .

[فصل]: وأما قول من قال : مستقرها العدم المحض فهذا قول من قال : إنها

(١) (الأعراف/ ١٧٢).

عرض من أعراض البدن وهو الحياة ، وهذا قول ابن الباقلاني ومن تبعه .

وكذلك قال أبـو الهذيل العلاف : النفس عرض من الأعـراض ولم يعينه بأنه الحياة كما عينه ابن الباقلاني ثم قال : هي عرض كسائر أعراض الجسم .

وهؤلاء عندهم أن الجـسم إذا مات عـدمت روحه كـما تقـدم وسائر أعـراضه المشـروطة بالحيـاة ، ومن يقول منهـم إن العرض لا يبـقى زمانين كـما يقـوله أكثـر الأشعرية، فمن قولهم إن روح الإنسان الآن هي غير روحه قبل وهو لا ينفك يحدث له روح ثم تغير ثم روح ثم تغير هكذا أبداً فيبـدل له ألف روح فأكثر في مقدار ساعة من الزمان فـما دونها، فإذا مـات فلا روح تصعـد إلى السماء ، وتعود إلى القـبر ، وتقبضـها الملائكة، ويستفـتحون لها أبواب السمـاوات ، ولا تنعم ولا تعذب ، وإنما ينعم ويعذب الجسد . إذا شاء الله تنعيمه أو تعذيبه رد إليه الحياة في وقت يريد نعيمه أو عذابه وإلا فلا أرواح هناك قائمة بنفسها ألبتة.

وقال بعض أرباب هذا القـول : ترد الحياة إلى عجب الذنب فـهو الذي يعذب وينعم وحـسب . وهذا قول يرده الـكتاب والسنة وإجـماع الـصحـابة وأدلة العقـول والفطن والفطرة، وهو قول من لم يعـرف روحه فضلاً عن روح غيـره، وقد خاطب الله سـبحـانه النفس بالرجـوع والدخول والخـروج ، ودلت النصـوص الصحـيحـة الصريحة على أنهـا تصعد وتنزل وتقبض وتمسك وترسل وتستفـتح لها أبواب السماء وتسجـد وتتكلم وأنها تخرج تسيل كـما تسيل القطرة وتكفن وتحنط في أكـفان الجنة والنار وأن ملك الموت يأخذها بيده ثم تتناولها الملائكة من يده ويشم لها كأطيب نفحة مسك أو أنتن جيفة وتشيع من سـماء إلى سماء ثم تعاد إلى الأرض مع الملائكة وأنها إذا خرجت تبعهـا البصر بحيث يراها وهي خارجة، ودل القـرآن على أنها تنتقل من مكان إلى مكان حـتى تبلغ الحلقوم في حركـتها ، وجـميع ما ذكـرنا من الأدلة على تلاقي الأرواح وتعارفـها وأنهـا أجناد مجندة إلى غـير ذلك تبطل هذا القـول ، وقد شاهد النبي ﷺ الأرواح ليلة الإسراء عن يمين آدم وشمـاله وأخبر النبي ﷺ أن نسمة المؤمن طائر يعلق في شـجر الجنة ، وأن أرواح الشـهداء في حـواصل طير خـضر ، وأخبر تعالى عن أرواح آل فرعون أنها تعرض على النار غدواً وعشياً .

ولما أورد ذلك على ابن الباقلاني لج في الجـواب وقال : يخرج على هذا أحد وجهين إما بأن يوضع عـرض من الحياة في أول جزء من أجـزاء الجسم وإما أن يخلق

لتلك الحياة والنعيم والعذاب جسد آخر .

وهذا قول في غاية الفساد من وجوه كثيرة، أي قول أفسد من قول من يجعل روح الإنسان عرضاً من الأعراض تتبدل كل ساعة ألوفاً من المرات فإذا فارقه هذا العرض لم يكن بعد المفارقة روح تنعم ولا تعذب ولا تصعد ولا تنزل ولا تمسك ولا ترسل ، فهذا قول مخالف للعقل ونصوص الكتاب والسنة والفطرة، وهو قول من لم يعرف نفسه ، وسيأتي ذكر الوجوه الدالة على بطلان هذا مطول في موضعه من هذا الجواب إن شاء الله . وهو قول لم يقل به أحد من سلف الأمة ولا من الصحابة والتابعين ولا أئمة الإسلام .

[فصل] :وأما قول من قال : إن مستقرها بعد الموت أبدان أخر غير هذه الأبدان فهذا القول فيه حق وباطل . فأما الحق فما أخبر الصادق المصدوق ﷺ عن أرواح الشهداء أنها في حواصل طير خضر تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش هي لها كالأوكار للطائر ، وقد صرح بذلك في قوله : جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر(١) .

وأما قوله ﷺ : «نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة»(٢) يحتمل أن يكون هذا الطائر مركباً للروح كالبدن لها ويكون ذلك لبعض المؤمنين والشهداء ، ويحتمل أن يكون الروح في صورة طائر وهذا اختيار أبي محمد بن حزم وأبي عمر بن عبد البر ، وقد تقدم كلام أبي عمر والكلام عليه ، وأما ابن حزم فإنه قال : معنى قوله ﷺ : «نسمة المؤمن طائر يعلق»(٣) ، هو على ظاهره لا على ظن أهل الجهل وإنما أخبر ﷺ أن نسمة المؤمن طائر يعلق بمعنى أنها تطير في الجنة لا أنها تمسخ في صورة الطير . قال : فإن قيل إن النسمة مؤنثة . قلنا قد صح عن عربي فصيح أنه قال : أتتك كتابي فاستخففت بها فقيل له : أتؤنث الكتاب ؟ قال : أو ليس صحيفة ؟ وكذلك النسمة تذكر كذلك ، قال : وأما الزيادة التي فيها أنها في حواصل طير خضر فإنها صفة تلك القناديل التي تأوي إليها ، والحديثان معاً حديث واحد . وهذا الذي قاله في غاية الفساد لفظاً ومعنى فإن حديث نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة(٤) غير حديث أرواح الشهداء في حواصل طير خضر(٥) ، والذي ذكره محتمل في الحديث الأول ، وأما الحديث الثاني فلا يحتمله بوجه فإنه ﷺ أخبر أن أرواحهم في حواصل طير ، وفي لفظ في أجواف طير خضر(٦) ، وفي لفظ بيض، وأن تلك

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) سبق تخريجه.
(٥) سبق تخريجه.
(٦) سبق تخريجه.

الطير تسرح في الجنة فتأكل من ثمارها وتشرب من أنهارها ثم تأوي إلى قناديل تحت العرش هي لها كالأوكار للطائر ، وقوله إن حواصل تلك الطير هي صفة القناديل التي تأوي إليها خطأ قطعاً، بل تلك القناديل مأوى لتلك الطير فهاهنا ثلاثة أمور صرح بها الحديث، أرواح، وطير هي في أجوافها، وقناديل هي مأوى لتلك الطير. والقناديل مستقرة تحت العرش لا تسرح والطير تسرح وتذهب وتجيء والأرواح في أجوافها.

فإن قيل : يحتمل أن تجعل نفسها في صورة طير لا أنها تركب في بدن طير كما قال تعالى : ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾[1] ويدل عليه قوله في اللفظ الآخر أرواحهم كطير خضر كذلك رواه ابن أبي شيبة حدثنا أبو معاوية عن الأعمش ، عن عبد الله بن مرة، عن مسروق ، عن عبد الله . قال أبو عمرو: الذي يشبه عندي والله أعلم أن يكون القول قول من قال كطير أو صورة طير لمطابقته لحديثنا المذكور . يعني حديث كعب بن مالك في نسمة المؤمن.

فالجواب أن هذا الحديث قد روي بهذين اللفظين والذي رواه مسلم في الصحيح من حديث الأعمش عن مسروق فلم يختلف حديثهما أنها في أجواف طير خضر.

(وأما حديث ابن عباس) فقال عثمان بن أبي شيبة : حدثنا عبد الله بن إدريس، عن محمد بن إسحاق، عن إسماعيل بن أمية، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : لما أصيب إخوانكم -يعني يوم أحد- جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب مدلاة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا : من يبلغ إخواننا عنا أنا أحياء في الجنة نرزق لئلا ينكلوا عن الحرب ولا يزهدوا في الجهاد ؟ فقال الله تعالى : أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله تعالى : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[2]»[3].

(وأما حديث كعب بن مالك) فهو في السنن الأربعة ومسند أحمد ولفظه للترمذي: أن رسول الله ﷺ قال : «إن أرواح الشهداء في طير خضر تعلق من ثمر الجنة أو شجر الجنة»[4] . قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح، ولا محذور في

(١) (الانفطار/ ٨).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) (آل عمران/ ١٦٩).

(٤) سبق تخريجه.

هذا ولا يبطل قاعدة من قواعد الشرع ولا يخالف نصاً من كتاب ولا سنة عن رسول الله ﷺ ، بل هذا من تمام إكرام الله للشهداء أن أعاضهم من أبدانهم التي مزقوها لله أبداناً خيراً منها تكون مركباً لأرواحهم ليحصل بها كمال تنعمهم. فإذا كان يوم القيامة رد أرواحهم إلى تلك الأبدان التي كانت فيها في الدنيا.

فإن قيل : فهذا هو القول بالتناسخ وحلول الأرواح في أبدان غير أبدانها التى كانت فيها.

قيل : هذا المعنى الذي دلت عليه السنة الصريحة حق يجب اعتقاده ولا يبطله تسمية المسمي له تناسخاً، كما أن إثبات ما دل عليه العقل والنقل من صفات الله عز وجل وحقائق أسمائه الحسنى حق لا يبطله تسمية المعطلين لها تركيباً وتجسيماً ، وكذلك ما دل عليه العقل والنقل من إثبات أفعاله وكلامه بمشيئته ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا ومجيئه يوم القيامة للفصل بين عباده حق لا يبطله تسمية المعطلين له حلول حوادث ، وكما أن ما دل عليه العقل والنقل من علو الله على خلقه ومباينته لهم واستوائه على عرشه وعروج الملائكة والروح إليه ونزولها من عنده وصعود الكلم الطيب إليه وعروج رسوله إليه ودنوه منه حتى صار قاب قوسين أو أدنى وغير ذلك من الأدلة حق لا يبطله تسمية الجهمية له حيزاً أو جهة وتجسيماً.

قال الإمام أحمد: لا نزيل عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة المشنعين فإن هذا شأن أهل البدع يلقبون أهل السنة وأقوالهم بالألقاب التي ينفرون منها الجهال ويسمونها حشواً وتركيباً وتجسيماً، ويسمون عرش الرب تبارك وتعالى حيزاً أو جهة ليتوصلوا بذلك إلى نفي علوه على خلقه واستوائه على عرشه ، كما تسمي الرافضة موالاة أصحاب رسول الله ﷺ كلهم ومحبتهم والدعاء لهم نصباً، وكما تسمي القدرية[1] المجوسية إثبات القدر جبراً. فليس الشأن في الألقاب وإنما الشأن في

(١) القدرية المجوسية هم الذين ينفون القدر، ويقولون : إن الله خالق الخير، والشر مخلوق من الإنسان، فأشركوا بالله -عز وجل- في الربوبية. وهو شرك لم يصل إلى حده كفار قريش الذين كان إشراكهم في الألوهية فحسب، أما هؤلاء المخذولون فجعلوا الإنسان خالقًا، وسموا بالمجوسية؛ لأنها عقيدة يؤمن أهلها بإلهين ، إله للخير وإله للشر، أو إله للنور ، وإله للظلام. فلما جعل القدرية الله خالق الخير، والإنسان خالق الشر استحقوا أن يكونوا كنظائرهم من المجوس ، إذ جعلوا لهم إلهين، نعوذ بالله من الخزي والخذلان.

الحقائق ، والمقصود أن (تسمية) ما دلت عليه السنة الصريحة من جعل أرواح الشهداء في أجواف طير خضر تناسخاً لا يبطل هذا المعنى ، وإنما التناسخ الباطل ما تقوله أعداء الرسل من الملاحدة وغيرهم الذين ينكرون المعاد أن الأرواح تصير بعد مفارقة الأبدان إلى أجناس الحيوان والحشرات والطيور التي تناسبها وتشاكلها فإذا فارقت هذه الأبدان انتقلت إلى أبدان تلك الحيوانات فتنعم فيها أو تعذب ثم تفارقها وتحل في أبدان أخر تناسب أعمالها وأخلاقها وهكذا أبداً فهذا معادها عندهم ونعيمها وعذابها لا معاد لها عندهم غير ذلك فهذا هو التناسخ الباطل المخالف لما اتفقت عليه الرسل والأنبياء من أولهم إلى آخرهم وهو كفر بالله وباليوم الآخر ، وهذه الطائفة يقولون : إن مستقر الأرواح بعد المفارقة أبدان الحيوانات التي تناسبها . وهو أبطل قول وأخبثه، ويليه قول من قال : إن الأرواح تعدم جملة بالموت ولا تبقى هناك روح تنعم ولا تعذب بل النعيم والعذاب يقع على أجزاء الجسد أو جزء منه إما عجب أو غيره فيخلق الله فيه الألم واللذة إما بواسطة رد الحياة إليه كما قاله بعض أرباب هذا القول أو بدون رد الحياة كما قاله آخرون منهم ، فهؤلاء عندهم لا عذاب في البرزخ إلا على الأجساد، ومقابلهم من يقول إن الروح لا تعاد إلى الجسد بوجه ولا تتصل به ، والعذاب والنعيم على الروح فقط ، والسنة الصريحة المتواترة ترد قول هؤلاء وهؤلاء وتبين أن العذاب على الروح والجسد مجتمعين ومنفردين .

القول الراجح في مستقر الأرواح:

فإن قيل : فقد ذكرتم أقوال الناس في مستقر الأرواح ومأخذهم فما هو الراجح من هذه الأقوال حتى نعتقده ؟

قيل: الأرواح متفاوتة في مستقرها في البرزخ أعظم تفاوت، (فمنها) أرواح في أعلى عليين في الملأ الأعلى وهي أرواح الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وهم متفاوتون في منازلهم كما رآهم النبي ﷺ ليلة الإسراء.

(ومنها) أرواح في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت وهي أرواح بعض الشهداء لا جميعهم، بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه أو غيره كما في المسند عن محمد بن عبد الله بن جحش «أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ما لي إن قتلت في سبيل الله ؟ قال :الجنة، فلما

ولى قال : إلا الدَّين سارني به جبريل آنفاً »(١) .

(ومنهم) من يكون محبوساً على باب الجنة كما في الحديث الاخر: " رأيت صاحبكم محبوساً على باب الجنة" . (ومنهم) من يكون محبوساً في قبره كحديث صاحب الشملة التي غلها ثم استشهد فقال الناس : هنيئاً له الجنة فقال النبي ﷺ : «والذي نفسي بيده إن الشملة التي غلها لتشتعل عليه ناراً في قبره»(٢) .

(ومنهم) من يكون مقره باب الجنة كما في ابن عباس :«الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية»(٣) . رواه أحمد. وهذا بخلاف جعفر بن أبي طالب حيث «أبدله الله من يديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء»(٤) .

---

(١) [صحيح]: لشواهده، الحديث رواه أحمد في مسنده : (٤/١٣٩ ، ٣٥٠)، ومعناه رواه مالك في موطأه عن أبي قتادة -رضي الله عنه- ،كتاب: الجهاد، باب: الشهداء في سبيل الله [٣١]، وأحمد في مسنده في مواضع كثيرة، منها:(٢/ ٢٢٠) عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنه-، ومسلم : كتاب: الإمارة، باب: من قتل في سبيل الله كفرت خطاياه، إلاَّ الدَّين ، [١٨٨٥]، والترمذي: كتاب الجهاد، باب: ما جاء فيمن يستشهد وعليه دين، [١٧١٢]، عن أبي قتادة -رضي الله عنه- [١٦٤٠] عن أنس -رضي الله عنه- ، والنسائي : كتاب: الجهاد، باب: من قاتل في سبيل الله تعالى وعليه دين، (٦/ ٣٣: ٣٤) عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، وابن ماجة : كتاب: الجهاد، باب: فضل غزو البحر [٢٧٧٨]، ولفظ مسلم عن أبي قتادة -رضي الله عنه- أنه كان يحدث عن رسول الله ﷺ أنه قام فيهم - أي: خطيبًا- فذكر لهم: «أن الجهاد في سبيل الله، والإيمان بالله أفضل الأعمال» فقام رجل فقال : يا رسول الله أرأيت إن قُتلتُ في سبيل الله تُكَفَّرُ عني خطاياي؟ فقال له رسول الله ﷺ :«نعم، إن قُتلتَ في سبيل الله وأنتَ صابر محتسب، مقبل غير مدبر» ثم قال رسول الله ﷺ : «كيف قلت؟» قال: أرأيت إن قتلتُ في سبيل الله، أتكفر عني خطاياي؟ فقال رسول الله ﷺ :«نعم وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر، إلا الدين، فإن جبريل عليه السلام قال لي ذلك» وفي حديث آخر لمسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدَّين» رقم: [١٨٨٦].

(٢) سبق تخريجه. (٣) سبق تخريجه.

(٤) يشير إلى الحديث الذي فيه أن الله عز وجل قد أعطى جعفرًا -رضي الله عنه- جناحين يطير بهما في الجنة كيفما شاء، وذلك تعويضًا له على قطع يديه في غزوة مؤتة -رضي الله عنه- ، وكان مشهوراً بذي الجناحين، واشتهر ابنه كذلك، بابن ذي الجناحين، حتى إن ابن عمر -رضي الله عنهما- كان يقول لابن جعفر -رضي الله عنهما- : «السلام عليك يا ابن ذي الجناحين» [حديث صحيح] رواه البخاري : كتاب : فضائل الصحابة، باب: مناقب جعفر بن أبي طالب -رضي الله عنه- ، [٣٧٠٩، ٤٢٦٤].

(ومنهم) من يكون محبوساً في الأرض لم تعل روحه إلى الملأ الأعلى، فإنها كانت روحاً سفلية أرضية، فإن الأنفس الأرضية لا تجامع الأنفس السماوية كما لا تجامعها في الدنيا، والنفس التي لم تكتسب في الدنيا معرفة ربها ومحبته وذكره والأنس به والتقرب إليه بل هي أرضية سفلية، لا تكون بعد المفارقة لبدنها إلا هناك. كما أن النفس العلوية التي كانت في الدنيا عاكفة على محبة الله وذكره والتقرب إليه والأنس به تكون بعد المفارقة مع الأرواح العلوية المناسبة لها، فالمرء مع من أحب في البرزخ ويوم القيامة[1] ، والله تعالي يزوج النفوس بعضها ببعض في البرزخ ويوم المعاد كما تقدم في الحديث، ويجعل روحه -يعني المؤمن- مع النسيم الطيب ، أي الأرواح الطيبة المشاكلة لروحه، فالروح بعد المفارقة تلحق بأشكالها وأخواتها وأصحاب عملها فتكون معهم هناك .

(ومنها) أرواح تكون في تنور الزناة والزواني[2] (وأرواح) في نهر الدم تسبح فيه وتلقم الحجارة[3]، فليس للأرواح سعيدها وشقيها مستقر واحد بل روح في أعلى عليين ، وروح أرضية سفلية لا تصعد عن الأرض .

وأنت إذا تأملت السنن والآثار في هذا الباب، وكان لك بها فضل اعتناء، عرفت حجة ذلك، ولا تظن أن بين الآثار الصحيحة في هذا الباب تعارضاً فإنها كلها حق يصدق بعضها بعضاً، لكن الشأن في فهمها ومعرفة النفس وأحكامها، وأن لها شأناً غير شأن البدن ، وأنها مع كونها في الجنة فهي في السماء وتتصل بفناء القبر وبالبدن فيه ، وهي أسرع شئ حركة وانتقالاً وصعوداً وهبوطاً، وأنها تنقسم إلى مرسلة ومحبوسة وعلوية وسفلية، ولها بعد المفارقة صحة ومرض ولذة ونعيم وألم أعظم مما كان لها حال اتصالها بالبدن بكثير ، فهنالك الحبس والألم والعذاب والمرض والحسرة، وهنالك اللذة والراحة والنعيم والإطلاق وما أشبه حالها في هذا البدن بحال البدن في بطن أمه وحالها بعد المفارقة بحاله بعد خروجه من البطن إلى هذه الدار ! .

---

(١) سبق الحديث على هذه المسألة بالآية، والحديث الشريف، وهي أن المرء يجعله الله مع من أحبهم إذا كان يجاهد نفسه على العمل بأعمالهم، والاقتداء بهديهم.

(٢) إشارة إلى حديث الإسراء والمعراج الطويل وسبق تخريجه.

(٣) إشارة إلى حديث المعراج الطويل، وقد سبق تخريجه.

للنفس أربع دور، كل دار أعظم من التي قبلها:

فلهذه الأنفس أربع دور كل دار أعظم من التي قبلها:

(الدار الأولى) في بطن الأم، وذلك الحصر والضيق والغم والظلمات الثلاث.

(والدار الثانية) هي الدار التي نشأت فيها وألفتها واكتسبت فيها الخير والشر وأسباب السعادة والشقاوة.

(والدار الثالثة) دار البرزخ، وهي أوسع من هذه الدار وأعظم بل نسبتها إليه كنسبة هذه الدار إلى الأولى.

(والدار الرابعة) دار القرار، وهي الجنة أو النار، فلا دار بعدها، والله ينقلها في هذه الدور طبقاً بعد طبق حتى يبلغها الدار التي لا يصلح لها غيرها ولا يليق بها سواها وهي التي خلقت لها وهيئت للعمل الموصل لها إليها، ولها في كل دار من هذه الدور حكم وشأن غير شأن الدار الأخرى فتبارك الله فاطرها ومنشئها ومميتها ومحييها ومسعدها ومشقيها الذي فاوت بينها في درجات سعادتها وشقاوتها كما فاوت بينها في مراتب علومها وأعمالها وقواها وأخلاقها. فمن عرفها كما ينبغي شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك كله وله الحمد كله وبيده الخير كله وإليه يرجع الأمر كله وله القوة كلها والقدرة كلها والعز كله والحكمة كلها والكمال المطلق من جميع الوجوه، وعرف بمعرفة نفسه صدق أنبيائه ورسله، وأن الذي جاءوا به هو الحق الذي تشهد به العقول وتقر به الفطر وما خالفه هو الباطل وبالله التوفيق.



المسألة السادسة عشرة

وهي هل تنتفع أرواح الموتى بشيء من سعي الأحياء أم لا ؟

(فالجواب) أنها تنتفع من سعي الأحياء بأمرين مجمع عليهما بين أهل السنة من الفقهاء وأهل الحديث والتفسير.

(أحدهما) ما تسبب إليه الميت في حياته.

(والثاني) دعاء المسلمين له واستغفارهم له والصدقة والحج على نزاع ما الذي يصل من ثوابه هل ثواب الإنفاق أو ثواب العمل ؟ فعند الجمهور يصل ثواب العمل نفسه وعند بعض الحنفية إنما يصل ثواب الإنفاق .

واختلفوا في العبادة البدنية كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر فمذهب الإمام أحمد وجمهور السلف وصولها، وهو قول بعض أصحاب أبي حنيفة نص على هذا الإمام أحمد في رواية محمد بن يحيى الكحال قال : قيل لأبي عبد الله : الرجل يعمل الشيء من الخير من صلاة أو صدقة أو غير ذلك فيجعل نصفه لأبيه أو لأمه ؟ قال : أرجو وقال : الميت يصل إليه كل شئ من صدقة أو غيرها، وقال أيضاً: اقرأ آية الكرسي ثلاث مرات، وقل هو الله أحد، وقل اللهم إن فضله لأهل المقابر. والمشهور من مذهب الشافعي ومالك أن ذلك لا يصل .

وذهب بعض أهل البدع من أهل الكلام أنه لا يصل إلى الميت شئ ألبتة لا دعاء ولا غيره .

فالدليل على انتفاعه بما تسبب إليه في حياته ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عن عمله إلا من ثلاث: إلا من صدقة جارية. أو علم ينتفع به. أو ولد صالح يدعو له»(١).

---

(١) [صحيح]: رواه أحمد : (٣٧٢) ، ومسلم : كتاب: الوصية، باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، [١٦٣١]، وأبو داود : كتاب : الوصايا ، باب: ما جاء في الصدقة عن الميت، [٢٨٨٠]، والترمذي : كتاب: الأحكام، باب: في الوقف، [١٣٧٦].

فاستثناء هذه الثلاث من عمله يدل على أنها منه فإنه هو الذي تسبب إليها.

وفي سنن ابن ماجة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: «إنما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علماً علمه ونشره أو ولداً صالحاً تركه أو مصحفاً ورثه أو مسجداً بناه أو بيتاً لابن السبيل بناه أو نهراً أكراه أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته»(١).

وفي صحيح مسلم أيضاً من حديث جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»(٢). وهذا المعنى

---

(١) [حسن]: رواه ابن ماجة: المقدمة، باب: معلم الناس الخير، [٢٤٢]، ونقل عن ابن المنذر أنه قال: إسناده حسن، وفي «الزوائد»: إسناده غريب، ومرزوق مختلف فيه، وقد رواه ابن خزيمة في صحيحه عن محمد بن يحيى الزهلي به، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجة»: [١٩٨]، وانظر «التعليق الرغيب»: (١/ ٥٧- ٥٨)، «الأحكام»: (١٧٦-١٧٧)، «الإرواء»: (٦/ ٢٩)، «الروض»: [١٠١٣]. والحديث قد سبق بمعناه صحيحًا، وهو في «صحيح مسلم» وغيره.

(٢) [صحيح]: رواه أحمد: (٤/ ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩)، ومسلم: كتاب: الزكاة، باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة، وأنها حجاب من النار، [١٠١٧]، والترمذي: كتاب: العلم: باب: ما جاء فيمن دعا إلى هدى فاتُّبع أو إلى ضلالة، [٢٦٧٥]، والنسائي: كتاب: الزكاة، باب: التمريض على الصدقة، (٥/ ٧٥: ٧٧)، وابن ماجة: المقدمة، باب: من سن سنة حسنة أو سيئة، [٢٠٣]، وابن حبان: كتاب: الزكاة، باب: صدقة التطوع [٣٣٠٨]، ومما تقشعر له أبدان المسلمين أن هناك الكثير من المبتدعين الضالين المنحرفين عن الصراط المستقيم المعرضين عن الهدي النبوي القويم المدخلين في الدين ما ليس منه، بل ربما ما نهى عنه يستدلون بهذا الحديث على صحة دعواهم الباطلة فيحسبون سفهًا وجهلاً، أو عنادًا واستكبارًا أن قراءة القرآن علانية قبل الجمعة، والأذانين، والأذكار غير المشروعة، والصلاة على النبي ﷺ بعد الأذان جهراً، ورفع الصوت بأذكار الصلاة، وما إلى ذلك من الخزعبالات التي لم يسنها النبي ﷺ من جنس السنة الحسنة التي يؤجر المبتدع عليها، وعندما تدعوه لاتباع السنة وترك البدعة تجده يرمى أهل السنة بالسفاهة والجهل، وصدق الله عز وجل إذ يقول: ﴿وإذا قيل لهم ءامنوا كما ءامن الناس قالوا أنؤمن كما ءامن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾ (البقرة/ ١٣).

ولمعرفة فقه الحديث نورد تمام رواية مسلم عن المنذر بن جرير عن أبيه -رضي الله عنه- قال: كنا عند النبي ﷺ من صدر النهار، فجاء قوم حفاة عراة، مجتابي النِّمار، عليهم سيوف، عامتهم من =

روي عن النبي ﷺ من عدة وجوه صحاح وحسان.

وفي المسند عن حذيفة قال: سأل رجل على عهد رسول الله ﷺ فأمسك القوم، ثم أن رجلاً أعطاه فأعطى القوم، فقال النبي ﷺ: «من سن خيراً فاستن به كان له أجره ومن أجور من تبعه غير منتقص من أجورهم شيئاً ومن سن شراً فاستن به كان عليه وزره ومن أوزار من تبعه غير منتقص من أوزارهم شيئاً»[1].

وقد دل على هذا قوله ﷺ: «لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل»[2]، فإذا كان هذا في العذاب والعقاب ففي

= مضر، بل كلهم من مضر، فرأيت وجه رسول الله ﷺ تغير لما رأى منهم من الفاقة، قال: فدخل بأمر بلالاً فأذن، ثم أقام فخرج، فصلى ثم قال: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾ (النساء/ ١) ، ﴿اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾ (الحشر / ١٨)، يتصدق امرؤ من ديناره، ومن درهمه، ومن ثوبه، ومن صاع بره، ومن صاع شعيره، حتى ذكر شق تمرة، فجاء رجل من الأنصار بصُرَّة كادت تعجز كفاه ، بل قد عجزت، ثم تتابع الناس حتى رأيت بين يدي رسول الله ﷺ كومين من الثياب والطعام، فلقد رأيت وجه رسول الله ﷺ تهلل حتى كأنه مُذهَبَة ، ثم قال: «من سن في الإسلام سنة حسنة ، فعمل بها من بعده، كان له أجرها، وأجر من يعمل بها من بعده، ومن سن سنة سيئة، فعمل بها من بعده، كان عليه وزرها، ووزر من عمل بها من بعده» .

والحديث كما هو واضح بين يشير إلى أن المقصود بسن السنة الحسنة لا يعني بأي وجه أن يخترع الإنسان في الدين، غاية ما هنالك أن الإنسان إذا كان أول المقبلين على السنة في وسط لم يعملوا بها بعد فعمل الناس بالسنة الصحيحة وكان هو إمامهم في ذلك كان له أجرهم بغير نقصان أجورهم شيئًا. والعكس صحيح أيضًا. فالنبي ﷺ دعاهم إلى الصدقة، فبادر أحد الأنصار بتلبية نداء النبي ﷺ فاقتدى به الناس وتأسوا ، وتتابعوا يفعلون فعله الذي أمر به النبي ﷺ فحسناتهم في ميزان الرجل الأنصاري الأول بغير أن ينقص ذلك من أجورهم شيئًا ، إذ هو أول المقتفين لأثر النبي ﷺ. عسى أن يجعل الله في ذلك بيانًا شافيًا لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

(١) رواه أحمد : (٥/ ٣٨٧ : ٣٨٨)، والحديث السابق يشهد له ، وأصل الحديث في الصحيحين، والسنن ومعناه نصت عليه الأحاديث المتواترة.

(٢) [صحيح]: رواه أحمد : (١/ ٣٨٣) ، والبخاري : كتاب: أحاديث الأنبياء، [٣٣٣٥] ، [٦٨٦٧، ٧٣٢١]، ومسلم : كتاب: القسامة ، باب: بيان إثم من سن القتل، [١٦٧٧]، والترمذي : كتاب العلم، باب: ما جاء الدال على الخير كفاعله، [٢٦٧٣]، وابن ماجة : كتاب: الديات، باب: التغليظ في قتل مسلم ظلمًا ، [٢٦١٦].

الفضل والثواب أولى وأحرى .

[فصل] : في الدليل على انتفاع الميت بغير ما تسبب فيه:

والدليل على انتفاعه بغير ما تسبب فيه القرآن والسنة والإجماع وقواعد الشرع.

(أما القرآن) فقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾(١) فأثنى الله سبحانه عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء.

وقد يمكن أن يقال إنما انتفعوا باستغفارهم لأنهم سنوا لهم الإيمان بسبقهم إليه فلما اتبعوهم فيه كانوا كالمستنين في حصوله لهم. لكن قد دل على انتفاع الميت بالدعاء إجماع الأمة على الدعاء له في صلاة الجنازة .

(وفي السنن) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: «إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء»(٢) .

وفي صحيح مسلم من حديث عوف بن مالك قال ﷺ على جنازة فحفظت من دعائه وهو يقول : «اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله وأوسع مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد ونقه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس وأبدله داراً خيراً من داره وأهلاً خيراً من أهله وزوجاً خيراً من زوجه وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر وعذاب النار»(٣) .

(وفي السنن) عن واثلة بن الأسقع قال ﷺ على رجل من المسلمين فسمعته

(١) (الحشر / ١٠).

(٢) [حسن]: رواه أبو داود : كتاب: الجنائز، باب: الدعاء للميت ، [٣١٩٩]، وابن ماجة : كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في الدعاء في الصلاة على الجنازة ، [١٤٩٧]، وابن حبان : كتاب: الجنائز، باب: فصل في الصلاة على الجنازة، ذكر الأمر لمن صلى على ميت أن يخلص له الدعاء، [٣٠٧٦، ٣٠٧٧]، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجة» : [١٢١٦] ، وانظر : «الأحكام» : [١٢٣]، «المشكاة» : [١٦٧٤]، «الإرواء» : [٧٣٢].

(٣) [صحيح]: رواه أحمد : (٢٨/٦)، ومسلم : كتاب : الجنائز، باب: الدعاء للميت في الصلاة ، [٩٦٣]، والترمذي : كتاب : الجنائز ، باب: ما يقول في الصلاة على الميت، [١٠٢٥]، والنسائي: كتاب: الجنائز، باب: الدعاء، (٧٣/٤)، وابن حبان : كتاب: الجنائز، فصل : في الصلاة على الجنازة ، [٣٠٧٥].

يقول : «اللهم إن فلاناً ابن فـلان في ذمتك وحبل جوارك فقه من فـتنة القبر وعذاب النار وأنت أهل الوفاء والحق فـاغفر له وارحمه إنك أنت الغـفور الرحيم»(١) . وهذا كثير في الأحاديث بل هو المقصود بالصلاة على الميت وكذلك الدعاء له بعد الدفن .

(وفي السنن) من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال : «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل»(٢) .

وكذلك الدعاء لهم عند زيارة قبورهم كمـا في صحيح مسلم من حديث بريدة ابن الخصيب قـال : «كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجـوا إلى المقابر أن يقولوا : السلام عليكم أهل الديار مـن المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقـون نسأل الله لنا ولكم العافية»(٣) .

وفي صحيح مـسلم أن عائشة رضي الله عنها سـألت النبي ﷺ كيف تقول إذا استغفرت لأهل القبـور ؟ قال : «قولي السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وإنا إن شاء الله بكم للاحقون»(٤)

(١) [صحيح]: رواه أحمد: (٣/ ٤٩١)، وأبو داود : كتاب : الجنائز، باب: الدعاء للميت، [٣٢٠٢]، وابن ماجة : كـتاب: الجنائز، باب: ما جاء في الدعـاء في الصلاة على الجنازة ، [١٤٩٩]، وابن حبان : كتاب: الجنائز، فصل : في الصلاة على الجنازة، [٣٠٧٤]، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجة» ، [١٢١٨]، وانظر : «المشكاة» [١٦٧٧].

(٢) رواه أبو داود : كـتاب: الجنائز، بـاب: الاستـغفـار عند القـبر لـلميت ، [٣٢٢١]، والحـاكم في مستدركه : (١/ ٣٧٠)، وصححه، وقـال: هذا حديث صحيح على شرط الإسناد، ولم يخرجاه، وقال الذهبي : ابن بحير ليس بالعمدة، ومنهم من يقويه، وهاني روى عنه جماعة، وأورده الألباني في «صحيح أبي داود».

(٣) [صحيح]: رواه أحمد: (٥/ ٣٥٣)، ومسلم : كتاب: الجنائز، باب: ما يقال عند دخـول القبور، والدعاء لأهلها، [٩٧٥]، والنسائي : كتاب: الجنائز، باب: الأمر بالاستغفار للمؤمنين، (٤/ ٩٤)، وابن ماجة : كتاب: الجنائز، باب: ما جاء فيما يقال إذا دخل المقابر ، [١٥٤٧].

(٤) [صحيح]: رواه أحمـد : (٦/ ٧١، ١١١)، ٢٢١)، ومسلم : كتاب: الجنائز، باب: مـا يقال عند دخول القبور، والدعاء لأهلها، [٩٧٤]، والنسـائي : كتاب: عشرة النساء، باب: الغيرة ، (٧/ ٧٢ : ٧٣)، وابن ماجة : كـتاب: الجنائز، باب: ما جاء فيمـا يقال إذا دخل المقابر، [١٥٤٦]، وابن حبان : كتاب: إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، [٧١١٠]، وبه فوائد جليلة فليراجع بتمامه.

وفي صحيحه عنها أيضاً أن رسول الله ﷺ خرج في ليلتها من آخر الليل إلى البقيع فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين وأتاكم ما توعدون غداً مؤجلون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد»(١).

ودعاء النبي ﷺ للأموات فعلاً وتعليماً ودعاء الصحابة والتابعين والمسلمين عصراً بعد عصر أكثر من أن يذكر وأشهر من أن ينكر وقد جاء أن الله يرفع درجة العبد في الجنة فيقول: أنى لي هذا ؟! فيقال: بدعاء ولدك لك.

[فصل]: في إثبات وصول ثواب الصدقة إلى الميت:

وأما وصول ثواب الصدقة ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن أمي افتلتت نفسها ولم توص وأظنها لو تكلمت تصدقت أفلها أجر إن تصدقت عنها ؟ قال: «نعم»(٢).

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما «أن سعد بن عبادة توفيت أمه وهو غائب عنها فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن أمي توفيت وأنا غائب عنها فهل ينفعها إن تصدقت عنها ؟ قال: نعم، قال فإني أشهدك أن حائطي المخراف صدقة عنها»(٣).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه «أن رجلاً قال للنبي ﷺ إن أبي مات وترك مالاً ولم يوص فهل يكفي عنه أن أتصدق عنه ؟ قال: نعم»(٤).

(١) [صحيح]: رواه مسلم: كتاب: الجنائز، باب: ما يقال عند دخول القبور، والدعاء لأهلها، [١٠٢].

(٢) [صحيح]: رواه البخاري: كتاب: الجنائز، باب: موت الفجاءة، البغتة، [١٣٨٨]، [٢٧٦٠]، ومسلم: كتاب: الوصية، باب: وصول ثواب الصدقات إلى الميت، [١٠٠٤]، وأبو داود: كتاب: الوصايا، باب: ما جاء فيمن مات من غير وصية يتصدق عنه، [٢٨٨١]، والنسائي: كتاب: الوصايا، باب: إذا مات الفجأة هل يستحب لأهله أن يتصدقوا عنه، (٦/ ٢٥٠)، وابن ماجة: كتاب: الوصايا، باب: من مات ولم يوص هل يتصدق عنه ؟، [٢٧١٧].

(٣) [صحيح]: رواه البخاري: كتاب: الوصايا، باب: إذا قال: أرضي أو بستاني صدقة لله عن أمي فهو جائز، وإن لم يبين لمن ذلك، [٢٧٥٦]، [٢٧٦٢، ٢٧٧٠]، وأبو داود: كتاب: الوصايا، باب: ما جاء فيمن مات من غير وصية يتصدق عنه، [٢٨٨٢]، والترمذي: كتاب: الزكاة، باب: ما جاء في الصدقة عن الميت، [٦٦٩]، والنسائي كتاب: الوصايا، باب: فضل الصدقة عن الميت، (٦/ ٢٥٢: ٢٥٣).

(٤) [صحيح]: رواه مسلم: كتاب: الوصية، باب: وصول ثواب الصدقات إلى الميت، [١٦٣٠].

(وفي السنن ومسند أحمد) عن سعد بن عبادة أنه قال يا رسول الله : «إن أم سعد ماتت فأي الصدقة أفضل ؟ قال : الماء، فحفر بئراً وقال هذه لأم سعد»(١).

(وعن) عبد الله بن عـمرو «أن العاص بن وائل نذر في الجاهليـة أن ينحر مائة بدنة ، وأن هشام بن العاص نحر خمسة وخمسين ، وأن عـمراً سأل النبي ﷺ عن ذلك فقال : أمـا أبوك فلو أقر بالتوحيـد فصمت وتصدقت عنـه نفعه ذلك» . رواه الإمام أحمد(٢) .

[فصل]: في وصول ثواب الصوم والحج:

وأما وصول ثواب الصوم ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : «من مات وعليه صيام صام عنه وليه»(٣).

وفي الصحـيحين أيضاً عن ابن عبـاس رضي الله عنهما قـال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أمي مـاتت وعليها صوم شهر أفأقضـيه عنها ؟ قال : نعم فدين الله أحق أن يقضى»(٤).

(وفي رواية) «جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فـقالت : يا رسول الله إن أمي ماتت وعليها صوم نذر أفأصوم عنها ؟ قـال : أفرأيت لو كان على أمك دين فقضيته أكان يؤدي ذلـك عنها؟ قالت : نـعم ، قال : فصـومي عن أمك»(٥) . وهذا اللفظ

(١) [حسن]: رواه أحمد: (٥/ ٢٨٥)، (٦/ ٧)، وأبو داود : كتاب: الزكاة، باب: في فضل سقي الماء، [١٦٨١]، والنسائي : كتاب: الوصـايا، باب: فضل الصدقة على الميت، (٦/ ٢٥٤، ٢٥٥)، وابن ماجـة: كتـاب: الأدب، باب: فضل صـدقة الماء ، [٣٦٨٤]، وحسنـه الألباني في «صحـيح ابن ماجة»: [٢٩٧١]، وانظر : «التعليق الرغيب» (٢/ ٥٣)، «صحيح أبي داود» : [١٤٧٤].

(٢) [صحيح]: رواه أحمد : (٢/ ١٨٢)، وأبو داود : كتاب، الوصايا، بـاب: ما جاء في وصية الحربي يسلم وليه ،أيلزمـه أن ينفذها؟ [٢٨٨٣]، وصححـه أحمد شاكـر : [٦٧٠٤]، وأوره الألباني في «صحيح أبي داود».

(٣) [صحـيح]: رواه أحمـد : (٦/ ٦٩)، والبخـاري : كتاب: الصـوم، باب: من مات وعليـه صوم، [١٩٥٢]، ومسلم : كتـاب الصيام، باب: قضاء الصيـام عن الميت، [١١٤٧]، وأبو داود: كتاب: الصوم، باب: فيمن مات وعليه صيام، [٢٤٠٠].

(٤) [صحيح]: رواه البخاري: كتاب: الصوم، باب: من مات وعليه صوم، [١٩٥٣]، ومسلم : كتاب: الصيام، باب: قضاء الصيام عن الميت، [١١٤٨].

(٥) [صحيح]: ذكره البخاري تعليـقًا في صحيحه: كتاب: الصـوم، باب: من مات وعليه صوم، ورواه مسلم : كتاب: الصيام، باب: قضاء الصيام عن الميت، [١١٤٨/ ١٥٦].

للبخاري وحده تعليقاً.

وعن بريدة رضي الله عنه قال: «بينا أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ أتته امرأة فقالت: إني تصدقت على أمي بجارية وأنها ماتت، فقال: وجب أجرك وردها عليك الميراث، فقالت: يا رسول الله إنه كان عليها صوم شهر أفأصوم عنها؟ قال: فصومي عنها. قالت: إنها لم تحج قط أفأحج عنها؟ قال: حجي عنها». رواه مسلم. وفي لفظ: صوم شهرين»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما «أن امرأة ركبت البحر فنذرت إن الله نجاها أن تصوم شهراً، فنجاها الله فلم تصم حتى ماتت، فجاءت بنتها أو أختها إلى رسول الله ﷺ فأمرها أن تصوم عنها»(٢). رواه أهل السنن والإمام أحمد. وكذلك روي عنه ﷺ وصول ثواب بدل الصوم وهو الإطعام.

(ففي السنن) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات وعليه صيام شهر فليطعم عنه لكل يوم مسكينًا»(٣). رواه الترمذي وابن ماجة. قال الترمذي ولا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه والصحيح عن ابن عمر من قوله موقوفاً.

(وفي سنن أبي داود) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إذا مرض الرجل في رمضان ولم يصم أطعم عنه ولم يكن عنه قضاء وإن نذر قضى عنه وليه»(٤).

(١) [صحيح]: رواه مسلم: كتاب: الصيام، باب: قضاء الصيام عن الميت، [١١٤٩]، وأبو داود: كتاب: الوصايا، باب: ما جاء في الرجل يهب الهبة ثم يوصي له بها أو يرثها، [٢٨٧٧].

(٢) [صحيح]: رواه أحمد: (١/ ٢١٦)، وأبو داود: كتاب: الأيمان والنذور، باب: في قضاء النذر عن الميت، [٣٣٠٨]، والنسائي: كتاب: الأيمان والنذور، باب: من نذر أن يصوم ثم مات قبل أن يصوم، (٧/ ٢٠). وصححه الألباني في «صحيح النسائي»: [٣٥٧٣]، وانظر «أحكام الجنائز» (١٦٩ - ١٧٠).

(٣) [ضعيف]: رواه الترمذي: كتاب: الصوم، باب: ما جاء من الكفارة، [٧١٨]، وقال أبو عيسى: حديث ابن عمر لا نعرفه مرفوعًا إلا من هذا الوجه، والصحيح عن ابن عمر موقوف قوله، وابن ماجة: كتاب: الصيام، باب: من مات وعليه صيام رمضان قد فرط فيه، [١٧٥٧]، وضعفه الألباني في «ضعيف ابن ماجة»: [٣٨٩]، وانظر: «المشكاة»: [٢٠٣٤/ التحقيق الثاني]، «ضعيف الجامع»: [٥٨٥٣].

(٤) رواه أبو داود: كتاب: الصوم، باب فيمن مات وعليه صيام، [٢٤٠١]، موقوفًا على ابن عباس.

[فصل]: في وصول ثواب الحج:

وأما وصول ثواب الحج ففي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما «أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت : إن أمي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت أفأحج عنها ؟ قال : حجي عنها أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟ اقضوا الله فالله أحق بالقضاء»(١) . وقد تقدم حديث بريدة وفيه أن أمي لم تحج قط أفأحج عنها؟ قال : حجي عنها.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن امرأة سنان بن سلمة الجهني سألت رسول الله ﷺ أن أمها ماتت ولم تحج أفيجزئ أن تحج عنها؟ قال : نعم، لو كان على أمها دين فقضته عنها ألم يكن يجزئ عنها؟»(٢) رواه النسائي .

وروي أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة سألت النبي ﷺ عن ابنها مات ولم يحج قال : «حجي عن ابنك»(٣).

وروي أيضاً عنه قال : قال رجل يا نبي الله إن أبي مات ولم يحج أفأحج عنه؟ قال : «أرأيت لو كان على أبيك دين أكنت قاضيه ؟ قال : نعم ، قال : فدين الله أحق»(٤). وأجمع المسلمون على أن قضاء الدين يسقطه من ذمته ولو كان من أجنبي أو من غير تركته . وقد دل عليه حديث أبي قتادة حيث ضمن الدينارين عن الميت فلما قضاهما قال له النبي ﷺ : الآن بردت عليه جلدته(٥).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) [صحيح]: رواه النسائي : كتاب: مناسك الحج، باب: الحج عن الميت الذي لم يحج، (٥/١١٦)، وصححه الألباني في «صحيح النسائي» : [٢٤٧٠].

(٣) ما وجدته في النسائي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- لفظه : أن امرأة سألت النبي ﷺ عن أبيها مات، ولم يحج ؟ قال: «حجي عن أبيك»[حديث صحيح] رواه النسائي : كتاب: مناسك الحج ، باب: الحج عن الميت الذي لم يحج، (٥/١١٦ : ١١٧)، وصححه الألباني في «صحيح النسائي» : [٢٤٧١].

(٤) [ضعيف]: رواه النسائي: كتاب: مناسك الحج، باب: تشبيه قضاء الحج بقضاء الدين، (٥/١١٨)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن النسائي» ، [١٦٥]، إلا أن معنى الحديث صحيح؛ لما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة وقد سبق ورود ذكر الكثير منها.

(٥) رواه أحمد : (٣/ ٣٣٠)، (٥/٢٩٧، ٣٠٤، ٣١١)، والحاكم في مستدركه: (٢/٥٨)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي في «التلخيص» : صحيح.

وأجمعوا على أن الحي إذا كان له في ذمة الميت حق من الحقوق فأحله منه أنه ينفعه ويبرأ منه كما يسقط من ذمة الحي . فإذا سقط من ذمة الحي بالنص والإجماع مع إمكان أدائه له بنفسه ولو لم يرض به بل رده فسقوطه من ذمة الميت بالإبراء حيث لا يتمكن من أدائه أولى وأحرى، وإذا انتفع بالإبراء والإسقاط وكذلك ينتفع بالهبة والإهداء . ولا فرق بينهما فإن ثواب العمل حق المهدي الواهب فإذا جعله للميت انتقل إليه ، كما أن ما على الميت من الحقوق من الدين وغيره هو محض حق الحي ، فإذا أبرأه وصل الإبراء إليه وسقط من ذمته ، فكلاهما حق للحي فأي نص أو قياس أو قاعدة من قواعد الشرع يوجب وصول أحدهما ويمنع وصول الآخر؟! .

هذه النصوص متظاهرة على وصول ثواب الأعمال إلى الميت إذا فعلها الحي عنه، وهذا محض القياس ، فإن الثواب حق للعامل فإذا وهبه لأخيه المسلم لم يمنع من ذلك كما لم يمنع من هبة ماله في حياته وإبرائه له من بعد موته . وقد نبه النبي ﷺ بوصول ثواب الصوم الذي هو مجرد ترك ونية تقوم بالقلب لا يطلع عليه إلا الله وليس بعمل الجوارح وعلى وصول ثواب القراءة التي هي عمل باللسان تسمعه الأذن وتراه العين بطريق الأولى .ويوضحه أن الصوم نية محضة وكف النفس عن المفطرات وقد أوصل الله ثوابه إلى الميت ، فكيف بالقراءة التي هي عمل ونية بل لا تفتقر إلى النية؟! فوصول ثواب الصوم إلى الميت فيه تنبيه على وصول سائر الأعمال .

والعبادات قسمان : مالية، وبدنية. وقد نبه الشارع بوصول ثواب الصدقة على وصول ثواب سائر العبادات المالية ، ونبه بوصول ثواب الصوم على وصول ثواب سائر العبادات البدنية، وأخبر بوصول ثواب الحج المركب من المالية والبدنية ، فالأنواع الثلاثة ثابتة بالنص والاعتبار، وبالله التوفيق[١] .

---

(١) هناك البعض خصص نفع الميت بما يعود عليه من ابنه إذ هو من كسبه وسعيه، مع أن النصوص لم تقيد ذلك بهذا التقييد التعسفي، لا سيما وفي بعض الأحاديث السابقة أن هناك من النساء من أيدها النبي ﷺ في الصيام عن أختها، والبعض بأن هناك من الأصحاب من ضمن الدين عن صاحبه فأقر النبي ﷺ ذلك ، وصلى عليه لما علم بضمان الرجل لدين صاحبه. وأما وجه الجمع بين ما صح من الأحاديث من وصول الثواب للميت بعد الوفاة، وقوله تعالى: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ (النجم / ٣٩) فذلك بأن نحمل الآية في حق من ترك الشيء عمدًا وقصدًا وعنادًا واستكبارًا، أو في حق من مات على غير الإسلام. أو أن الله عز وجل لن يضيف ثواب رجل لآخر بغير هبة منه له.=

دليل المانعين من وصول ثواب العبادات إلى الأموات:

قال المانعون من الوصول: قال الله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾(١) وقال: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٢) وقال: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾(٣). وقد ثبت "عن النبي ﷺ أنه قال: إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية عليه، أو ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به من بعده»(٤). فأخبر أنه إنما ينتفع بما كان تسبب إليه في الحياة وما لم يكن قد تسبب إليه فهو منقطع عنه. وأيضاً فحديث أبي هريرة رضي الله عنه المتقدم وهو قوله: إن مما يلحق الميت من عمله وحسناته بعد موته علماً نشره»(٥)... الحديث، يدل على أنه إنما ينتفع بما كان قد تسبب فيه.

ذكر سبع يجري على الميت أجرهن في قبره:

وكذلك حديث أنس يرفعه: "سبع يجري على العبد أجرهن وهو في قبره بعد موته: من علم علماً، أو أكرى نهراً أو حفر بئراً، أو غرس نخلاً أو بنى مسجداً، أو ورث مصحفاً، أو ترك ولداً يستغفر له بعد موته»(٦). وهذا يدل على أن ما عدا ذلك لا يحصل له منه ثواب وإلا لم يكن للحصر معنى.

قالوا والإهداء حوالة، والحوالة إنما تكون بحق لازم، والأعمال لا توجب الثواب وإنما هو مجرد تفضل الله وإحسانه، فكيف يحيل العبد على مجرد الفضل

= أو أن الله عز وجل لن يؤاخذ رجلاً بما لم يسع ولم يكتسب والله تعالى أعلى وأعلم.

ولكن الرجل إذا مات على التوحيد ثم أهدى له من شاء من المسلمين ثوابًا، فإن السنة الصحيحة تجزم بوصول هذا الثواب إليه، وإلا ما كان أمرنا النبي ﷺ بالدعاء للميت، وقال: «أخلصوا له الدعاء» فلو لم ينتفع بذلك لكان عبثًا من النبي ﷺ، حاشاه ذلك. والمولى -عز وجل- يشفع من يصلون على الميت فيه، فينتفع الميت بصلاة من يصلي عليه، لا سيما إذا كان المصلي على الميت هو النبي ﷺ فإن صلاته على الميت رحمة له ونور يضيء به الله قبره مع أنها ليست من كسبه ولا سعيه، ولكن انتفع به بعد موته لموته على التوحيد، وصدق محبته لله عز وجل ولرسوله ﷺ. والله تعالى أعلى وأعلم.

(١) (النجم/ ٣٩). (٢) (يس/ ٥٤).

(٣) (البقرة / ٢٨٦). (٤) سبق تخريجه.

(٥) سبق تخريجه. (٦) سبق تخريجه.

الذي لا يجب على الله ؟ بل إن شاء آتاه وإن لم يشأ لم يؤته وهو نظير حوالة الفقير على من يرجو أن يتصدق عليه ، ومثل هذا لا يصح إهداؤه وهبته كصلة ترجى من ملك لا لتحقق حصولها .

قالوا : وأيضاً فالإيثار بأسباب الثواب مكروه وهو الإيثار بالقرب فكيف الإيثار بنفس الثواب الذي هو غاية ، فإذا كره الإيثار بالوسيلة فالغاية أولى وأحرى

وكذلك كره الإمام أحمد التأخر عن الصف الأول وإيثار الغير به لما فيه من الرغبة عن سبب الثواب ، قال أحمد في رواية حنبل وقد سئل عن الرجل يتأخر عن الصف الأول ويقدم أباه في موضعه قال : ما يعجبني هو يقدر أن يبر أباه بغير هذا .

قالوا أيضاً : لو ساغ الإهداء إلى الميت لساغ نقل الثواب والإهداء إلى الحي .

وأيضاً : لو ساغ ذلك لساغ لهذا نصف الثواب وربعه وقيراط منه .

وأيضاً : لو ساغ ذلك لساغ إهداؤه بعد أن يعمله لنفسه وقد قلتم إنه لا بد أن ينوي حال الفعل إهداءه إلى الميت وإلا لم يصل إليه، فإذا ساغ له نقل الثواب ، فأي فرق بين أن ينوي قبل الفعل أو بعده ؟

وأيضاً : لو ساغ الإهداء لساغ إهداء ثواب الواجبات على الحي كما يسوغ إهداء ثواب التطوعات التي يتطوع بها.

قالوا : وإن التكاليف امتحان وابتلاء لا تقبل البدل، فإن المقصود منها عين المكلف العامل المأمور المنهي، فلا يبدل المكلف الممتحن بغيره ولا ينوب غيره عنه في ذلك : إذ المقصود طاعته هو نفسه وعبوديته ولو كان ينتفع بإهداء غيره له من غير عمل منه لكان أكرم الأكرمين أولى بذلك ، وقد حكم سبحانه أنه لا ينتفع إلا بسعيه وهذه سنته تعالى في خلقه وقضاؤه كما هي سنته في أمره وشرعه، فإن المريض لا ينوب عنه غيره في شرب الدواء والجائع والظمآن والعاري لا ينوب عنه غيره في الأكل والشرب واللباس. قالوا: ولو نفعه عمل غيره لنفعه توبته عنه .

قالوا : ولهذا لا يقبل الله إسلام أحد ولا صلاته عن صلاته فإذا كان رأس العبادات لا يصح إهداء ثوابه فكيف فروعها .

قالوا : وأما الدعاء فهو سؤال ورغبة إلى الله أن يتفضل على الميت ويسامحه ويعفو عنه وهذا إهداء ثواب عمل الحي إليه .

دلائل المقتصرين على وصول ثواب العبادات التي تدخلها النيابة:

قال المقـتصرون على وصـول العبادات التي تدخلهـا النيابة كالصـدقة والحج . والعـبادات نوعـان : نوع لا تدخله النيـابة بحال كـالإسلام والصـلاة وقراءة القـرآن والصيام ، فهذا النوع يختص ثوابه بفاعله لا يتعداه ولا ينقل عنه كما أنه في الحياة لا يفعله أحد عن أحد ولا ينوب فيه عن فاعله غيره .

ونوع تدخله النيابة كرد الودائع وأداء الديون وإخراج الصـدقة والحج فهذا يصل ثوابه إلى الميت لأنه يقبل النيابة ويفـعله العبد عن غيره في حياته فـبعد موته بالطريق الأولى والأحرى .

وجوه الجواب:

قالوا : وأما حـديث: «من مات وعليه صيـام صام عنه وليه»[(١)] ، فجوابه من وجوه .

(أحدها) ما قاله مـالك في موطئه قال : «لا يصـوم أحد عن أحد»[(٢)] . قال وهو أمر مجمع عليه عندنا لا خلاف فيه .

(والثاني) أن ابن عبـاس رضي الله عنهـما هو الذي روى حديث الـصوم عن الميت وقد روى عنه النسائي (أخبرنا) محـمد بن عبد الأعلى، حدثنا يزيد بن زريع ، حدثنا حـجاج الأحول ، حدثنا أيوب بن مـوسى، عن عطاء بن أبي رباح ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «لا يصلي أحد عن أحد»[(٣)].

(الثالث) أنه حديث اخـتلف في إسناده ، هكذا قال صاحب المفـهم في شرح مسلم .

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه مالك في موطأه : كـتاب: الصوم، باب: النذر في الصيـام، والصيام عن الميت، [٤٣]، وهو أثر موقوف على ابن عمر -رضي الله عنهما- ، ولم أجد فيه لفظ : وهو أمر مجمع عليه عندنا لا خلاف فيه.

(٣) رواه النسائي فـي «السنن الكبرى» : كتـاب: الصوم، باب: صـوم الحي عن الميت، وذكر اخـتلاف الناقلين للخـبر فـيه ، [٢٩١٨/ ٧] ، (٢/ ١٧٥)، وهو أثر موقـوف على ابن عبـاس -رضي الله عنهما-.

(الرابع) أنه معارض بنص القرآن كما تقدم من قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾(١).

(الخامس) أنه معارض بما رواه النسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يصلي أحد عن أحد، ولا يصوم أحد عن أحد، ولكن يطعم عنه مكان كل يوم مداً من حنطة»(٢).

(السادس) أنه معارض بحديث محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «من مات وعليه صوم رمضان يطعم عنه»(٣).

(السابع) أنه معارض بالقياس الجلي على الصلاة والإسلام والتوبة فإن أحداً لا يفعلها عن أحد. قال الشافعي فيما تكلم به على خبر ابن عباس لم يسم ابن عباس ما كان نذر أم سعد، فاحتمل أن يكون نذر حج أو عمرة أو صدقة فأمره بقضائه عنها، فأما من نذر صلاة أو صياماً ثم مات فإنه يكفر عنه في الصوم ولا يصام عنه ولا يصلى عنه ولا يكفر عنه في الصلاة.

ثم قال: فإن قيل أفروي عن رسول الله ﷺ أمر أحد أن يصوم عن أحد؟ قيل نعم، روى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ. فإن قيل فلم لا تأخذ به؟ قيل حديث الزهري عن عبيد الله عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ نذراً ولم يسمه مع حفظ الزهري وطول مجالسة عبيدالله لابن عباس فلما جاء غيره عن رجل عن ابن عباس يعني ما في حديث عبيد الله أشبه أن لا يكون محفوظاً. فإن قيل فتعرف الرجل الذي جاء بهذا الحديث يغلط عن ابن عباس؟ قيل نعم روى

(١) (النجم/ ٣٩).

(٢) سبق ذكر أن هذا أثر موقوف على ابن عباس -رضي الله عنهما- ، وليس مرفوعًا إلى النبي ﷺ

(٣) [ضعيف]: لأمور، منها: وجود محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وهو ضعيف. قال عنه الإمام أحمد: كان سيء الحفظ مضطرب الحديث، وقال: كان فقه أبي ليلى أحب إلينا من حديثه، في حديثه اضطراب. وقال عنه يحيى بن معين: ليس بذاك، وعن شعبة أنه قال: ما رأيت أحدًا أسوأ حفظًا من أبي ليلى. وقال أبو حاتم: محله الصدق، كان سيء الحفظ، شغل بالقضاء فساء حفظه، لا يتهم بشيء من الكذب، إنما ينكر عليه كثرة الخطأ، يكتب حديثه، ولا يحتج به، وقال ابن حجر: صدوق، سيء الحفظ جداً. والخلاصة: هو ضعيف من قبل حفظه وتخليطه لا من قبل دينه وورعه وأمانته، وفي ذلك قد أثنى عليه الجميع.

أصحاب ابن عـباس عن ابن عباس أنه قـال لابن الزبير إن الزبير حل من متعة الحج فروى هذا عن ابن عباس أنها متعـة النساء وهذا غلط فاحش . فهذا الجواب عن فعل الصوم . وأما فعل الحج فإنما يصل منه ثواب الإنفاق وأما أفعال المناسك فهي كأفعال الصلاة إنما تقع عن فاعلها .

قال أصحـاب الوصول ليس في شئ مما ذكرتم ما يعـارض أدلة الكتاب والسنة واتفاق سلف الأمـة ومقتضى قواعـد الشرع ونحن نجيب عن كل ما ذكـرتموه بالعدل والإنصاف .

أما قوله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ﴾[1] فقد اختلفت طرق الناس في المراد بالآية . فقـالت طائفة : المراد بالإنسـان ها هنا الكافر، وأمـا المؤمن فله ما سعى ومـا سعي له بالأدلة التي ذكرناها . قـالوا : وغاية ما في هذا التخـصيص وهو جائز إذا دل عليه الدليل .

وهذا الجواب ضـعيف جـداً، ومثل هذا العـام لا يراد به الكافر وحـده بل هو للمـسلم والكافـر، وهو كـالعام الذي قـبله وهو قـوله تعـالى: ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[2] .

والسياق كله من أوله إلى آخره كالصريح في إرادة العموم لقوله تعالى : ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ﴾[3] وهذا يعم الشر والخير قطعاً ويتناول البر والفاجر والمؤمن والكافر كقوله تعالى : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[4] وكقـوله له في الحديث الإلهي : «يا عـبادي إنما هي أعمالكم أحصيـها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحـمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفـسه» وهو كقـوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾[5] ولا تغتر بقـول كثير من المفسـرين في لفظ الإنسان في القرآن ، الإنسان هاهنا : أبو جهل ، والإنسان هاهنا : عقـبة ابن أبي معيط ، والإنسان هاهنا الوليد بن المغيـرة، فالقرآن أجل من ذلك، بل الإنسان هو الإنسـان من حيث هو من

---

(١) (النجم / ٣٩) .
(٢) (النجم / ٣٨).
(٣) النجم / ٤٠).
(٤) (الزلزلة/ ٧ : ٨).
(٥) (الانشقاق/ ٦).

غير اختصاص بواحد بعينه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ (١) و﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ (٢) و ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً﴾ (٣) و﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ (٤) و﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (٥) و﴿وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ (٦).

فهذا شأن الإنسان من حيث ذاته ونفسه وخروجه عن هذه الصفات بفضل ربه وتوفيقه له ومنته عليه لا من ذاته ؛ فليس لـه من ذاته إلا هذه الصفات وما به من نعمة فمن الله وحده فهو الذي حبب إلى عبده الإيمان وزينه في قلبه وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، وهو الذي كتب في قلبه الإيمان. وهو الذي يثبت أنبياءه ورسله وأولياءه على دينه، وهو الذي يصرف عنهم السوء والفحشاء. وكان يرتجز بين يدي النبي ﷺ :

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

وقد قال تعالى: ﴿وما كَانَ لِنفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (٧) قال تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (٨)، ﴿وما تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٩) فهو رب جميع العالم ربوبية شاملة لجميع ما في العالم من ذوات وأفعال وأحوال .

وقالت طائفة : الآية إخبار بشرع من قبلنا، وقد دل شرعنا على أنه له ما سعى وما سعي له . وهذا أيضاً أضعف من الأول أو من جنسه فإن الله سبحانه أخبر بذلك إخبار مقرر له محتج به لا إخبار مبطل له ولهذا قال : ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ (١٠)؟ فلو كان هذا باطلاً في هذه الشريعة لم يخبر به إخبار مقرر له محتج به. وقالت طائفة : اللام بمعنى على، أي وليس على الإنسان إلا ما سعى .

وهذا أبطل من القولين الأولين فإنه قلب موضوع الكلام إلى ضد معناه المفهوم منه ولا يسوغ مثل هذا ولا تحتمله اللغة. وأما نحو ﴿ولهم اللعنة﴾ فهي على بابها أي

(١) (العصر/ ٢).
(٢) (العاديات/ ٦).
(٣) (المعارج / ١٩).
(٤) (العلق/ ٦ : ٧).
(٥) (إبراهيم / ٣٤).
(٦) (الأحزاب / ٧٢).
(٧) (يونس/ ١٠٠).
(٨) (المدثر/ ٥٦).
(٩) (التكوير / ٢٩).
(١٠) (النجم/ ٣٦).

نصيبهم وحظهم، وأما أن العرب تعرف في لغاتها لي درهم بمعنى علي درهم فكلا.

وقالت طائفة : في الكلام حذف تقديره ﴿ وأن لَّيس للإنسانِ إلاَّ ما سعَىٰ﴾ أو سعي له، وهذا أيضاً من النمط الأول فإنه حذف ما لا يدل السياق عليه بوجه وقول على الله وكتابه بلا علم .

(وقالت) طائفة أخرى: الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[(١)] وهذا منقول عن ابن عباس رضي الله عنهما وهذا ضعيف أيضاً، ولا يرفع حكم الآية بمجرد قول ابن عباس رضي الله عنهما ولا غيره إنها منسوخة، والجمع بين الآيتين غير متعذر ولا ممتنع فإن الأبناء تبعوا الآباء في الآخرة كما كانوا تبعا لهم في الدنيا وهذه التبعية هي من كرامة الآباء وثوابهم الذي نالوه بسعيهم، وأما كون الأبناء لحقوا بهم في الدرجة بلا سعي منهم فهذا ليس هو لهم وإنما هو للآباء أقر الله أعينهم بإلحاق ذريتهم بهم في الجنة وتفضل على الأبناء بشيء لم يكن لهم كما تفضل بذلك على الولدان والحور العين ، والخلق الذين ينشئهم للجنة بغير أعمال .

والقوم الذين يدخلهم الجنة بلا خير قدموه ولا عمل عملوه، فقوله تعالى: ﴿ألاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[(٢)] وقوله : ﴿ وأَن لَّيْسَ للإنسانِ إلاَّ ما سعَىٰ﴾[(٣)] آيتان محكمتان يقتضيهما عدل الرب تعالى وحكمه وكماله المقدس، والعقل والفطرة شاهدان بهما فالأولى تقتضي أنه لا يعاقب بجرم غيره والثانية تقتضي أنه لا يفلح إلا بعمله وسعيه ، فالأولى تؤمن العبد من أخذه بجريرة غيره كما يفعله ملوك الدنيا، والثانية تقطع طمعه من نجاته بعمل آبائه وسلفه ومشايخه كما عليه أصحاب الطمع الكاذب، فتأمل حسن اجتماع هاتين الآيتين .

ونظيره قوله تعالى : ﴿من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ - ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[(٤)] فحكم سبحانه لأعدائه بأربعة أحكام هي غاية العدل والحكمة .

(أحدها) أن هدى العبد بالإيمان والعمل الصالح لنفسه لا لغيره .

(الثاني) أن ضلاله بفوات ذلك وتخلفه عنه على نفسه لا على غيره .

---

(١) (الطور / ٢١). (٢) (النجم / ٣٨).
(٣) (النجم / ٣٩). (٤) (الإسراء/ ١٥).

(الثالث) أن أحداً لا يؤخذ بجريرة غيره .

و(الرابع) أنه لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه . برسله ، فتأمل ما في ضمن هذه الأحكام الأربعة من حكمته تعالى وعدله وفضله، والرد على أهل الغرور والأطماع الكاذبة وعلى أهل الجهل بالله وأسمائه وصفاته .

وقالت طائفة أخرى: المراد بالإنسان ها هنا الحي دون الميت ، وهذا أيضاً من النمط الأول في الفساد.

وهذا كله من سوء التصرف في اللفظ العام وصاحب هذا التصرف لا ينفذ تصرفه في دلالات الألفاظ وحملها على خلاف موضوعها وما يتبادر إلى الذهن منها، وهو تصرف فاسد قطعاً يبطله السياق والاعتبار وقواعد الشرع وأدلته وعرفه، وسبب هذا التصرف السيئ أن صاحبه يعتقد قولاً ثم يرد كلما دل على خلافه بأي طريق اتفقت له ، فالأدلة المخالفة لما اعتقده عنده من باب الصائل لا يبالي بأي شئ دفعه وأدلة الحق لا تتعارض ولا تتناقض بل يصدق بعضها بعضاً.

(وقالت) طائفة أخرى، وهو جواب أبي الوفاء بن عقيل ، قال : الجواب الجيد عندي أن يقال الإنسان بسعيه وحسن عشرته اكتسب الأصدقاء وأولد الأولاد ونكح الأزواج وأسدى الخير وتودد إلى الناس فترحموا عليه وأهدوا له العبادات وكان ذلك أثر سعيه كما قال ﷺ : «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه»(١). ويدل عليه قوله في الحديث الآخر : «إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث : علم ينتفع به من بعده ، وصدقة جارية عليه أو ولد صالح يدعو له»(٢). ومن هنا قول الشافعي : إذا بذل له ولده طاعة الحج كان ذلك سبباً لوجوب الحج عليه حتى كأنه في ماله زاد وراحلة بخلاف بذل الأجنبي .

وهذا جواب متوسط يحتاج إلى تمام فإن العبد بإيمانه وطاعته لله ورسوله قد

(١) [صحيح]: رواه أحمد في مواضع ، منها : (٦/٣١، ١٢٧ ، ١٩٣)، وأبو داود : كتاب: البيوع، باب: في الرجل يأكل من مال ولده، [٣٥٢٨]، والترمذي : كتاب: الأحكام، باب: ما جاء أن الوالد يأخذ من مال ولده، [١٣٥٨]، والنسائي : كتاب: البيوع، باب: الحث على الكسب، (٧/ ٢٤٠ : ٢٤١)، وابن ماجة : كتاب التجارات ، باب: ما للرجل من مال ولده، [٢٢٩٠]، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجة» : [١٨٥٤]، وانظر : «الإرواء» [١٦٢٦].

(٢) سبق تخريجه.

سعى في انتـفاعه بعـمل إخوانه المؤمنين مع عـمله كما ينتـفع بعملهم في الحـياة مع عمله، فإن المؤمنين ينتفع بعضهم بعمل بعض في الأعمال التي يشتركون فيها كالصلاة في جماعـة فإن كل واحد منهم تضاعف صـلاته إلى سبعة وعـشرين ضعفـاً لمشاركة غيره له في الصـلاة ، فعمل غيره كان سـبباً لزيادة أجره، كمـا أن عمله سبب لزيادة أجر الآخر، بل قد قيل : إن الصلاة يضاعف ثوابـها بعدد المصلين وكذلك اشتراكهم في الجهاد والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعاون على البر والتقوى ، وقد قال النبي ﷺ : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً وشبك بين أصابعه»(١) .

ومعلوم أن هذا بأمـور الدين أولى منه بأمور الدنيـا، فدخول المسـلم مع جملة المسلمين في عـقد الإسلام من أعظم الأسـباب في وصـول نفع كل من المسلمين إلى صاحبه في حياته وبعد مماته ودعوة المسلمين تحيط من ورائهم . وقد أخبر الله سبحانه عن حملة العرش ومن حوله أنهم يستغفرون للمؤمنين ويدعون لهم. وأخبر عن دعاء رسله واستغفارهم للمؤمنين كنوح وإبراهيم ومحمد ﷺ، فالعبد بإيمانه قد تسبب إلى وصول هذا الدعاء إليه فكأنه من سـعيه ، يوضحه أن الله سبحانه جـعل الإيمان سبباً لانتفاع صاحبـه بدعاء إخوانه من المؤمنين وسعيهم، فإذا أتى به فـقد سعى في السبب الذي يوصل إليه، وقد دل على ذلك قول الـنبي ﷺ لعمرو بن العاص: «إن أباك لو كان أقر بالتوحيد نفعه ذلك»(٢)، يعني العتق الذي فعل عنه بعد موته فلو أتى بالسبب لكان قد سعى في عمل يوصل إليه ثواب العتق. وهذه طريقة لطيفة حسنة جداً.

وقالت طائفة أخرى: القرآن لم ينف انتفاع الرجل بسعي غيره ، وإنما نفى ملكه لغير سعيه، وبين الأمرين من الفرق ما لا يخفى ، فأخبر تعالى أنه لا يملك إلا سعيه وأما سعي غيره فهو ملك لساعيه، فإن شاء أن يبذله لغيره، وإن شاء أن يبقيه لنفسه، وهو سبحانه لم يقل لا ينتفع إلا بما سعى وكان شيخنا يختار هذه الطريقة ويرجحها.

---

(١) [صحيح]: رواه أحمد في مـواضع، منها : (٤/ ٤٠٥)، والبخاري : كتـاب : المظالم ، باب: نصر المظلوم ، [٢٤٤٦] ، ومـسلم : كتـاب : البر والصلـة والآداب، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفـهم وتعاضدهم، [٢٥٨٥]، والـترمذي : كتاب : البـر والصلة ، باب: ما جاء في شفـقة المسلم على المسل، [١٩٢٨]، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صـحيح، والنسائي : كتاب: الزكاة ، باب: أجر الخازن إذا تصدق بإذن مولاه، (٥/ ٧٩ : ٨٠).

(٢) سبق تخريجه.

[فصل] : في نفي عقوبة العبد بعمل غيره:

وكذلك قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[(١)] وقوله: ﴿وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(٢)] على أن هذه الآية أصرح في الدلالة على أن سياقها إنما ينفي عقوبة العبد بعمل غيره وأخذه بجريرته فإن الله سبحانه قال: ﴿فَالْيَوْمَ لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(٣)] فنفى أن يظلم بأن يزاد عليه في سيئاته، أو ينقص من حسناته، أو يعاقب بعمل غيره، ولم ينف أن ينتفع بعمل غيره لا على وجه الجزاء، فإن انتفاعه بما يهدى إليه ليس جزاء على عمله وإنما هو صدقة لصدق الله بها عليه وتفضل بها عليه من غير سعي منه، بل وهبه ذلك على يد بعض عباده لا على وجه الجزاء.

[فصل] : في أن الاستدلال بحديث : «إذا مات العبد...» ساقط إلخ:

وأما استدلالكم بقوله ﷺ : إذا مات العبد انقطع عمله ، فاستدلال ساقط فإنه ﷺ لم يقل: انقطع انتفاعه ، وإنما أخبر عن انقطاع عمله ، وأما عمل غيره فهو لعامله فإن وهبه له وصل إليه ثواب عمل العامل لا ثواب عمله هو ، فالمنقطع شئ والواصل إليه شئ آخر ، وكذلك الحديث الآخر وهو قوله : إن مما يلحق الميت من حسناته وعمله فلا ينفي أن يلحقه غير ذلك من عمل غيره وحسناته .

[فصل] : جواب قولهم: الإهداء حوالة. إلخ:

وأما قولكم : الإهداء حوالة، والحوالة إنما تكون بحق لازم، فهذه حوالة المخلوق على المخلوق . وأما حوالة المخلوق على الخالق فأمر آخر لا يصح قياسها على حوالة العبيد بعضهم على بعض، وهل هذا إلا من أبطل القياس وأفسده ؟! والذي يبطله إجماع الأمة على انتفاعه بأداء دينه، وما عليه من الحقوق، وإبراء المستحق لذمته، والصدقة والحج عنه بالنص الذي لا سبيل إلى رده ودفعه، وكذلك الصوم، وهذه الأقيسة الفاسدة لا تعارض نصوص الشرع وقواعده .

[فصل]: في جواب قولهم الإيثار بسبب الثواب مكروه:

وأما قولكم : الإيثار بسبب الثواب مكروه وهو مسألة الإيثار بالقرب فكيف

(١) (البقرة/ ٢٨٦). (٢) (يس / ٥٤).
(٣) (يس / ٥٤).

الإيثار بنفس الثواب الذي هو الغاية ؟ فقد أجيب عنه بأجوبة :

(الجواب الأول) : أن حال الحياة حال لا يوثق فيها بسلامة العاقبة لجواز أن يرتد الحي فيكون قد آثر بالقربة غير أهلها وهذا قد أمن بالموت . فإن قيل : والمهدي إليه أيضاً قد لا يكون مات على الإسلام باطناً فلا ينتفع بما يهدى إليه : وهذا سؤال في غاية البطلان ، فإن الإهداء له من جنس الصلاة عليه والاستغفار له والدعاء له فإن كان أهلاً وإلا انتفع به الداعي وحده .

(الجواب الثاني): أن الإيثار بالقرب يدل على قلة الرغبة فيها والتأخر عن فعلها، فلو ساغ الإيثار بها لأفضى إلى التقاعد والتكاسل والتأخر، بخلاف إهداء ثوابها فإن العامل يحرص عليها لأجل ثوابها لينتفع به أو ينفع به أخاه المسلم فبينهما فرق ظاهر.

(الجواب الثالث): أن الله سبحانه وتعالى يحب المبادرة أو المسارعة إلى خدمته والتنافس فيها، فإن ذلك أبلغ في العبودية فإن الملوك تحب المسارعة والمنافسة في طاعتها وخدمتها، فالإيثار بذلك مناف لمقصود العبودية فإن الله سبحانه أمر عبده بهذه القربة إما إيجاباً وإما استحباباً، فإذا آثر بها ترك ما أمره وولاه غيره بخلاف ما إذا فعل ما أمر به طاعة وقربة ثم أرسل ثوابه إلى أخيه المسلم وقد قال تعالى : ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[1] وقال: ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[2] ومعلوم أن الإيثار بها ينافي الاستباق إليها والمسارعة .

وقد كان الصحابة يسابق بعضهم بعضاً بالقرب ولا يؤثر الرجل منهم غيره بها، قال عمر: والله ما سابقني أبو بكر إلى خير إلا سبقني إليه -حتى قال : والله لا أسابقك إلى خير أبداً .

وقد قال تعالى : ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾[3] يقال : نافست في الشيء منافسة ونفاساً إذا رغبت فيه على وجه المباراة، ومن هذا قولهم شئ نفيس ، أي هو أهل أن يتنافس فيه ويرغب فيه ، وهذا أنفس مالي ، أي أحبه إلي . وأنفسني فلان في كذا أي أرغبني فيه ، وهذا كله ضد الإيثار به والرغبة عنه .

---

(١) (الحديد / ٢١). (٢) (البقرة / ١٤٨).

(٣) (المطففين / ٢٦).

[فصل] : في جواب قولهم: لو ساغ الإهداء إلى الميت لساغ إلى الحي:

وأما قولكم : لو ساغ الإهداء إلى الميت لساغ إلى الحي فجوابه من وجهين :

(أحدهما) أنه قد ذهب إلى ذلك بعض الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم ، قال القاضي : وكلام أحمد لا يقتضي التخصيص بالميت فإنه قال : يفعل الخير ويجعل نصفه لأبيه وأمه ولم يفرق . واعترض عليه أبو الوفاء بن عقيل وقال : هذا فيما بعد ، وهو تلاعب بالشرع، وتصرف في أمانة الله، وإسجال على الله سبحانه بثواب على عمل يفعله إلى غيره، وبعد الموت قد جعل لنا طريقاً إلى إيصال النفع كالاستغفار والصلاة على الميت .

ثم أورد على نفسه سؤالاً وهو فإن قيل : أليس قضاء الدين وتحمل الكل حال الحياة كقضائه بعد الموت فقد استوى ضمان الحياة وضمان الموت في أنهما يزيلان المطالبة عنه ، فإذا وصل قضاء الديون بعد الموت وحال الحياة فاجعلوا ثواب الإهداء واصلاً حال الحياة وبعد الموت . وأجاب عنه: بأنه لو صح هذا وجب أن تكون الذنوب تكفر عن الحي بتوبة غيره عنه ويندفع عنه مآثم الآخرة بعمل غيره واستغفاره.

قلت : وهذا لا يلزم بل طرد ذلك انتفاع الحي بدعاء غيره له واستغفاره له وتصدقه عنه وقضاء ديونه ، وهذا حق وقد أذن النبي ﷺ في أداء فريضة الحج عن الحي المعضوب والعاجز وهما حيان .

وقد أجاب غيره من الأصحاب بأن حال الحياة لا تثق بسلامة العاقبة خوفاً أن يرتد المهدي له فلا ينتفع بما يهدى إليه . قال ابن عقيل :وهذا عذر باطل بإهداء الحي فإنه لا يؤمن أن يرتد ويموت فيحبط عمله ومن جملته ثواب ما أهدي إلى الميت.

قلت : هذا لا يلزمهم وموارد النص والإجماع تبطله وترده، فإن النبي ﷺ أذن في الحج والصوم عن الميت، وأجمع الناس على براءة ذمته من الدين إذا قضاه عنه الحي مع وجود ما ذكر من الاحتمال .

والجواب أن يقال : ما أهداه من أعمال البر إلى الميت فقد صار ملكاً له فلا يبطل بردة فاعله بعد خروجه عن ملكه كتصرفاته التي تصرفها قبل الردة من عتق وكفارة، بل لو حج عن معضوب ثم ارتد بعد ذلك لم يلزم المعضوب أن يقيم غيره يحج عنه فإنه لا يؤمن في الثاني والثالث ذلك.

على أن الفرق بين الحي والميت أن الحي ليس بمحتاج كحاجة الميت إذ يمكنه أن يباشر ذلك العمل أو نظيره، فعليه اكتساب الثواب بنفسه وسعيه بخلاف الميت.

وأيضاً فإنه يفضي إلى اتكال بعض الأحياء على بعض وهذه مفسدة كبيرة فإن أرباب الأموال إذا فهموا ذلك واستشعروه واستأجروا من يفعل ذلك عنهم فتصير الطاعات معاوضات وذلك يقضي إلى إسقاط العبادات والنوافل ويصير ما يتقرب به إلى الله يتقرب به إلى الآدميين فيخرج عن الإخلاص فلا يحصل الثواب لأحد منهما.

ونحن نمنع من أخذ الأجرة على كل قربة ونحبطها بأخذ الأجر عليها كالقضاء والفتيا وتعليم العلم والصلاة وقراءة القرآن وغيرها فلا يثيب الله عليها إلا لمخلص أخلص العمل لوجهه فإذا فعله للأجرة لم يثب عليه الفاعل ولا المستأجر، فلا يليق بمحاسن الشرع أن يجعل العبادات الخالصة له معاملات تقصد بها المعاوضات والإكساب الدنيوية. وفارق قضاء الديون وضمانها فإنها حقوق الآدميين ينوب بعضهم فيها عن بعض فلذلك جازت في الحياة وبعد الموت.

[فصل]: وأما قولكم: لو ساغ ذلك لساغ إهداء نصف الثواب وربعه إلي الميت فالجواب من وجهين:

(أحدهما) منع الملازمة فإنكم لم تذكروا عليها دليلاً إلا مجرد الدعوى.

(الثاني) التزام ذلك والقول به نص عليه الإمام أحمد في رواية محمد بن يحيى الكحال، ووجه هذا أن الثواب ملك له فله أن يهديه جميعه وله أن يهدي بعضه. ويوضحه أنه لو أهداه إلى أربعة مثلاً يحصل لكل منهم ربعه فإذا أهدى الربع وأبقى لنفسه الباقي جاز كما لو أهداه إلى غيره.

[فصل]: في جواب قولهم: لو ساغ ذلك لساغ إهداؤه بعد أن يعمله لنفسه:

وأما قولكم: لو ساغ إهداؤه بعد أن يعمله لنفسه وقد قلتم إنه لا بد أن ينوي حال الفعل إهداءه إلي الميت وإلا لم يصل.

فالجواب: أن هذه المسألة غير منصوصة عن أحمد ولا هذا الشرط في كلام المتقدمين من أصحابه وإنما ذكره المتأخرون كالقاضي وأتباعه.

قال ابن عقيل : إذا فعل طاعة من صلاة وصيام وقراءة قرآن وأهداها بأن جعل ثوابها للميت المسلم فإنه يصل إليه ذلك وينفعه بشرط أن يتقدم نية الهدية على الطاعة أو تقارنها.

(وقال) أبو عبد الله بن حمدان في رعايته : ومن تطوع بقربة من صدقة وصلاة وصيام وحج وعمرة وقراءة وعتق وغير ذلك من عبادة بدنية تدخلها النيابة وعبادة مالية، وجعل جميع ثوابها أو بعضه لميت مسلم حتى النبي ﷺ ، ودعا له أو استغفر له أو قضى ما عليه من حق شرعي أو واجب تدخله النيابة نفعه ذلك ووصل إليه أجره، وقيل: إن نواه حال فعله أو قبله وصل إليه وإلا فلا.

وسر المسألة أن أوان شرط حصول الثواب أن يقع لمن أهدي له أولاً، ويجوز أن يقع للعامل ثم ينتقل عنه إلى غيره، فمن شرط أن ينوي قبل الفعل أو الفراغ منه وصوله قال : لو لم ينوه وقع الثواب للعامل فلا يقبل انتقاله عنه إلى غيره فإن الثواب يترتب على العمل ترتب الأثر على مؤثره . ولهذا لو أعتق عبداً عن نفسه كان ولاءه له فلو نقل ولاءه إلى غيره بعد العتق لم ينتقل بخلاف ما لو أعتقه عن الغير فإن ولاءه للمعتق عنه، وكذلك لو أدى ديناً عن نفسه ثم أراد بعد الأداء أن يجعله عن غيره لم يكن له ذلك، وكذلك لو حج أو صام أو صلى لنفسه ثم بعد ذلك أراد أن يجعل عن غيره لم يملك ذلك ويؤيد هذا أن الذين سألوا النبي ﷺ عن ذلك لم يسألوه عن إهداء ثواب العمل بعده وإنما سألوه عما يفعلونه عن الميت كما قال سعد أينفعها أن أتصدق عنها ؟ ولم يقل أن أهدي لها ثواب ما تصدقت به عن نفسي. وكذلك قول المرأة الأخرى : أفأحج عنها؟ وقول الرجل الآخر : أفأحج عن أبي ؟ فأجابهم بالإذن في الفعل عن الميت لا بإهدائه ثواب ما عملوه لأنفسهم إلى موتاهم ، فهذا لا يعرف أنه ﷺ سئل عنه قط ، ولا يعرف عن أحد من الصحابة أنه فعله وقال: اللهم اجعل لفلان ثواب عملي المتقدم أو ثواب ما عملته لنفسي . فهذا سر الاشتراطات وهو أفقه، ومن لم يشترط ذلك يقول : الثواب للعامل، فإذا تبرع له وأهداه إلى غيره كان بمنزلة ما يهديه إليه من ماله .

[فصل]: في جواب قولهم: لو ساغ الإهداء لساغ إهداء ثواب الواجبات التي تجب على الحي:

وأما قولكم: لو ساغ الإهداء لساغ إهداء ثواب الواجبات التي تجب على الحي،

فالجواب أن هذا الإلزام محال على أصل من شرط في الوصول نية الفعل عن الميت، فإن الواجب لا يصح أن يفعله عن الغير فإن هذا واجب على الفاعل يجب عليه أن ينوي به القربة إلى الله. وأما من لم يشترط نية الفعل عن الغير فهل يسوغ عنده أن يجعل للميت ثواب فرض من فروضه؟ فيه وجهان: قال أبو عبد الله بن حمدان وقيل: إن جعل له ثواب فرض من الصلاة أو صوم أو غيرهما جاز وأجزأ فاعله.

قلت : وقد نقل عن جماعة أنهم جعلوا ثواب أعمالهم من فرض ونفل للمسلمين وقالوا نلقى الله بالفقر والإفلاس المجرد والشريعة لا تمنع من ذلك ، فالأجر ملك العامل فإن شاء أن يجعله لغيره فلا حجر عليه في ذلك . والله أعلم .

[فصل]: في جواب قولهم: إن التكاليف امتحان وابتلاء لا تقبل البذل:

وأما قولكم : إن التكاليف امتحان وابتلاء لا تقبل البدل إذ المقصود منها عين المكلف العامل إلى آخره .

فالجواب عنه أن ذلك لا يمنع إذن الشارع للمسلم أن ينفع أخاه بشيء من عمله، بل هذا من تمام إحسان الرب ورحمته لعباده ومن كمال هذه الشريعة التي شرعها لهم التي مبناها على العدل والإحسان والتعارف ، والرب تعالى أقام ملائكته وحملة عرشه يدعون لعباده المؤمنين ويستغفرون لهم ويسألونه لهم أن يقيهم السيئات، وأمر خاتم رسله أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات ويقيمه يوم القيامة مقاماً محموداً ليشفع في العصاة من أتباعه وأهل سنته، وقد أمره تعالى أن يصلي على أصحابه في حياتهم وبعد مماتهم، وكان يقوم على قبورهم فيدعو لهم ، وقد استقرت الشريعة على أن المأثم الذي على الجميع بترك فروض الكفايات يسقط إذا فعله من يحصل المقصود بفعله ولو واحد، وأسقط سبحانه الارتهان وحرارة الجلود في القبر بضمان الحي دين الميت وأدائه عنه وإن كان ذلك الوجوب امتحاناً في حق المكلف ، وأذن النبي ﷺ في الحج والصيام عن الميت وإن كان الوجوب امتحاناً في حقه، وأسقط عن المأموم سجود السهو بصحة صلاة الإمام وخلوها من السهو وقراءة الفاتحة بتحمل الإمام لها فهو يتحمل عن المأموم سهوه وقراءته وسترته .

قراءة الإمام قراءة لمن خلفه:

فقراءة الإمام وسترته قراءة لمن خلفه وسترة له، وهل الإحسان إلى المكلف

بإهداء الثواب إليه إلا تأس بإحسان الرب تعالى؟ والله يحب المحسنين .

والخلق عيال الله فأحبهم إليه أنفعهم لعياله ، وإذ كان سبحانه يحب من ينفع عياله بشربة ماء ومذقة لبن وكسرة خبز فكيف من ينفعهم في حال ضعفهم وفقرهم وانقطاع أعمالهم وحاجتهم إلى شئ يهدى إليهم أحوج ما كانوا إليه ؟! فأحب الخلق إلى الله من ينفع عياله في هذه الحال. ولهذا جاء أثر عن بعض السلف أنه من قال كل يوم سبعين مرة رب اغفر لي ولوالدي وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات حصل له من الأجر بعدد كل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة، ولا تستبعد هذا فإنه إذا استغفر لإخوانه فقد أحسن إليهم والله لا يضيع أجر المحسنين .

[فصل]: في جواب قولهم: إنه لو نفعه عمل غيره لنفعه توبته عنه وإسلامه عنه:

وأما قولكم : إنه لو نفعه عمل غيره لنفعه توبته عنه وإسلامه عنه . فهذه الشبهة تورد على صورتين .

(صورة تلازم) يدعى فيها اللزوم بين الأمرين ثم يبين انتفاء اللازم فينتفي ملزومه ، وصورتها هكذا لو نفعه عمل الغير عنه لنفعه إسلامه وتوبته عنه لكن لا ينفعه ذلك فلا ينفعه عمل الغير .

(والصورة الثانية) أن يقال : لا ينتفع بإسلام الغير وتوبته عنه فلا ينتفع بصلاته وصيامه وقراءته له . ومعلوم أن هذا التلازم والإقران باطل قطعاً .

(أما أولاً) فلأنه قياس مصادم لما تظاهرت به النصوص واجتمعت عليه الأمة .

(وأما ثانياً) فلأنه جمع بين ما فرق الله بينه ، فإن الله سبحانه فرق بين إسلام المرء عن غيره وبين صدقته وحجه وعتقه عنه ، فالقياس المسوى بينهما من جنس قياس الذين قاسوا الميتة على المذكى والربا على البيع .

(وأما ثالثاً) فإن الله سبحانه جعل الإسلام سبباً لنفع المسلمين بعضهم بعضاً في الحياة وبعد الموت ، فإذا لم يأت بسبب انتفاعه بعمل المسلمين لم يحصل له ذلك النفع كما قال النبي ﷺ لعمرو : «إن أباك لو كان أقر بالتوحيد فصمت أو تصدقت عنه نفعه ذلك»[1] . وهذا كما جعل سبحانه الإسلام سبباً لانتفاع العبد بما عمل من خير ، فإذا فاته هذا السبب لم ينفعه خير عمله ولم يقبل منه ، كما جعل الإخلاص

(١) سبق تخريجه.

والمتابعة سبباً لقبول الأعمال فإذا فقد لم تقبل الأعمال، وكما جعل الوضوء وسائر شروط الصلاة سبباً لصحتها فإذا فقدت فقدت الصحة، وهذا شأن سائر الأسباب مع مسبباتها الشرعية والعقلية والحسية فمن سوى بين حالي وجود السبب وعدمه فهو مبطل .

ونظير هذا الهوس أن يقال : لو قبلت الشفاعة في العصاة لقبلت في المشركين . ولو خرج أهل الكبائر من الموحدين من النار لخرج الكفار منها، وأمثال ذلك من الأقيسة التي هي من نجاسات معد أصحابها ورجيع أفواههم .

وبالجملة فالأولى بأهل العلم الإعراض عن الاشتغال بدفع هذه الهذيانات لولا أنهم قد سودوا بها صحف الأعمال والصحف التي بين الناس .

[فصل] : في جواب قولهم: العبادات نوعان، إلخ:

وأما قولكم العبادات نوعان :

(نوع) تدخله النيابة فيصل ثواب إهدائه إلى الميت .

(ونوع) لا تدخله فلا يصل ثوابه .

فهذا هو نفس المذهب والدعوى، فكيف تحتجون به؟ ومن أين لكم هذا الفرق؟ فأي كتاب أم أي سنة أم أي اعتبار دل عليه حتى يجب المصير إليه ؟

وقد شرع النبي ﷺ الصوم عن الميت مع أن الصوم لا تدخله النيابة، وشرع للأمة أن ينوب بعضهم عن بعض في أداء فرض الكفاية فإذا فعله واحد ناب عن الباقين في فعله وسقط عنهم المأثم ، وشرع لقيم الطفل الذي لا يعقل أن ينوب عنه في الإحرام وأفعال المناسك وحكم له بالأجر بفعل نائبه .

وقد قال أبو حنيفة رحمه الله: يحرم الرفقة عن المغمى عليه فجعلوا إحرام رفقته بمنزلة إحرامه . وجعل الشارع إسلام الأبوين بمنزلة إسلام أطفالهما، وكذلك إسلام السابي والمالك على القول المنصوص ، فقد رأيت كيف عدت هذه الشريعة الكاملة أفعال البر من فاعلها إلى غيرهم ، فكيف يليق بها أن تحجر على العبد أن ينفع والديه ورحمه وإخوانه من المسلمين في أعظم أوقات حاجاتهم بشيء من الخير والبر يفعله ويجعل ثوابه لهم ؟ وكيف يتحجر العبد واسعاً أو يحجر على من لم

يحجر عليه الشارع في ثواب عمله أن يصرف منه ما شاء إلى من شاء من المسلمين ، والذي أوصل ثواب الحج والصدقة والعتق هو بعينه الذي يوصل ثواب الصيام والصلاة والقراءة والاعتكاف ، وهو إسلام المهدي إليه وتبرع المهدي وإحسانه وعدم حجر الشارع عليه في الإحسان بل ندبه إلى الإحسان بكل طريق ، وقد تواطأت رؤيا المؤمنين وتواترت أعظم تواتر على أخبار الأموات لهم بوصول ما يهدونه إليهم من قراءة وصلاة وصدقة وحج وغيره ، ولو ذكرنا ما حكي لنا من أهل عصرنا وما بلغنا عمن قبلنا من ذلك لطال جداً، وقد قال النبي ﷺ: «أرى رؤياكم قد تواطأت على أنها في العشر الأواخر»(١)، كما عنه ﷺ تواطؤ رؤيا المؤمنين وهذا كما يعتبر تواطؤ روايتهم لما شاهدوه ، فهم لا يكذبون في روايتهم ولا في رؤياهم إذا تواطأت .

[فصل]: في الجواب عن رد حديث : من مات وعليه صيام. إلخ:

وأما رد حديث رسول الله ﷺ وهو قوله: «من مات وعليه صيام صام عنه وليه»، بتلك الوجوه التي ذكرتموها فنحن ننتصر لحديث رسول الله ﷺ ونبين موافقته للصحيح من تلك الوجوه ، وأما الباطل فيكفينا بطلانه من معارضته للحديث الصحيح الصريح الذي لا تغمز قناته ولا سبيل إلى مقابلته إلا بالسمع والطاعة والإذعان والقبول وليس لنا بعده الخيرة بل الخيرة وكل الخيرة في التسليم له والقول به ولو خالفه من بين المشرق والمغرب .

فأما قولكم : نرده بقول مالك في موطئه : لا يصوم أحد عن أحد. فمنازعوكم يقولون : بل نرد قول مالك هذا بقول النبي ﷺ، فأي الفريقين أحق بالصواب وأحسن رداً ؟! .

وأما قوله: وهو أمر مجمع عليه عندنا لا خلاف فيه. فمالك رحمه الله لم يحك إجماع الأمة من شرق الأرض وغربها، وإنما حكى قول أهل المدينة فيما بلغه ولم يبلغه خلاف بينهم، وعدم اطلاعه رحمه الله على الخلاف في ذلك لا يكون

(١) [صحيح]: رواه مالك في موطأه : كتاب: الاعتكاف، باب: ما جاء في ليلة القدر، [١٤]، وأحمد في مسنده : (٥:٦)، والبخاري: كتاب: التهجد، باب: فضل من تعار من الليل فصلى، [١١٥٨]، [٢٠١٥، ٦٩٩١]، ومسلم : كتاب: الصيام، باب: فضل ليلة القدر، والحث على طلبها، وبيان محلها، وأرجى أوقات طلبها، [١١٦٥]، بلفظ : «السبع الأواخر» بدلاً من «العشر الأواخر».

مسـقطاً لحديث رسـول الله ﷺ، بل لو أجـمع عليه أهل المدينة كلهم لـكان الأخذ بحديث المعـصوم أولى من الأخذ بقـول أهل المدينة الذين لم تضمن لنا العصـمة في قولهم دون الأمة ولم يجعل الله ورسوله أقوالهم حجة يجب الرد عند التنازع إليها بل قال الله تـعالى : ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[1] .

وإن كان مـالك وأهل المدينة قد قـالوا : لا يصوم أحـد عن أحد، فـقد روى الحكم بن عتيبة، وسـلمة بن كهيل عن سعيد بن جبيـر ، عن ابن عباس أنه أفتى في قضاء رمضان يطعم عنه وفي النذر يصام عنه .

وهذا مذهب الإمام أحمد وكثير من أهل الحديث وقول أبي عبيد وقال أبو ثور: يصام عنه النذر وغيره ، وقال الحسن بن صالح في النذر: يصوم عنه وليه .

[فصل] في جواب ما قالوا : إن ابن عباس هو روى حديث الصوم عن الميت إلخ:

وأما قـولكم: ابن عبـاس هو روى حديث الـصوم عن الميت، وقـد قال : لا يصوم أحد عن أحد. فغاية هذا أن يكون الصحابي قد أفتى بخلاف ما رواه. وهذا لا يقدح في روايته، فـإن روايته معصومة وفـتواه غير معصـومة، ويجوز أن يكون نسي الحـديث ، أو تأوله، أو اعـتقـد له مـعارضـاً راجـحاً في ظنه، أو لـغيـر ذلك من الأسباب، على أن فتوى ابن عباس غير معارضة للحديث فإنه أفتى في رمضان أنه لا يصوم أحـد عن أحد وأفتى في الـنذر أنه يصام عنه. وليس هذا بمخـالف لروايته بل حمل الحديث على النذر. ثـم إن حديث : «من مات وعليه صيـام صام عنه وليه»، هو ثابت من رواية عائشـة رضي الله عنها، فهب أن ابن عـباس خالفـه فكان ماذا ؟ فخلاف ابن عباس لا يقدح في رواية أم المؤمنين، بل رد قول ابن عباس برواية عائشة رضي الله عنها أولى من رد روايتها بقوله .

وأيضاً فإن ابن عـباس رضي الله عنهما قد اخـتلف عنه في ذلك وعنه روايتان فليس إسـقاط الحـديث للرواية المخالفـة له عنه أولى من إسقـاطها بالروايـة الأخرى بالحديث .

(١) (النساء/ ٥٩).

[فصل]: في جواب ما قالوا: إنه حديث اختلف في إسناده، إلخ:

وأما قولكم إنه حديث اختلف في إسناده فكلام مجازف لا يقبل بقوله فالحديث صحيح ثابت متفق على صحته رواه صاحبا الصحيح ولم يختلف في إسناده.

قال ابن عبد البر: ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «من مات وعليه صيام صام عنه وليه»، وصححه الإمام أحمد وذهب إليه وعلق الشافعي القول به على صحته فقال: وقد روي عن النبي ﷺ في الصوم عن الميت شئ فإن كان ثابتاً صميم عنه كما يحج عنه. وقد ثبت بلا شك فهو مذهب الشافعي، وكذلك قال غير واحد من أئمة الصحابة، قال البيهقي بعد حكايته: هذا اللفظ عن الشافعي: قد ثبت جواز القضاء عن الميت برواية سعيد بن جبير ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، عن ابن عباس، وفي رواية أكثرهم أن امرأة سألت فأشبه أن تكون غير قصة أم سعد وفي رواية بعضهم: صومي عن أمك، وسيأتي تقرير ذلك عند الجواب عن كلامه رحمه الله.

وقولكم: إنه معارض بنص القرآن وهو قوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ﴾ إساءة أدب في اللفظ وخطأ عظيم في المعنى، وقد أعاذ الله رسوله ﷺ أن تعارض سنته لنصوص القرآن بل تعاضدها وتؤيدها والله ما يصنع التعصب ونصرة التقليد، وقد تقدم من الكلام على الآية ما فيه كفاية وبينا أنها لا تعارض بينها وبين سنة رسول الله ﷺ بوجه، وإنما يظن التعارض من سوء الفهم، وهذه طريقة وخيمة ذميمة وهي رد السنن الثابتة بما يفهم من ظاهر القرآن، والعلم كل العلم تنزيل السنن على القرآن فإنها مشتقة منه ومأخوذة عمن جاء به وهي بيان له لا أنها مناقضة له.

وقولكم: إنه معارض، بما رواه النسائي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يصلي أحد عن أحد ولا يصوم أحد عن أحد ولكن يطعم عنه كل يوم مداً من حنطة»[1]، فخطأ قبيح، فإن النسائي رواه هكذا: (أخبرنا) محمد بن عبد الأعلى، حدثنا يزيد ابن زريع، حدثنا حجاج الأحول، حدثنا أيوب بن موسى، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لا يصلي أحد عن أحد ولا يصوم أحد عن أحد ولكن يطعم عنه مكان كل يوم مد من حنطة»[2]. هكذا رواه قول ابن

(١) سبق تخريجه، مع بيان أنه ليس مرفوعًا إلى النبي ﷺ

(٢) سبق تخريجه مع بيان أنه ليس مرفوعًا إلى النبي ﷺ

عباس لا قول رسول الله ﷺ ، فكيف يعارض قول رسول الله ﷺ بقول ابن عباس ثم يقدم عليه مع ثبوت الخلاف عن ابن عباس رضي الله عنهما ورسول الله ﷺ لم يقل هذا الكلام قط ؟! وكيف يقوله وقد ثبت عنه في الصحيحين أنه قال : «من مات وعليه صيام صام عنه وليه»[١] ؟! وكيف يقوله وقد قال في حديث بريدة الذي رواه مسلم في صحيحه : إن امرأة قالت له : إن أمي ماتت وعليها صوم شهر. قال : «صومي عن أمك»[٢] ؟!.

وأما قولكم : إنه معارض بحديث ابن عمر رضي الله عنهما ، من مات وعليه صوم رمضان يطعم عنه . فمن هذا النمط فإنه حديث باطل على رسول الله ﷺ .

(قال) البيهقي حديث محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ : «من مات وعليه صوم رمضان يطعم عنه»[٣]، لا يصح، ومحمد بن عبد الرحمن كثير الوهم، وإنما رواه أصحاب نافع عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما من قوله .

وأما قولكم : إنه معارض بالقياس الجلي على الصلاة والإسلام والتوبة فإن أحداً لا يفعلها عن أحد.

فلعمر الله إنه لقياس جلي البطلان والفساد لرد سنة رسول لله ﷺ الصحيحة الصريحة له وشهادتها ببطلانه ، وقد أوضحنا الفرق بين قبول الإسلام عن الكافر بعد موته وبين انتفاع المسلم بما يهديه إليه أخوه المسلم من ثواب صيام أو صدقة أو صلاة، ولعمر الله إن الفرق بينهما أوضح من أن يخفى ، وهل في القياس أفسد من قياس انتفاع المسلم بعد موته بما يهديه إليه أخوه المسلم من ثواب عمله على قبول الإسلام عن الكافر بعد موته أو قبول التوبة عن المجرم بعد موته ؟

[فصل]: في جواب تغليط راوي حديث ابن عباس: «إن نذر أم سعد كان صومًا» إلخ:

(وأما كلام الشافعي) رحمه الله في تغليط راوي حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن نذر أم سعد كان صوماً»[٤]. فقد أجاب عنه أنصر الناس له هو البيهقي

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) سبق ورود هذه الرواية مع تخريجها.

ونحن نذكر كلامه بلفظه قال في كتاب المعرفة بعد أن حكى كلامه : قد ثبت جواز القضاء عن الميت برواية سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وعكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما. وفي رواية أكثرهم أن امرأة سألت فأشبه أن تكون غير قصة أم سعد وفي رواية بعضهم: صومي عن أمك، قال: وتشهد له بالصحة رواية عبد الله بن عطاء المدني قال: حدثني عبد الله بن بريدة الأسلمي عن أبيه قال : كنت عند النبي ﷺ فأتته امرأة فقالت: يا رسول الله إني كنت تصدقت بوليدة على أمي فماتت وبقيت الوليدة قال: قد وجب أجرك ورجعت إليك في الميراث، قالت : فإنها ماتت وعليها صوم شهر؟ قال: صومي عن أمك، قالت: وإنها ماتت ولم تحج؟ قال: «فحجي عن أمك»[(١)]. رواه مسلم في صحيحه من أوجه عن عبد الله بن عطاء انتهى.

(قلت) وقد روى أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش ، عن مسلم البطين ، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال : «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إن أمي ماتت وعليها صيام شهر أفأقضيه عنها؟ فقال النبي ﷺ : لو كان عليها دين أكنت قاضيه عنها؟ قال : نعم . قال : «فدين الله أحق أن يقضى»[(٢)].

ورواه أبو خيثمة حدثنا معاوية بن عمر، حدثنا زائدة عن الأعمش . فذكره .

رواه النسائي عن قتيبة بن سعيد حدثنا عنترة عن الأعمش ، فذكره .

فهذا غير حديث أم سعد إسناداً ومتناً ، فإن قصة أم سعد رواها مالك عن الزهري ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن سعد بن عبادة استفتى رسول الله ﷺ فقال : إن أمي ماتت وعليها نذر ؟ فقال النبي ﷺ: اقضه عنها. هكذا أخرجاه في الصحيحين[(٢)] .

فهب أن هذا هو المحفوظ في هذا الحديث أنه نذر مطلق لم يسم فهل يكون هذا في حديث الأعمش ، عن مسلم البطين ، عن سعيد بن جبير ؟، على أن ترك استفصال النبي ﷺ لسعد في النذر هل كان صلاة أو صدقة أو صياماً مع أن الناذر قد

(١) سبق تخريجه.

(٢) [صحيح]:رواه البخاري: كتاب: الأيمان والنذور، باب: من مات وعليه نذر، [٦٦٩٨]، ولم أهتد إليه في «صحيح مسلم».

ينذر هذا وهذا يدل على أنه لا فرق بين قضاء نذر الصيام والصلاة وإلا لقال له ما هو النذر؟، فإن النذر إذا انقسم إلى قسمين: نذر يـقبل القضاء عن الميت ونذر لا يقبله ، لم يكن بد من الاستفصال .

[فصل]: في ذكر أقوال أهل العلم في الصوم عن الميت:

ونحن نذكر أقـوال أهل العلم في الصوم عـن الميت لئلا يتوهم أن فـي المسألة إجماعاً بخلافه .

(قال) عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: يصام عنه في النذر ويطعم عنه في قضاء رمضان وهذا مذهب الإمام أحمد.

(وقـال) أبو ثور: يصـام عنه النذر والفـرض، وكـذلـك قـال داود بن علي وأصحابه: يصام عنه نذراً كان أو فرضاً.

(وقال) الأوزاعي : يجعل وليـه مكان الصوم صدقة، فـإن لم يجد صام عنه، وهذا قول سفيان الثوري في إحدى الروايتين عنه .

(وقال) أبو عبيد القاسم بن سلام : يصام عنه النذر ويطعم عنه في الفرض.

(وقال) الحسن : إذا كان عليـه صيام شهر فصام عـنه ثلاثون رجلاً يوماً واحداً جاز.

[فصل]: في جواب من فرق بين ثواب النفقة وبين ثواب الحج:

وأما قولكم : إن يصل إليـه في الحج ثواب النفقة دون أفعـال المناسك فدعوى مجـردة بلا برهان ، والسنة تردها، فإن النبي ﷺ قال: حج عن أبيك وقـال للمرأة: حجي عن أمك، فـأخبر أن الحـج نفسه عن الميت ولـم يقل إن الإنـفاق هو الذي يقع عنه.

وكذلـك قال للذي سـمعـه يلبي عن شبـرمة: حج عن نفـسك، ثم حج عن شبرمـة. ولما سألته المرأة عن الطفل الذي مـعها فقالت : ألهـذا حج ؟ قال : نعم ، ولم يقل إنما له ثواب الإنفاق ، بل أخـبر أن له حجـاً مع أنه لم يفعل شيئـاً بل وليه ينوب عنه في أفعال المناسك .

ثم إن النائب عن الميت قد لا ينفق شـيئاً في حجته غـير نفقة مقامـه فما الذي

يجعل نفقة ثواب نفقة مقامه للمحجوج عنه وهو لم ينفقها على الحج بل تلك نفقته أقام أم سافر؟ فهذا القول ترده السنة والقياس . والله أعلم.

[فصل]: هل يشترط في إيصال الثواب التلفظ بالإهداء، أم يكفي مجرد النية؟:

فإن قيل : فهل تشترطون في وصول الثواب أن يهديه بلفظه أم يكفي في وصوله مجرد نية العامل أن يهديها إلى الغير؟

قيل : السنة لم تشترط التلفظ بالإهداء في حديث واحد، بل أطلق ﷺ الفعل عن الغير كالصوم والحج والصدقة ولم يقل لفاعل ذلك : «وقل اللهم هذا عن فلان ابن فلان»، والله سبحانه يعلم نية العبد وقصده بعمله، فإن ذكره جاز وإن ترك ذكره واكتفى بالنية والقصد وصل إليه ولا يحتاج أن يقول اللهم إني صائم غداً عن فلان ابن فلان، ولهذا والله أعلم اشترط من اشترط نية الفعل عن الغير قبله ليكون واقعاً بالقصد عن الميت .

فأما إذا فعله لنفسه ثم نوى أن يجعل ثوابه للغير لم يصر للغير بمجرد النية كما لو نوى أن يهب أو يعتق أو يتصدق لم يحصل ذلك بمجرد النية .

ومما يوضح ذلك أنه لو بنى مكاناً بنية أن يجعله مسجداً أو مدرسة أو سقاية ونحو ذلك صار وقفاً يفعله مع النية ولم يحتج إلى تلفظ . وكذلك لو أعطى الفقير مالاً بنية الزكاة سقطت عنه الزكاة وإن لم يكن يتلفظ بها. وكذلك لو أدى عن غيره ديناً حياً كان أو ميتاً سقط من ذمته وإن لم يقل هذا عن فلان .

هل يتعين في إهداء الثواب تعليق العمل بالقبول أم لا؟:

فإن قيل : فهل يتعين عليه تعليق الإهداء بأن يقول : اللهم إن كنت قبلتَ هذا العمل وأثبتني عليه فاجعل ثوابه لفلان أم لا ؟

قيل : لا يتعين ذلك لفظاً ولا قصداً بل لا فائدة في هذا الشرط فإن الله سبحانه إنما يفعل هذا، سواء شرطه أو لم يشرطه. فلو كان سبحانه يفعل غير هذا بدون الشرط كان في الشرط فائدة . (وأما قوله) : اللهم إن كنت أثبتني على هذا فاجعل ثوابه لفلان ، فهو بناء على أن الثواب يقع للعامل ثم ينتقل منه إلى من أهدي له، وليس كذلك، بل إذا نوى حال الفعل أنه عن فلان وقع الثواب أولاً عن المعمول له كما لو أعتق عبده عن غيره ، لا نقول: إن الولاء يقع للمعتق ثم ينتقل عنه إلى

المعتق عنه فهكذا هذا، وبالله التوفيق .

أي الأعمال أفضل في إهداء الثواب إلى الميت؟ :

فإن قيل : فما الأفضل أنه يهدى إلى الميت ؟ قيل : الأفضل ما كان أنفع في نفسه، فالعتق عنه والصدقة أفضل من الصيام عنه، وأفضل الصدقة ما صادفت حاجة من المتصدق عليه وكانت دائمة مستمرة، ومنه قول النبي ﷺ : «أفضل الصدقة سقي الماء»[1]، وهذا في موضع يقل فيه الماء ويكثر فيه العطش ، وإلا فسقي الماء على الأنهر والقنى لا يكون أفضل من إطعام الطعام عند الحاجة، وكذلك الدعاء والاستغفار له إذا كان بصدق من الداعي وإخلاص وتضرع فهو في موضعه أفضل من الصدقة عنه كالصلاة على الجنازة والوقوف للدعاء في قبره .

وبالجملة فأفضل ما يهدى إلى الميت العتق والصدقة والاستغفار له والدعاء له والحج عنه .

بيان وصول ثواب قراءة القرآن وما يتعلق به:

وأما قراءة القرآن وإهداؤها له تطوعاً بغير أجرة فهذا يصل إليه كما يصل ثواب الصوم والحج .

فإن قيل : فهذا لم يكن معروفاً في السلف ولا يمكن نقله عن أحد منهم مع شدة حرصهم على الخير، ولأرشدهم النبي ﷺ إليه وقد أرشدهم إلى الدعاء والاستغفار والصدقة والحج والصيام فلو كان ثواب القراءة يصل لأرشدهم إليه ولكانوا يفعلونه .

فالجواب إن مورد هذا السؤال إن كان معترفاً بوصول ثواب الحج والصيام والدعاء والاستغفار ، قيل له: ما هذه الخاصية التي منعت وصول ثواب القرآن واقتضت وصول ثواب هذه الأعمال ؟ وهل هذا إلا تفريق بين المتماثلات ؟ وإن لم يعترف بوصول ثواب تلك الأشياء إلى الميت فهو محجوج بالكتاب والسنة والإجماع وقواعد الشرع .. وأما السبب الذي لأجله لم يظهر ذلك في السلف فهو أنهم لم يكن لهم أوقاف على من يقرأ ويهدي إلى الموتى ، ولا كانوا يعرفون ذلك ألبتة، ولا كانوا

(١) سبق تخريجه من حديث سعد بن عبادة -رضي الله عنه- .

يقصدون القبر للقراءة عنده كما يفعله الناس اليوم، ولا كان أحدهم يشهد من حضره من الناس على أن ثواب هذه القراءة لفلان الميت بل ولا ثواب هذه الصدقة والصوم .

ثم يقال لهذا القائل : لو كلفت أن تنقل عن واحد من السلف أنه قال : اللهم ثواب هذا الصوم لفلان لعجزت ، فإن القوم كانوا أحرص شئ على كتمان أعمال البر. فلم يكونوا ليشهدوا على الله بإيصال ثوابها إلى أمواتهم .

فإن قيل فرسول الله ﷺ أرشدهم إلى الصوم والصدقة والحج دون القراءة .

قيل : هو ﷺ لم يبتدئهم بذلك بل خرج ذلك منه مخرج الجواب لهم، فهذا سأله عن الحج عن ميته فأذن له، وهذا سأله عن الصيام عنه فأذن له، وهذا سأله عن الصدقة فأذن له، ولم يمنعهم مما سوى ذلك .

وأي فرق بين وصول ثواب الصوم الذي هو مجرد نية وإمساك، ووصول ثواب القراءة والذكر ؟!

والقائل إن أحداً من السلف لم يفعل ذلك قائل ما لا علم له به ، فإن هذه شهادة على نفي ما لم يعلمه ، فما يدريه أن السلف كانوا يفعلون ذلك ولا يشهدون من حضرهم عليه ؟ بل يكفي إطلاع علام الغيوب على نياتهم ومقاصدهم لا سيما والتلفظ بنية الإهداء لا يشترط كما تقدم .

وسر المسألة أن الثواب ملك للعامل، فإذا تبرع به وأهداه إلى أخيه المسلم أوصله الله إليه، فما الذي خص من هذا ثواب قراءة القرآن وحجر على العبد أن يوصله إلى أخيه ؟ وهذا عمل سائر الناس حتى المنكرين في سائر الأعصار والأمصار من غير نكير من العلماء.

إهداء ثواب الأعمال إلى رسول الله ﷺ :

فإن قيل : فما تقولون في الإهداء إلى رسول الله ﷺ ؟ قيل : من الفقهاء المتأخرين من استحبه ومنهم من لم يستحبه ورآه بدعة، فإن الصحابة لم يكونوا يفعلونه وأن النبي ﷺ له أجر كل من عمل خيراً من أمته من غير أن ينقص من أجر العامل شئ لأنه هو الذي دل أمته على كل خير وأرشدهم ودعاهم إليه ، ومن دعا إلى هدى فله من الأجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شئ ، وكل هدى وعلم فإنما نالته أمته على يده فله مثل أجر من اتبعه أهداه إليه أو لم يهده. والله أعلم .

المسألة السابعة عشرة

وهي هل الروح قديمة أو محدثة مخلوقة؟

وإذا كانت محدثة مخلوقة وهي من أمر الله فكيف يكون أمر الله محدثاً مخلوقاً؟ وقد أخبر سبحانه أنه نفخ في آدم من روحه فهذه الإضافة إليه هل تدل على أنها قديمة أم لا؟ وما حقيقة هذه الإضافة؟ فقد أخبر عن آدم أنه خلقه بيده ونفخ فيه من روحه فأضاف اليد والروح إليه إضافة واحدة .

فهذه مسألة زل فيها عالم، وضل فيها طوائف من بني آدم. وهدى الله أتباع رسوله فيها للحق المبين والصواب المستبين، فأجمعت الرسل صلوات الله وسلامه عليهم على أنها محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة. هذا معلوم بالاضطرار من دين الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، كما يعلم بالاضطرار من دينهم أن العالم حادث، وأن معاد الأبدان واقع، وأن الله وحده الخالق وكل ما سواه مخلوق له، وقد انطوى عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم وهم القرون الفضيلة على ذلك من غير اختلاف بينهم في حدوثها وأنها مخلوقة حتى نبغت نابغة ممن قصر فهمه في الكتاب والسنة فزعم أنها قديمة غير مخلوقة واحتج بأنها من أمر الله وأمره غير مخلوق ، وبأن الله تعالى أضافها إليه كما أضاف إليه علمه وكتابه وقدرته وسمعه وبصره ويده، وتوقف آخرون فقالوا : لا نقول مخلوقة ولا غير مخلوقة .

اختلاف الأقوال في الروح على ما نقله الحافظ ابن منده:

وسئل عن ذلك حافظ أصبهان أبو عبد الله بن منده فقال: أما بعد فإن سائلاً سألني عن الروح التي جعلها الله سبحانه قوام نفس الخلق وأبدانهم، وذكر أن أقواماً تكلموا في الروح وزعموا أنها غير مخلوقة، وخص بعضهم منها أرواح القدس وأنها من ذات الله، قال : وأنا أذكر اختلاف أقاويل متقدميهم وأبين ما يخالف أقاويلهم من الكتاب والأثر وأقاويل الصحابة والتابعين وأهل العلم ، وأذكر بعد ذلك وجوه الروح من الكتاب والأثر وأوضح خطأ المتكلم في الروح بغير علم ، وأن كلامهم يوافق قول جهم وأصحابه .

فنقول وبالله التوفيق: إن الناس اختلفوا في معرفة الأرواح ومحلها من النفس.

(فقال) بعضهم : الأرواح كلها مخلوقة، وهذا مذهب أهل الجماعة والأثر واحتجوا بقول النبي ﷺ : «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»[1] ، والجنود المجندة لا تكون إلا مخلوقة .

(وقال) بعضهم : الأرواح من أمر الله أخفى الله حقيقتها وعلمها عن الخلق واحتجوا بقول الله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[2] .

(وقال) بعضهم : الأرواح نور من أنوار الله تعالى وحياة من حياته، واحتجوا بقول النبي ﷺ : إن الله خلق خلقه في ظلمة وألقى عليهم من نوره[3].

الروح تموت أم لا؟:

ثم ذكر الخلاف في الأرواح هل تموت أم لا ؟ وهل تعذب في الأجساد في البرزخ وفي مستقرها بعد الموت ؟ وهل هي النفس أو غيرها.

(وقال) محمد بن نصر المروزي في كتابه : تأول صنف من الزنادقة وصنف من الروافض في روح آدم ما تأولته النصارى في روح عيسى وما تأوله قوم من أن الروح انفصل من ذات الله فصار في المؤمن ، فعبد صنف من النصارى عيسى ومريم جميعاً لأن عيسى عندهم روح من الله صار في مريم فهو غير مخلوق عندهم .

وقال صنف من الزنادقة وصنف من الروافض : إن روح آدم مثل ذلك ، أنه غير مخلوق، وتأولوا قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[4] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾[5] فزعموا أن روح آدم ليس بمخلوق كما تأول من قال : إن

---

(١) سبق تخريجه. (٢) (الإسراء/ ٨٥).

(٣) رواه أحمد : (٢/ ١٧٦ ، ١٩٧)، والترمذي : كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في افتراق هذه الأمة، [٢٦٤٢]، وابن حبان : كتاب: التاريخ، باب: بدء الخلق، [٦١٦٩، ٦١٧٠]، وذكر الألباني في «صحيح الترمذي» ، وصححه الشيخ أحمد شاكر : [٦٦٤٤]، ونص رواية ابن حبان عن عبد الله ابن الديلمي، قال: دخلت على عبد الله بن عمر فقلت : إنهم يزعمون أنك تقول: الشقي من شقي في بطن أمه ؟ فقال: لا أحل لأحد الكذب يكذب علي. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق خلقه في ظلمة، وألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأ ضل» فلذلك أقول: جفا القلم من علم الله جل وعلا.

(٤) (الحجر / ٢٩). (٥) (السجدة / ٩).

النور من الرب فهو مخلوق ، قالوا : ثم صاروا بعد آدم في الوصي بعده ، ثم هو في كل نبي ووصي إلى أن صار في علي ثم في الحسن والحسين ثم في كل وصي وإمام فيه، يعلم الإمام كل شئ ولا يحتاج أن يتعلم من أحد.

ولا خلاف بين المسلمين أن الأرواح التي في آدم وبنيه وعيسى ومن سواه من نبي آدم مخلوقة لله خلقها وأنشأها وكونها واخترعها ثم أضافها إلى نفسه كما أضاف إليه سائر خلقه قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : روح الآدمي مخلوقة مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة ، وقد حكى إجماع العلماء على أنها مخلوقة غير واحد من أئمة المسلمين مثل محمد بن نصر المروزي الإمام المشهور الذي هو من أعلم أهل زمانه بالإجماع ولا اختلاف، وكذلك أبو محمد بن قتيبة قال في كتاب اللفظ لما تكلم على الروح قال : النسم الأرواح. قال : وأجمع الناس على أن الله تعالى هو فالق الحبة وبارئ النسمة أي خالق الروح . وقال أبو إسحاق بن شاقلا فيما أجاب به في هذه المسألة : سألت رحمك الله عن الروح مخلوقة هي أو غير مخلوقة ؟ قال : وهذا مما لا يشك فيه من وفق للصواب أن الروح من الأشياء المخلوقة ، وقد تكلم في هذه المسألة طوائف من أكابر العلماء والمشايخ وردوا على من يزعم أنها غير مخلوقة، وصنف الحافظ أبو عبد الله بن منده في ذلك كتاباً كبيراً ، وقبله الإمام محمد بن نصر المروزي ، وغيره ، والشيخ أبو سعيد الخراز وأبو يعقوب النهر جوري والقاضي أبو يعلى ، وقد نص على ذلك الأئمة الكبار واشتد نكيرهم على من يقول ذلك في روح عيسى ابن مريم فكيف بروح غيره كما ذكره الإمام أحمد فيما كتبه في مجلسه في الرد على الزنادقة والجهمية ؟! ثم إن الجهمي ادعى أمراً فقال: أنا أجد آية في كتاب الله مما يدل على أن القرآن مخلوق قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾(٢) وعيسى مخلوق، قلنا له : إن الله تعالى منعك الفهم للقرآن أن عيسى تجري عليه ألفاظ لا تجري على القرآن لأنا نسميه مولوداً، وطفلاً، وصبياً، وغلاماً يأكل ويشرب، وهو مخاطب بالأمر والنهي

---
(١) (الجاثية/ ١٣).
(٢) (النساء/ ١٧١).

يجري عليه الخطاب والوعد والوعيد، ثم هو من ذرية نوح ومن ذرية إبراهيم، فلا يحل لنا أن نقول في القرآن ما نقول في عيسى، فهل سمعتم الله يقول في القرآن ما قال في عيسى؟ ولكن المعني في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾(١) فالكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له: كن، فكان عيسى بكن وليس عيسى هو كن ولكن كان بكن. فكن من الله قول، وليس كن مخلوقاً، وكذبت النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى، وذلك أن الجهمية قالوا: روح الله وكلمته إلا أن كلمته مخلوقة. وقالت النصارى: عيسى روح الله وكلمته من ذاته كما يقال هذه الخرقة من هذا الثوب، قلنا نحن: إن عيسى بالكلمة كان وليس عيسى هو الكلمة وإنما الكلمة قول الله تعالى: كن، وقوله: ﴿وروح منه﴾ يقول: من أمره كان الروح فيه كقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾(٢) يقول من أمره، وتفسير روح الله إنما معناها بكلمة الله خلقها، كما يقال عبد الله وسماء الله وأرض الله، فقد صرح بأن روح المسيح مخلوقة فكيف بسائر الأرواح؟ وقد أضاف الله إليه الروح الذي أرسله إلى مريم وهو عبده ورسوله ولم يدل على ذلك أنه قديم غير مخلوق، فقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾(٣) فهذا الروح هو روح الله وهو عبده ورسوله.

وسنذكر إن شاء الله تعالى أقسام المضاف إلى الله وأنى يكون المضاف صفة له قديمة وأنى يكون مخلوقاً وما ضابط ذلك.

[فصل]: في بيان الدلائل على خلق الأرواح:

والذي يدل على خلقها وجوه:

(الوجه الأول) قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾(٤) فهذا اللفظ عام لا تخصيص فيه بوجه ما، ولا يدخل في ذلك صفاته فإنها داخلة في مسمى اسمه، فالله سبحانه هو الإله الموصوف بصفات الكمال فعلمه وقدرته وحياته وإرادته وسمعه

---

(١) (النساء/ ١٧١).
(٢) (الجاثية/ ١٣).
(٣) (مريم/ ١٧ : ١٩).
(٤) (الزمر/ ٦٢).

ويصره وسائر صفاته داخل في مسمى اسمه ليس داخلاً في الأشياء المخلوقة كما لم تدخل ذاته فيها، فهو سبحانه بذاته وصفاته الخالق وما سواه مخلوق.

ومعلوم قطعاً أن الروح ليست هي الله ولا صفة من صفاته وإنما هي مصنوع من مصنوعاته فوقوع الخلق عليها كوقوعه على الملائكة والجن والإنس .

(الوجه الثاني) قوله تعالى لزكريا: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾[(١)] وهذا الخطاب لروحه وبدنه ليس لبدنه فقط ، فإن البدن وحده لا يفهم ولا يخاطب ولا يعقل، وإنما الذي يفهم ويعقل ويخاطب هو الروح .

(الوجه الثالث) قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[(٢)] .

(الوجه الرابع) قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾[(٣)] وهذا الإخبار إنما يتناول أرواحنا وأجسادنا كما يقوله الجمهور، وإما أن يكون واقعاً على الأرواح قبل خلق الأجساد كما يقوله من يزعم ذلك ، وعلى التقدير فهو صريح في خلق الأرواح .

(الوجه الخامس) النصوص الدالة على أنه سبحانه ربنا ورب آبائنا الأولين ورب كل شئ ، وهذه الربوبية شاملة لأرواحنا وأبداننا، فالأرواح مربوبة له مملوكة كما أن الأجسام كذلك ، وكل مربوب مملوك فهو مخلوق .

(الوجه السادس) أول سورة في القرآن وهي الفاتحة تدل على أن الأرواح مخلوقة من عدة أوجه :

أحدها: قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[(٤)] والأرواح من جملة العالم فهو ربها .

(الثاني) قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[(٥)] فالأرواح عابدة له مستعينة ولو كانت غير مخلوقة لكانت معبودة مستعاناً بها.

(الثالث) أنها فقيرة إلى هداية فاطرها وربها تسأله أن يهديها صراطه المستقيم .

---

(١) (مريم/ ٩).
(٢) (الصافات / ٩٦).
(٣) (الأعراف/ ١١).
(٤) (الفاتحة / ٢).
(٥) (الفاتحة / ٥).

(الرابع) أنها منعم عليها مرحومة ومغضوب عليها وضالة شقية، وهذا شأن المربوب والمملوك لا شأن القديم غير المخلوق.

(الوجه السابع) النصوص الدالة على أن الإنسان عبد بجملته وليست عبوديته واقعة على بدنه دون روحه، بل عبودية الروح أصل وعبودية البدن تبع كما أنه تبع لها في الأحكام وهي التي تحركه وتستعمله وهو تبع لها في العبودية.

(الوجه الثامن) قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾(١) فلو كانت روحه قديمة لكان الإنسان لم يزل شيئاً مذكوراً فإنه هو إنسان بروحه لا ببدنه فقط كما قيل:

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته ... فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

(الوجه التاسع) النصوص الدالة على أن الله سبحانه كان ولم يكن شئ غيره كما ثبت في صحيح البخاري من حديث عمران بن حصين «أن أهل اليمن قالوا: يا رسول الله جئناك لنتفقه في الدين ونسألك عن أول هذا الأمر، فقال: كان الله ولم يكن شئ غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شئ»(٢)، فلم يكن مع الله أرواح ولا نفوس قديمة يساوي وجودها وجوده تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً بل هو الأول وحده لا يشاركه غيره في أوليته بوجه من الوجوه.

(الوجه العاشر) النصوص الدالة على خلق الملائكة وهم أرواح مستغنية عن أجساد تقوم بها وهم مخلوقون قبل خلق الإنسان وروحه، فإذا كان الملك الذي يحدث الروح في جسد ابن آدم بنفخته مخلوقاً فكيف تكون الروح الحادثة بنفخة قديمة؟ وهؤلاء الغالطون يظنون أن الملك يرسل إلى الجنين بروح قديمة أزلية ينفخها فيه كما يرسل الرسول بثوب إلى الإنسان يلبسه إياه، وهذا ضلال وخطأ، وإنما يرسل الله سبحانه إليه الملك فينفخ فيه نفخة تحدث له الروح بواسطة تلك النفخة، فتكون

---

(١) (الإنسان/ ١).

(٢) [صحيح]: رواه أحمد في مواضع، منها: (٤/ ٤٣١: ٤٣٢)، والبخاري: كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ (الروم/ ٢٧)، [٣١٩١]، والترمذي: كتاب: المناقب، باب: مناقب في ثقيف وبني حنيفة، [٣٩٥١].

النفخة هي سبب حصول الروح وحدوثها له كما كان الوطء والإنزال سبب تكوين جسمه ، والغذاء سبب نموه ، فمادة الروح من نفخة الملك ومادة الجسم من صب الماء في الرحم ، فهذه مادة سماوية وهذه مادة أرضية ، فمن الناس من تغلب عليه المادة السماوية فتصير روحه علوية شريفة تناسب الملائكة، ومنهم من تغلب عليه المادة الأرضية فتصير روحه سفلية ترابية مهينة تناسب الأرواح السفلية ، فالملك أب لروحه والتراب أب لبدنه وجسمه .

(الوجه الحادي عشر) حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي في صحيح البخاري وغيره عن النبي ﷺ: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»(١). والجنود المجندة لا تكون إلا مخلوقة، وهذا الحديث رواه عن النبي ﷺ أبو هريرة وعائشة أم المؤمنين، وسلمان الفارسي، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمرو، وعلي بن أبي طالب، وعمرو بن عبسة، رضي الله عنهم .

(الوجه الثاني عشر) أن الروح توصف بالوفاة والقبض والإمساك والإرسال، وهذا شأن المخلوق المحدث المربوب، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢) والأنفس هاهنا هي الأرواح قطعاً . وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن أبي قتادة الأنصاري، عن أبيه قال: "سرنا مع رسول الله ﷺ في سفر ذات ليلة فقلنا: يا رسول الله لو عرست بنا، فقال :إني أخاف أن تناموا فمن يوقظنا للصلاة ؟ فقال بلال : أنا يا رسول الله فعرس بالقوم فاضطجعوا، واستند بلال إلى راحلته فغلبته عيناه فاستيقظ رسول الله ﷺ وقد طلع جانب الشمس فقال :يا بلال أين ما قلت لنا؟ فقال : والذي بعثك بالحق ما ألقيت علي نومة مثلها فقال رسول الله ﷺ :إن الله قبض أرواحكم حين شاء وردها حين شاء»(٣). فهذه الروح المقبوضة هي النفس التي يتوفاها الله حين موتها وفي منامها وهي التي يتوفاها

(١) سبق تخريجه. (٢) (الزمر / ٤٢).

(٣) [صحيح]: رواه مالك في موطأه: كتاب: وقوت الصلاة، باب: النوم عن الصلاة، [٢٦]، والبخاري: كتاب: مواقيت الصلاة، باب: الأذان بعد ذهاب الوقت، [٥٩٥]، [٧٤٧١]، والنسائي: كتاب: الإمامة، باب: الجماعة للفائت من الصلاة، (٢/ ١٠٥ : ١٠٦).

ملك الموت ، وهي التي تتوفاها رسل الله سبحانه، وهي التي يجلس الملك عند رأس صاحبها ويخرجها من بدنه كرهاً ويكفنها بكفن من الجنة أو النار ويصعد بها إلى السماء فتصلي عليها الملائكة أو تلعنها وتوقف بين يدي ربها فيقضي فيها أمره ثم تعاد إلى الأرض فتدخل بين الميت وأكفانه فيسأل ويمتحن ويعاقب وينعم، وهي التي تجعل في أجواف الطير الخضر تأكل وتشرب من الجنة، وهي التي تعرض على النار غدواً وعشياً، وهي التي تؤمن وتكفر وتطيع وتعصي، وهي الأمارة بالسوء، وهي اللوامة، وهي المطمئنة إلى ربها وأمره وذكره ، وهي التي تعذب وتنعم وتسعد وتشقى وتحبس وترسل وتصح وتسقم وتلذ وتألم وتخاف وتحزن وما ذاك إلا سمات مخلوق مبدع، وصفات منشأ مخترع، وأحكام مربوب مدبر مصرف تحت مشيئة خالقه وفاطره وبارئه، وكان رسول الله ﷺ يقول عند نومه: «اللهم أنت خلقت نفسي وأنت توفاها، لك مماتها ومحياها، فإن أمسكتها فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»(١) .

وهو تعالى بارئ النفوس كما هو بارئ الأجساد قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾(٢) قيل : من قبل أن نبرأ المصيبة، وقيل: من قبل أن نبرأ الأرض، وقيل: من قبل أن نبرأ الأنفس وهو أولى لأنه أقرب مذكور إلى الضمير، ولو قيل: يرجع إلى الثلاثة أي من قبل أن نبرأ المصيبة والأرض والأنفس لكان أوجه .

وكيف تكون قديمة مستغنية عن خالق محدث مبدع لها وشواهد الفقر والحاجة والضرورة أعدل شواهد على أنها مخلوقة مربوبة مصنوعة، وأن وجود ذاتها وصفاتها وأفعالها من ربها وفاطرها ليس لها من نفسها إلا العدم، فهي لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، لا تستطيع أن تأخذ من الخير إلا ما أعطاها، ولا تتقي من الشر إلا ما وقاها، ولا تهتدي إلى شئ من مصالح دنياها وأخراها إلا بهداه، ولا تصلح إلا بتوفيقه لها وإصلاحه إياها، ولا تعلم إلا ما علمها، ولا تتعدى

---

(١) [صحيح]: رواه أحمد : (٢/٧٩)، ومسلم : كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، [٢٧١٢]، وابن حبان : كتاب: الزينة والتطيب، باب: آداب النوم، [٥٥٤١].

(٢) (الحديد / ٢٢).

ما ألهمـها، فهو الذي خلقها فسواها وألهمها فـجورها وتقواها، فأخبر سـبحانه أنه خالقهـا ومبدعها وخـالق أفعالها من الفجـور والتقوى خلافاً لمن يقـول : إنها ليست مخلوقة، ولمـن يقول : إنها وإن كانت مخلوقـة فليس خالقاً لأفعـالها، بل هي التي تخلق أفعالها، وهما قولان لأهل الضلال والغي .

ومعلوم أنها لو كـانت قديمة غير مخلوقة لـكانت مستغنية بنفسـها في وجودها وصفـاتها وكـمالها وهذا من أبطل البـاطل . فإن فـقرها إليه سـبحـانه في وجودها وكمالها وصلاحها هو من لوازم ذاتها ليس معللاً بعلة، فإنه أمر ذاتي لها كما أن غنى ربها وفاطرها ومـبدعها من لوازم ذاته ليس مـعللاً بعلة، فهو سبـحانه الغني بالذات وهي الفقيرة إليه بالذات فلا يشاركه سبحـانه في غناه مشارك كما لا يشاركه في قدمه وربوبيته وإلهيته وملكه التام، وكمـاله المقدس مشارك، فشواهد الخلق والحدوث على الأرواح كشواهده على الأبدان .

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[١] وهذا الخطاب بالفـقر إليه لـلأرواح والأبدان ليس هو للأبدان فقط ، وهذا الغناء التـام لله وحده لا يشركـه فيه غيره وقـد أرشد الله سبحانه عـباده إلى أوضح دليل على ذلك بقوله : ﴿ فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[٢] أي فلولا أن كنتم غير مملوكين ومـقهورين ومربوبين ومجـازين بأعمالكم تردون الأرواح إلى الأبدان إذا وصلـت إلى هذا الموضع، أو لا تعلمـون بذلك أنهـا مدينة مملوكة مربوبة محاسبة مجزية بعملها.

وكلما تقدم ذكره في هذا الجواب من أحكام الروح وشأنها ومستقرها بعد الموت فهو دليل على أنها مخلوقة مربوبة مدبرة ليست بقديمة .

وهذا الأمر أوضح من أن تـساق الأدلة عليه ولولا ضـلال من المتصـوفة وأهل البدع ومن قـصر فهـمه في كتاب اللـه وسنة رسوله فأتى من سـوء الفهم من النص تكلموا في أنفسهم وأرواحهم بما دل على أنهم من أجهل الناس بها، وكيف يمكن من له أدنى مسكة من عقل أن يـنكر أمراً تشهد عليه به نفـسه وصفاته وأفعـاله وجوارحه

---

(١) (فاطر/ ١٥).

(٢) (الواقعة/ ٨٣ : ٨٧).

وأعضاؤه ، بل تشهد به السماوات والأرض والخليقة ، فلله سبحانه في كل ما سواه آية بل آيات تدل على أنه مخلوق مربوب وأنه خالقه وربه وبارؤه ومليكه ولو جحد ذلك فمعه شاهد عليه .

[فصل] : ذكر الاختلاف في معنى الروح في الآية الكريمة بين السلف والخلف:

وأما ما احتجت به هذه الطائفة فأما ما أتوا به من اتباع متشابه القرآن والعدول عن محكمه فهذا شأن كل ضال ومبتدع . فمحكم القرآن من أوله إلى آخره يدل على أن الله تعالى خالق الأرواح ومبدعها .

وأما قوله تعالى: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾[1] فمعلوم قطعاً أنه ليس المراد ها هنا بالأمر الطلب الذي هو أحد أنواع الكلام فيكون المراد أن الروح كلامه الذي يأمر به ، وإنما المراد بالأمر هاهنا المأمور وهو عرف مستعمل في لغة العرب وفي القرآن منه كثير كقوله تعالى: ﴿أتى أمر الله﴾ أي مأموره الذي قدره وقضاه وقال له : كن فيكون ، وكذلك قوله تعالى: ﴿ فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك﴾[2] أي مأموره الذي أمر به من إهلاكهم ، وكذلك قوله تعالى: ﴿وما أمر الساعة إلا كلمح البصر ﴾[3] وكذلك الخلق يستعمل بمعنى المخلوق كقوله تعالى للجنة: أنت رحمتي، فليس في قوله تعالى: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾[1] ما يدل على أنها قديمة غير مخلوقة بوجه ما ، وقد قال بعض السلف في تفسيرها: جرى بأمر الله في أجساد الخلق وبقدرته استقر.

وهذا بناء على أن المراد بالروح في الآية روح الإنسان، وفي ذلك خلاف بين السلف والخلف، وأكثر السلف بل كلهم[4] على أن الروح المسؤول عنها في الآية ليست أرواح بني آدم بل هو الروح الذي أخبر الله عنه في كتابه أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة وهو ملك عظيم، وقد ثبت في الصحيح من حديث الأعمش، عن

---

(١) (الإسراء/ ٨٥).

(٢) (هود / ١٠١).

(٣) (النحل/ ٧٧).

(٤) ذكر الإمام ابن كثير اختلاف أهل العلم في مدلول لفظ الروح في هذه الآية، انظر لبيان ذلك وتفصيله «تفسير ابن كثير» تحت قوله سبحانه وتعالى: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾ (الإسراء / ٨٥)، (٣/ ٦٠ : ٦١).

إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله، قال : بينا أنا أمشي مع رسول الله ﷺ في حرة المدينة وهو متكئ على عسيب فمررنا على نفر من اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح، وقال بعضهم : لا تسألوه عسى أن يخبر فيه بشيء تكرهونه، وقال بعضهم : نسأله، فقام رجل فقال: يا أبا القاسم ما الروح ؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ فعلمت أنه يوحى إليه فقمت، فلما تجلى عنه قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[1]»[2].

ومعلوم أنهم إنما سألوه عن أمر لا يعرف إلا بالوحي وذلك هو الروح الذي عند الله لا يعلمها الناس .

وأما أرواح بني آدم فليست من الغيب ، وقد تكلم فيها طوائف من الناس من أهل الملل وغيرهم[3] فلم يكن الجواب عنها من أعلام النبوة.

(فإن قيل) : فقد قال أبو الشيخ : حدثنا الحسين بن محمد بن إبراهيم ، أنبأنا إبراهيم بن الحكم، عن أبيه، عن السدي عن أبي مالك، عن ابن عباس قال : بعثت قريش عقبة بن أبي معيط ، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة إلى يهود المدينة يسألونهم عن النبي ﷺ فقالوا لهم : إنه قد خرج فينا رجل يزعم أنه نبي وليس على ديننا ولا على دينكم، قالوا : فمن تبعه ؟ قالوا سفلتنا والضعفاء والعبيد ومن لا خير فيه، وأما أشراف قومه فلم يتبعوه، فقالوا : إنه قد أظل زمان نبي يخرج وهو على ما تصفون من أمر هذا الرجل فأتوه فاسألوه عن ثلاث خصال نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي صادق، وإن لم يخبركم بهن فهو كذاب ، سلوه عن الروح التي نفخ

(١) (الإسراء/ ٨٥).

(٢) [صحيح]: رواه أحمد في مواضع، منها : (١/ ٤٤٤ : ٤٤٥)، والبخاري في مواضع ، منها: كتاب التوحيد، باب: قوله تعالى: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾ (الصافات/ ١٧١)، [٧٤٥٦]، ومسلم : كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، باب: سؤال اليهود النبي ﷺ عن الروح، وقوله تعالى: ﴿يسألونك عن الروح﴾ (الإسراء/ ٨٥)، [٢٧٩٤]، والترمذي : كتاب: تفسير القرآن، [٣١٤٠، ٣١٤١].

(٣) لا شك أن المقصود بكلام الناس عن الروح إنما هو بما أخبر الله به عنها من أحكام تخصها قبل الموت وبعده، وما تناله من نعيم أو عذاب، وأما حقيقتها وكنهها وما سوى ذلك فلا يتكلم فيه ذو دين أو عقل إذ جعل الله علم ذلك سراً كتيماً والعلوم الطبية مع تطورها لم ترم إلى ذلك السر وصولاً وصدق الله إذ يقول : ﴿قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ (الإسراء / ٨٥).

الله تعالى في آدم ، فإن قال لكم هي من الله فقولوا كيف يعذب الله في النار شيئاً هو منه ؟ فسأل جبريل عنها فأنزل الله عز وجل: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾[1] يقول: هو خلق من خلق الله ليس هو من الله . ثم ذكر باقي الحديث[2] .

قيل : مثل هذا الإسناد لا يحتج به ، فإنه من تفسير السدي عن أبي مالك وفيه أشياء منكرة ، وسياق هذه القصة في السؤال من الصحاح والمسانيد كلها تخالف سياق السدي، وقد رواها الأعمش، والمغيرة بن مقسم، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله، قال : مر النبي ﷺ على ملأ من اليهود وأنا أمشي معه فسألوه عن الروح قال : فسكت فظننت أنه يوحى إليه فنزلت: ﴿ويسألونك عن الروح﴾[1] يعني اليهود : ﴿قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾[1] .

وكذلك هي في قراءة عبد الله فقالوا : كذلك نجد مثله في التوراة أن الروح من أمر الله عز وجل. رواه جرير بن عبد الحميد وغيره عن المغيرة .

(وروى) يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أتت اليهود إلى النبي ﷺ فسألوه عن الروح، فلم يجبهم النبي ﷺ بشيء ، فأنزل الله عز وجل: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾[1] »[2].

فهذا يدل على ضعف حديث السدي ، وأن السؤال كان بمكة ، فإن هذا الحديث وحديث ابن مسعود صريح في أن السؤال كان بالمدينة مباشرة من اليهود ، ولو كان قد تقدم السؤال والجواب بمكة لم يسكت النبي ﷺ ولبادر إلى جوابهم بما تقدم من إعلام الله له وما أنزله عليه .

بيان اختلاف الروايات عن ابن عباس في تفسير آية : ﴿ويسألونك عن الروح﴾[1]:

وقد اضطربت الروايات عن ابن عباس في تفسير هذه الآية أعظم اضطراب، فإما أن تكون من قبل الرواة أو تكون أقواله قد اضطربت فيها ، ونحن نذكر ذلك

---

(١) (الإسراء / ٨٥).

(٢) [ضعيف]: لأمور ، منها : ضعف إبراهيم بن الحكم بن أبان العدني.

(٣) سبق تخريجه.

فقد ذكرنا رواية السدي عن أبي مالك عنه ، ورواية داود بن أبي هند عن عكرمة عنه تخالفها، وفي رواية داود بن أبي هند هذه اضطراب، فقال مسروق بن المرزبان، وإبراهيم بن أبي طالب عن يحيى بن زكريا عنه إن اليهود أتت النبي ﷺ . الحديث .

(وقال) محمد بن نصر المروزي : حدثنا إسحاق، أنبأنا يحيى بن زكريا، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال : قالت قريش لليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل، فقالوا : سلوه عن الروح فنزلت: ﴿ويسألونك عن الروح﴾ (١) الآية(٢) . وهذا يخالف الرواية الأخرى عنه وحديث ابن مسعود.

وعن ابن عباس رواية ثالثة، قال هشيم : حدثنا أبو بشر، عن مجاهد، عن ابن عباس : قل الروح أي من أمر الله عز وجل، وخلق من خلق الله ، وصور مثل صور بني آدم ، وما نزل من السماء ملك إلا ومعه واحد من الروح(٣) . وهذا يدل على أنها غير الروح التي في ابن آدم .

وعنه رواية رابعة، قال ابن منده : روى عبد السلام بن حرب، عن خصيف، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾ (١) قد نزل من القرآن بمنزل كن، نقول: كما قال الله : ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾ (١) »(٤)ثم ساق من طريق خصيف عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان لا يفسر أربعة أشياء : الرقيم والغسلين والروح وقوله تعالى : ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه﴾ (٥)»(٦) .

وعنه رواية خامسة رواها جويبر، عن الضحاك، عنه : أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن الروح فقال : قال الله تعالى: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ (١) يعني خلقاً من خلقي، ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾(١) يعني لو سئلتم عن خلق أنفسكم

---

(١) (الإسراء/ ٨٥).

(٢) رواه أحمد : (١/ ٢٥٥)، والترمذي : كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة بني إسرائيل، [٣١٤٠]، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

(٣) [ضعيف]: لأمور، منها لوجود أبي بشر وهو جعفر بن إياس، ثقة، ولكن ضعفه شعبة عن حبيب ابن سالم ، وعن مجاهد.

(٤) [ضعيف]: لأمور ، منها : ضعف خصيف بن عبد الرحمن الجزري ، سيء الحفظ، خلط، رمي بالإرجاء.

(٥) (الجاثية / ١٣).

(٦) [ضعيف]: لأمور، منها : ضعف خصيف بن عبد الرحمن الجزري، سبق الحديث عنه.

لصفتها[١]. وعنه رواية سادسة، روى عبد الغني بن سعيد، حدثنا موسى بن عبد الرحمن، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس، وعن مقاتل، عن الضحاك، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ويسألونك عن الروح﴾[٢] وذلك أن قريشاً اجتمعت فقال بعضهم لبعض والله ما كان محمد يكذب، ولقد نشأ فينا بالصدق والأمانة فأرسلوا جماعة إلى اليهود فاسألوهم عنه وكانوا مستبشرين به ، ويكثرون ذكره، ويدعون نبوته، ويرجون نصرته موقنين بأنه سيهاجر إليهم ويكونون له أنصاراً، فسألوهم عنه فقالت لهم اليهود: سلوه عن ثلاث، سلوه عن الروح وذلك أنه ليس في التوراة قصته ولا تفسيره إلا ذكر اسم الروح فأنزل الله تعالى: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾[٢] يريد من خلق ربي عز وجل[*] .

بيان أن معنى الروح في القرآن على عدة أوجه:

والروح في القرآن على عدة أوجه :

(أحدها) الوحي ، كقوله تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿ يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾[٤] وسمى الوحي روحاً لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح .

(الثاني) القوة والثبات والنصرة التي يؤيد بها من شاء من عباده المؤمنين كما قال: ﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه﴾[٥] .

(الثالث) جبريل، كقوله تعالى: ﴿نزل به الروح الأمين ﴿١٩٣﴾ على قلبك﴾[٦]

---

(١) [ضعيف جدًا]: لأمور ، منها : ضعف جويبر ، وهو ابن سعيد الأزدي، راوي التفسير ، وهو ضعيف جدًا.

(٢) (الإسراء / ٨٥) .

(*) [ضعيف]: لأمور، منها : الطريق الأول فيه عبد الغني بن سعيد، وقد ضعفه ابن يونس، وانظر «ميزان الاعتدال» : (٢/ ٦٤٢)، و«لسان الميزان» (٤/ ٥٤).

والوجه الآخر فيه مقاتل ولسنا ندري أهو مقاتل بن حيان النبطي الثقة، أم مقاتل بن سليمان بن بشير، منكر الحديث الذي رمي بالكذب والتشبيه، وأنه لم يدرك الضحاك، وأن الضحاك قد مات قبل مولده بأربع سنين، وعمومًا فهو أثر موقوف على ابن عباس -رضي الله عنهما.

(٣) (الشورى / ٥٢). (٤) (غافر / ١٥).

(٥) (المجادلة / ٢٢). (٦) (الشعراء / ١٩٣ : ١٩٤).

وقال تعالى: ﴿من كان عدوًا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله﴾[1] وهو روح القدس قال تعالى: ﴿قل نزله روح القدس﴾[2] .

(الرابع) الروح التي سأل عنها اليهود فأجيبوا بأنها من أمر الله وقد قيل إنها الروح المذكورة في قوله تعالى: ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفًا لا يتكلمون﴾[3] وإنها الروح المذكور في قوله: ﴿تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم﴾[4] .

(الخامس) المسيح ابن مريم، قال تعالى: ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾[5] وأما أرواح بني آدم فلم تقع تسميتها في القرآن إلا بالنفس، قال تعالى: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة﴾[6] وقال تعالى: ﴿ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾[7] وقال تعالى: ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾[8] وقال تعالى: ﴿أخرجوا أنفسكم﴾[9] وقال تعالى: ﴿ونفس وما سواها ۝ فألهمها فجورها وتقواها﴾[10] وقال تعالى: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾[11] وأما في السنة فجاءت بلفظ النفس والروح .

والمقصود أن كونها من أمر الله لا يدل على قدمها وأنها غير مخلوقة.

[فصل] : في بيان إضافات الصفات إلى الله تعالى:

وأما استدلالهم بإضافتها إليه سبحانه بقوله تعالى: ﴿ونفخت فيه من روحي﴾[12] فينبغي أن يعلم أن المضاف إلى الله سبحانه نوعان، صفات لا تقوم بأنفسها كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر، فهذه إضافة صفة إلى الموصوف بها فعلمه وكلامه وإرادته وقدرته وحياته وصفات له غير مخلوقة وكذلك وجهه ويده سبحانه .

(والثاني) إضافة أعيان منفصلة عنه كالبيت والناقة والعبد والرسول والروح،

---

(١) (البقرة / ٩٧).
(٢) (النحل / ١٠٢).
(٣) (النبأ / ٣٨).
(٤) (القدر/ ٤).
(٥) (النساء / ١٧١).
(٦) (الفجر / ٢٧).
(٧) (القيامة / ٢).
(٨) (يوسف / ٥٣).
(٩) (الأنعام / ٩٣).
(١٠) (الشمس/ ٨).
(١١) (آل عمران / ١٨٥).
(١٢) (الحجر / ٢٩) ، (ص/ ٧٢).

فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه ومصنوع إلى صانعه لكنها إضافة تقتضي تخصيصاً وتشريفاً يتميز به المضاف عن غيره كبيت الله وإن كانت البيوت كلها ملكاً له، وكذلك ناقة الله والنوق كلها ملكه وخلقه لكن هذه إضافة إلى إلهيته تقتضي محبته لها وتكريمه وتشريفه بخلاف الإضافة العامة إلى ربوبيته حيث تقتضي خلقه وإيجاده، فالإضافة العامة تقتضي الإيجاد والخاصة تقتضي الاختيار، والله يخلق ما يشاء ويختار مما خلقه كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾[1] وإضافة الروح إليه من هذه الإضافة الخاصة لا من العامة ولا من باب إضافة الصفات، فتأمل هذا الموضع فإنه يخلصك من ضلالات كثيرة وقع فيها من شاء الله من الناس، فإن قيل فما تقولون في قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[2]؟ فأضاف النفخ إلى نفسه وهذا يقتضي المباشرة منه تعالى كما في قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[3] ولهذا فرق بينهما في الذكر في الحديث الصحيح في قوله ﷺ: «فيأتون آدم فيقولون أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء»[4]. فذكروا لآدم أربع خصائص اختص بها عن غيره، ولو كانت الروح التي فيه إنما هي من نفخة الملك لم يكن له خصيصة بذلك وكان بمنزلة المسيح، بل وسائر أولاده فإن الروح حصلت فيهم من نفخة الملك وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[5] فهو الذي سواه بيده وهو الذي نفخ فيه من روحه؟ قيل: هذا الموضع هو الذي أوجب لهذه الطائفة أن قالت بقدم الروح، وتوقف فيها آخرون. ولم يفهموا مراد القرآن. فأما الروح المضافة إلى الرب فهي روح مخلوقة أضافها إلى نفسه تخصيص وتشريف كما بينا. وأما النفخ فقد قال تعالى في مريم: ﴿التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا﴾ وقد أخبر في موضع آخر أنه أرسل إليها الملك فنفخ في فرجها وكان النفخ مضافاً إلى الله أمراً وإذناً وإلى الرسول مباشرة.

(١) (القصص / ٦٨). (٢) (الحجر / ٢٩).

(٣) (ص/ ٧٥).

(٤) [صحيح]: وهو جزء من حديث الشفاعة الطويل، والذي مطلعه: كنا مع النبي ﷺ في دعوة، فرفعت إليه الذراع -وكانت تعجبه- فنهس منها نهسة، وقال: «أنا سيد الناس يوم القيامة .....» الحديث رواه البخاري: كتاب: الأنبياء، باب: قوله عز وجل: ﴿ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه﴾ (هود/ ٢٥)، [٣٣٤٠]، ومسلم: كتاب: الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها، [١٩٣].

(٥) (الحجر / ٢٩).

يبقى ههنا أمران : (أحدهما) أن يقال : فإذا كان النفخ حصل في مريم من جهة الملك وهو الذي ينفخ الأرواح في سائر البشر فما وجه تسمية المسيح روح الله؟ وإذا كان سائر الناس تحدث أرواحهم من هذه الروح فما خاصية المسيح؟ .

(الثاني) أن يقال : فهل تعلق الروح بآدم كانت بواسطة نفخ هذا الروح هو الذي نفخها فيه بإذن الله كما نفخها في مريم أم الرب تعالى هو الذي نفخها بنفسه كما خلقه بيده ؟ قيل : لعمر الله إنهما سؤالان مهمان ! فأما الأول فالجواب عنه أن الروح الذي نفخ في مريم هو الروح المضاف إلى الله الذي اختصه لنفسه وأضافه إليه، وهو روح خاص من بين سائر الأرواح وليس بالملك الموكل بالنفخ في بطون الحوامل من المؤمنين والكفار، فإن الله سبحانه وكل بالرحم ملكاً ينفخ الروح في الجنين فيكتب رزق المولود وأجله وعمله وشقاوته وسعادته .

وأما هذا الروح المرسل إلى مريم فهو روح الله الذي اصطفاه من الأرواح لنفسه فكان لمريم بمنزلة الأب لسائر النوع، فإن نفخته لما دخلت في فرجها كان ذلك بمنزلة لقاح الذكر للأنثى من غير أن يكون هناك وطء ، وأما ما اختص به آدم فإنه لم يخلق كخلقة المسيح من أم ، ولا كخلقة سائر النوع من أب وأم ، ولا كان الروح الذي نفخ الله فيه منه هو الملك الذي ينفخ الروح في سائر أولاده ، ولو كان كذلك لم يكن لآدم به اختصاص وإنما ذكر في الحديث ما اختص به على غيره وهو أربعة أشياء: خلق الله له بيده، ونفخ فيه من روحه، وإسجاد ملائكته له، وتعليمه أسماء كل شئ، فنفخه فيه من روحه يستلزم نافخاً ونفخاً ومنفوخاً منه، فالمنفوخ منه هو الروح المضافة إلى الله، فمنها سرت النفخة في طينة آدم، والله تعالى هو الذي نفخ في طينته من تلك الروح، هذا هو الذي دل عليه النص . وأما كون النفخة بمباشرة منه سبحانه كما خلقه بيده، أو أنها حصلت بأمره كما حصلت في مريم عليها السلام فهذا يحتاج إلى دليل . والفرق بين خلق الله له بيده ونفخه فيه من روحه أن اليد غير مخلوقة والروح مخلوقة، والخلق فعل من أفعال الرب، وأما النفخ فهل هو من أفعاله القائمة به أو هو مفعول من مفعولاته القائمة بغيره المنفصلة عنه؟ وهذا مما لا يحتاج إلى دليل، وهذا بخلاف النفخ في فرج مريم فإنه مفعول من مفعولاته، وأضافه إليه لأنه بإذنه وأمره، فنفخه في آدم هل هو فعل له أو مفعول؟ وعلى كل تقدير فالروح الذي نفخ منها في آدم روح مخلوقة غير قديمة وهي مادة روح آدم ، فروحه أولى أن تكون حادثة مخلوقة وهو المراد .

المسألة الثامنة عشرة

وهي تقدم خلق الأرواح على الأجساد أو تأخر خلقها عنها

فهذه المسألة للناس فيها قولان معروفان حكاهما شيخ الإسلام وغيره . وممن ذهب إلى تقدم خلقها محمد بن نصر المروزي وأبو محمد بن حزم وحكاه ابن حزم إجماعاً. ونحن نذكر حجج الفريقين وما هو الأولى منها بالصواب .

دلائل من يقول بتقدمخلق الأرواح بعد خلق الأبدان:

قال من ذهب إلى تقدم خلقها على خلق البدن: قال الله تعالى: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا﴾(١) قالوا: ثم للترتيب والمهلة، فقد تضمنت الآية أن خلقها مقدم على أمر الله للملائكة بالسجود لآدم، ومن المعلوم قطعاً أن أبداننا حادثة بعد ذلك فعلم أنها الأرواح. قالوا: ويدل عليه قوله سبحانه: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾(٢) قالوا وهذا الاستنطاق والإشهاد إنما كان لأرواحنا إذ لم تكن الأبدان حينئذ موجودة . ففي الموطأ (حدثنا) مالك عن زيد بن أبي أنيسة أن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أخبره عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم﴾(٢) فقال: سمعت رسول الله ﷺ يسأل عنها فقال: «خلق الله آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريته فقال : خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون، وخلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، فقال رجل: يا رسول الله ففيم العمل؟ فقال رسول الله ﷺ : إن الله إذا خلق الرجل للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل أهل النار فيدخله به النار»(٣) .

---

(١) (الأعراف / ١١).   (٢) (الأعراف / ١٧٢).

(٣) [ضعيف]: رواه مالك في موطأه: كتاب: القدر، باب: النهي عن القول بالقدر، [٢] ، وأحمد في مسنده : (١/ ٤٤ : ٤٥)، وأبو داود : كتاب: السنة، باب: في القدر، [٤٧٠٣]، والترمذي : كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأعراف ، [٣٠٧٥] ، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر، وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم بن يسار، وبين عمر رجلاً مجهولاً . وصححه الشيخ أحمد شاكر [٣١١]، وقال الألباني في «ضعيف أبي داود» : صحيح إلا مسح الظهر [١٠١١] انظر «الضعيفة»: [٣٠٧١]، وانظر «ضعيف الترمذي » : [٥٩٤].

قال الحـاكم : هذا حديث على شـرط مسلم . وروى الحاكم أيـضاً من طريق هشام بن زيد[(١)]، عن زيد بن أسلم، عن أبي صـالح، عن أبي هريرة مرفـوعاً: «لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خـالقها إلى يوم القيامة أمثال الذر، ثم جعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور. ثم عرضهم على آدم فقال: من هؤلاء يا رب؟ قال: هؤلاء ذريتك فـرأى رجلاً منهم أعجـبه وبيص ما بين عـينيه فقال يا رب من هذا؟ فقال : هذا ابنك داود يكون في آخر الأمم ، قال : كم جعلت له من العمر؟ قال : ستين سنة، قـال : يا رب زده من عمري أربعين سنة، فقال الله تعالى إذاً يكتب ويختم فلا يبدل، فلمـا انقضى عمر آدم جاء ملك الموت قال: أو لم يبق من عمري أربعون سنة؟ فقال : أو لم تجعلهـا لابنك داود؟ قال فجحد فجحدت ذريتـه، ونسي فنسـيت ذريته، وخطئ فـخطئت ذريتـه»[(٢)]. قال : هذا عـلى شرط مسلم. ورواه التـرمذي وقال: هذا حـديث حسن صـحيح. ورواه الإمام أحـمد من حديث ابن عبـاس قال: لما نزلت آية الدين قال رسول الـله ﷺ: «إن أول من جحد آدم»[(٣)]. وزاد محمد بن سعد: ثم أكمل الله لآدم ألف سنة ولداود مائة سنة .

وفي صحيح الحـاكم أيضاً من حديث أبي جعفـر الرازي حدثنا الربيع بن أنس عن أبي العـالية، عن أبي بن كـعب في قوله تعـالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[(٤)] الآية قال: جمعـهم له يومئذ جميعاً ما هو كـائن إلى يوم القيامة فـجعلهم أرواحـاً ثم صورهم واسـتنطقهـم فتكلمـوا وأخذ عليـهم العهـد والميثـاق ﴿وأشهدهم على أنفـسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القـيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾ قال: فإني أشـهد عليكم السماوات السبع والأرضين السـبع وأشهد عليكم أباكم آدم ﴿أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾ فلا تشركوا بي شيئاً

(١) هكذا بالمطبوعة ، والصواب كما في «المستدرك» و«سنن الترمذي» أيضًا: «هشام بن سعد».

(٢) رواه الترمذي : كتـاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأعـراف [٣٠٧٦]، وقال أبو عيسى: هذا حـديث حسن صـحـيح، وقـد روي من غيـر وجـه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، والحـاكم في مستدركه: كتاب : تاريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، باب: ذكر نبي الله داود صاحب الزبور - عليه السلام-، (٢/ ٢٨٥ : ٢٨٦) ، وقـال : هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يـخرجاه، وسكت عنه الذهبي في «التلخيص» . وذكره الألباني في «صحيح الترمذي».

(٣) [صحـيح]: رواه أحمـد : (١/ ٢٥١ ، ٢٩٨، ٢٩٩ ، ٣٧١)، وصحـحه الشـيخ أحـمد شـاكر : [٢٢٧٠، ٢٧١٣، ٣٥١٩]، وهو صدر حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- الطويل.

(٤) (الأعراف / ١٧٢).

فإني أرسل إليكم رسلي يذكرونكم عهدي وميثاقي وأنزل عليكم كتبي، فقالوا: نشهد أنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك، ورفع لهم أبوهم آدم فرأى فيهم الغني والفقير وحسن الصورة وغير ذلك، فقال: رب لو سويت بين عبادك، فقال: إني أحب أن أشكر، ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج وخصوا بميثاق آخر بالرسالة والنبوة فذلك قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾[1] وهو قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾[2] وهو قوله تعالى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى﴾[3] وقوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾[4] وكان روح عيسى من تلك الأرواح التي أخذ عليها الميثاق فأرسل ذلك الروح إلى مريم حين انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً فدخل من فيها[5]، وهذا إسناد صحيح.

فقال إسحاق بن راهويه حدثنا بقية بن الوليد، قال: أخبرني الزبيدي محمد بن الوليد، عن راشد بن سعد، عن عبد الرحمن بن قتادة البصري، عن أبيه، عن هشام ابن حكيم بن حزام أن رجلاً قال: «يا رسول الله أتبتدأ الأعمال أم قد مضى القضاء؟ فقال: إن الله لما أخرج ذرية آدم من ظهره أشهدهم على أنفسهم ثم أفاض بهم في كفيه فقال: هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار، فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار».

قال إسحاق: وأنبأنا النضر، حدثنا أبو معشر، عن سعيد المقبري ونافع مولى الزبير، عن أبي هريرة قال: لما أراد الله أن يخلق آدم -فذكر خلق آدم- فقال له: يا آدم أي يدي أحب إليك أن أريك ذريتك فيها؟ فقال: يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين، فبسط يمينه فإذا فيها ذريته، كلهم ما هو خالق إلى يوم القيامة الصحيح على هيئته، والمبتلى على هيئته، والأنبياء على هيئتهم، فقال: ألا أعفيتهم كلهم؟، فقال: إني أحب أن أشكر[6]. وذكر الحديث.

---

(١) (الأحزاب / ٧).
(٢) (الروم / ٣٠).
(٣) (النجم / ٥٦).
(٤) (الأعراف / ١٠٢).
(٥) رواه الحاكم في مستدركه: كتاب: التفسير، تفسير سورة الأعراف، (٢/ ٣٢٣ : ٣٢٤)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصححه الذهبي في «التلخيص».
(٦) [ضعيف]: لأمور، منها: ضعف أبي معشر، وهو نجيح عبد الرحمن السندي، انظر «تقريب التهذيب»: (٢/ ٢٩٨).

وقال محمد بن نصر: حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا سعيد بن أبي مريم، أخبرنا الليث بن سعد، حدثني ابن عجلان، عن سعد بن أبي سعيد المقبري، عن أبيه، عن عبد الله بن سلام قال: خلق الله آدم ثم قال بيديه فقبضهما فقال: اختر يا آدم، فقال: اخترت يمين ربي وكلتا يديه يمين، فبسطها فإذا فيها ذريته، فقال: من هؤلاء يا رب؟ قال: من قضيت أن أخلق من ذريتك من أهل الجنة إلى أن تقوم الساعة(١).

قال: وأخبرنا إسحاق، حدثنا جعفر بن عون، أنبأنا هشام بن سعد، عن زيد ابن أسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، «عن النبي ﷺ قال: لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة»(٢).

وحدثنا إسحاق وعمرو بن زرارة أخبرنا إسماعيل عن كلثوم بن جبر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾(٣) الآية قال: مسح ربك ظهر آدم فخرجت منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة بنعمان هذا الذي رواه عرفة فأخذ ميثاقهم «ألست بربكم قالوا بلى شهدنا»(٤). وزواه أبو جمرة الضبعي ومجاهد وحبيب بن أبي ثابت وأبو صالح وغيرهم عن ابن عباس. وقال إسحاق: أخبرنا جرير، عن منصور، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو، في هذه الآية قال: أخذهم كما يؤخذ مشط بالرأس.

(وحدثنا) حجاج عن ابن جريج، عن الزبير بن موسى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن الله ضرب منكبه(٥) الأيمن فخرجت كل نفس مخلوقة للجنة بيضاء نقية، فقال: هؤلاء أهل الجنة، ثم ضرب منكبه الأيسر فخرجت كل نفس مخلوقة للنار سوداء فقال: هؤلاء أهل النار، ثم أخذ عهده على

---

(١) [ضعيف]: لأمور، منها: ضعف سعد بن سعيد بن أبي سعيد الْمَقْبُرِيُّ، قال أبو أحمد بن عَدِي: عامة ما يرويه غير محفوظ، ولم أر للمتقدمين فيه كلامًا إلا أني ذكرته لأبين أن رواياته عن أخيه عن أبيه عامتها لا يتابعه أحد عليها.

(٢) سبق تخريجه قريبًا.

(٣) (الأعراف / ١٧٢).

(٤) رواه أحمد: (١/ ٢٧٢) مرفوعًا، وكذا الحاكم: كتاب: تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، باب: ذكر آدم عليه السلام، (٢/ ٥٤٤)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي في «التلخيص»: صحيح، وصححه الألباني في «الصحيحة»: (٤/ ١٥٨)، [١٦٢٣].

(٥) أي: منكب آدم عليه السلام.

الإيمان به، والمعرفة له ولأمره، والتصديق به وبأمره من بني آدم كلهم ، وأشهدهم على أنفسهم فآمنوا وصدقوا وعرفوا وأقروا (١).

(وذكر) محمد بن نصر من تفسير السدي عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمذاني عن ابن مسعود عن أناس من أصحاب النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم﴾ (٢) الآية لما أخرج الله آدم من الجنة قبل أن يهبط من السماء مسح صفحة ظهر آدم اليمنى فأخرج منه ذرية بيضاء مثل اللؤلؤ وكهيئة الذر، فقال لهم: ادخلوا الجنة برحمتي، ومسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منه ذرية سوداء كهيئة الذر فقال: ادخلوا النار ولا أبالي، فذلك حيث يقول: «وأصحاب اليمين» «وأصحاب الشمال» ثم أخذ منهم الميثاق فقال: ﴿ألست بربكم قالوا بلى﴾ فأعطاه طائفة طائعين وطائفة كارهين على وجه التقية فقال هو والملائكة ﴿شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم﴾ فليس أحد من ولد آدم إلا وهو يعرف أن الله ربه ، ولا مشرك إلا وهو يقول: إنا وجدنا آباءنا على أمة، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ﴾ (٢) وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ (٣) وقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤) قال يعني يوم أخذ عليهم الميثاق .

قال إسحاق : وأخبرنا روح بن عبادة، حدثنا موسى بن عبيدة الربذي، قال: سمعت محمد بن كعب القرظي يقول في هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ﴾ (٢) الآية أقروا له بالإيمان والمعرفة، الأرواح قبل أن يخلق أجسادها(٥).

قال: وحدثنا الفضل بن موسى، عن عبد الملك، عن عطاء في هذه الآية قال: أخرجوا من صلب آدم حين أخذ منهم الميثاق ثم ردوا في صلبه (٥).

قال إسحاق: وأخبرنا علي بن الأجلح عن الضحاك قال: إن الله أخرج من ظهر آدم يوم خلقه ما يكون إلى أن تقوم الساعة فأخرجهم مثل الذر فقال: ﴿ألست بربكم قالوا بلى﴾ قالت الملائكة: ﴿شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا

(١) [ضعيف]: لعنعنة ابن جريج وهو : عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الأموي، ثقة فقيه فاضل، مدلس، وكان يرسل كثيراً.

(٢) (الأعراف / ١٧٢).

(٣) (آل عمران / ٨٣).

(٤) (الأنعام / ١٤٩).

(٥) نلاحظ أن هذه كلها آثار موقوفة.

غافلين﴾ ثم قبض قبضة بيمينه فقال: هؤلاء في الجنة، وقبض أخرى فقال: هؤلاء في النار[١].

قال إسحاق: وأخبرنا أبو عامر العقدي، وأبو نعيم الملائي، قال: حدثنا هشام ابن سعد، عن يحيى وليس ابن سعيد، قال: قلت لابن المسيب: ما تقول في العزل؟ قال: إن شئت حدثتك حديثاً هو حق، إن الله سبحانه لما خلق آدم أراه كرامة لم يرها أحداً من خلق الله، أراه كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، فمن حدثك أن يزيد فيهم شيئاً أو ينقص منهم فقد كذب ولو كان لي سبعون ما باليت[١].

وفي تفسير ابن عيينة، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية: ﴿وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها﴾[٢] قال: يوم أخذه الميثاق[١].

(قال إسحاق). فقد كانوا في ذلك الوقت مقرين، وذلك أن الله عز وجل أخبر أنه قال: ﴿ألست بربكم قالوا بلى﴾ والله تعالى لا يخاطب إلا من يفهم عنه المخاطبة، ولا يجيب إلا من فهم السؤال، فإجابتهم إياه بقولهم دليل على أنهم قد فهموا عن الله وعقلوا عنه استشهاده إياهم ﴿ألست بربكم﴾ فأجابوه من بعد عقل منهم للمخاطبة وفهم لها بأن: ﴿قالوا بلى﴾ فأقروا له بالربوبية[١].

[فصل]: ذكر الدليل على أن الأرواح خلقت بعد خلق الأبدان، والجواب عما استدل به القائلون بتقدم خلق الأرواح:

واحتجوا أيضاً بما رواه أبو عبد الله بن منده، أخبرنا محمد بن صابر البخاري، حدثنا محمد بن المنذر بن سعد الهروي[٣]، حدثنا جعفر بن محمد بن هارون المصيصي، حدثنا عتبة بن السكن، حدثنا أرطأة بن المنذر، حدثنا عطاء بن عجلان، عن يونس بن حليس، عن عمرو بن عبسة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق أرواح العباد قبل العباد بألفي عام فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف». فهذا بعض ما احتج به هؤلاء[٤].

قال الآخرون: الكلام معكم في مقامين: أحدهما ذكر الدليل على الأرواح

(١) نلاحظ أن هذه كلها آثار موقوفة. (٢) (آل عمران / ٨٣).

(٣) هكذا بالمطبوعة وأحسبه محمد بن المنذر بن أسد الهروي، وإن كان كذلك فهو مجهول.

(٤) [موضوع]لأمور، منها:

١ - وجود عتبة بن السكن، قال الدارقطني: ضعيف جداً.

أنها خلقت بعد خلق الأبدان، الثاني: الجواب عما استدللتم به.

فأما المقام الأول فقد قال تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾(١) وهذا خطاب للإنسان الذي هو روح وبدن فدل على أن جملته مخلوقة بعد خلق الأبوين، وأصرح منه قوله: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله﴾(٢) الآية وهذا صريح في أن خلق جملة النوع الإنساني بعد خلق أصله.

فإن قيل: فهذا لا ينفي تقدم خلق الأرواح على أجسادها وإن خلقت بعد خلق أبي البشر كما دلت عليه الآثار المتقدمة.

قيل: سنبين إن شاء الله تعالى أن الآثار المذكورة لا تدل على سبق الأرواح الأجساد سبقاً مستقراً ثابتاً. وغايتها أن تدل بعد صحتها وثبوتها على أن بارئها وفاطرها سبحانه صور النسم وقدر خلقها وآجالها وأعمالها، واستخرج تلك الصور من مادتها ثم أعادها إليها، وقدر خروج كل فرد من أفرادها في وقته المقدر له، ولا تدل على أنها خلقت خلقاً مستقراً ثم استمرت موجودة حية عالمة ناطقة كلها في موضع واحد ثم ترسل منها إلى الأبدان جملة بعد جملة كما قاله أبو محمد بن حزم فهل تحتمل الآثار ما لا طاقة لنا به؟ نعم الرب سبحانه يخلق منها جملة بعد جملة على الوجه الذي سبق به التقدير أولاً فيجيء الخلق الخارجي مطابقاً للتقدير السابق كشأنه تعالى في جميع مخلوقاته فإنه قدر لها أقداراً وآجالاً وصفات وهيئات ثم أبرزها إلى الوجود مطابقة لذلك التقدير الذي قدره لها لا تزيد عليه ولا تنقص منه.

فالآثار المذكورة إنما تدل على إثبات القدر السابق، وبعضها يدل على أنه سبحانه استخرج أمثالهم وصورهم وميز أهل السعادة من أهل الشقاوة. وأما مخاطبتهم واستنطاقهم وإقرارهم له بالربوبية وشهادتهم على أنفسهم بالعبودية فمن

= ٢ - وأما عطاء بن عجلان فهو كذاب، قال ابن معين عنه: ليس بشيء، كذاب. وقال مرة: كان يوضع له الحديث فيحدث به. وقال الفلاس: كذاب. وقال البخاري: منكر الحديث. وقال أبو حاتم والنسائي: متروك. وقال الدارقطني: ضعيف لا يعتبر به، وقال مرة: متروك.

وأما مسألة تآلف الأرواح المتعارفة، واختلاف الأرواح المتناكرة فصحيحة سبق تخريج حديثها.

(١) (الحجرات / ١٣).

(٢) (النساء / ١).

قاله من السلف فإنما هو بناء منه على فهم الآية والآية لم تدل على هذا بل دلت على خلافه .

وأما حديث مالك فقال أبو عـمرو: هو حديث منقطع، مسلم بن يسار لم يلق عمر بن الخطاب وبينهما في هذا الحـديث نعيم بن ربيعة وهو أيضاً مع هذا الإسناد لا يقوم به حـجة، ومسلم بن يسـار هذا مجهـول قيل إنه مدني وليس بمسلم بن يسار البصري قال ابن أبي خيثمة: قرأت على يحيى بن معين حديث مالك هذا عن زيد بن أبي أنيسة فكتب بيده على مسلم بن يسار لا يعرف .

ثم ساقه أبو عمرو من طريق النسائي (أخبـرنا) محمد بن وهب، حدثنا محمد ابن سلمة، قال حدثـني أبو عبد الرحيم، قال: حدثني زيد بن أبي أنيـسة، عن عبد الحميد ابن عبد الرحمن، عن مسلم بن يسار، عن نعيم بن ربيعة.

ثم ساقه من طريق مخبرة (حدثنا) أحمـد بن عبد الملك بن واقد، حدثنا محمد ابن سلمة، عن أبي عبد الرحيم، عن زيد بن أبي أنيسة، عن عبد الحميد عن مسلم، عن نعيم، قال أبو عمرو: وزيادة من زاد في هذا الحديث نعـيم بن ربيعة ليست حجة أن الذي لم يذكره أحفظ وإنما تقبل الزيادة من الحافظ المتقن .

وجـملة القول في هذا الحـديث أنه حديث لـيس إسناده بالقائم لأن مـسلم بن يسار ونعيم بن ربيعـة جميعاً غير معروفين بحـمل العلم ولكن معنى هذا الحديث قد صح عن النبي ﷺ من وجوه كثـيرة ثابتة يطول ذكرها من حـديث عمر بن الخطاب وغيره وجماعة يطول ذكرهم .

ومراد أبي عمـر الأحاديث الدالة على القدر السـابق فإنها هي التي ساقـها بعد ذلك فذكر حديث عبد الله بن عمر في القدر وقال في آخره: «وسأله رجل من مزينة أو جهينة فقـال يا رسول الله: ففيم العمل؟ فقـال: "إن أهل الجنة ييسرون لعلم أهل الجنة وأهل النار ييسرون لعمل أهل النار»[1].

قـال : وروى هذا المعنى في القدر عن النـبي ﷺ علي بن أبي طالب وأبي بن كعب وعبد الله بن عـباس وابن عمر وأبو سعيد وأبو سريحة الغـفاري وعبد الله بن مسعـود وعبد الله بن عمرو وعـمران بن حصين وعائشة وأنس بن مـالك وسراقة بن

(١) سبق تخريجه .

جعشم وأبو موسى الأشعري وعبادة بن الصامت، وأكثر أحاديث هؤلاء لها طرق شتى ثم ساق كثيراً منها بإسناده.

وأما حديث أبي صالح عن أبي هريرة فإنما يدل على استخراج الذرية وتمثلهم في صور الذر، وكان منهم حينئذ المشرق والمظلم وليس فيه أنه سبحانه خلق أرواحهم قبل الأجساد وأقرها بموضع واحد، ثم يرسل كل روح من تلك الأرواح عند حدوث بدنها إليه، نعم هو سبحانه يخص كل بدن بالروح التي قدر أن تكون له في ذلك الوقت، وأما أنه خلق نفس ذلك البدن في ذلك الوقت وفرغ من خلقها وأودعها في مكان معطلة عن بدنها حتى إذا أحدث بدنها أرسلها إليه من ذلك المكان فلا يدل شئ من الأحاديث على ذلك ألبتة لمن تأملها.

وأما حديث أبي بن كعب فليس هو عن النبي ﷺ وغايته لو صح، ولم يصح، أن يكون من كلام أبي، وهذا الإسناد يروى به أشياء منكرة جداً مرفوعة وموقوفة، وأبو جعفر الرازي وثق وضعف، وقال علي بن المديني: كان ثقة، وقال أيضاً: كان يخلط، وقال ابن معين: هو ثقة، وقال أيضاً: يكتب حديثه إلا أنه يخطئ، وقال الإمام أحمد: ليس بقوي في الحديث، وقال أيضاً: صالح الحديث، وقال الفلاس: سيئ الحفظ، وقال أبو زرعة: يهم كثيراً، وقال ابن حبان: ينفرد بالمناكير عن المشاهير.

قلت: ومما ينكر من هذا الحديث قوله فكان روح عيسى من تلك الأرواح التي أخذ عليها الميثاق، فأرسل ذلك الروح إلى مريم حين انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً، فدخل فيها؟ ومعلوم أن الروح الذي أرسل إلى مريم ليس هو روح المسيح بل ذلك الروح نفخ فيها فحملت بالمسيح، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ (١) فروح المسيح لا يخاطبها عن نفسه بهذه المخاطبة قطعاً، وفي بعض طرق حديث أبي جعفر هذا أن روح المسيح هو الذي خاطبها وهو الذي أرسل إليها.

وها هنا أربع مقامات:

(أحدها) أن الله سبحانه استخرج صورهم وأمثالهم فميز شقيهم وسعيدهم

(١) (مريم / ١٧ : ١٩).

ومعافاهم من مبتلاهم.

(الثاني) أن الله سبحانه أقام عليـهم الحجة حينئذ وأشهدهم بربوبيتـه واستشهد عليهم ملائكته .

(الثالث) أن هذا هو تفسير قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم﴾(١).

(الرابع) أنه أقر تلك الأرواح كلها بـعد إخراجها بمكان وفـرغ من خلقها وإنما يتجدد كل وقت إرسال جملة منها بعد جملة إلى أبدانها.

فأما المقام الأول: فالآثار متظاهرة به مرفوعة وموقوفة.

وأما المقام الثاني: فإنما أخذ من أخذه من المفسـرين من الآية وظنوا أنه تفسيرها وهذا قول جـمهور المفـسرين من أهل الأثر، قـال أبو إسحاق : جـائز أن يكون الله سبحـانه جعل لأمثال الذر التي أخرجـها فهماً تعقل به كـما قال: ﴿قالت نملةٌ يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم﴾(٢) وقد سخر مع داود الجبال تسبح معه والطير.

وقال ابن الأنباري: مذهب أهل الحديث وكبراء أهل العلم في هذه الآية أن الله أخرج ذرية آدم من صلبه وأصلاب أولاده وهم في صور الذر فـأخذ عليهم الميثاق أنه خالقهم وأنهم مصنوعـون، فاعترفوا بذلك وقبلوا، وذلك بعد أن ركب فـيهم عقولاً عرفوا بهـا ما عرض عليهم كـما جعل للجبـل عقلاً حين خوطب، وكمـا فعل ذلك بالبعير لما سجد، والنخلة حتى سمعت وانقادت حين دعيت .

وقال الجـرجاني: ليس بين قول النبـي ﷺ إن الله مسح ظهر آدم فـأخرج منه ذريته وبين الآية اختلاف بحمد الله لأنه عز وجل إذا أخذهم من ظهر آدم فقد أخذهم من ظهور ذريته لأن ذرية آدم ذرية لذريته بعضهم من بعض وقوله تعالى: ﴿أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾(٣) أي عن الميثـاق المأخوذ عليهم، فـإذا قالوا ذلك كانت الملائكة شـهوداً عليهم بأخذ الميـثاق، قال : وفي هذا دليل على التفـسير الذي جاءت به الرواية من أن الله تعـالى قال للملائكة: اشهـدوا، فقالوا: شهـدنا، قال: وزعم بعض أهل العلم أن الميـثاق إنما أخـذ على الأرواح دون الأجـساد، إن الأرواح

(١) (الأعراف / ١٧٢). (٢) (النمل / ١٨).

(٣) (الأعراف / ١٧٢).

هي التي تعقل وتفهم ولها الثواب وعليها العقاب، والأجساد أموات لا تعقل ولا تفهم، قال: وكان إسحاق بن راهويه يذهب إلى هذا المعنى وذكر أنه قول أبي هريرة، قال إسحاق: وأجمع أهل العلم أنها الأرواح قبل الأجساد استنطقهم وأشهدهم، قال الجرجاني: واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ﴾(١) والأجساد قد بليت وضلت في الأرض، والأرواح ترزق وتفرح، وهي التي تلذ وتألم وتفرح وتحزن وتعرف وتنكر وبيان ذلك في الأحلام موجود أن الإنسان يصبح وأثر لذة الفرح وألم الحزن باق في نفسه مما تلاقي الروح دون الجسد، قال: وحاصل الفائدة في هذا الفصل أنه سبحانه قد أثبت الحجة على كل منفوس ممن يبالغ وممن لم يبلغ بالميثاق الذي أخذه عليهم، وزاد على من بلغ منهم الحجة بالآيات والدلائل التي نصبها في نفسه وفي العالم وبالرسل المنفذة إليهم مبشرين ومنذرين وبالمواعظ بالمثلات المقولة إليهم أخبارها، غير أنه عز وجل لا يطالب أحداً منهم من الطاعة إلا بقدر ما لزمه من الحجة، وركب فيهم من القدرة، وآتاهم من الأدلة. وبين سبحانه ما هو عامل في البالغين الذين أدركوا الأمر والنهي، وحجب عنا علم ما قدره في غير البالغين، إلا أنا نعلم أنه عدل لا يجور في حكمه، وحكيم لا تفاوت في صنعه، وقادر لا يسأل عما يفعل له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين .

[فصل] ونازع هؤلاء غيرهم في كون هذا معنى الآية

وقالوا: معنى قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾(٢) أي أخرجهم وأنشأهم بعد أن كانوا نطفاً في أصلاب الآباء إلى الدنيا على ترتيبهم في الوجود، وأشهدهم على أنفسهم أنه ربهم بما أظهر لهم من آياته وبراهينه التي تضطرهم إلى أن يعلموا أنه خالقهم، فليس من أحد إلا وفيه من صنعة ربه ما يشهد على أنه بارئه ونافذ الحكم فيه، فلما عرفوا ذلك ودعاهم كل ما يرون ويشاهدون إلى التصديق به كانوا بمنزلة الشاهدين والمشهدين على أنفسهم بصحته كما قال في غير هذا الموضع ﴿شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾ يريدهم بمنزلة الشاهدين وإن لم يقولوا نحن كفرة، كما تقول كما شهدت جوارحي بقولك تريد قد عرفته، فكأن جوارحي

(١) (آل عمران / ١٦٩).

(٢) (الأعراف / ١٧٢).

لو استشهدت وفي وسعها أن تنطق لشـهدت، ومن هذا إعلامه وتبيينه أيضاً: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ يريد اعلم وبين فـأشـبـه ذلك شهـادة من شـهـد عند الحكام وغيرهم، هذا كلام ابن الأنباري.

وزاد الجرجاني بياناً لهذا القول فقـال حاكياً عن أصحابه: إن الله لما خلق الخلق ونفذ علمه فـيهم بما هو كائن وما لم يكن بعد مما هو كـائن، كالكائن إذ علمه بكونه مانع من غير كونه. شائع في مجاز العربية أن يوضع ما هو منتظر بعد مما لم يقع بعد موقع الواقع لسـبق علمه بوقـوعه كمـا قال عز وجل في مـواضع من القرآن كـقوله تعالى: ﴿ونادى أصحاب النار﴾[1] ﴿ونادى أصحاب الجنة﴾[2] ﴿ونادى أصحاب الأعراف﴾[3] قـال فيكون تأويل قـوله: ﴿وإذ أخـذ ربك﴾[4] وإذ يأخذ ربك[5]، وكذلك قوله: ﴿وأشهدهم على أنفسهم﴾[6] أي ويشهدهم مما ركبـه فيهم من العقل الذي يكون به الفـهم ويجب به الثواب والعـقاب، وكل من ولد وبلغ الحنـث وعقل الضر والنفع وفهـم الوعد والوعيد والثواب والعـقاب صار كأن الله تعـالى أخذ عليه الميثـاق في التوحيـد بما ركب فيه من العقـل وأراه من الآيات والدلائل على حدوثه، وأنه لا يجوز أن يكون قد خلق نفسه، وإذا لم يجز ذلك فلا بد له من خالق هو غيره ليس كمثله . وليـس من مخلوق يبلغ هذا المبلغ ولم يقدح فيـه مانع من فهم إلا إذا حزبه أمر يفزع إلى الله عز وجل حين يرفع رأسه إلى السماء ويشير إليها بإصبعه علماً منه بأن خالقه تعالى فوقه، وإذا كان العقـل الذي منه الفهم والإفهام مؤدياً إلى معرفة ما ذكرنا ودالاً عليه فكل من بلغ هذا المبلغ فقد أخذ عليه العهد والميثاق، إذ جعل فيه السبب والآلة الذين بهما يؤخذ العهـد والميثاق وجائز أن يقال له قد أقر وأذعن وأسلم كما قال الله عز وجل: ﴿ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً﴾[7].

قال: واحـتجـوا بقوله ﷺ: «رفع القلم عن ثلاث عن الـصبي حتى يحـتلم، وعن المجنون حتى يفيق، وعن النائم حتى ينتبه». وقوله عز وجل: ﴿إنا عرضنا الأمانة

(١) (الأعراف / ٥٠).
(٢) (الأعراف / ٤٤).
(٣) (الأعراف / ٤٨).
(٤) (الأعراف / ١٧٢).
(٥) هكذا بالمطبوعة ، ولا أعرف آية بهذا اللفظ.
(٦) (الأعراف / ١٧٢).
(٧) (الرعد / ١٥).

على السَّموَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾(١) ثم قال تعالى: ﴿وحملها الإنسان﴾(٢) الأمانة هاهنا عهد وميثاق، فامتناع السماوات والأرض والجبال من حمل الأمانة لأجل خلوها من العقل الذي يكون به الفهم والإفهام، وحمل الإنسان إياها لمكان العقل فيه، قال: وللعرب فيها ضروب نظم فمنها قوله :

ضمن القنان لفقعس بثباتها إن القنان لفقعس لا يأتلي

والقنان جبل فذكر أنه قد ضمن لفقعس وضمانه لها أنهم كانوا إذ حز بهم أمر من هزيمة أو خوف لجأوا إليه فجعل ذلك كالضمان لهم ومنه قول النابغة :

كأجارف الجولان هلل ربه وجوران منها خاشع متضائل

وأجارف الجولان جبالها وجوران الأرض التي إلى جانبها، وقال هذا القائل إن في قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ ﴾(٣) دليلاً على هذا التأويل لأنه عز وجل أعلم أن هذا الأخذ للعهد عليهم لئلا يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين والغفلة هاهنا لا تخلو من أحد وجهين إما أن تكون عن يوم القيامة أو عن أخذ الميثاق، فأما يوم القيامة فلم يذكر سبحانه في كتابه أنه أخذ عليهم عهداً وميثاقاً بمعرفة البعث والحساب وإنما ذكر معرفته فقط ، وأما أخذ الميثاق فالأطفال -والأسقاط إن كان هذا العهد مأخوذاً عليهم كما قال المخالف- فهم لم يبلغوا بعد أخذ هذا الميثاق عليهم مبلغاً يكون منهم غفلة عنه فيجحدونه وينكرونه، فمتى تكون هذه الغفلة منهم وهو عز وجل لا يؤاخذهم بما لم يكن منهم، وذكر ما لا يجوز ولا يكون محال؟ وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ ﴾(٤) فلا يخلو هذا الشرك الذي يؤخذون به أن يكون منهم أنفسهم أو من آبائهم، فإن كان منهم فلا يجوز أن يكون ذلك إلا بعد البلوغ وثبوت الحجة عليهم إذ الطفل لا يكون منه شرك ولا غيره وإن كان من غيرهم فالأمة مجمعة على: ﴿أن لا تزر وازرة وزر أخرى﴾ كما قال عز وجل في الكتاب، وليس هذا بمخالف لما روي عن النبي ﷺ: أن الله

---

(١) (الأحزاب / ٧٢).
(٢) (الأحزاب / ٧٢).
(٣) (الأعراف / ١٧٢ : ١٧٣).
(٤) (الأعراف / ١٧٣).

مسح ظهر آدم وأخرج منه ذريته فأخذ عليهم العهد، لأنه ﷺ اقتص قول الله عز وجل فجاء مثل نظمه فوضع الماضي من اللفظ موضع المستقبل. قال: وهذا شبيه القصة بقصة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾(١) فجعل سبحانه ما أنزل على الأنبياء من الكتاب والحكمة ميثاقاً أخذه من أممهم بعدهم يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾(٢) ثم قال للأمم: ﴿أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾(٣) فجعل سبحانه بلوغ الأمم كتابه المنزل على أنبيائهم حجة عليهم كأخذ الميثاق عليهم وجعل معرفتهم به إقراراً منهم.

قلت: وشبيه به أيضاً قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾(٤) فهذا ميثاقه الذي أخذه عليهم بعد إرسال رسله إليهم بالإيمان به وتصديقه، ونظيره قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾(٥) وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾(٦) فهذا عهده إليهم على ألسنة رسله، ومثله قوله تعالى لبني إسرائيل: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾(٧) ومثله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾(٨) فهذا ميثاق أخذه منهم بعد بعثهم كما أخذ من أممهم بعد إنذارهم، وهذا الميثاق الذي لعن سبحانه من نقضه وعاقبه بقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾(٩) فإنما عاقبهم بنقضهم الميثاق الذي أخذه عليهم على ألسنة رسله وقد صرح به في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(١٠) ولما كانت هذه الآية ونظيرها في سورة مدنية وخاطب بالتذكير بهذا الميثاق فيها أهل الكتاب فإنه ميثاق أخذه عليهم بالإيمان به

(١) (آل عمران / ٨١).
(٢) (آل عمران / ٨١).
(٣) (آل عمران / ٨١).
(٤) (المائدة / ٧).
(٥) (الرعد / ٢٠).
(٦) (يس / ٦١).
(٧) ((البقرة/ ٤٠).
(٨) الأحزاب / ٧).
(٩) (المائدة / ١٣).
(١٠) (البقرة / ٦٣).

برسله، ولما كانت هذه آية الأعراف في سورة مكية، ذكر فيها الميثاق والإشهاد العام لجميع المكلفين ممن أقر بربوبيته ووحدانيته وبطلان الشرك وهو ميثاق وإشهاد تقوم به عليهم الحجة وينقطع به العذر وتحل به العقوبة ويستحق بمخالفته الإهلاك فلا بد أن يكونوا ذاكرين له وعارفين به وذلك ما فطرهم عليه من الإقرار بربوبيته وأنه ربهم وفاطرهم وأنهم مخلوقون مربوبون، ثم أرسل إليهم رسله يذكرونهم مما في فطرهم وعقولهم ويعرفونهم حقه عليهم وأمره ونهيه ووعده ووعيده. ونظم الآية إنما يدل على هذا من وجوه متعددة:

(أحدها) أنه قال: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم﴾ (١) ولم يقل آدم، وبنو آدم غير آدم.

(الثاني) أنه قال: ﴿من ظهورهم﴾ (٢) ولم يقل ظهره، وهذا بدل بعض من كل أو بدل اشتمال وهو أحسن.

(الثالث) أنه قال: ﴿ذريتهم﴾ (٣) ولم يقل ذريته.

(الرابع) أنه قال: ﴿وأشهدهم على أنفسهم﴾ (٤) أي جعلهم شاهدين على أنفسهم فلا بد أن يكون الشاهد ذاكراً لما شهد به وهو إنما يذكر شهادته بعد خروجه إلى هذه الدار لا يذكر شهادة قبلها.

(الخامس) أنه سبحانه أخبر أن حكمة هذا الإشهاد إقامة الحجة عليهم لئلا يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين، والحجة إنما قامت عليهم بالرسل والفطرة التي فطروا عليها كما قال تعالى: ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (٥).

(السادس) تذكيرهم بذلك لئلا يقولوا يوم القيامة ﴿إنا كنا عن هذا غافلين﴾ ومعلوم أنهم غافلون بالإخراج لهم من صلب آدم كلهم وإشهادهم جميعاً ذلك الوقت فهذا لا يذكره أحد منهم.

(السابع) قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ

---

(١) (الأعراف / ١٧٢). (٢) (الأعراف / ١٧٢).
(٣) (الأعراف / ١٧٢). (٤) (الأعراف / ١٧٢).
(٥) (النساء / ١٦٥). (٦) (الأعراف / ١٧٣).

بَعْدِهِمْ﴾(٦) فذكر حكمتين في هذا التعريف والإشهاد:

إحداهما: أن لا يدعوا الغفلة.

والثانية: أن لا يدعوا التقليد، فالغافل لا شعور له والمقلد متبع في تقليده لغيره.

(الثامن) قوله تعالى: ﴿أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾[١] أي لو عذبهم بجحودهم وشركهم لقالوا ذلك وهو سبحانه إنما يهلكهم لمخالفة رسله وتكذيبهم، فلو أهلكهم بتقليد آبائهم في شركهم من غير إقامة الحجة عليهم بالرسل لأهلكهم بما فعل المبطلون أو أهلكهم مع غفلتهم عن معرفة بطلان ما كانوا عليه. وقد أخبر سبحانه أنه لم يكن ليهلك القرى بظلم وأهلها غافلون، وإنما يهلكهم بعد الإعذار والإنذار.

(التاسع) أنه سبحانه أشهد كل واحد على نفسه أنه ربه وخالقه، واحتج عليهم بهذا الإشهاد في غير موضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿ولَئِن سألتهم مَن خلقهم ليقولُنَّ اللَّهُ فأنَّى يؤفَكُون﴾[٢] أي فكيف يصرفون عن التوحيد بعد هذا الإقرار منهم أن الله ربهم وخالقهم، وهذا كثير في القرآن، فهذه هي الحجة التي أشهدهم على أنفسهم بمضمونها وذكرتهم بها رسله بقوله تعالى: ﴿أفي الله شكٌ فاطر السموات والأرض﴾[٣] فالله تعالى إنما ذكرهم على ألسنة رسله بهذا الإقرار والمعرفة ولم يذكرهم قط بإقرار سابق على إيجادهم ولا أقام به عليهم حجة.

(العاشر) أنه جعل هذا آية وهي الدلالة الواضحة البينة المستلزمة لمدلولها بحيث لا يتخلف عنها المدلول وهذا شأن آيات الرب تعالى فإنها أدلة معينة على مطلوب معين مستلزمة للعلم به فقال تعالى: ﴿وكذلك نفصل الآيات﴾[٤] أي مثل هذا التفصيل والتبين نفصل الآيات لعلهم يرجعون من الشرك إلى التوحيد ومن الكفر إلى الإيمان، وهذه الآيات التي فصلها هي التي بينها في كتابه من أنواع مخلوقاته وهي آيات أفقية ونفسية، آيات في نفوسهم وذواتهم وخلقهم، وآيات من الأقطار والنواحي مما يحدثه الرب تبارك وتعالى مما يدل على وجوده ووحدانيته وصدق رسله، وعلى المعاد والقيامة، ومن أبينها ما أشهد به كل واحد على نفسه من أنه ربه وخالقه ومبدعه وأنه مربوب مخلوق مصنوع حادث بعد أن لم يكن، ومحال أن يكون حدث بلا محدث، أو يكون هو المحدث لنفسه، فلا بد له من موجد أوجده ليس كمثله شئ،

(١) (الأعراف/ ١٧٣). (٢) (الزخرف / ٨٧).
(٣) (إبراهيم / ١٠). (٤) (الأعراف / ٣٢).

وهذا الإقرار والمشاهدة فطرة فطروا عليها ليست بمكتسبة، وهذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم﴾(١) مطابقة لقول النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة»(٢) ولقوله تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿٣٠﴾ منيبين إليه﴾(٣). ومن المفسرين من لم يذكر إلا هذا القول فقط كالزمخشري، ومنهم من لم يذكر إلا القول الأول فقط ومنهم من حكى القولين كابن الجوزي والواحدي والماوردي وغيرهم .

قال الحسن بن يحيى الجرجاني: فإن اعترض معترض في هذا الفصل بحديث يروى عن النبي ﷺ أنه قال: إن الله مسح ظهر آدم فأخرج منه ذريته وأخذ عليهم العهد ثم ردهم في ظهره، وقال: إن هذا مانع من جواز التأويل الذي ذهبت إليه لامتناع ردهم في الظهر إن كان أخذ الميثاق عليهم بعد البلوغ وتمام العقل، قيل له: إن معنى ثم ردهم في ظهره ثم يردهم في ظهره كما قلنا إن معنى أخذ ربك يأخذ ربك فيكون معناه ثم يردهم في ظهره بوفاتهم، لأنهم إذا ماتوا ردوا إلى الأرض للدفن، وآدم خلق منها ورد فيها، فإذا ردوا فيها فقد ردوا في آدم ، وفي ظهره إذ كان آدم خلق منها وفيها رد، وبعض الشيء من الشيء ، وفيما ذهبتم إليه من تأويل هذا الحديث على ظاهره تفاوت بينه وبين ما جاء به القرآن في هذا المعنى إلا أن يرد تأويله إلى ما ذكرنا لأنه عز وجل قال: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم﴾(٤)

---

(١) (الأعراف / ١٧٢).

(٢) [صحيح] رواه أحمد ، في مواضع منها: (٢/ ٢٧٥)، والبخاري في مواضع ، منها : كتاب: الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يصلي عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام، [١٣٥٨]، [١٣٥٩ ، ١٣٨٥ ، ٤٧٧٥ ، ٦٥٩٩]، ومسلم : كتاب: القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة ، وحكم موت أطفال الكفار، وأطفال المسلمين، [٢٦٥٨]، والترمذي : كتاب : القدر ، باب: ما جاء كل مولولد يولد على القطرة، [٢١٣٨]، وابن حبان : كتاب: الإيمان، باب: الفطرة ، [١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠]، وتمامه كما في «مسلم»، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أنه قال: قال رسول الله ﷺ : «ما من مولولد إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ » ثم يقول أبو هريرة : واقرأوا إن شئتم : ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾ (الروم / ٣٠).

(٣) (الروم / ٣٠). (٤) (الأعراف / ١٧٢).

ولم يذكر آدم في القـصة إنما هو ههنا مضـاف إليه لتعـريف ذريته أنهم أولاده ، وفي الحديث أنه مسح ظهر آدم ، فلا يمكن رد مـا جاء في القرآن وما جاء في الحديث إلى الاتفاق إلا بالتأويل الذي ذكرناه .

قال الجرجاني: وأنا أقول ونحن إلى ما روي في الآية عن رسول الله ﷺ، وما ذهب إليه أهل العلم من السلف الصالح أمثل وله أقبل وبه آنس والله ولي التوفيق لما هو أولى وأهدى، على أن بعض أصـحابنا من أهل السنة قد ذكـر في الرد على هذا القائل معنى يحتمل ويسوغ في النظم الجاري ومـجاز العربية بسهولة وبإمكان من غير تعسف ولا استكراه وهو أن يكون قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم﴾[1] مبتدأ خبر من الله عـز وجل عما كان منه في أخذ العـهد عليهم وإذ تقتـضي جواباً يجعل جوابه قوله تعالى: ﴿قالوا بلى﴾[2] وانقطع هذا الخبر بتمام قـصته ثم ابتدأ عز وجل خبراً بذكر ما يقوله المشركون يوم القيامة فقالوا شهدنا يعني نشهد، كما قال الحطيئة :

شهد الحطيئة حين يلقى ربه أن الوليد أحق بالعذر

بمعنى يشهد الحطيئة يقول تعالى نشهد أنكم ستقولون يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أي عما هم فـيه من الحساب والمناقشة والمؤاخذة بالكفر، ثم أضـاف إليه خبراً آخر فقال: ﴿أو تقولوا﴾ بمعنى وأن تقولوا لأن أو بمعنى واو النسق مثل قوله تعالى: ﴿ولا تطع منهم آثما أو كفورا﴾[3] فتأويله ونشهد أن تقولوا يوم القيامة: ﴿إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنـا ذرية من بعدهم﴾ أي أنهم أشـركوا وحـملونا على مذهبـهم في الشرك في صبانا فـجرينا على مذاهبهم واقتدينا بهم فلا ذنـب لنا إذ كنا مقتدين بهم، والذنب في ذلك لهم قالوا: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾[4] يدل على ذلك قولهم: ﴿أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾[5] أي حملهم إيانا على الشرك، فتكون القصـة الأولى خبراً عن جميع المخلوقين بأخـذ الميثاق عليهم، والقصـة الثانية خبر عما يقول المشركون يوم القيامة من الاعتذار.

وقال فيما ادعـاه المخالف أنه تفاوت فيما بين الكتاب والخبر لاخـتلال ألفاظهما فيهما قولاً يجب قبوله بالنظائر والعبر التي تأيد بها لمخالفته فقال: إن الخبر عن رسول

(١) (الأعراف / ١٧٢). (٢) (الأعراف / ١٧٢).
(٣) (الإنسان / ٢٤). (٤) (الزخرف / ٢٣).
(٥) (الأعراف / ١٧٢).

الله ﷺ أن الله مسح ظهر آدم ، أفـاد زيادة خبر كان في القصـة التي ذكر الله تعالى في الكتاب بعضها ولم يذكر كلها ولـو أخبر ﷺ بسوى هذه الزيادة التي أخبر بها مما عسى أن يكون قد كان في ذلك الوقت الذي أخذ فيـه العهد مما لم يضمنه الله كتابه، لما كان في ذلك خـلاف ولا تفاوت، بل كـان زيادة في الفائدة. وكـذلك الألفاظ إذا اختلفت في ذاتها وكـان مرجعها إلى أمـر واحد لم يوجب ذلك تناقضاً كمـا قال عز وجل في كتـابه في خلق آدم فذكر مـرة أنه خلق من تراب، ومرة أنه خلق من حـمأ مسنون، ومـرة من طين لازب، ومرة من صلصال كـالفخار. فهـذه الألفاظ مخـتلفة ومعانيها أيضاً في الأحوال مختلفة إن الصلصال غير الحمأة والحمأة غير التراب إلا أن مرجـعهـا كلها في الأصل إلى جـوهر واحد وهو التراب ومن التـراب تدرجت هذه الأحوال .

فقوله سبـحانه وتعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهـورهم ذريتهم﴾(١) وقوله ﷺ: إن الله مسح ظهـر آدم فاستخرج منه ذريتـه معنى واحد في الأصل، إلا أن قوله ﷺ مسح ظهر آدم زيادة في الخبر عن الله عـز وجل، ومسحه عز وجل ظهر آدم واستخراج ذريته منه مسح لظهور ذريتـه واستخراج ذرياتهم من ظهورهم كما ذكر تعالى، لأنا قد علمنا أن جميع ذرية آدم لم يكونوا من صلبه لكن لما كان الطبق الأول من صلبه ثم الثـاني من صلب الأول ثم الثالث من صلب الثـاني جاز أن ينسب ذلك كله إلى ظهر آدم لأنهم فروعه وهو أصلهم .

وكما جاز أن يكون ما ذكر الله عـز وجل أنه استخرجه من ظهور ذرية آدم من ظهر آدم جـاز أن يكون ما ذكر ﷺ أنه اسـتخرجـه من ظهر آدم من ظهـور ذريته إذ الأصل والفرع شئ واحد، وفيه أيضـاً أنه عز وجل لما أضاف الذرية إلى آدم في الخبر احتمل أن يكون الخبر عن الـذرية وعن آدم كما قال عز وجل: ﴿فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾(٢) والخبر في الظاهر عن الأعناق والنعت للأسماء المكنية فيها وهو مضاف إليها كما كان آدم مضافاً إليه هناك وليسا جميعاً بالمقصودين في الظاهر بالخبر ولا يحتمل أن يكون قوله: خاضعين للأعناق لأن وجه جمعها خاضعات ومنه قول الشاعر:

وتشرق بالقول الذي قد أذعته كما شرقت صدر القناة من الدم

فالصدر مذكر وقوله شرقت أنث لإضافة الصدر إلى القناة .

---

(١) (الأعراف / ١٧٢). (٢) (الشعراء / ٤).

[فصل]:

فهذا بعض كلام السلف والخلف في هذه الآية، وعلى كل تقدير فلا يدل على خلق الأرواح قبل الأجساد خلقاً مستقراً، وإنما غايتها أن تدل على إخراج صورهم وأمثالهم في صور الذر واستنطاقهم ثم ردهم إلى أصلهم إن صح الخبر بذلك، والذي صح إنما هو إثبات القدر السابق وتقسيمهم إلى شقي وسعيد. وأما استدلال أبي محمد بن حزم بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾[1] فما أليق هذا الاستدلال بظاهريته لترتيب الأمر بالسجود لآدم على خلقنا وتصويرنا، والخطاب للجملة المركبة من البدن والروح، وذلك متأخر عن خلق آدم، ولهذا قال ابن عباس: ﴿ولقد خلقناكم﴾ يعني آدم ﴿ثم صورناكم﴾ لذريته. ومثال هذا ما قاله مجاهد: ﴿خلقناكم﴾ يعني آدم و﴿صورناكم﴾ في ظهر آدم، وإنما قال: ﴿خلقناكم﴾ بلفظ الجمع وهو يريد آدم كما تقول ضربناكم وإنما ضربت سيدهم.

واختار أبو عبيد في هذه الآية قول مجاهد لقوله تعالى بعد ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا﴾[2] وكأن قوله تعالى للملائكة: ﴿اسجدوا﴾[3] قبل خلق ذرية آدم وتصويرهم في الأرحام وثم توجب التراخي والترتيب، فمن جعل الخلق والتصوير في هذه الآية لأولاد آدم في الأرحام يكون قد راعى حكم ثم في الترتيب إلا أن يأخذ بقول الأخفش فإنه يقول: ثم هاهنا في معنى الواو. قال الزجاج: وهذا خطأ لا يجيزه الخليل وسيبويه وجميع من يوثق بعلمه. قال أبو عبيد: وقد بينه مجاهد حين قال: إن الله تعالى خلق ولد آدم وصورهم في ظهره ثم أمر بعد ذلك بالسجود. قال: وهذا بين في الحديث وهو أنه أخرجهم من ظهره في صور الذر.

قلت: والقرآن يفسر بعضه بعضاً، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾[4] فأوقع الخلق من تراب عليهم وهو لأبيهم آدم إذ هو أصلهم والله سبحانه يخاطب الموجودين والمراد آباؤهم كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾[5] وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾[6] الآية وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾[7] وقوله تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم

(١) (الأعراف / ١١).
(٢) (الأعراف / ١١).
(٣) (الأعراف / ١١).
(٤) (الحج / ٥).
(٥) (البقرة / ٥٥).
(٦) (البقرة / ٦١)
(٧) (البقرة / ٧٢).

ورفعنا فوقكم الطور﴾(١) وهو كثير في القرآن يخاطبهم والمراد به آباؤهم، فهكذا قوله: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾.

وقد يستطرد سبحانه من ذكر الشخص إلى ذكر النوع كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾(٢) فالمخلوق من سلالة من طين آدم والمجعول نطفة في قرار مكين ذريته .

وأما حديث خلق الأرواح قبل الأجساد بألفي عام فلا يصح إسناده ففيه عتبة ابن السكن قال الدارقطني: متروك، وأرطأة بن المنذر قال ابن عدي: بعض أحاديثه غلط.

[فصل] : في الدليل على أن خلق الأرواح متأخر عن خلق أبدانها:

وأما الدليل على أن خلق الأرواح متأخر عن خلق أبدانها فمن وجوه :

(أحدها) أن خلق أبي البشر وأصلهم كان هكذا: فإن الله سبحانه أرسل جبريل فقبض قبضة من الأرض ثم خمرها حتى صارت طيناً، ثم صوره، ثم نفخ فيه الروح بعد أن صوره، فلما دخلت الروح فيه صار لحماً ودماً حياً ناطقاً، ففي تفسير أبي مالك وأبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ: لما فرغ عز وجل من خلق ما أحب استوى على العرش، فجعل إبليس ملكاً على سماء الدنيا، وكان من الخزان قبله من ملائكة يقال لهم الجن، وإنما سموا الجن لأنهم خزان أهل الجنة، وكان إبليس مع ملكه خازناً، فوقع في صدره وقال: ما أعطاني الله هذا إلا لمزيد لي، وفي لفظ لمزية لي على الملائكة، فلما وقع ذلك الكبر في نفسه اطلع الله على ذلك منه فقال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(٣) قالوا : ربنا وما يكون حال الخليفة وما يصنعون في الأرض؟ قال الله: تكون له ذرية يفسدون في الأرض، ويتحاسدون، ويقتل بعضهم بعضاً، قالوا : ربنا ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ يعني من شأن إبليس، فبعث جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها، فقالت الأرض: إني أعوذ بالله منك أن تقبض مني، فرجع ولم يأخذ وقال: رب إنها عاذت بك فأعذتها، فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها، فبعث ملك الموت، فعاذت

---

(١) (البقرة / ٦٣). (٢) (المؤمنون / ١٣).

(٣) (البقرة / ٣٠).

منه فقال: وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره، فأخذ من وجه الأرض وخلط فلم يأخذ من مكان واحـد، فأخذ من تربة حـمراء وبيضاء وسـوداء ولذلك خرج بنو آدم مختلفين، فصعد به قبل الرب عز وجل حتى عاد طيناً لازباً، واللازب هو الذي يلزق بعضه ببعض، ثم قال للملائكة: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[1] فخلقـه الله بيده لكيلا يتكبر إبليس عنه ليقول له: تتكبر عمـا عملت بيدي ولم أتكبر أنا عنه، فخلقه بشـراً فكان جسداً من طين أربعين سنة، فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه وكان أشدهم منه فزعاً إبليس، فكان يمر به فيضـربه فيصوت الجـسد كما يـصوت الفخار تكون له صلصلة، فـذلك حين يقول: ﴿من صلصال كالفخار﴾[2] ويقول: لأمر ما خلقت ! ودخل من فيه فخرج من دبره فقال للمـلائكة : لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمد وهذا أجـوف، لئن سلطت عليه لأهلكنه، فلما بلغ الحين الذي يريد الله جل ثناؤه أن ينفخ فـيه الروح قال للملائكة: إذا نفخت فيـه من روحي فاسجدوا له، فلما نفخ فيـه الروح فدخل الروح في رأسه عطس فقـالت الملائكة: قل الحمـد لله، فقـال: الحمـد لله، فقال له اللـه: يرحمك ربك، فلما دخل الروح في عـينيه نظر إلى ثمار الجنة، فـلما دخل في جوفه اشـتهى الطعام قبل أن يبـلغ الروح رجليه فنهض عجلان إلى ثمار الجـنة، فذلك حين يقول: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾[3] وذكر باقي الحديث.

(وقال) يونس بن عـبد الأعلى: أخـبرنا ابن وهـب، حدثـنـا ابن زيد، قال: لما خلق الله النار ذعـرت منها الملائكة ذعـراً شديداً وقـالوا : ربنا لم خلقت هذه النار؟ ولأي شئ خلقتها؟ قال: لمن عصاني من خلقي.

ولـم يكن لله يومئذ خلق إلا الملائكة، والأرض ليس فـيها خلق ، إنما خلق آدم بعـد ذلك، وقرأ قـوله تعـالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾[4] قال عـمر بن الخطاب يا رسول الله ليت ذلك الحين ! ثم قـال: وقالت الملائكة ويأتي علينا دهر نعصيك فيه؟ لا يرون له خلقاً غيرهم قال: لا ! إني أريد أن أخلق في الأرض خلقاً وأجعل فـيها خليفة. وذكـر الحديث قال ابن إسحاق: فـيقال

(١) (ص/ ٧١ : ٧٢). (٢) (الرحمن / ١٤).
(٣) (الأنبياء / ٣٧). (٤) (الإنسان / ١).

والله أعلم، خلق الله آدم ثم وضعه ينظر إليه أربعين عاماً قبل أن ينفخ فيه الروح حتى عاد صلصالاً كالفخار ولم تمسسه نار، فيقال والله أعلم لما انتهى الروح إلى رأسه عطس فقال: الحمد لله. وذكر الحديث.

والقرآن والحديث والآثار تدل على أنه سبحانه نفخ فيه من روحه بعد خلق جسده، فمن تلك النفخة حدثت فيه الروح، ولو كانت روحه مخلوقة قبل بدنه مع جملة أرواح ذريته لما عجبت الملائكة من خلقه، ولما تعجبت من خلق النار وقالت لأي شئ خلقتها؟ وهي ترى أرواح بني آدم فيهم المؤمن والكافر والطيب والخبيث.

ولما كانت أرواح الكفار كلها تبعاً لإبليس، بل كانت الأرواح الكافرة مخلوقة قبل كفره، فإن الله سبحانه إنما حكم عليه بالكفر بعد خلق بدن آدم وروحه، ولم يكن قبل ذلك كافراً، فكيف تكون الأرواح قبله كافرة ومؤمنة وهو لم يكن كافراً إذ ذاك؟ وهل حصل الكفر للأرواح إلا بتزيينه وإغوائه؟ فالأرواح الكافرة إنما حدثت بعد كفره، إلا أن يقال: كانت كلها مؤمنة، ثم ارتدت بسببه.

والذي احتجوا به على تقديم خلق الأرواح يخالف ذلك، وفي حديث أبي هريرة في تخليق العالم: الإخبار عن خلق أجناس العالم وتأخر خلق آدم إلى يوم الجمعة[1]، ولو كانت الأرواح مخلوقة قبل الأجساد لكانت من جملة العالم المخلوق في ستة أيام، فلما لم يخبر عن خلقها في هذه الأيام، علم أن خلقها تابع لخلق الذرية، وأن خلق آدم وحده هو الذي وقع في تلك الأيام الستة، وأما خلق ذريته فعلى الوجه المشاهد المعاين.

ولو كان للروح وجود قبل البدن وهي حية عالمة ناطقة لكانت ذاكرة لذلك في

---

(١) يشير إلى الحديث الذي رواه أبو هريرة -رضي الله عنه- قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي، فقال: «**خلق الله تعالى التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيه الدواب يوم الخميس، وخلق آدم من يوم الجمعة آخر الخلق من آخر ساعة من ساعات الجمعة**» رواه أحمد: (٢/ ٣٢٧)، ومسلم: كتاب: صفات المنافقين، وأحكامهم، باب: ابتداء الخلق، وخلق آدم عليه السلام، [٢٧٨٩]، وابن حبان: كتاب: التاريخ، باب: بدء الخلق، [٦١٦١]، وقال البخاري في الحديث أنه موقوف على كعب الأحبار، ولقد أنكر بعض الحذاق إخراج مسلم للحديث لما فيه من الغرابة والنكارة ولقد أعل الحديث بعض من حذقوا علم علل الحديث.

العالم شاعرة به، ولو بوجه ما، ومن الممتنع أن تكون حية عالمة ناطقة عارفة بربها. وهي بين ملإ من الأرواح. ثم تنتقل إلى هذا البدن ، ولا تشعر بحالها قبل ذلك بوجه ما ! وإذا كانت بعد المفارقة تشعر بحالها وهي في البدن على التفصيل ، وتعلم ما كانت عليه ها هنا. مع أنها اكتسبت بالبدن أمورًا أعاقتها عن كثير من كمالها، فلأن تشعر بحالها الأول، وهي معوقة هناك بطريق الأولى، إلا أن يقال : تعلقها بالبدن واشتغالها بتدبيره منعها من شعورها بحالها الأول، فيقال: هب أنه منعه من شعورها به على التفصيل والكمال، فهل يمنعها من أدنى شعور بوجه ما، مما كانت عليه قبل تعلقها بالبدن؟ ومعلوم أن تعلقها بالبدن لم يمنعها عن الشعور بأول أحوالها وهي في البدن فكيف يمنعها من الشعور بما كان قبل ذلك؟.

وأيضًا فإنها لو كانت موجودة قبل البدن لكانت عالمة حية ناطقة عاقلة، فلما تعلقت بالبدن سلبت ذلك كله ثم حدث لها الشعور والعلم والعقل شيئًا فشيئًا، وهذا لو كان لكان من أعجب الأمور أن تكون الروح كاملة عاقلة ثم تعود ناقصة ضعيفة جاهلة ، ثم تعود بعد ذلك إلى عقلها وقوتها، فأين في العقل والنقل والفطرة ما يدل على هذا، وقد قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١) ، فهذه الحال التي أخرجنا عليها هي حالنا الأصلية والعلم والعقل والمعرفة والقوة، طارئ علينا حادث فينا بعد أن لم يكن، ولم نكن نعلم قبل ذلك شيئًا ألبتة، إذ لم يكن لنا وجود نعلم ونعقل به.

وأيضًا فلو كانت مخلوقة قبل الأجساد وهي على ما هي الآن من طيب وخبث وكفر وإيمان وخير وشر، لكان ذلك ثابتًا لها قبل الأعمال، وهي إنما اكتسبت هذه الصفات والهيئات من أعمالها التي سعت في طلبها واستعانت عليها بالبدن، فلم تكن لتتصف بتلك الهيئات قبل قيامها بالأبدان التي بها عملت تلك الأعمال، وإن كان قدر لها قبل إيجادها ذلك ثم خرجت إلى هذه الدار على ما قدر لها فنحن لا ننكر الكتاب والقدر السابق لها من الله، ولو دل دليل على أنها خلقت جملة ثم أودعت في مكان حية عالمة ناطقة ، ثم كل وقت تبرز إى أبدانها شيئًا فشيئًا، لكنا أول قائل به، فالله سبحانه على كل شيء قدير، ولكن لا نخبر عنه خلقًا وأمرًا إلا بما

---

(١) (النحل / ٧٨).

أخبر به عن نفسه على لسان رسوله ﷺ .

ومعلوم أن الرسول ﷺ لم يخبر عنه بذلك ، وإنما أخبر بما في الحديث الصحيح : «إن خلق ابن آدم يجمع في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك ، فينفخ فيه الروح»[(١)] فالملك وحده يرسل إليه فينفخ فيه، فإذا نفخ فيه كان ذلك سبب حدوث الروح فيه، ولم يقل : يرسل الملك إليه بالروح فيدخلها في بدنه، وإنما أرسل إليه الملك فأحدث فيه الروح بنفخته فيه، لا أن الله سبحانه أرسل إليه الروح التي موجودة قبل ذلك بالزمان الطويل مع الملك، ففرق بين أن يرسل إليه ملكًا ينفخ فيه الروح، وبين أن يرسل إليه روحًا مخلوقة قائمة بنفسها مع الملك، وتأمل ما دل عليه النص من هذين المعنيين، وبالله التوفيق.

***

(٢) **[صحيح]**: رواه أحمد في مواضع منها: (١/ ٣٨٢)، والبخاري : كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة، [٣٢٠٨]، [٣٣٣٢، ٦٥٩٤، ٧٤٥٤]، ومسلم : كتاب: القدر، باب: كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه، وكتابه رزقه، وأجله، وعمله، وشقاوته، وسعادته، [٢٦٤٣]، وأبو داود : كتاب السنة ، باب: في القدر، [٤٧٠٨]، والترمذي : كتاب: القدر، باب: ما جاء أن الأعمال بالخواتيم، [٢١٣٧]، وابن حبان : كتاب: التاريخ ، باب: بدء الخلق ، [٦١٧٤]، وبه فوائد جليلة، فليراجع بتمامه.

المسألة التاسعة عشرة

وهي ما حقيقة النفس؟

هل هي جزء من أجزاء البدن أو عرض من أعراض أو جسم مساكن له مودع فيه أو جوهر مجرد؟ وهل هي الروح أو غيرها؟ وهل الأمارة واللوامة والمطمئنة نفس واحدة لها هذه الصفات أم هي ثلاث أنفس؟ .

فالجواب: أن هذه مسائل قد تكلم الناس فيها من سائر الطوائف واضطربت أقوالهم فيها وكثر فيها خطؤهم وهدى الله أتباع الرسول أهل سنته لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، فنذكر أقوال الناس، وما لهم وما عليهم في تلك الأقوال، ونذكر الصواب بحمد الله وعونه .

قال أبو الحسن الأشعري في مقالاته: اختلف الناس في الروح والنفس والحياة وهل الروح هي الحياة أو غيرها وهل الروح جسم أم لا؟ فقال النظام : الروح هي جسم، وهي النفس، وزعم أن الروح حي بنفسه، وأنكر أن تكون الحياة والقوة معنى غير الحي القوي . وقال آخرون : الروح عرض .

وقال قائلون منهم جعفر بن حرب: لا ندري الروح جوهر أو عرض (كذا قال) واعتلوا في ذلك بقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[1] ولم يخبر عنها ما هي لا أنها جوهر ولا عرض. قال: وأظن جعفراً أثبت أن الحياة غير الروح، أثبت أن الحياة عرضاً .

وكان الجبائي يذهب إلى أن الروح جسم، وأنها غير الحياة، والحياة عرض، ويعتل بقول أهل اللغة: خرجت روح الإنسان ، وزعم أن الروح لا تجوز عليها الأعراض .

وقال قائلون: ليس الروح شيئاً أكثر من اعتدال الطبائع الأربع، ولم يرجعوا من قولهم (اعتدال) إلى المعتدل ولم يثبتوا في الدنيا شيئاً إلا الطبائع الأربع التي هي: الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة .

---

(١) (الإسراء / ٨٥).

وقال قائلون: إن الروح معنى خامس غير الطبائع الأربع، وإنه ليس في الدنيا إلا الطبائع الأربع والروح، واختلفوا في أعمال الروح فثبتها بعضهم طباعاً وثبتها بعضهم أجساداً.

وقال قائلون: الروح الدم الصافي الخالص من الكدر والعفونات، وكذلك قالوا في القوة.

وقال قائلون: الحياة هي الحرارة الغريزية، وكل هؤلاء الذين حكينا أقوالهم في الروح من أصحاب الطبائع يثبتون أن الحياة هي الروح.

وكان الأصم لا يثبت للحياة والروح شيئاً غير الجسد ويقول: ليس أعقل إلا الجسد الطويل العريض العميق الذي أراه وأشاهده، وكان يقول: النفس هي هذا البدن بعينه لا غير، وإنما جرى عليها هذا الذكر على جهة البيان والتأكيد بحقيقة الشيء لا على أنها معنى غير البدن.

وذكر عن أرسطاطاليس أن النفس معنى مرتفع عن الوقوع تحت (التدبير والنشوء والبلى غير دائرة-) وأنها جوهر بسيط منبث في العالم كله من الحيوان على جهة الأعمال له والتدبير، وأنه لا تجوز عليه صفة قلة ولا كثرة. قال: وهي على ما وصفت من انبساطها في هذا العالم غير متقسمة الذات والبنية، وأنها في كل حيوان العالم بمعنى واحد لا غير.

وقال آخرون: بل النفس معنى موجود ذات حدود وأركان وطول وعرض وعمق، وأنها غير مفارقة في هذا العالم لغيرها فيما يجري عليه حكم الطول والعرض والعمق، وكل واحد منهما يجمعهما صفة الحد والنهاية (وهذا قول طائفة من الثنوية يقال لهم المثانية).

وقالت طائفة: إن النفس موصوفة بما وصفها هؤلاء الذين قدمنا ذكرهم من معنى الحدود والنهايات إلا أنها غير مفارقة لغيرها مما لا يجوز أن يكون موصوفاً بصفة الحيوان (وهؤلاء الديصانية-) وحكى الحريري عن جعفر بن مبشر: أن النفس جوهر ليس هو هذا الجسم وليس بجسم لكنه معنى باين الجوهر والجسم.

وقال آخرون: النفس معنى غير الروح، والروح غير الحياة، والحياة عنده عرض، وهو أبو الهذيل، وزعم أنه قد يجوز أن يكون الإنسان في حال نومه مسلوب

النفس والروح دون الحياة، واستشهد على ذلك بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾(١).

وقال جعفر بن حرب : النفس عرض من الأعراض يوجد في هذا الجسم، وهو أحد الآلات التي يستعين بها الإنسان على الفعل كالصحة والسلامة وما أشبههما، وإنها غير موصوفة بشيء من صفات الجواهر والأجسام، هذا ما حكاه الأشعري .

وقالت طائفة: النفس هي النسيم الداخل والخارج بالتنفس ، قالوا : والروح عرض وهو الحياة فقط وهو غير النفس ، وهذا قول القاضي أبو بكر بن الباقلاني ومن اتبعه من الأشعرية .

وقالت طائفة: ليست النفس جسماً ولا عرضاً، وليست النفس في مكان ولا لها طول ولا عرض ولا عمق ولا لون ولا بعض ولا هي في العالم ولا خارجه ولا مجانبة له ولا مباينة . وهذا قول المشائين وهو الذي حكاه الأشعري عن أرسطاليس، وزعموا أن تعلقها بالبدن لا بالحلول فيه ولا بالمجاورة ولا بالمساكنة ولا بالالتصاق ولا بالمقابلة، وإنما هو التدبير له فقط ، واختار هذا المذهب البوسنجي، ومحمد بن النعمان الملقب بالمفيد، ومعمر بن عباد الغزالي، وهو قول ابن سينا وأتباعه، وهو أردى المذاهب وأبطلها وأبعدها من الصواب .

قال أبو محمد بن حزم : وذهب سائر أهل الإسلام والملل المقرة بالمعاد إلى أن النفس جسم طويل عريض عميق ذات مكان، جثة متحيزة مصرفة للجسد، قال: وبهذا نقول، قال: والنفس والروح اسمان مترادفان لمعنى واحد ومعناهما واحد .

وقد ضبط أبو عبد الله بن الخطيب مذاهب الناس في النفس فقال: ما يشير إليه كل إنسان بقوله : إنا إما أن يكون جسماً أو عرضاً سارياً في الجسم، أو لا جسماً ولا عرضاً سارياً فيه، أما القسم الأول وهو أنه جسم فذلك الجسم، إما أن يكون هذا البدن وإما أن يكون جسماً مشاركاً لهذا البدن وإما أن يكون خارجاً عنه، وأما القسم الثاني وهو أن نفس الإنسان عبارة عن جسم خارج عن هذا البدن فهذا لم يقله أحد، وأما القسم الأول وهو أن الإنسان عبارة عن هذا البدن والهيكل المخصوص فهو قول جمهور الخلق وهو المختار عند أكثر المتكلمين.

---

(١) (الزمر / ٤٢).

(قلت): وهو قول جمهور الخلق الذين عرف الرازي أقوالهم من أهل البدع وغيرهم من المضلين، وأما أقوال الصحابة والتابعين وأهل الحديث فلم يكن له بها شعور ألبتة، ولا أعتقد أن لهم في ذلك قولاً على عادته في حكاية المذاهب الباطلة في المسألة، والمذهب الحق الذي دل عليه القرآن والسنة وأقوال الصحابة لم يعرفه ولم يذكره، وهذا الذي نسبه إلى جمهور الخلق من أن الإنسان هو هذا البدن المخصوص فقط وليس وراءه شئ هو من أبطل الأقوال في المسألة بل هو أبطل من قول ابن سينا وأتباعه، بل الذي عليه جمهور العقلاء أن الإنسان هو البدن والروح معاً وقد يطلق اسمه على أحدهما دون الآخر بقرينة .

فالناس لهم أربعة أقوال في مسمى الإنسان، هل هو الروح فقط؟، أو البدن فقط؟، أو مجموعهما، أو كل واحد منهما، وهذه الأقوال الأربعة لهم في كلامه هل هو اللفظ فقط ، أو المعنى فقط ، أو مجموعهما، أو كل واحد منهما، فالخلاف بينهم في الناطق ونطقه .

القول الصواب في حقيقة الروح الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل وذكر دلائله:

قال الرازي وأما القسم الثاني وهو أن الإنسان عبارة عن جسم مخصوص موجود في داخل هذا البدن فالقائلون بهذا القول اختلفوا في تعيين ذلك الجسم على وجوه :

(الأول) أنه عبارة عن الأخلاط الأربعة التي منها يتولد هذا البدن .

(والثاني) أنه الدم .

(والثالث) أنه الروح اللطيف الذي يتولد في الجانب الأيسر من القلب وينفذ في الشريانات إلى سائر الأعضاء .

(والرابع) أنه الروح الذي يصعد في القلب إلى الدماغ ويتكيف بالكيفية الصالحة لقبول قوة الحفظ والفكرة والذكر.

(والخامس) أنه جزء لا يتجزأ في القلب .

(والسادس) أنه جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس وهو جنس نوراني علوي خفيف حي متحرك ينفذ في جوهر الأعضاء ويسري فيها سريان الماء في الورد

وسريان الدهن في الزيتون والنار في الفحم . فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف بقي ذلك الجسم اللطيف مشابكاً لهذه الأعضاء ، وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة الإرادية .

وإذا فسدت هذه الأعضاء بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها، وخرجت عن قبول تلك الآثار، فارق الروح البدن واتصل إلى عالم الأرواح .

وهذا القول هو الصواب في المسألة، وهو الذي لا يصح غيره، وكل الأقوال سواه باطلة، وعليه دل الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة، ونحن نسوق الأدلة عليه على نسق واحد .

(الدليل الأول) قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ (١) ففي الآية ثلاثة أدلة: الإخبار بتوفيها وإمساكها وإرسالها .

(الرابع) قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ (٢) إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (٣) .

وفيها أربعة أدلة :

(أحدها) بسط الملائكة أيديهم لتناولها .

(الثاني) وصفها بالإخراج والخروج .

(الثالث) الإخبار عن عذابها في ذلك اليوم .

(الرابع) الإخبار عن مجيئها إلى ربها . فهذه سبعة أدلة .

(الثامن) قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ (٤) إلى قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ﴾ (٥) وفيها ثلاثة أدلة :

---

(١) (الزمر / ٤٢).
(٢) (الأنعام / ٩٣).
(٣) (الأنعام / ٩٤).
(٤) (الأنعام / ٦٠).
(٥) (الأنعام / ٦١).

(أحدها) الإخبار بتوفي الأنفس بالليل .

(الثاني) بعثها إلى أجسادها بالنهار .

(الثالث) توفي الملائكة له عند الموت فهذه عشرة أدلة.

(الحادي عشر) قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[1] وفيها ثلاثة أدلة :

(أحدها) وصفها بالرجوع .

(الثاني) وصفها بالدخول .

(الثالث) وصفها بالرضا .

واختلف السلف هل يقال لها ذلك عند الموت أو عند البعث أو في الموضعين؟ على ثلاثة أقوال، وقد روي في حديث مرفوع أن النبي ﷺ قال لأبي بكر الصديق: أما إن الملك سيقولها لك عند الموت[2]. قال زيد بن أسلم: بشرت بالجنة عند الموت ويوم الجمع وعند البعث[3]. وقال أبو صالح: ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[4] هذا عند الموت ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[5] قال: هذا يوم القيامة. فهذه أربعة عشر دليلاً.

(الخامس عشر) قوله ﷺ: «إن الروح إذا قبض تبعه البصر»[6]. ففيه دليلان :

(أحدهما) وصفه بأنه يقبض .

(١) (الفجر / ٢٧ : ٣٠).

(٢) رواه ابن جرير الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ...﴾ (الفجر / ٢٧ : ٣٠)، (٣٠ / ١٢٢)، وذكره الهندي في «كنز العمال»: (٢/ ٤٧)، [٣٠٦٠] وعزاه للحكيم بن أبي بكر.

(٣) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره ، الموضع السابق.

(٤) (الفجر / ٢٨).

(٥) (الفجر / ٢٩ : ٣٠).

(٦) [صحيح]: رواه أحمد في مواضع، منها : (٦/ ٢٩٧)، ومسلم : كتاب: الجنائز، باب: في إغماض الميت والدعاء له إذا حضر، [٩٢٠]، وأبو داود : كتاب: الجنائز، باب: تغميض الميت، [٣١١٨]، وابن ماجة : كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في تغميض الميت، [١٤٥٤]، وابن حبان : كتاب: إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، رجالهم ونسائهم، [٧٠٤١]، وبه فوائد وأدعية جليلة، فليراجع بتمامه.

(الثاني) أن البصر يراه .

(السابع عشر) ما رواه النسائي حدثنا أبو داود، عن عفان، عن حماد، عن أبي جعفر، عن عمارة بن خزيمة، أن أباه قال : رأيت في المنام كأني أسجد على جبهة النبي ﷺ فأخبرته بذلك فقال : إن الروح ليلقى الروح فأقنع رسول الله ﷺ هكذا، قال عفان برأسه إلى حلقه. فوضع جبهته (على جبهة[١]-) النبي ﷺ فأخبر أن الأرواح تتلاقى في المنام، وقد تقدم قول ابن عباس: تلتقي أرواح الأحياء والأموات في المنام فيتساءلون بينهم، فيمسك الله أرواح الموتى.

(الثامن عشر) قوله ﷺ في حديث بلال: «إن الله قبض أرواحكم وردها إليكم حين شاء»[٢]. ففيه دليلان وصفها بالقبض ، والرد.

(العشرون) قوله ﷺ: «نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة»[٣] وفيه دليلان:

(أحدهما) كونها طائراً .

(الثاني) تعلقها في شجر الجنة وأكلها على اختلاف التفسيرين .

(الثاني والعشرون) قوله: «أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت وتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش، فاطلع إليهم ربك اطلاعة فقال: أي شئ تريدون ؟»[٤] الحديث وقد تقدم وفيه ستة أدلة :

(أحدها) كونها مودعة في جوف طير.

(الثاني) أنها تسرح في الجنة .

(الثالث) أنها تأكل من ثمارها وتشرب من أنهارها .

(الرابع) أنها تأوي إلى تلك القناديل أي تسكن إليها .

(الخامس) أن الرب تعالى خاطبها واستنطقها فأجابته وخاطبته .

(السادس) أنها طلبت الرجوع إلى الدنيا فعلم أنها مما يقبل الرجوع. فإن قيل:

---

(١) رواه أحمد : (٥/ ٢١٤، ٢١٦)، وخزيمة بن ثابت -رضي الله عنه- هو الذي جعل النبي ﷺ شهادته بشهادة رجلين لقصة ورد ذكرها في «مسند أحمد» : (٥/ ٢١٦) فلتراجع.

(٢) سبق تخريجه. (٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

هذا كله صفة الطير لا صفة الروح، قيل: بل الروح المودعة في الطير قصد، وعلى الرواية التي رجحها أبو عمر، وهي قوله: أرواح الشهداء كطير ينفي السؤال بالكلية.

(التاسع والعشرون) قوله ﷺ في حديث طلحة بن عبيد الله: «أردت مالي بالغابة فأدركني الليل فأويت إلى قبر عبد الله بن عمرو بن حرام، فسمعت قراءة من القبر ما سمعت أحسن منها، فقال رسول الله ﷺ: ذاك عبد الله، ألم تعلم أن الله قبض أرواحهم فجعلها في قناديل من زبرجد وياقوت ثم علقها وسط الجنة، فإذا كان الليل ردت إليهم أرواحهم، فلا تزال كذلك حتى إذا طلع الفجر ردت أرواحهم إلى مكانها التي كانت»[1] . وفيه أربعة أدلة سوى ما تقدم :

(أحدها) جعلها في القناديل .

(الثاني) انتقالها من حيز إلى حيز.

(الثالث) تكلمها وقراءتها في القبر.

(الرابع) وصفها بأنها في مكان .

(الثالث والثلاثون) حديث البراء بن عازب وقد تقدم سياقه وفيه عشرون دليلاً:

(أحدها) قول ملك الموت لنفسه: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ وهذا الخطاب لمن يفهم ويعقل .

(الثاني) قوله: اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان .

(الثالث) قوله: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء.

(الرابع) قوله: فلا يدعونها في يده طرفة عين حتى يأخذوها منه .

(الخامس) قوله: حتى يكفنوها في ذلك الكفن ويحنطوها بذلك الحنوط . فأخبر أنها تكفن وتحنط .

(السادس) قوله: ثم يصعد بروحه إلى السماء.

(السابع) قوله: ويوجد منها كأطيب نفحة مسك وجدت .

(الثامن) قوله: فتفتح له أبواب السماء.

---

(١) سبق تخريجه.

(التاسع) قوله: ويشيعه من كل سماء مقربوها حتى ينتهي إلى الرب تعالى .

(العاشر) قوله: فيقول الله تعالى ردوا عبدي إلى الأرض .

(الحادي عشر) قوله: فترد روحه في جسده .

(الثاني عشـر) قوله: في روح الكافر فتـفرق في جسده فيـجذبها فتتـقطع منها العروق والعصب .

(الثالث عشر) قوله: ويوجد لروحه كأنتن ريح وجدت على وجه الأرض .

(الرابع عـشر) قوله: فـيقـذف بروحه عن الســماء وتطرح طرحـاً فتـهوي إلى الأرض .

(الخامس عـشر) قوله: فـلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قـالوا: ما هذا الروح الطيب؟ وما هذا الروح الخبيث؟

(السادس عشر) قوله: فيجلسانه ويقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فإن كان هذا للروح فظاهر، وإن كان للبدن فهو بعد رجوع الروح إليه من السماء.

(السابع عشر) قوله: فإذا صعد بروحه قيل أي رب عبدك فلان .

(الثامن عشر) قـوله: أرجعوه فأروه ماذا أعددت له من الكرامة. فيـرى مقعده من الجنة أو النار.

(التاسع عشر) قوله في الحديث: إذا خرجت روح المؤمن صلى عليها كل ملك لله بين السماء والأرض[1]، فالملائكة تصلي على روحه وبنو آدم يصلون على جسده .

(العشرون) قوله: فينظر إلى مقعده من الجنة أو النار حتى تقوم الساعة، والبدن قد تمزق وتلاشى، وإنما الذي يرى المقعدين الروح .

[فصل]:

(الرابع والخمسون) حديث أبي موسى:

تخرج نفس المؤمن أطيب من ريـح المسك، فتنطلق بها الملائكة الذي يتـوفونه فتلقاهم ملائكة من دون السماء فيقولون: هذا فلان ابن فلان كان يعمل كيت وكيت،

---

(١) سبق تخريجه.

بمحاسن عمله. فيقولون: مرحباً بكم وبه، فيقبضونها منهم، فيصعد به من الباب الذي كان يصعد منه عمله فيشرق في السماوات وهو كبرهان الشمس حتى ينتهي به إلى العرش، وأما الكافر فإذا قبض انطلق بروحه فيقولون: من هذا؟ فيقولون: فلان ابن فلان كان يعمل كيت وكيت، لمساوئ أعماله. فيقولون: لا مرحباً لا مرحباً، ردوه فيرد إلى أسفل الأرض إلى الثرى، ففيه عشرة أدلة :

(أحدها) خروج نفسه .

(الثاني) طيب ريحها .

(الثالث) انطلاق الملائكة بها .

(الرابع) تحية الملائكة لها.

(الخامس) قبضهم لها .

(السادس) صعودهم بها .

(السابع) إشراق السماوات لضوئها .

(الثامن) انتهاؤها إلى العرش .

(التاسع) قول الملائكة من هذا ؟ وهذا سؤال عن عين وذات قائمة بنفسها.

(العاشر) قوله ردوه إلى أسفل الأرضين .

[فصل] :

(الرابع والستون) حديث أبي هريرة: «إذا خرجت روح المؤمن تلقاه ملكان فيصعدانه إلى السماء فيقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قبل الأرض صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمرينه، وذكر المسك، ثم يصعد به إلى ربه عز وجل فيقول: ردوه إلى آخر الأجلين[(١)]، ففيه ستة أدلة :

(أحدها) قوله: تلقاه ملكان .

(الثاني) قوله: فيصعدانه إلى السماء.

(الثالث) قول الملائكة: روح طيبة جاءت من قبل الأرض .

(١) سبق تخريجه.

(الرابع) صلاتهم عليها .

(الخامس) طيب ريحها .

(السادس) الصعود بها إلى الله عز وجل .

[فصل] :

(الحادي والسبعون) حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن المؤمن تحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالوا : اخرجي أيتهـا النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حمـيدة وأبشري بروح وريحان ورب غيـر غضبان، فـلا يزال يقال لها ذلك حتى تخـرج فيعرج بها حـتى ينتهي بها إلى السـماء، فيسـتفتح لها فيـقال من هذا؟ فيقال: فلان ابن فـلان، فيقال: مرحباً بالنفس الطيبـة كانت في الجسد الطيب ادخلي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غـضبان، فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فـيها الله عز وجل. وإذا كان الرجل السوء قـالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخـرجي ذميمة وأبشري بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج، فلا يزال يقـال لها حتى تخـرج فينتهي بهـا إلى السماء فيـقال من هذا؟ فيقال: فلان ابن فلان فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذمـيمـة فإنه لا تفتح لك أبـواب السماء، فـترسل إلى الأرض ثم تصـير إلى القبر[١] . وهو حديث صحيح وفيه عشرة أدلة :

(أحدها) قوله: كـانت في الجسد الطيب، وكـانت في الجسد الخبيث. فـهاهنا حال ومحل .

(الثاني) قوله: اخرجي حميدة .

(الثالث) قوله: وأبشري بروح وريحان، فهذا بشارة بما تصير إليه بعد خروجها.

(الرابع) قوله: فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء.

(الخامس) قوله: فيستفتح لها.

(السادس) قوله: ادخلي حميدة .

(السابع) قوله: حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله تعالى.

---

(١) سبق تخريجه.

(الثامن) قوله: لنفس الفاجر ارجعي ذميمة .

(التاسع) فإنه لا تفتح لك أبواب السماء.

(العاشر) قوله: فترسل إلى الأرض ثم تصير إلى القبر.

[فصل]:

(الحادي والثمانون) قوله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»(١) . فوصفها بأنها جنود مجندة، والجنود ذوات قائمة بنفسها، ووصفها بالتعارف والتناكر، ومحال أن تكون هذه الجنود أعراضاً أو تكون لا داخل العالم ولا خارجه ولا بعض لها ولا كل .

(الثاني والثمانون) قوله: في حديث ابن مسعود رضي الله عنه على الأرواح تتلاقى وتتشام كما تشام الخيل(٢) . وقد تقدم .

(الثالث والثمانون) قوله في حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما: إن أرواح المؤمنين تتلاقى على مسيرة يومين وما رأى أحدهما صاحبه (٣) .

(الرابع والثمانون) الآثار التي ذكرناها في خلق آدم، وأن الروح لما دخل في رأسه عطس فقال: الحمد لله، فلما وصل الروح إلى عينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلما وصل إلى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن يبلغ الروح رجليه، وأنها دخلت كارهة وتخرج كارهة.

(الخامس والثمانون) الآثار التي فيها إخراج الرب تعالى النسم وتمييز شقيهم من سعيدهم وتفاوتهم حينئذ في الإشراق والظلمة وأرواح الأنبياء فيهم مثل السرج. وقد تقدم .

(السادس والثمانون) حديث تميم الداري أن روح المؤمن إذا صعد بها إلى الله خر ساجداً بين يديه، وأن الملائكة تتلقى الروح بالبشرى، وأن الله تعالى يقول لملك الموت: انطلق بروح عبدي فضعه في مكان كذا وكذا . وقد تقدم .

(السابع والثمانون) الآثار التي ذكرناها في مستقر الأرواح بعد الموت واختلاف

---

(١) سبق تخريجه. (٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

الناس في ذلك، وفي ضمن ذلك الاختلاف إجماع السلف على أن للروح مستقراً بعد الموت وإن اختلف في تعيينه .

(الثامن والثمانون) ما قد علم بالضرورة أن رسول الله ﷺ جاء به، وأخبر به الأمة أنه تنبت أجسادهم في القبور، فإذا نفخ في الصور رجعت كل روح إلى جسدها فدخلت فيه فانشقت الأرض عنه فقام من قبره .

وفي حديث الصور أن إسرافيل عليه السلام يدعو الأرواح فتأتيه جميعاً أرواح المسلمين نوراً والأخرى مظلمة، فيجمعها جميعاً فيعلقها في الصور، ثم ينفخ فيه فيقول الرب جل جلاله: وعزتي ليرجعن كل روح إلى جسده، فتخرج الأرواح من الصور مثل النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض، فيأتي كل روح إلى جسده فيدخل، ويأمر الله الأرض فتنشق عنهم فيخرجون سراعاً إلى ربهم ينسلون مهطعين إلى الداعي يسمعون المنادي من مكان قريب فإذا هم قيام ينظرون .

وهذا معلوم بالضرورة أن الرسول أخبر به، وأن الله سبحانه لا ينشئ لهم أرواحاً غير أرواحهم التي كانت في الدنيا، بل هي الأرواح التي اكتسبت الخير والشر، أنشأ أبدانها بنشأة أخرى ثم ردها إليها.

(التاسع والثمانون) أن الروح والجسد يختصمان بين يدي الرب عز وجل يوم القيامة. قال علي بن عبد العزيز: حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أبي سعد البقال[1]، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما تزال الخصومة بين الناس يوم القيامة حتى يخاصم الروح الجسد فيقول الروح: يا رب إنما كنت روحاً منك جعلتني في هذا الجسد فلا ذنب لي. ويقول الجسد: يا رب كنت جسداً خلقتني، ودخل في هذا الروح مثل النار، فيه كنت أقوم، وبه كنت أقعد، وبه أذهب، وبه أجيء، لا ذنب لي. قال: فيقال: أنا أقضي بينكما، أخبراني عن أعمى ومقعد دخلا حائطاً فقال المقعد للأعمى: إني أرى ثمراً فلو كانت لي رجلان لتناولت، فقال الأعمى: أنا أحملك على رقبتي، فحمله، فتناول من الثمر، فأكلا جميعاً، فعلى من الذنب ؟ قالا: عليهما جميعاً، فقال: قضيتما على أنفسكما[2].

---

(١) هكذا بالمطبوعة ، والصواب : عن أبي سعد البقال.

(٢) [ضعيف]: لأمور، منها : ضعف أبي سعد البقال، واسمه سعيد بن مرزبان، ضعيف مدلس.

(التسعون) الأحاديث والآثار الدالة على عذاب القبر ونعيمه إلى يوم البعث فمعلوم أن الجسد تلاشى واضمحل وأن العذاب والنعيم المستمرين إلى يوم القيامة إنما هو على الروح .

(الحادي والتسعون) إخبار الصادق المصدوق ﷺ في الحديث الصحيح عن الشهداء أنهم لما سئلوا ما تريدون؟ قالوا: نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل فيك مرة أخرى[١]، فهذا سؤال وجواب من ذات حية عالمة ناطقة تقبل الرد إلى الدنيا والدخول في أجساد خرجت منها، وهذه الأرواح سئلت وهي تسرح في الجنة والأجساد قد مزقها البلى .

(الثاني والتسعون) ما ثبت عن سلمان الفارسي وغيره من الصحابة[٢] رضوان الله عليهم: أن أرواح المؤمنين في برزخ تذهب حيث شاءت وأرواح الكفار في سجين. وقد تقدم .

(الثالث والتسعون) رؤية النبي ﷺ لأرواح الناس عن يمين آدم ويساره ليلة الإسراء[٣]. فرآها متحيزة بمكان معين .

(الرابع والتسعون) رؤيته أرواح الأنبياء في السماوات وسلامهم عليه وترحيبهم به[٣] كما أخبر به، وأما أبدانهم ففي الأرض .

(الخامس والتسعون) رؤيته ﷺ أرواح الأطفال حول إبراهيم الخليل عليه السلام[٣] .

(السادس والتسعون) رؤيته ﷺ أرواح المعذبين في البرزخ بأنواع العذاب في حديث سمرة[٤] الذي رواه البخاري في صحيحه ، وقد تلاشت أجسادهم واضمحلت وإنما كان الذي رآه أرواحهم ونسمهم يفعل بها ذلك .

(السابع والتسعون) إخباره سبحانه عن الذين قتلوا في سبيله أنهم أحياء عند ربهم يرزقون، وأنهم فرحون مستبشرون بإخوانهم[٥]. وهذا للأرواح قطعاً لأن الأبدان في التراب تنظر عود أرواحها إليها يوم البعث .

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) لا أدري أين ثبت ذلك.
(٣) سبق تخريج حديث الإسراء والمعراج.
(٤) سبق تخريجه.
(٥) سبق تخريجه.

(الثامن والتسعون) ما تقـدم من حديث ابن عباس رضي الله عنهـما، ونحن نسوقه ليـتبين كم فيه من دليل على بطلان قول الملاحـدة وأهل البدع في الروح. وقد ذكرنا إسناده فـيما تقدم، قـال : بينما رسول الله ﷺ ذات يوم قـاعداً تلا هذه الآية ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾[1] الآية ثم قال : «والذي نفس محمد بيده ما من نفس تفارق الدنيـا حتى ترى مقعدها من الجنة أو النـار، فإذا كان عند ذلك صف له سماطان من الملائكة ينتظمـان ما بين الخافقين كأن وجوههم الشـمس، فينظر إليهم ما يرى غيرهم، وإن كنتم ترون أنـه ينظر إليكم، مع كل ملك منهم أكفان وحنوط ، فإن كـان مؤمناً بشروه بالجـنة، وقالوا اخرجي أيتـها النفس المطمئـنة إلى رضوان الله وجنته فـقد أعد الله لك من الكرامة مـا هو خير لك من الدنيـا وما فيهـا فلا يزالون يبشرونه فلهم ألطف به وأرأف من الوالدة بولدها، ثم يسلون روحه من تحت كل ظفر ومفـصل، يموت الأول فالأول، ويبـرد كل عضـو الأول فالأول، ويهـون عليه، وإن كنتم ترونه شديداً حتى تبالغ ذقنه فلهي أشد كراهية للخروج من الجسد من الولد حين يخرج من الرحم فيبتدرونها كل ملك منهم أيهم يقبضـها فيتولى قبضها ملك الموت، ثم تلا رسـول الله ﷺ: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[2] فيتلقاها بأكفان بيض ثم يحتـضنها إليه فلهو أشد لزوماً من المرأة لولدها ثم يفوح منها ريح أطيب من المسك، فيستنشقون ريحـاً طيباً ويتباشرون بها ويقولون: مرحباً بالريح الطيبة والروح الطيب، اللهم صل عليه روحاً وصل على جسد خرجت منه، قال: فيصعدون بها فتفوح لهم ريح أطيب من المسك، فيصلون عليها ويتباشرون بها، وتفـتح لهم أبواب السمـاء ويصلي عليهـا كل ملك في كل سماء تمـر بهم حتى تنتـهي بين يدي الجبار جـل جلاله فيـقول الجـبار عـز وجل: مرحبـاً بالنفس الطيـبة أدخلوها الجنة وأروها مقـعدها من الجنة واعرضوا عليـها ما أعددت لهـا من الكرامة والنعيم ثم اذهبوا بها إلى الأرض فإني قضيت أني منها خلقـتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى. فو الذي نفس محمـد بيده لهي أشد كراهية للخروج منها حين كانت تخرج من الجسد وتقول ، أين تذهـبون بي ؟ إلى ذلك الجسد الذي كنت فيه ؟ فيقولون: إنا مـأمورون بهذا فلا بد لك منه. فيهبطون به على قـدر فراغهم من غسله وأكفـانه فيدخلون ذلـك الروح بين الجسد وأكـفانه»[3] . فتـأمل كم في الحديث من موضع يشهد ببطلان قول المبطلين في الروح .

---

(١) (الأنعام / ٩٣). (٢) (السجدة / ١١).

(٣) سبق تخريجه.

(التاسع والتسعون) ما ذكره عبد الرزاق عن معمر عن زيد بن أسلم عن عبدالرحمن بن البيلماني عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: إذا توفي المؤمن بعث إليه ملكان بريحان من الجنة وخرقة تقبض فيها فتخرج كأطيب رائحة وجدها أحد قط بأنفه حتى يؤتى به الرحمن جل جلاله، فتسجد الملائكة قبله ويسجد بعدهم، ثم يدعى ميكائيل عليه السلام فيقال: اذهب بهذه النفس فاجعلها مع أنفس المؤمنين حتى أسألك عنها يوم القيامة»[١] .

وقد تظاهرت الآثار عن الصحابة أن روح المؤمن تسجد بين يدي العرش في وفاة النوم ووفاة الموت، وأما حين قدومها على الله فأحسن تحيتها أن تقول: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام .

(وحدثني) القاضي نور الدين بن الصائغ قال: كانت لي خالة وكانت من الصالحات العابدات، قال: عدتها في مرض موتها فقالت لي: الروح إذا قدمت على الله ووقفت بين يديه ما تكون تحيتها وقولها له؟ قال: فعظمت علي مسألتها وفكرت فيها ثم قلت: تقول اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام. قال: فلما توفيت رأيتها في المنام فقالت لي: جزاك الله خيراً لقد دهشت فما أدري ما أقوله ثم ذكرت تلك الكلمة التي قلت لي فقلتها.

[فصل]: قصة ذبح الرافضي الذي كان يسب الشيخين -رضي الله عنهما- في المنام:

(المائة) ما قد اشترك في العلم به عامة أهل الأرض من لقاء أرواح الموتى وسؤالهم لهم وإخبارهم إياهم بأمور خفيت عليهم فرأوها عياناً، وهذا أكثر من أن يتكلف إيراده .

وأعجب من هذا (الوجه الحادي والمائة) أن روح النائم يحصل لها في المنام آثار فتصبح يراها على البدن عياناً وهي من تأثير الروح في الروح كما ذكر القيرواني في كتاب البستان عن بعض السلف .

قال: كان لي جار يشتم أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فلما كان ذات يوم أكثر من شتمهما فتناولته وتناولني فانصرفت إلى منزلي وأنا مغموم حزين، فنمت

(١) [ضعيف]: لأمور، منها : ضعف عبد الرحمن بن البيلماني.

وتركت العشاء فرأيت رسول الله ﷺ في المنام فقلت: يا رسول الله فلان يسب أصحابك، قال: من أصحابي ؟ قلت: أبو بكر وعمر، فقال: خذ هذه المدية فاذبحه بها، فأخذتها فأضجعته وذبحته، ورأيت كأن يدي أصابها من دمه فألقيت المدية وأهويت بيدي إلى الأرض لأمسحها، فانتبهت وأنا أسمع الصراخ من نحو داره فقلت: ما هذا الصراخ ؟ قالوا: فلان مات فجأة، فلما أصبحنا جئت فنظرت إليه فإذا خط موضع الذبح .

قصة سواد الوجه لساب عليّ في المنام:

وفي كتاب المنامات لابن أبي الدنيا عن شيخ من قريش قال: رأيت رجلاً بالشام قد اسود نصف وجهه وهو يغطيه، فسألته عن ذلك ؟ فقال: قد جعلت لله على أن لا يسألني أحد عن ذلك إلا أخبرته به، كنت شديد الوقيعة في علي بن أبي طالب رضي الله عنه فبينا أنا ذات ليلة نائم إذ أتاني آت في منامي فقال لي: أنت صاحب الوقيعة في؟ فضرب شق وجهي، فأصبحت وشق وجهي أسود كما ترى .

(وذكر) مسعدة، عن هشام بن حسان، عن واصل مولى أبي عيينة، عن موسى ابن عبيدة، عن صفية بنت شيبة، قالت: كنت عند عائشة رضي الله عنها فأتتها امرأة مشتملة على يدها فجعل النساء يولعن بها، فقالت: ما أتيتك إلا من أجل يدي، إن أبي كان رجلاً سمحاً وإني رأيت في المنام حياضاً عليها رجال معهم آنية يسقون من أتاهم، فرأيت أبي قلت: أين أمي؟ فقال: انظري فنظرت فإذا أمي ليس عليها إلا قطعة خرقة فقال: إنها لم تتصدق قط إلا بتلك الخرقة وشحمة من بقرة ذبحوها فتلك الشحمة تذاب وتطرى بها وهي تقول: واعطشاه ! قالت: فأخذت إناء من الآنية فسقيتها فنوديت من فوقي: من سقاها أيبس الله يده، فأصبحت يدي كما ترين .

(وذكر) الحارث بن أسد المحاسبي، وأصبغ، وخلف بن القاسم، وجماعة، عن سعيد بن مسلمة، قال: بينما امرأة عند عائشة إذ قالت: بايعت رسول الله ﷺ على أن لا أشرك بالله شيئاً ولا أسرق ولا أزني ولا أقتل ولدي ولا آتي ببهتان أفتريه من بين يدي ورجلي ولا أعصي في معروف فوفيت لربي ووفى لي ربي، فوالله لا يعذبني الله، فأتاها في المنام ملك فقال لها: كلا إنك تتبرجين، وزينتك تبدين، وخيرك تكندين، وجارك تؤذين، وزوجك تعصين. ثم وضع أصابعه الخمس على

وجهها وقال: خمس بخمس ولو زدت زدناك، فأصبحت وأثر الأصابع في وجهها.

وقال عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك: سمعت مالكاً يقول: إن يعقوب ابن عبد الله بن الأشج كان من خيار هذه الأمة نام في اليوم الذي استشهد فيه فقال لأصحابه: إني قد رأيت أمراً ولأخبرنه، إني رأيت كأني أدخلت الجنة فسقيت لبناً، فاستقاء فقاء اللبن، واستشهد بعد ذلك. قال أبو القاسم: وكان في غزوة في البحر بموضع لا لبن فيه، وقد سمعت غير مالك يذكره ويذكر أنه معروف فقال: إني رأيت كأني أدخل الجنة فسقيت فيها لبناً، فقال له بعض القوم: أقسمت عليك لما تقيأت فقاء لبناً يصلد أي يبرق، وما في السفينة لبن ولا شاة، قال ابن قتيبة: قوله يصلد أي يبرق يقال صلد اللبن يصلد ومنه حديث عمر: أن الطبيب سقاه لبناً فخرج من الطعنة أبيض يصلد.

(وكان) نافع القارئ إذا تكلم يشم من فيه رائحة المسك، فقيل له: كلما قعدت تتطيب، فقال ما أمس طيباً ولا أقربه ولكن رأيت النبي ﷺ في المنام وهو يقرأ في فمي فمن ذلك الوقت يشم من في هذه الرائحة.

(وذكر) مسعدة في كتابه في الرؤيا عن ربيع بن الرقاشي قال: أتاني رجلان فقعدا إلي، فاغتابا رجلاً فنهيتهما، فأتاني أحدهما بعد فقال: إني رأيت في المنام كأن زنجياً أتاني بطبق عليه جنب خنزير لم أر لحماً قط أسمن منه فقال لي، كل، فقلت: آكل لحم خنزير؟ فتهددني، فأكلت فأصبحت وقد تغير فمي فلم يزل يجد الريح في فمه شهرين.

(وكان) العلاء بن زياد له وقت يقوم فيه فقال لأهله تلك الليلة: إني أجد فترة فإذا كان وقت كذا فأيقظوني، فلم يفعلوا، قال: فأتاني آت في منامي فقال: قم يا علاء بن زياد اذكر الله يذكرك، وأخذ بشعرات في مقدم رأسي، فقامت تلك الشعرات في مقدم رأسي، فلم تزل قائمة حتى مات. قال يحيى بن بسطام فلقد غسلناه يوم مات وإنهن لقيام في رأسه.

حكاية تسويد نصف الوجه لساب الشيخين -رضي الله عنهما-:

(وذكر) ابن أبي الدنيا، عن أبي حاتم الرازي، عن محمد بن علي، قال: كنا بمكة في المسجد الحرام قعوداً فقام رجل نصف وجهه أسود ونصفه أبيض فقال: يا أيها

الناس اعتبروا بي فإني كنت أتناول الشيخين وأشتمهما فبينما أنا ذات ليلة نائم إذ أتاني آت فرفع يده فلطم وجهي وقال لي: يا عدو الله يا فاسق، ألست تسب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فأصبحت وأنا على هذه الحالة.

قصة ذبح ساب الشيخين -رضي الله عنهما-:

وقال محمد بن عبد الله المهلبي: رأيت في المنام كأني في رحبة بني فلان وإذا النبي ﷺ جالس على أكمة ومعه أبو بكر واقف قدامه، فقال له عمر: يا رسول الله إن هذا يشتمني ويشتم أبا بكر فقال: جيء به يا أبا حفص، فأتى برجل فإذا هو العماني وكان مشهوراً بسبهما فقال له النبي ﷺ: أضجعه، فأضجعه، ثم قال: اذبحه، فذبحه، قال: فما نبهني إلا صياحه، فقلت: ما لي لا أخبره؟ عسى أن يتوب، فلما تقربت من منزله سمعت بكاء شديداً فقلت ما هذا البكاء؟ فقالوا: العماني ذبح البارحة على سريره، قال: فدنوت من عنقه فإذا من أذنه إلى أذنه طريقة حمراء كالدم المحصور.

وقال القيرواني: أخبرني شيخ لنا من أهل الفضل قال: أخبرني أبو الحسن المطلبي إمام مسجد النبي ﷺ قال: رأيت بالمدينة عجباً! كان رجل يسب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فبينا نحن يوماً من الأيام بعد صلاة الصبح إذ أقبل رجل وقد خرجت عيناه وسالتا على خديه فسألناه ما قصتك؟ فقال: رأيت البارحة رسول الله ﷺ وعلي بين يديه ومعه أبو بكر وعمر فقالا: يا رسول الله هذا الذي يؤذينا ويسبنا! فقال لي رسول الله ﷺ: من أمرك بهذا يا أبا قيس؟ فقلت له: علي، وأشرت عليه فأقبل علي علي بوجهه ويده وقد ضم أصابعه وبسط السبابة والوسطى وقصد بها إلى عيني فقلت: إن كنت كذبت ففقأ الله عينيك، وأدخل أصبعيه في عيني فانتبهت من نومي وأنا على هذه الحال، فكان يبكي ويخبر الناس، وأعلن بالتوبة.

قصة سواد الوجه لتأخير الإفطار خلاف أمره ﷺ:

قال القيرواني: وأخبرني شيخ من أهل الفضل قال: أخبرني فقيه قال: كان عندنا رجل يكثر الصوم ويسرده ولكنه كان يؤخر الفطر فرأى في المنام كأن أسودين آخذين بضبعيه وثيابه إلى تنور محمى ليلقياه فيه قال: فقلت لهما على ماذا؟ فقالا: على خلافك لسنة رسول الله ﷺ فإنه أمر بتعجيل الفطر وأنت تؤخره. قال: فأصبح وجهه قد اسود من وهج النار، فكان يمشي متبرقعاً في الناس.

وأعجب من هذا الرجل يرى في المنام وهو شديد العطش والجوع والألم أن غيره قد سقاه وأطعمه أو داواه بدواء فيستيقظ وقد زال عنه ذلك كله وقد رأى الناس من هذا عجائب .

وقد ذكر مالك، عن أبي الرجال، عن عمرة، عن عائشة أن جارية لها سحرتها، وأن سيدها دخل عليها وهي مريضة فقال: إنك سحرت، قالت: ومن سحرني ؟ قال: جارية في حجرها صبي قد بال عليها. فدعت جاريتها فقالت: حتى أغسل بولاً في ثوبي، فقالت لها: أسحرتني؟ قالت: نعم، قالت: وما دعاك إلى ذلك؟ قالت: أردت تعجيل العتق، فأمرت أخاها أن يبيعها من الأعراب ممن يسئ ملكها، فباعها، ثم إن عائشة رأت في منامها أن اغتسلي من ثلاثة آبار يمد بعضها بعضاً، فاستسقي لها فاغتسلت فبرأت(١) .

دعاء رد البصر:

(وكان) سماك بن حرب قد ذهب بصره فرأى إبراهيم الخليل في المنام فمسح على عينيه وقال: اذهب إلى الفرات فتنغمس فيه ثلاثاً. ففعل فأبصر.

(وكان) إسماعيل بن بلال الحضرمي قد عمي فأتي في المنام فقيل له: قل: يا قريب يا مجيب يا سميع الدعاء يا لطيف بمن يشاء، رد علي بصري، فقال الليث بن سعد: أنا رأيته قد عمي ثم أبصر.

وقال عبيد الله بن أبي جعفر: اشتكيت شكوى فجهدت منها فكنت أقرأ آية الكرسي، فنمت فإذا رجلان قائمان بين يدي، فقال أحدهما لصاحبه أن يقرأ آية فيها ثلاثمائة وستون رحمة، أفلا يصيب هذا المسكين فيها رحمة واحدة؟ فاستيقظت فوجدت خفة .

(قال) ابن أبي الدنيا: اعتلت امرأة من أهل الخير والصلاح بوجع المعدة فرأت في المنام قائلاً يقول لها: لا إله إلا الله، المغلى وشراب الورد. فشربته فأذهب الله عنها ما كانت تجد.

علاج وجع الورك:

وقال: وقالت أيضاً: رأيت في المنام كأني أقول: السناء والعسل وماء الحمص

(١) رواه أحمد بنحوه ، (٦/ ٤٠)، ولم أهتد إليه في «موطأ مالك» ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، لا نهتدي إلا لما هدانا إليه، والحمد لله.

الأسود شفاء لوجع الأوراك ، فلما استيقظت أتتني امرأة تشكو وجعاً بوركها فوصفت لها ذلك فاستنفعت به .

علاج المعدة من روح جالينوس الحكيم:

وقال جالينوس: السبب الذي دعاني إلى فـصد العروق الضوارب أني أمرت به في منامي مرتين، قال: كنت إذ ذاك غلاماً قال وأعرف إنساناً شفاه الله من وجع كان به في جنبه بفصد العرق الضارب لرؤيا رآها في منامه

وقال ابن الخراز: كنت أعالج رجلاً ممعوداً فغاب عني ثم لقيته فسألته عن حاله فقال: رأيت في المنام إنســاناً في زي ناسك متوكئاً على عـصا وقف علي وقال: أنت رجل ممعود؟ فقلت: نعم، فقال: عليك بالكباء والجلنجبين. فأصبحت فسألت عنهما فقيل لي: الكباء المصطكي والجلنجبين الورد المربى بالعسل، فاسـتعملتها أياماً فبرأت، فقلت له: ذلك جالينوس.

والوقائع في هذا البـاب أكثر من أن تذكـر. قال بعض الناس: إن أصل الطب من المنامات، ولا ريب أن كـثيراً من أصــوله مستند إلى الرؤيا، كـما أن بعضــها عن التجارب، وبعـضها عن القيـاس، وبعضها عن إلهـام، ومن أراد الوقوف على ذلك فلينظر في تاريخ الأطباء وفي كتاب البستان للقيرواني وغير ذلك .

[فصل]:

(الوجه الثاني بعد المائة) قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾(١).

وهذا دليل على أن المؤمنين تفتح لهم أبواب السماء، وهذا التفـتيح هو تفتيحها لأرواحهم عند الموت كما تقدم في الأحاديث المستـفيضة أن السماء تفتح لروح المؤمن حتى ينتهي بها إلى بين يدي الرب تعالى .

وأما الكافر فلا تفتح لروحه أبواب السماء ولا تفتح لجسده أبواب الجنة .

[فصل]:

(الوجه الثـالث بعد المائة) قول النبي ﷺ يا بلال ما دخلت الجنـة إلا سمعت

(١) (الأعراف / ٤٠).

خشخشتك بين يدي فبم ذاك؟ قال: ما أحدثت في ليل أو نهار إلا توضأت وصليت ركعتين[1]. قال: بهما، ومعلوم أن الذي سمع خشخشته بين يديه هو روح بلال، وإلا فجسده لم ينقل إلى الجنة.

(الوجه الرابع بعد المائة) الأحاديث والآثار التي في زيارة القبور والسلام على أهلها ومخاطبتهم والإخبار عن معرفتهم بزوارهم وردهم عليه السلام. وقد تقدمت الإشارة إليها.

(الوجه الخامس بعد المائة) شكاية كثير من أرواح الموتى إلى أقاربهم وغيرهم أموراً مؤذية فيجدونها كما شكوه فيزيلونها.

(الوجه السادس بعد المائة) لو كانت الروح عبارة عن عرض من أعراض البدن أو جوهر مجرد ليس بجسم ولا حال فيه لكان قول القائل: خرجت وذهبت وقمت وجئت وقعدت وتحركت ودخلت ورجعت ونحو ذلك كله أقوالاً باطلة لأن هذه الصفات ممتنعة الثبوت في حق الأعراض والمجردات، وكل عاقل يعلم صدق قوله وقول غيره ذلك، فالقدح في ذلك قدح في أظهر المعلومات من باب السفسطة[2] لا يقال حاصل هذا الدليل التمسك بألفاظ الناس وإطلاقاتهم وهي تحتمل الحقيقة والمجاز فلعل مرادهم دخل جسمي وخرج. لأنا إنما استدللنا بشهادة العقل والفطرة بمعاني هذه الألفاظ فكل أحد يشهد عقله وحسه بأنه هو الذي دخل وخرج وانتقل لا مجرد بدنه، فشهادة الحس والعقل بمعاني هذه الألفاظ وإضافتها إلى الروح أصلاً وإلى البدن تبعاً من أصدق الشهادات والاعتماد على ذلك لا على مجرد الإطلاق اللفظي.

(الوجه السابع بعد المائة) أن البدن مركب ومحل لتصرف النفس، فكأن دخول

---

(١) رواه الترمذي: كتاب: المناقب، باب: في مناقب عمر بن الخطاب -رضي اله عنه- [٣٦٨٩]، وقال أبو عيسى: وفي الباب عن جابر ومعاذ وأنس وأبي هريرة أن النبي ﷺ قال: رأيت في الجنة قصراً من ذهب، فقلت: لمن هذا؟ فقيل: لعمر بن الخطاب، وقال: هذا حديث صحيح غريب، وأورده الألباني في «صحيح الترمذي»، وأصله في «صحيح مسلم»: كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أم سليم، وبلال -رضي الله عنهما-، [٢٤٥٧].

(٢) **السفسطة**: هي الجدال العقيم المتعسف الذي لا يقصد به الحق، ولا يراد به إلا إفهام الخصم، حتى ولو بقلب الحقائق، والتسوية بين المتناقضات، أو التفرقة بين المتساويات، وهو مذهب يوناني فلسفي نعوذ بالله منه.

البدن وخروجه وانتقاله جارياً مجرى دخول مركبه من فرسه ودابته، فلو كانت النفس غير قابلة للدخول والخروج والانتقال والحركة والسكون لكان ذلك بمنزلة دخول مركب الإنسان إلى الدار وخروجه منها دون دخوله هو، وهذا معلوم البطلان بالضرورة، وكل أحد يعلم أن نفسه وروحه هي التي دخلت وخرجت وانتقلت وصرفت البدن وجعلته تبعاً لها في الدخول والخروج، فهو لها بالأصل والبدن بالتبع، لكنه للبدن بالمشاهدة وللروح بالعلم والعقل .

(الوجه الثامن بعد المائة) أن النفس لو كانت كما يقوله من يقول إنها عرض لكان الإنسان كل وقت قد يبدل مائة ألف نفس أو أكثر، والإنسان إنما هو إنسان بروحه ونفسه لا ببدنه، وكان الإنسان الذي هو الإنسان غير الذي هو قبله بلحظة وبعده بلحظة، وهذا من نوع الهوس، ولو كانت الروح مجردة، وتعلقها بالبدن بالتدبير فقط لا بالمساكنة والمداخلة لم يمتنع أن ينقطع تعلقها بهذا البدن وتتعلق بغيره كما يجوز انقطاع تدبير المدبر لبيت أو مدينة عنها ويتعلق بتدبير غيرها، وعلى هذا التدبير فنصير شاكين في أن هذه النفس التي لزيد هي النفس الأولى أو غيرها؟ وهل زيد هو ذلك الرجل أم غيره وأي عاقل لا يجوز ذلك فلو كانت الروح عرضاً أو أمراً مجرداً لحصل الشك المذكور.

(الوجه التاسع بعد المائة) أن كل أحد يقطع أن نفسه موصوفة بالعلم والفكر والحب والبغض والرضا والسخط وغيرها من الأحوال النفسانية، ويعلم أن الموصوفات ليس بذلك عرضاً من أعراض بدنه ولا جوهراً مجرداً منفصلاً عن بدنه غير مجاور له، ويقطع ضرورة بأن هذه الإدراكات لأمر داخل في بدنه كما يقطع بأنه إذا سمع وأبصر وشم وذاق ولمس وتحرك وسكن فتلك أمور قائمة به مضافة إلى نفسه، وأن جوهر النفس هو الذي قام به، ذلك كله لم يقم بمجرد ولا بعرض بل قام بمتحيز داخل العالم متنقل من مكان إلى مكان يتحرك ويسكن ويخرج ويدخل، وليس إلا هذا البدن والجسم الساري فيه المشابك له الذي لولاه لكان بمنزلة الجماد.

(الوجه العاشر بعد المائة) أن النفس لو كانت مجردة وتعلقها بالبدن تعلق التدبير فقط كتعلق الملاح بالسفينة والجمال بجمله لأمكنها ترك تدبير هذا البدن واشتغالها بتدبير بدن آخر كما يمكن الملاح والجمال ذلك، وفي ذلك تجويز نقل النفوس من أبدان إلى أبدان . ولا يقال إن النفس اتحدت ببدنها فامتنع عليها الانتقال، أو إنها لها

عشق طبيعي وشوق ذاتي إلى تدبير هذا البدن، فلهذا السبب امتنع انتقالها. لأنا نقول: اتحاد ما لا يتحيز بالمتحيز محال، ولأنها لو اتحدت به لبطلت ببطلانه ولأنها بعد الاتحاد إن بقيا فهما اثنان لا واحد، وإن عدما معاً وحدث ثالث فليس من الاتحاد في شئ ، وإن بقي أحدهما وعدم الآخر فليس باتحاد أيضاً. وأما عشق النفس الطبيعي للبدن فالنفس إنما تعشقه لأنها تتناول اللذات بواسطته، وإذا كانت الأبدان متساوية في حصول مطلوبها كانت نسبتها إليها على السواء، فقولكم: إن النفس المعينة عاشقة للبدن المعين باطل. ومثال ذلك العطشان إذا صادف آنية متساوية كل منهما يحصل غرضه امتنع عليه أن يعشق واحداً منها بعينه دون سائرها.

(الوجه الحادي عشر بعد المائة) أن نفس الإنسان لو كانت جوهراً مجرداً لا داخل العالم ولا خارجه ولا متصلة بالعالم ولا منفصلة عنه ولا مباينة له ولا مجانبة لكان يعلم بالضرورة أنه موجود بهذه الصفة، لأن علم الإنسان بنفسه وصفاتها أظهر من كل معلوم، وأن علمه بما عداه تابع لعلمه بنفسه، ومعلوم قطعاً أن ذلك باطل فإن جماهير أهل الأرض يعلمون أن إثبات هذا الموجود محال في العقول شاهداً وغائباً، فمن قال ذلك في نفسه وربه فلا نفسه عرف ولا ربه عرف .

(الوجه الثاني عشر بعد المائة) أن هذا البدن المشاهد محل لجميع صفات النفس وإدراكاتها الكلية والجزئية ومحل للقدرة على الحركات الإرادية فوجب أن يكون الحامل لتلك الإدراكات والصفات هو البدن وما سكن فيه. أما أن يكون محلها جوهراً مجرداً لا داخل العالم ولا خارجه فباطل بالضرورة .

(الوجه الثالث عشر بعد المائة) أن النفس لو كانت مجردة عن الجسمية والتحيز لامتنع أن يتوقف فعلها على مماسة محل الفعل لأن ما لا يكون متحيزاً يمتنع أن يصير مماساً للمتحيز، ولو كان الأمر كذلك لكان فعلها على سبيل الاختراع من غير حاجة إلى حصول مماسة وملاقاة بين الفاعل وبين محل الفعل، فكان الواحد منا يقدر على تحريك الأجسام من غير أن يماسها أو يماس شيئاً يماسها، فإن النفس عندكم كما كانت قادرة على تحريك البدن من غير مماسة له ولا لما يماسه وذلك باطل بالضرورة، فعلم أن النفس لا تقوى على التحريك إلى بشرط أن تماس محل الحركة أو تماس ما يماسه وكل ما كان مماسة للجسم أو لما يماسه فهو جسم. فإن قيل: يجوز أن يكون تأثير النفس في تحريك بدنها الخاص غير مشروط بالمماسة وتأثيرها في تحريك غيره موقوف

على حصول المماسة بين بدنها وبين ذلك الجسم، فالجواب أنه لما كان قبول البدن لتصرفات النفس لا يتوقف على حصول المماسة بين النفس وبين البدن وجب أن تكون الحال كذلك في غيره من الأجسام لأن الأجسام متساوية في قبول الحركة، ونسبة النفس إلى جميعها سواء لأنها إذا كانت مجردة عن الحجمية وعلائق الحجمية كانت نسبة ذاتها إلى الكل بالسوية، ومتى كانت ذات الفاعل نسبتها إلى الكل بالسوية والقوابل نسبتها إلى ذلك الفاعل بالسوية كان التأثير بالنسبة إلى الكل على السواء، فإذا استغنى الفاعل عن مماسة محل الفعل في حق البعض وجب أن يستغنى في حق الجميع، وإن افتقر إلى المماسة في البعض وجب افتقاره في الجميع، فإن قيل: النفس عاشقة لهذا البدن دون غيره فكان تأثيرها فيه أقوى من تأثيرها في غيره. قيل: هذا العشق الشديد يقتضي أن يكون تعلقها بالبدن أكثر وتصرفها فيه أقوى، فأما أن يتغير مقتضى ذاتها بالنسبة إلى هذه الأجسام فذلك محال. وهذا دليل في غاية القوة .

(الوجه الرابع عشر بعد المائة) أن العقلاء كلهم متفقون على أن الإنسان هو هذا الحي الناطق المتغذي النامي الحساس المتحرك بالإرادة، وهذه الصفات نوعان صفات لبدنه وصفات لروحه ونفسه الناطقة، فلو كانت الروح جوهراً مجرداً لا داخل العالم ولا خارجه ولا متصلة به ولا منفصلة عنه لكان الإنسان لا داخل العالم ولا خارجه ولا متصلاً به ولا منفصلاً عنه ، أو كان بعضه في العالم وبعضه لا داخل العالم ولا خارجه، وكل عاقل يعلم بالضرورة بطلان ذلك، وأن الإنسان بجملته داخل العالم بدنه وروحه، وهذا في البطلان يضاهي قول من قال: إن نفسه قديمة غير مخلوقة فجعلوا نصف الإنسان مخلوقاً ونصفه غير مخلوق، فإن قيل: نحن نسلم أن الإنسان كما ذكرتم إلا أنا نثبت جوهراً مجرداً يدبر الإنسان الموصوف بهذه الصفات .

قلنا: فذلك الجوهر الذي أثبتموه مغاير للإنسان أو هو حقيقة الإنسان؟ ولا بد لكم من أحد الأمرين، فإن قلتم هو غير الإنسان رجع كلامكم إلى أنكم أثبتم للإنسان مدبراً غيره سميتموه نفساً، وكلامنا الآن إنما هو في حقيقة الإنسان لا في مدبره ، فإن مدبر الإنسان وجميع العالم العلوي والسفلي هو الله الواحد القهار.

(الوجه الخامس عشر بعد المائة) أن كل عاقل إذا قيل له: ما الإنسان ؟ فإنه يشير إلى هذه البنية وما قام بها لا يخطر بباله أمر مغاير لها مجرد ليس في العالم ولا خارجه، والعلم بذلك ضروري لا يقبل شكاً ولا تشكيكاً .

(الوجه السادس عشر بعد المائة) أن عقول العالمين قاضية بأن الخطاب متوجه إلى هذه البنية وما قام بها ساكنها، وكذلك المدح والذم والثواب والعقاب والترغيب والترهيب، ولو أن رجلاً قال: المأمور والنهي والممدوح والمذموم والمخاطب والعاقل جوهر مجرد ليس في العالم ولا خارجه ولا متصل به ولا منفصل عنه لأضحك العقلاء على عقله ولأطبقوا على تكذيبه، وكل ما شهدت بداهة العقول وصرائحها ببطلانه كان الاستدلال على ثبوته استدلالاً على صحة وجود المحال، وبالله التوفيق.

[فصل]: في بيان أدلة المنازعين في جسمية الروح وتحيزها:

فإن قيل: قد ذكرتم الأدلة على جسميتها وتحيزها فما جوابكم عن أدلة المنازعين لكم في ذلك؟ فإنهم استدلوا بوجوه .

(أحدها) اتفاق العقلاء على قولهم: الروح والجسم والنفس والجسم، فيجعلونها شيئاً غير الجسم، فلو كانت جسماً لم يكن لهذا القول معنى .

(الثاني) وهو أقوى ما يحتجون به أنه من المعلوم أن في الموجودات ما هو غير قابل للقسمة كالنقطة، والجوهر الفرد، بل ذات واجب الوجود، فوجب أن يكون العلم بذلك غير قابل للقسمة، فوجب أن يكون الموصوف بذلك العلم وهو محله غير قابل للقسمة وهو النفس، فلو كانت جسماً لكانت قابلة للقسمة. ويقرر هذا الدليل على وجه آخر وهو أن محل العلوم الكلية لو كان جسماً أو جسمانياً لانقسمت تلك العلوم لأن الحال في المنقسم، انقسام تلك العلوم مستحيل .

(الثالث) أن الصور العقلية الكلية مجردة بلا شك وتجردها إما أن يكون بسبب المأخوذ عنه أو بسبب الأخذ، والأول باطل لأن هذه الصور إنما أخذت عن الأشخاص الموصوفة بالمقادير المختلفة والأوضاع المعينة، فثبت أن تجردها إنما هو بسبب الأخذ لها والقوة العقلية المسماة بالنفس .

(الرابع) أن القوة العاقلة تقوى على أفعال غير متناهية، فإنها تقوى على إدراكات لا تتناهى، والقوة الجسمانية لا تقوى على أفعال غير متناهية، لأن القوة الجسمانية تنقسم بانقسام محلها، فالذي يقوى عليه بعضها يجب أن يكون أقل من الذي يقوى عليه الكل، فالذي يقوى عليه الكل يزيد على الذي يقوى عليه البعض أضعافاً متناهية والزائد على المتناهي بمتناه متناه .

(الخامس) أن القـوة العاقلة لو كـانت حالة في آلة جـسمانيـة لوجب أن تكون القوة العاقلة دائمـة الإدراك لتلك الآلة أو ممتنعة الإدراك لها بالكليـة وكلاهما باطل. لأن إدراك القوة العاقلة لتلك الآلـة إن كان عين وجودها فهو محـال، وإن كان صورة مساوية لوجودها وهي حالة في القوة العقلية الحالة في تلك الآلة لزم اجتماع صورتين متـماثلتـين وهو محال، وإذا بـطل هذا ثبت أن القوة العـاقلة لو أدركت آلتهـا لكان إدراكها عبارة عن نفس حصول تلك الآلة عـند القوة العاقلة، فيجب حصول الإدراك دائماً إن كفى هذا القدر في حصول الإدراك، وإن لم يكف امتنع حصول الإدراك في وقت من الأوقات إذ لو حصل في وقت دون وقت لكان بسـبب أمر زائد على مجرد حضور صورة الآلة .

(السادس) أن كل أحـد يدرك نفسه ، وإدراك الشيء عـبارة عن حضور مـاهية المعلوم عند العالم، فإذا علمنا أنفسنا فـهو إما أن يكون لأجل حضور ذواتنا لذواتنا أو لأجل حضور صـورة مساوية لذواتنا في ذواتنا، والقسم الثاني باطل والإلزام اجـتماع المثلين، فثـبت أنه لا معنى لعلمنا بذاتنا إلا حضـور ذاتنا عند ذاتنا وهذا إنما يكون إذا كانت ذاتاً قائمـة بالنفس غنية عن المحل لأنها لو كانت حالة في محـل كانت حاضرة عند ذلك المحل، فثبت أن هذا المعنى إنما يـحصل إذا كانت النفس قائمة بنفسـها غنية عن محل تحل فيه .

(السابع) ما احتج به أبو البركات البغدادي وأبطل ما سواه، فقال: لا نشك أن أحداً منا يمكنه أن يتـخيل بحراً من زئبق وجبلاً من ياقـوت وشموساً وأقمـاراً، فهذه الصور الخياليـة لا تكون معدومة لأن قوة المتخيل تشـير إلى تلك الصور وتميز بين كل صورة وغيرها، وقد يقوى ذلك المتخيل إلى أن يصير كالمشاهد المحسوس، ومعلوم أن العدم المحـض والنفي الصرف لا يثـبت ذلك، ونحن نعلم بالضرورة أن هـذه الصور ليست موجودة في الأعيان فثبت أنها موجودة في الأذهان، فنقول: محل هذه الصورة إما أن يكون جسمـاً أو حالاً في الجسم أو لا جسماً ولا حالاً في الجـسم. والقسمان الأولان باطلان لأن صورة البحـر والجبل صورة عظيمة والدماغ والقلب جـسم صغير وانطباع العظيم في الصغير محال فثـبت أن محل هذه الصورة الخيالية ليس بجسم ولا جسماني .

(والثامن) لو كانت القوة العـقلية جسدانية لضعفت في زمان الشـيخوخة دائماً وليس كذلك .

(التاسع) أن القوة العقلية غنية في أفعالها عن الجسم، وما كان غنياً في فعله عن الجسم وجب أن يكون غنياً في ذاته عن الجسم. بيان الأول: أن القوة العقلية تدرك نفسها ومن المحال أن يحصل بينها وبين نفسها آلة متوسطة أيضاً، وتدرك إدراكها لنفسها وليس هذا الإدراك بآلة . وأيضاً فإنها تدرك الجسم الذي هو آلتها وليس بينها وبين آلتها آلة أخرى، وبيان الثاني من وجهين :

(أحدهما) أن القوى الجسمانية كالناظرة والسامعة والخيال والوهم لما كانت جسمانية يقدر عليها إدراك ذواتها وإدراكها لكونها مدركة لذواتها وإدراكها لتلك الأجسام الحاملة لها،فلو كانت القوة العاقلة جسمانية لتعذر عليها هذه الأمور الثلاثة.

(الثاني) أن مصدر الفعل هو النفس، فلو كانت النفس متعلقة في قوامها ووجودها بالجسم لم تحصل تلك الأفعال إلا بشركة من الجسم، ولما ثبت أنه ليس كذلك ثبت أن القوة العقلية غنية عن الجسم .

(العاشر) أن القوة الجسمانية تكل بكثرة الأفعال، ولا تقوى على القوى بعد الضعف، وسببه ظاهر فإن القوى الجسمانية بسبب مزاولة الأفعال تتعرض موادها للتحلل والذبول وهو يوجب الضعف، وأما القوة العقلية فإنها لا تضعف بسبب كثرة الأفعال وتقوى على القوى بعد الضعف فوجب أن لا تكون جسمانية.

(الحادي عشر) أنا إذا حكمنا بأن السواد مضاد للبياض وجب أن يحصل في الذهن ماهية السواد والبياض والبداهة حاكمة بأن اجتماع السواد والبياض والحرارة والبرودة في الأجسام محال، فلما حصل هذا الاجتماع في القوة العقلية وجب أن لا تكون قوة جسمانية.

(الثاني عشر) أنه لو كان محل الإدراكات جسماً - فكل جسم منقسم لا محالة- لم يمنع أن يقوم ببعض أجزاء الجسم علم بالشيء وبالبعض الآخر منه جهل، وحينئذ فيكون الإنسان في الحال الواحد عالماً بالشيء وجاهلاً به .

(الثالث عشر) أن المادة الجسمانية إذا حصلت فيها نقوش مخصوصة فإن وجود تلك النقوش فيها يمنع من حصول نقوش غيرها، وأما النقوش العقلية فبالضد من ذلك لأن الأنفس إذا كانت خالية من جميع العلوم والإدراكات فإنه يصعب عليها التعلم، فإذا تعلمت شيئاً صار حصول تلك العلوم معيناً على سهولة غيرها، فالنقوش

الجسمانية متغايرة متنافية والنقوش العقلية متعاونة متعاضدة.

(الرابع عشر) أن النفس لو كانت جسماً لكان بين إرادة العبد تحريك رجله وبين تحريكها زمان على قدر حركة الجسم وثقله، فإن النفس هي المحركة للجسد والممهد لحركته فلو كان المحرك للرجل جسماً فإما أن يكون حاصلاً في هذه الأعضاء أو جائياً إليها، فإن كان جائياً إليها احتاج إلى مدة ولا بد، وإن كان حاصلاً فيها فنحن إذا قطعنا تلك العضلة التي تكون بها الحركة لم يبق منها في العضو المتحرك شئ فلو كان ذلك المتحرك حاصلاً فيه لبقي منه شئ في ذلك العضو.

(الخامس عشر) لو كانت النفس جسماً لكانت منقسمة ولصح عليها أن يعلم بعضها كما يعلم كلها فيكون الإنسان عالماً بعض نفسه جاهلاً بالبعض الآخر وذلك محال.

(السادس عشر) لو كانت النفس جسماً لوجب أن يثقل البدن بدخولها فيه لأن شأن الجسم الفارغ إذا ملأه غيره أن يثقل به كالزق الفارغ والأمر بالعكس، فأخف ما يكون البدن إذا كانت فيه النفس وأثقل ما يكون إذا فارقته.

(السابع عشر) لو كانت النفس جسماً لكانت على صفات سائر الأجسام التي لا يخلو شئ منها من الخفة والثقل والحرارة والبرودة والنعومة والخشونة والسواد والبياض وغير ذلك من صفات الأجسام وكيفياتها. ومعلوم أن الكيفيات النفسانية إنما هي الفضائل والرذائل لا تلك الكيفيات الجسمانية فالنفس ليست جسماً.

(الثامن عشر) أنها لو كانت جسماً لوجب أن يقع تحت جميع الحواس أو تحت حاسة منها أو حاستين أو أكثر، فإنا نرى الأجسام كذلك منها ما يدرك بجميع الحواس ومنها ما يدرك بأكثرها ومنها ما يدرك بحاستين منها أو واحدة. والنفس بريئة من ذلك كله. وهذه الحجة التي احتج بها جهم على طائفة من الملاحدة حين أنكروا الخالق سبحانه وقالوا: لو كان موجوداً لوجب أن يدرك بحاسة من الحواس فعارضهم بالنفس أنى تتم المعارضة إذا كانت جسماً وإلا لو كانت جسماً لجاز إدراكها ببعض الحواس.

(التاسع عشر) لو كانت جسماً لكانت ذات طول وعرض وعمق وسطح وشكل وهذه المقادير والأبعاد لا تقوم إلا بمادة ومحل. فإن كانت مادتها ومحلها نفساً لزم اجتماع نفسين، وإن كان غير نفس كانت النفس مركبة من بدن وصورة وهي في

جسد مركب من بدن وصورة فيكون الإنسان إنسانين؛

(العشرون) إن من خاصة الجسم أن يقبل التجزيء، والجزء الصغير منه ليس كالكبير، ولو قبلت التجزيء فكل جزء منها إن كان نفساً لزم أن يكون للإنسان نفوس كثيرة لا نفس واحدة، وإن لم يكن نفساً لم يكن المجموع نفساً كما أن جزء الماء إن لم يكن ماء لم يكن مجموعه ماء.

(الحادي والعشرون) أن الجسم محتاج في قوامه وحفظه وبقائه إلى النفس ولهذا يضمحل ويتلاشى لما تفارقه، فلو كانت جسماً لكانت محتاجة إلى نفس أخرى وهلم جراً ويتسلسل الأمر، وهذا المحال إنما لزم من كون النفس جسماً.

(الثاني والعشرون) لو كانت جسماً لكان اتصالها بالجسم إن كان على سبيل المداخلة لزم تداخل الأجسام، وإن كان على سبيل الملاصقة والمجاورة كان الإنسان الواحد جسمين متلاصقين أحدهما يرى والآخر لا يرى.

فهذا كل ما موهت به هذه الطائفة المبطلة من منخنقة وموقوذة ومتردية ونحن نجيبهم عن ذلك كله فصلاً بفصل بحول الله وقوته ومعونته.

[فصل]: في ترديد الشبهة الأولى لمنازعي جسمية الروح والنفس:

فأما قولهم إن العقلاء متفقون على قولهم: الروح والجسم، والنفس والجسم، وهذا يدل على تغايرهما.

فالجواب أن يقال: إن مسمى الجسم في اصطلاح المتفلسفة والمتكلمين أعم من مسماه في لغة العرب وعرف أهل العرف فإن الفلاسفة يطلقون الجسم على قابل الأبعاد الثلاثة خفيفاً كاد أو ثقيلاً، مرئياً كان أو غير مرئي، فيسمون الهواء جسماً والنار جسماً والماء جسماً وكذلك الدخان والبخار والكوكب، ولا يعرف في لغة العرب تسمية شئ من ذلك جسماً ألبتة، فهذه لغتهم وأشعارهم، وهذ المنقول عنهم في كتب اللغة، قال الجوهري: قال أبو زيد: الجسم الجسد وكذلك الجسمان والجثمان. قال الأصمعي: الجسم والجسمان الجسد والجثمان الشخص، وقد جسم الشيء أي عظم فهو عظيم جسيم وجسام بالضم.

ونحن إذا سمينا النفس جسماً، فإنما هو باصطلاحهم وعرف خطابهم وإلا فليست جسماً باعتبار وضع اللغة، ومقصودنا بكونها جسماً إثبات الصفات والأفعال

والأحكام التي دل عليها الشرع والعقل والحس من الحركة والانتقال والصعود والنزول ومباشرة النعيم والعذاب واللذة والألم، وكونها تحبس وترسل وتقبض وتدخل وتخرج، فلذلك أطلقنا عليها اسم الجسم تحقيقاً لهذه المعاني وإن لم يطلق عليها أهل اللغة اسم الجسم، فالكلام مع هذه الفرقة المبطلة في المعنى لا في اللفظ فقول أهل التخاطب الروح والجسم هو بهذا المعنى .

[فصل]: في ترديد الشبهة الثانية:

وأما الشبهة الثانية: فهي أقوى شبههم التي بها يصولون وعليها يعولون وهي مبنية على أربع مقدمات.

(إحداها) أن في الوجود ما لا يقبل القسمة بوجه من الوجوه .

(الثانية) أنه يمكن العلم به .

(الثالثة) أن العلم به غير منقسم .

(الرابعة) أنه يجب أن يكون محل العلم به كذلك إذ لو كان جسماً لكان منقسماً.

وقد نازعهم في ذلك جمهور العقلاء وقالوا: لم تقيموا دليلاً على أن في الوجود ما لا يقبل القسمة الحسية ولا الوهمية، وإنما بأيديكم دعاوى لا حقيقة لها، وإنما أثبتموه من واجب الوجود وهو بناء على أصلكم الباطل عند جميع العقلاء من أهل الملل وغيرهم من إنكار ماهية الرب تعالى وصفاته وإنه وجود مجرد لا صفة له ولا ماهية وهذا قول باينتم به العقول وجميع الكتب المنزلة من السماء وإجماع الرسل ونفيتم به علم الله وقدرته ومشيئته وسمعه وبصره وعلوه على خلقه ونفيتم به خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وسميتموه توحيداً وهو أصل كل تعطيل[1] .

قالوا: والنقطة التي استدللتم بها هي من أظهر ما يبطل دليلكم فإنها غير منقسمة وهي حالة في الجسم المنقسم فقد حل في المنقسم ما ليس بمنقسم. ثم إن مثبتي الجوهر الفرد وهم جمهور المتكلمين ينازعونكم في هذا الأصل ويقولون الجوهر

(١) التعطيل: هو نفي الصفات المقدسة التي وصف الله عز وجل بها نفسه في محكم التنزيل ، أو على لسان أصدق الصادقين ﷺ وتأويلها على غير ظاهرها. وهي عقيدة بعض الفرق الضالة المرتدة من أتباع جهم بن صفوان -لعنة الله عليه-.

حال في الجسم بل هو مركب منه فقد حل في المنقسم ما ليس بمنقسم ولا يمكن تتميم دليلكم إلا بنفي الجوهر الفرد، فإن قلتم النقطة عبارة عن نهاية الخط وفنائه وعدمه فهي أمر عدمي. بطل استدلالكم بها، وإن كانت أمراً وجودياً فقد حلت في المنقسم فبطل الدليل على التقديرين .

قالوا أيضاً: فلم لا يكون العلم حالاً في محله لا على وجه النوع والسريان فإن حلول كل شئ في محله بحسبه فحلول الحيوان في الدار نوع، وحلول العرض في الجسم نوع، وحلول الخط في الكتاب نوع، وحلول الدهن في السمسم نوع وحلول الجسم في العرض نوع، وحلول الروح في البدن نوع، وحلول العلوم والمعارف في النفس نوع .

قالوا: وأيضاً فالوحدة حاصلة فإن كانت جوهراً فقد ثبت الجوهر الفرد وبطل دليلكم فإنه لا يتم إلا بنفيه، وإن كان عرضاً وجب أن يكون لها محل، فمحلها إن كان منقسماً فقد جاز قيام غير المنقسم بالمنقسم فهو الجوهر وبطل الدليل. فإن قلتم الوحدة أمر عدمي لا وجود له في الخارج فكذلك أثبتم به وجود ما لا ينقسم، كلها أمور عدمية لا وجود لها في الخارج، فإن واجب الوجود الذي أثبتموه أمر عدمي بل مستحيل الوجود.

قالوا: وأيضاً فالإضافات عارضة لا أقسام مثل الفوقية والتحتية والمالكية والمملوكية، فلو انقسم الحال بانقسام محله لزم انقسام هذه الإضافات فكأن يكون لحقيقة الفوقية والتحتية ربع وثمن وهذا ما لا يقبله العقل .

قالوا: وإن القوة الوهمية والفكرية جسمانية عند زعيمكم ابن سيناء فيلزم أن يحصل لها أجزاء وأبعاض وذلك محال لأنها لو انقسمت لكان كل واحد من أبعاضها إن كان مثلها كان الجزء مساوياً للكل وإن لم يكن مثلها لم تكن تلك الأجزاء كذلك.

وأيضاً فإن الوهم لا معنى له إلا كون هذا صديقاً وهذا عدواً وذلك لا يقبل القسمة .

قالوا: وإن الوجود أمر زائد على الماهيات عندكم فلو لزم انقسام الحال لانقسام محله لزم انقسام ذلك الوجود بانقسام محله. وهذا الوجه لا يلزم من جعل وجود الشيء غير ماهيته .

قالوا: وأيضاً فطبائع الأعداد ماهيات مختلفـة، فالمفهوم من كون العشرة عشرة مفهوم واحـد وماهية واحدة، فتلك الماهية إما أن تكـون عارضة لكل واحد من تلك الآحاد وهو محال، وإمـا أن تنقسم بانقسام تلك الآحاد وهو مـحال، لأن المفهوم من كون العشرة عشرة لا يقبل القسمة. نعم العشرة تقبل القسمة لا عشريتها. قالوا: فقد قدم ما لا ينقسم بالمنقسم .

قالوا: وأيضاً فـالكيفيات المختصـات بالكميات كالاستدارة والنقـوش ونحوهما عند الفلاسـفة أعراض موجـودة في شبه الاستـدارة، إن كانت عرضاً فـإما أن يكون بتمامه قائماً. وإما أن يكون بكل واحـد من الأجزاء وهو محال، وإما أن ينقسم ذلك العرض بانقسام الأجزاء ويقوم بكل جزء من أجزاء الخط جزء من أجزاء ذلك العرض وهو محال، لأن جزأه إن كـان استدارة لزم أن يكون جزء الدائرة دائرة، وإن لم يكن استدارة فعند اجتماع الأجزاء إن لم يحدث أمر زائد وجب أن لا تحصل الاستدارة وإن حدث أمر زائد فـإن كان منقسمـاً عاد التقسـيم وإن لم ينقسم كان الحال غيـر منقسم ومحله منقسماً.

قلت: وهذا لا يلزمهم فإن لهم أن يقـولوا ينقسم بانقسام محله تبـعاً له كسائر الأعراض القـائمة بمحالهـا من البياض والـسواد، وأما مـا لا ينقسم كالطول فـشرط حصوله اجتماع الأجزاء والمعلق على الشرط منتف بانتفائه .

قالوا: وإن هذه الأجـسام ممكنة بذواتها وذلك صـفة عرضـية لها خـارجة عن ماهيتها فإن لم تنقسم بانقســام محلها بطل الدليل، وإن انقسمت عاد المحذور المذكور من مساواة الجزء للكل والتسلسل.

قلت: وهذا أيضـاً لا يلزمـهم لأن الإمكان ليس أمراً يـدل على قبـول الممكن للوجود والعدم، وذلك القبول من لوازم ذاته ليس صفة عارضة له ولكن الذهن يجرد هذا القبول عن الـقابل فيكون عروضه للمـاهية بتجريد الذهن، وأمـا قضية مـشاركة الجزء للكل فلا امتناع في ذلك كـسائر الماهيات البسيطة، فإن جـزأها مساو لكلها في الحد والحقيـقة كالماء والتراب والهواء، وإنما الممتنع أن يساوي الجزء للكل في الكم لا في نفس الحقيقة .

والمعول في إبطال هذه الشبهـة على أن العلم ليس بصورة حالة في النفس وإنما

هو نسبة وإضافة بين العلم والمعلوم كما نقول في الإبصار أنه ليس بانطباع صورة مساوية للمبصر في القوة الباصرة وإنما هو نسبة وإضافة بين القوة الباصرة والمبصر، وعامة شبههم التي أوردوها في هذا الفصل مبنية على انطباع صورة المعلوم في القوة العالمة ثم بنوا على ذلك أن انقسام ما لا ينقسم في المنقسم محال .

وقولهم: محل العلوم الكلية لو كان جسماً أو جسمانياً لانقسمت تلك العلوم لأن الحال في المنقسم منقسم لم يذكروا جسمه . هذه المقدمة دليلاً ولا شبهة وإنما بأيديهم مجرد الدعوى، وليست بديهية حتى تستغني عن الدليل وهي مبنية على أن العلم بالشيء عن حصول صورة مساوية لماهية المعلوم في نفس العالم وهذا من أبطل الباطل للوجوه التي نذكرها هناك .

وأيضاً فلو سلمنا لكم ذلك كان من أظهر الأدلة على بطلان قولكم فإن هذه الصورة إذا كانت حالة في جوهر النفس الناطقة فهي صورة جزئية حالة في نفس جزئية تقارنها سائر الأعراض الحالة في تلك النفس الجزئية فإذا اعتبرنا تلك الصورة مع جملة هذه اللواحق لم تكن صورة مجردة بل مقرونة بلواحق وعوارض وذلك يمنع كليتها .

فإن قلتم: المراد بكونها كلية أنا إذا حذفنا عنها تلك اللواحق واعتبرناها من حيث هي هي كانت كلية، قلنا لكم: فإذا جاز هذا فلم لا يجوز أن يقال : هذه الصورة حالة في مادة جسمانية مخصوصة بمقدار معين وبكل معين إلا أنا إذا حذفنا عنها ذلك واعتبرناها من حيث هي هي كانت بمنزلة تلك الصورة التي فعلنا بها ذلك، فالمعين في مقابلة المعين المطلق المأخوذ من حيث هو هو في مقابلة محله المطلق، وهذا هو المعقول الذي شهدت به العقول الصحيحة والميزان الصحيح، فظهر أن هذه الشبهة من أفسد الشبه وأبطلها، وإنما أتي القوم من الكليات فإنها هي التي خربت دورهم وأفسدت نظرهم ومناظرهم فإنهم جردوا أموراً كلية لا وجود لها في الخارج ثم حكموا عليها بأحكام الموجودات وجعلوها ميزاناً وأصلاً للموجودات .

فإذا جردوا صور المعلومات، وجعلوها كلية جردنا نحن محلها وجعلناه كلياً. وإن أخذوا جزئية معينة فمحلها كذلك ، فالكلي في مقابلة الكلي والجزئي في مقابلة

الجزئي .

على أنا نقول: ليس في الذهن كلي وإنما في الذهن صورة معينة مشخصة منطبقة على سائر أفرادها، فإن سميت كلية بهذا الاعتبار فلا مشاحة في الألفاظ وهي كلية وجزئية باعتبارين .

[فصل] : في جواب الشبهة الثالثة:

قولكم في الوجه الثالث: إن الصور العقلية الكلية مجردة وتجردها إنما هو بسبب الآخذ لها وهو القوة العقلية. جوابه أن يقال: أما الذي تريدون بهذه الصورة العقلية الكلية ؟ أتريدون به أن المعلوم حصل في ذات العالم أو أن العلم به حصل في ذات العالم، فالأول ظاهر الإحالة، والثاني حق إلا أنه لا يفيدكم شيئاً لأن الأمر الكلي المشترك بين الأشخاص الإنسانية هو لإنسانية لا العلم بها، والإنسانية لا وجود لها في الخارج كلية، والوجود في الخارج للمعينات فقط ، والعلم تابع للمعلوم، فكما أن المعلوم معين فالعلم به معين لكنه صورة منطبقة على أفراد كثيرة، فليس في الذهن ولا في الخارج صورة غير منقسمة ألبتة، وكم قد غلط في هذا الموضع طوائف من العقلاء لا يحصيهم إلا الله تعالى، فالصورة الكلية التي يثبتونها ويزعمون أنها حالة في النفس فهي صورة شخصية موصوفة بعوارض شخصية، فهب أن هذه الصورة العقلية حالة في جوهر ليس بجسم ولا جسماني فإنها غير مجردة عن العوارض، فإن قلتم: مرادنا بكونها مجردة النظر إليها من حيث هي هي مع قطع النظر عن تلك العوارض، قيل لكم: فلم لا يجوز أن تكون الصورة الحالة في المحل الجسماني منقسمة وإنما تكون مجردة إذا نظرنا إليها من حيث هي هي بقطع النظر عن عوارضها.

[فصل]:

قولكم في الرابع: إن العقلية تقوى على أفعال غير متناهية ولا شئ من القوى الجسمانية كذلك. فجوابه أنا لا نسلم أنها تقوى على أفعال غير متناهية .

وقولكم: إنها تقوى على إدراكات لا تتناهى هي والإدراكات أفعال . مقدمتان

كاذبتان، فإن إدراكاتها ولو بلغت ما بلغت فهي متناهية، فلو كان لها بكل نفس ألف ألف إدراك لتناهت إدراكاتها فهي قطعاً تنتهي في الإدراكات والمعارف إلى حد لا يمكنها أن تزيد عليه شيئاً كما قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[1] إلى أن ينتهي العلم إلى من هو بكل شئ عليم، فهو الله الذي لا إله إلا هو وحده، وذلك من خصائصه التي لا يشاركه فيها سواه.

فإن قلتم: ولو انتهى إدراكها إلى حد لا يمكنها المزيد عليه لزم انقلاب الشيء من الإمكان الذاتي، قلنا: فهذا بعينه لو صح دل على أن القوة الجسمانية تقوى على أفعال غير متناهية، وذلك يوجب سقوط الشبهة وبطلانها.

وأيضاً فإن قوة التخيل والتفكر والتذكر تقوى على استحضار المخيلات والمتذكرات إلى غير نهاية مع أنها عندكم قوة جسمانية.

فإن قلتم: لا نسلم أنها تقوى على ما لا يتناهى، قيل لكم: وهكذا يقول خصومكم في القوة العاقلة سواء.

وأما كذب المقدمة الثانية فإن الإدراك ليس بفعل فلا يلزم من تناهي فعلها تناهي إدراكها، وقد صرحتم بأن الجوهر العقلي قابل لصورة المعلوم لا أنها فاعل لها، والشيء الواحد لا يكون فاعلاً، وقابلاً عندكم، وقد صرحتم بأن الأجسام يمتنع عليها أفعال لا نهاية لها ولا يمتنع عليها مجهولات وانفعالات لا تتناهى، وقد أورد ابن سيناء على هذه الشبهة سؤالاً فقال: أليس النفس الفلكية المباشرة لتحريك الفلك قوة جسمانية مع أن الحركات الفلكية غير متناهية؟ وأجاب عنه بأنها وإن كانت قوة جسمانية إلا أنها تستمد الكمال من العقل المفارق، فلهذا السبب قدرت على أفعال غير متناهية.

فنقول: فإذا كان الأمر عندك كذلك فلم لا يجوز أن يقال النفس الناطقة تستمد الكمال والقوة من فاطرها ومنشئها الذي له القوة جميعاً فلا جرم تقوى مع كونها جسمانية على ما لا يتناهى؟ فإذا قلت بذلك وافقت الرسل والعقل ودخلت مع زمرة المسلمين وفارقت العصبة المبطلين.

[فصل]: في جواب الشبهة الخامسة:

(قولكم في الخامس): لو كانت القوة العاقلة حالة في آلة جسمانية لوجب أن

---

(١) (يوسف / ٧٦).

تكون دائمة الإدراك لتلك الآلة أو ممتنعة الإدراك كلها فهو مبني على أصلكم الفاسد أن الإدراك عبارة عن حـصول صورة مساوية للمدرك في القوة المدركة، ثم لو سلمنا لكم ذلك الأصل لم يفـدكم شيئاً فإن حـصول تلك الصـورة يكون شرطاً لحـصول الإدراك، فأما أن يقول إن الإدراك عين حصول تلك الصورة فهذا لا يقوله عاقل، فلم لا يجوز أن يقـال القوة العقليـة حالة في جسم مخـصوص، ثم إن القوة الناطقـة قد تحصل لها حالة إضافية تسمى بالشعور، والإدراك، فـحينئذ تصير القوة العاقلة مدركة لتلك الآلة، وقد لا توجد تلك الحالة الإضافية فتصير غافلة عنها، وإذا كان هذا ممكناً سقطت تلك الشبهة رأساً: ثم نقول: أتدعون أنا إذا عـقلنا شيئاً فإن الصورة الحاضرة في العقل مساوية لذلـك المعقول من جميع الوجوه والاعتـبارات أو لا يجب حصول هذه المسـاواة من جمـيع الوجوه ؟ فـالأول لا يقوله عـاقل وهو أظهر من أن يحـتج لفساده، وإذا علم أنه لا تجب المساواة من جـميع الوجوه، لم يلزم من حدوث صورة أخرى في القلب أو الدماغ اجتماع المثلين .

وأيضاً فالقـوة العاقلة حالة في جوهر القلب أو الدماغ، والصـورة الحادثة حالة في القوة العاقلة، فإحدى الصورتين محل للقوة العاقلة، وأيضاً فنحن إذا رأينا المسافة الطويلة والبـعد الممـتد فـهل يتوقف هذا الإبصـار على ارتسام صـورة المرئي في عين الرائي أو لا يتوقف ؟ فإن توقف لزم اجتماع المثلين لأن القوة الباصرة عندكم جسمانية فهي في مـحل له حجم ومقدار، فـإذا حصل فيه حـجم المرئي ومقداره لزم اجتـماع المثلين، وإذا جـاز هناك فلم لا يجـوز مثـله في مسـألتنا؟ وإن كـان إدراك الشيء لا يتـوقف على حصـول صورة المرئي في الرائـي بطل قولكم إن إدراك القلب والدمـاغ يتوقف على حصول صورة القلب والدماغ في القوة العاقلة.

وأيضاً فقـولكم: لو كانت القوة العقلية حـالة في جسم لوجب أن تكون دائمة الإدراك لذلك الجسم لكن إدراكنا لقلبنا ودمـاغنا غير دائم، فهـذا إنما يلزم من يقول إنها حالة في القلب أو الدماغ، وأما من يقول : إنهـا حالة في جسم مخصوص وهو النفس وهي مـشابكة للبـدن فهـذا الإلزام غيـر وارد عليه فـإنه يقول: النفس جـسم مخصـوص والإنسان أبداً عالم بأنه جسم مخـصوص ولا يزول ذلك عن عقله إلا إذا عرضت له الغفلة فسقطت الشبهة التي عولتم عليها على كل تقدير .

[فصل]: في جواب الشبهة السادسة:

(قولكم في السادس): إن كل أحد يدرك نفسه، والإدراك عبارة عن حصول ماهية المعلوم عند العالم وهذا إنما يصح إذا كانت النفس غنية عن المحل إلى آخره .

جوابه أن ذلك مبني على الأصل المتقدم وهو أن العلم عبارة عن حصول صورة مساوية للمعلوم في نفس العالم، وهذا باطل من وجوه كثيرة مذكورة في مسألة العلم، حتى لو سلم ذلك فالصورة المذكورة شرطاً في حصول العلم لا أنها نفس العلم . وأيضاً فهذه الشبهة مع ركاكة ألفاظها وفساد مقدماتها منقوضة، فإنا إذا أخذنا حجراً أو خشبة قلنا: هذا جوهر قائم بنفسه، فذاته حاضرة عند ذاته فيجب في هذه الجمادات أن تكون عالمة بذواتها . وأيضاً فجميع الحيوانات مدركة لذواتها، فلو كان كون الشيء مدركاً لذاته تقتضي كون ذاته جوهراً مجرداً لزم كون نفوس الحيوانات بأسرها جواهر مجردة وأنتم لا تقولون بذلك .

[فصل]: في جواب الشبهة السابعة:

(قولكم في السابع): الواحد منا يتخيل بحراً من زئبق وجبلاً من ياقوت إلى آخره وهو شبهة أبي البركات البغدادي، فشبهة داحضة جداً فإنها مبنية على أن تلك المتخيلات أمور موجودة وأنها منطبعة في النفس الناطقة انطباع النفس في محله، ومعلوم قطعاً أن هذه المتخيلات لا حقيقة لها في ذاتها وإنما الذهن يفرضها تقديراً وليست منطبعة في النفس فإن العلوم الخارجية لا تنطبع صورها في النفس فكيف بالخيالات المعدومة ؟ فهذه مندحضة ولا يمنع من وقوع التمييز بين الأعدام المضافة فإن العقل يميز بين عدم السمع وعدم البصر وعدم الشم وغير ذلك ولا يلزم من هذا التمييز كون هذه الأعدام موجودة ، بل يميز بين أنواع المستحيلات التي لا يمكن وجودها ألبتة. ثم نقول: إذا عقل حلول الأشكال والمقادير فيما كان مجرداً عن الحجمية والمقدار من كل الوجوه أفلا يعقل حلول العلم بالشكل العظيم والمقدار العظيم في الجسم الصغير؟ وأيضاً فإذا كان عدم الانطباق من جميع الوجوه لا يمنع من حلول الصورة والشكل في الجوهر المجرد فعدم انطباق العظيم على الصغير أولى أن لا يمنع من حلول الصورة العظيمة في المحل الصغير .

وأيضاً فإن سلفكم من الأوائل، أقاموا الدليل على أن انطباع الصورة الحالة في

الجوهر المجرد محال وذكروا له وجوهاً .

[فصل] : في ترديد الشبهة الثامنة:

(قولكم في الثامن): لو كانت القوة العقلية جسدانية لضعفت في زمن الشيخوخة وليس كذلك جوابه من وجوه :

(الوجه الأول) لم لا يجوز أن يقال: القدر المحتاج إليه من صحة البدن في كمال القوة العقلية مقدار معين، وأما كمال حال البدن في الصحة فإنه غير معتبر في كمال حال القوة العقلية، وإذا احتمل ذلك لم يبعد أن يقال ذلك القدر المحتاج إليه باق إلى آخر الشيخوخة فبقي العقل إلى آخرها .

(الوجه الثاني) أن الشيخ لعله إنما يمكنه أن يستمر في الإدراكات العقلية على الصحة أن عقله يبقى ببعض الأعضاء التي يتأخر الفساد والاستحالة إليها فإذا انتهى إليها الفساد والاستحالة فسد عقلة وإدراكه .

(الوجه الثالث) أنه لا يمتنع أن يكون بعض الأمزجة أوفق لبعض القوى ، فلعل مزاج الشيخ أوفق للقوة العقلية، فلهذا السبب تقوى فيه القوة العاقلة .

(الوجه الرابع) أن المزاج إذا كان في غاية القوة والشدة كانت سائر القوى قوية فتكون القوة الشهوانية والغضبية قوية جداً، وقوة هذه القوى تمنع العقل من الاستكمال، فإذا حصلت الشيخوخة وحصل الضعف حصل بسبب الضعف ضعف في هذه القوى المانعة للعقل من الاستكمال وحصل في العقل أيضاً ضعف، ولكن بعد ما حصل في العقل من الضعف حصل ذلك في أضداده فينجبر النقصان من أحد الجانبين بالنقصان من الجانب الآخر فيقع الاعتدال .

(الوجه الخامس) أن الشيخ حفظ العلوم والتجارب الكثيرة ومارس الأمور ودربها وكثرت تجاربه، وهذه الأحوال تعينه على وجوه الفكر وقوة النظر فقام النقصان الحاصل بسبب ضعف البدن والقوى.

(الوجه السادس) أن كثرة الأفعال بسبب حصول الملكات الراسخات فصارت الزيادة الحاصلة بهذا الطريق جابراً للنقصان الحاصل بسبب اختلال البدن .

(الوجه السابع) أنه قد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال : «يهرم ابن آدم

وتشب فيه خصلتان الحرص وطول الأمل»[1]. والواقع شاهد لهذا الحديث مع أن الحرص والأمل من القوى الجسمانية والصفات الخيالية، ثم إن ضعف البدن لم يوجب ضعف هاتين الصفتين، فعلم أنه لا يلزم من اختلال البدن وضعفه ضعف الصفات البدنية .

(الوجه الثامن) أنا نرى كثيراً من الشيوخ يصيرون إلى الخرف وضعف العقل بل هذا هو الأغلب يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾[2] فالشيخ في أرذل عمره يصير كالطفل أو أسوأ حالاً منه وأما من لم يحصل له ذلك فإنه لا يرد إلى أرذل العمر.

(الوجه التاسع) أنه لا تلازم بين قوة البدن وقوة النفس ولا بين ضعفه وضعفها فقد يكون الرجل قوي البدن ضعيف النفس جباناً خواراً وقد يكون ضعيف البدن قوي النفس فيكون شجاعاً مقداماً على ضعف بدنه .

(الوجه العاشر) أنه لو سلم لكم ما ذكرتم لم يدل على كون النفس جوهراً مجرداً لا داخل العالم ولا خارجه ولا هي في البدن ولا خارجه عنه، لأنها إذا كانت جسماً صافياً مشرقاً سماوياً مخالفاً للأجسام الأرضية لم تقبل الانحلال والذبول والتبدل كما تقبله الأجسام المتحللة الأرضية فلا يلزم من حصول الانحلال والذبول في هذا البدن حصولها في جوهر النفس .

[فصل] : في ترديد الشبهة التاسعة:

(قولكم في التاسع): إن القوة العقلية غنية في أفعالها عن الجسم وما كان غنياً عن الجسم في أفعال كان غنياً عنه في ذاته إلى آخره. جوابه أن يقال: لا يلزم من ثبوت حكم في قوة جسمانية ثبوت مثل ذلك الحكم في جميع القوى الجسمانية وليس معكم غير الدعوى المجردة والقياس الفاسد .

---

(١) [صحيح]: رواه أحمد: (٣/ ١١٥)، ومسلم : كتاب: الزكاة، باب: كراهة الحرص على الدنيا، [١٠٤٧]، والترمذي : كتاب: الزهد، باب: ما جاء في قلب الشيخ شاب على حب اثنتين، [٢٣٣٩]، ورواه البخاري قريبًا من معناه : كتاب: الرقائق، باب: من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر، [٦٤٢٠، ٦٤٢١]، والترمذي : [٢٣٣٨].

(٢) (الحج / ٥).

وأيضاً فالصور والأعراض محتاجة إلى محلها وليس احتياجها إلى تلك المحال إلا لمجرد ذواتها، ولا يلزم من استقلالها بهذا الحكم استغناؤها في ذواتها عن تلك المحال، فلا يلزم من كون الشيء مستقلاً باقتضاء حكم من الأحكام أن يكون مستغنياً في ذاته عن المحال، والله أعلم.

[فصل]: في ترديد الشبهة العاشرة:

(قولكم في العاشر): إن القوة الجسمانية تكل بكثرة الأفعال ولا تقوى على القوى بعد الضعف إلى آخره، جوابه أن القوة الخيالية جسمانية، ثم إنها تقوى على تخيل الأشياء العظيمة مع تخيلها الأشياء الحقيرة، فإنها يمكنها أن تتخيل الشعلة الصغيرة حال ما تخيل الشمس والقمر.

وأيضاً فإن الأبصار القوية القاهرة تمنع إبصار الأشياء الضعيفة، فكذلك نقول: العقول العظيمة العالية تمنع تعقل المعقولات الضعيفة، فإن المستغرق في معرفة جلال رب الأرض والسماوات وأسمائه وصفاته يمتنع عليه في تلك الحال الفكر في ثبوت الجوهر الفرد وحقيقته .

[فصل]: في ترديد الشبهة الحادية عشرة:

(قولكم في الحادي عشر): إنا إذا حكمنا بأن السواد مضاد للبياض وجب أن يحصل في الذهن ماهية السواد والبياض معاً، والبداهة حاكمة بأن اجتماعهما في الجسم محال. جوابه أن هذا مبني على أن من أدرك شيئاً فقد حصل في ذات المدرك صورة مساوية للمدرك، وهذا باطل واستدلالكم على صحته بانطباع الصورة في المرآة باطل، فإن المرآة لم ينطبع فيها شئ ألبتة كما يقوله جمهور العقلاء من الفلاسفة والمتكلمين وغيرهم، والقول بالانطباع باطل من وجوه كثيرة، ثم نقول إذا كنتم قد قلتم إن المنطبع في النفس عند إدراك السواد والبياض رسومهما ومثالهما لا حقيقتهما، فلم لا يجوز حصول رسوم هذه الأشياء في المادة الجسمانية؟

[فصل] : في ترديد الشبهة الثانية عشرة:

(قولكم في الثاني عشر) إنه لو كان محل الإدراكات جسماً فكل جسم منقسم لم يمنع أن يقوم ببعض أجزاء الجسم علم بالشيء، وبالجزء الآخر منه جهل به فيكون الإنسان عالماً بالشيء جاهلاً به في وقت واحد . جوابه أن هذه الشبهة منتقضة على

أصولكم فإن الشهوة والغضب والتخيل من الأحوال الجسمانية عندكم ومحلها منقسم فلزمكم أن تجوزوا قيام الشهوة والغضب بأحد الجزأين وضدهما بالجزء الآخر فيكون مشتهياً للشئ نافراً عنه غضبان عليه غير غضبان في وقت واحد.

[فصل]: في ترديد الشبهة الثالثة عشرة:

(قولكم في الثالث عشر): إن المادة الجسمانية إذا حصلت فيها نقوش مخصوصة امتنع فيها حصول مثلها والنفوس البشرية بضد ذلك. إلى آخره.

(جوابه) إن غاية هذا أن يكون قياساً ممتازاً بغير جامع وذلك لا يفيد الظن فضلاً عن اليقين، فإن النقوش العقلية هي العلوم والإدراكات، والنقوش الجسمانية هي الأشكال والصور، ولا ريب أن العلوم مخالفة بحقائقها للصور والأشكال ولا يلزم من ثبوت حكم في نوع من أنواع الماهيات ثبوته فيما يخالف ذلك النوع.

[فصل]: في ترديد الشبهة الرابعة عشرة:

(قولكم في الرابع عشر): لو كانت النفس جسماً لكان بين تحريك المحرك رجله وبين إرادته للحركة زمان إلى آخره.

(جوابه) إن النفس مع الجسد لا تخلو من ثلاثة أحوال، إما أن تكون لابسة لجميعه من خارج كالثوب، أو تكون في موضع واحد كالقلب والدماغ، أو تكون سارية في جميع أجزاء الجسد. وعلى كل تقدير من هذه التقادير فتحريكها لما تريد تحريكه يكون مع إرادتها لذلك بلا زمان كإدراك البصر لما يلاقيه وإدراك السمع والشم والذوق، وإذا قطع العضو لم ينقطع ما كان من جسم النفس متخللاً لذلك العضو سواء كانت لابسة له من داخل أو من خارج، بل تفارق العضو الذي بطل حسه في الوقت وتتقلص عنه بلا زمان ويكون مفارقتها لذلك العضو كمفارقة الهواء للإناء إذا ملىء ماء. وأما إن كانت النفس ساكنة في موضع واحد من البدن لم يلزم أن تبين مع العضو المتطوع. وأما إن كانت لابسة للبدن من خارج لم يلزم أن يكون بين إرادتها لتحريكه ونفس التحريك زمان بل يكون فعلها حينئذ في تحريك الأعضاء كفعل المغناطيس في الحديد وإن لم يلاصقه.

ثم نقول: هذا الهذيان الذي شغلتم به الزمان وارد عليكم بعينه، فإنها عندكم غير متصلة بالبدن ولا منفصلة عنه ولا داخلة فيه ولا خارجة عنه فيلزمكم مثل ذلك.

[فصل]: في ترديد الشبهة الخامسة عشرة:

(قولكم في الخامس عشـر): لو كانت جسماً لكانت منقسـمة ولصح عليها أن تعلم بعضها وتجهل بعضها فيكون الإنسان عالماً ببعض نفسه جاهلاً بالبعض الآخر.

(جوابه) إن هذه الشبهة مركبة من مـقدمتين تلازمية واستثنائية، والمنع واقع في كلا المقدمتين أو إحداهما، فلا نسلم أنها لو كانت جسماً لصح أن تعلم بعضها وتجهل بعضها فإن النفس بـسيطة غير مركبة من هذه العناصر ولا من الأجـزاء المختلفة فمتى شعرت بذاتها شعرت بجهلها. فهذا منع المقدمة التلازمية .

وأما الاستثنائية فلا نسلم أنها لا يصلح أن تعلم بعضها حال غفلتها عن البعض الآخر، ولم تذكروا على بطلان ذلك شبهـة فضلاً عن دليل، ومن المعلوم أن الإنسان قد يشعر بنفسه من بعض الوجوه دون كلها ويتفاوت الناس في ذلك فمنهم من يكون شعوره بنفسه أتم من غيره بدرجات كثيرة وقد قال تعالى: ﴿ولا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[1] فهؤلاء نسوا نفوسهم لا من جميع الوجوه بل من الوجه الذي به مصالحـها وكمالها، وسعـادتها، وإن لم ينسوها من الوجه الذي منه شهـوتها وحظها وإرادتها ، فـأنساهم مصالح نفـوسهم أن يفعلوها ويطلبوها، وعـيوبها ونقائـصها أن يزيلوها ويجتـنبوها، وكمـالها الذي خلقت له أن يعرفـوه ويطلبوه، فـهم جاهلون، بحقائق أنفسهم من هذه الوجوه وإن كانوا عالمين بها من وجوه أخر.

[فصل]: في ترديد الشبهة السادسة عشرة:

(قولكم في السادس عشر): لو كانت النفس جسماً لوجب ثقل البدن بدخولها فيه لأن من شأن الجسم إذا زدت عليه جسماً آخر أن يثقل به .

فهـذه شبهـة في غاية الثقـالة، والمحتج بها أثقل وأثقـل، وليس كل جسم زيد عليه جسم آخر ثقله، فهذه الخشبة تكون ثقيلة فإذا زيد عليها جسم النار خفت جداً. وهذا الظرف يكون ثقيلاً، فإذا دخله جـسم الهواء خف. وهذا إنما يكون في الأجسام الثقال التي تطلب المركز والوسط بطبعهـا وهي تتحرك بالطبع إليه، وأما الأجسام التي تتحرك بطبعها إلى العلو فلا يعرض لها ذلك، بل الأمر فيها بالضد من تلك الأجسام الثقال بل إذا أضيفت إلى جسم ثقيل أكسبته الخفة وقد أخذ هذا المعنى بعضهم فقال:

---

(١) (الحشر/ ١٩).

ثقلت زجاجات أتتنا فرغاً حتى إذا ملئت بصرف الراح
خفت فكادت أن تطير بما حوت وكذا الجسوم تخف بالأرواح

[فصل] في ترديد الشبهة السابعة عشرة:

(قولكم في السابع عشر): لو كانت النفس جسماً لكانت على صفات سائر الأجسام التي لا تخلو منها من الخفة والثقل والحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والنعومة والخشونة إلى آخره، شبهة فاسدة وحجة داحضة، فإنه لا يجب اشتراك الأجسام في جميع الكيفيات والصفات وقد فاوت الله سبحانه بين صفاتها وكيفياتها وطبائعها منها ما يرى بالبصر ويلمس باليد، ومنها ما لا يرى ولا يلمس، ومنها ما له لون ومنها ما لا لون له، ومنها ما يقبل الحرارة والبرودة، ومنها ما لا يقبله. على أن للنفس من الكيفيات المختصة بها ما لا يشاركها فيها البدن ولها خفة وثقل وحرارة وبرودة ويبس ولين بحسبها ، وأنت تجد الإنسان في غاية الثقالة وبدنه نحيل جداً، وتجده في غاية الخفة وبدنه ثقيل، وتجد نفساً لينة وادعة ونفساً يابسة قاسية، ومن له حس سليم يشم رائحة بعض النفوس كالجيفة المنتنة ورائحة بعضها أطيب من ريح المسك، وقد كان رسول الله ﷺ إذا مر في طريق بقى أثر رائحته في الطريق ويعرف أنه مر بها، وتلك رائحة نفسه وقلبه، وكانت رائحة عرقه من أطيب شئ وذلك تابع لطيب نفسه وبدنه، وأخبر -وهو أصدق البشر- أن الروح عند المفارقة يوجد لها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض أو كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض. ولولا الزكام الغالب لشم الحاضرون ذلك على أن كثيراً من الناس يجد ذلك، وقد أخبر به غير واحد، ويكفي فيه خبر الصادق الصدوق، وكذلك أخبر بأن أرواح المؤمنين مشرقة وأرواح الكفار سود.

وبالجملة فكيفيات النفوس أظهر من أن ينكرها إلا من هو من أجهل الناس بها.

[فصل]: في ترديد الشبهة الثامنة عشرة:

(قولكم في الثامن عشر): لو كانت النفس جسماً لوجب أن تقع تحت جميع الحواس أو تحت حاسة منها إلى آخره .

فجوابه: منع اللزوم، فإنكم لم تذكروا عليه شبهة فضلاً عن دليل، ومنع انتفاء

اللازم فإن الروح تدرك بالحواس فتلمس وترى وتشم لها الرائحة الطيبة والخبيثة كما تقدم في النفوس المستفيضة ولكن لا نشاهد نحن ذلك، وهذا الدليل لا يمكن ممن يصدق الرسل أن يحتج به، فإن الملك جسم ولا يقع تحت حاسة من حواسنا، وكذلك الجن والشياطين أجسام لطاف لا تقع تحت حاسة من حواسنا، والأجسام متفاوتة في ذلك تفاوتاً كثيراً، فمنها ما يدرك بأكثر الحواس، ومنها ما لا يدرك بأكثرها، ومنها ما يدرك بحاسة واحدة، ومنها ما لا ندركه نحن في الغالب وإن أدرك في بعض الأحوال لكونه لم يخلق لنا إدراكه أو لمانع يمنع من إدراكه أو للطفه عن إدراك حواسنا، فما عدم اللون من الأجسام لم يدرك بالبصر كالهواء والنار في عنصرها، وما عدم الرائحة لم يدرك بالشم كالنار والحصا والزجاج، وما عدم المجسة لم يدرك باللمس كالهواء الساكن .

وأيضاً فالروح هي المدركة لمدارك هذه الحواس بواسطة آلاتها، فالنفس هي الحاسة المدركة وإن لم تكن محسوسة فالأجسام والأعراض محسوسة والنفس محسة بها، وهي القابلة لأعراضها المتعاقبة عليها من الفضائل والرذائل كقبول الأجرام لأعراضها المتعاقبة عليها، وهي المتحركة باختيارها المحركة للبدن قسراً وقهراً، وهي مؤثرة في البدن متأثرة به تألم وتلذ وتفرح وتحزن وترضى وتغضب وتنعم وتيأس وتحب وتكره وتذكر وتنسى وتصعد وتنزل وتعرف وتنكر، وآثارها من أدل الدلائل على وجودها كما أن آثار الخالق سبحانه دالة على وجوده وعلى كماله فإن دلالة الأثر على مؤثره ضرورية .

وتأثيرات النفوس بعضها في بعض أمر لا ينكره ذو حس سليم ولا عقل مستقيم ولا سيما عند تجردها نوع تجرد عن العلائق العوائق البدنية، فإن قواها تتضاعف وتتزايد بحسب ذلك ولا سيما عند مخالفة هواها وحملها على الأخلاق العالية من العفة والشجاعة والعدل والسخاء، وتجنبها سفساف الأخلاق ورذائلها وسافلها فإن تأثيرها في العالم يقوى جداً تأثيراً يعجز عنه البدن وأعراضه أن تنظر إلى حجر عظيم فتشقه أو حيوان كبير فتتلفه أو إلى نعمة فتزيلها، وهذا أمر قد شاهدته الأمم على اختلاف أجناسها وأديانها وهو الذي سمي إصابة العين، فيضيفون الأثر إلى العين وليس لها في الحقيقة وإنما هو النفس المتكيفة بكيفية ردية سمية، وقد تكون بواسطة نظر العين وقد لا تكون بل يوصف له الشيء من بعيد فتتكيف عليه نفسه

بتلك الكيفية فتفسده، وأنت ترى تأثير النفس في الأجسام صفرة وحمرة وارتعاشاً بمجرد مقابلتها لها وقوتها، وهذه وأضعافها آثار خارجة عن تأثير البدن وأعراضه فإن البدن لا يؤثر إلا فيما لاقاه وماسه تأثيراً مخصوصاً، ولم تزل الأمم تشهد تأثير الهمم الفعالة في العالم وتستعين بها وتحذر أثرها، وقد أمر رسول الله ﷺ أن يغسل

(١) العين هي نظر باستحسان مشوب بحسد من خبيث الطبع يحصل للمنظور منه ضرر. ويقال: عنتُ الرجل ; أصبتُه بالعين. فالذي أصيب بالعين يسمى معين ومعيون، والفاعل لهذا يسمى عائن : معيان : عيون. انظر «فتح الباري» : (١٠/ ٢٠٠) ط/ السلفية.

والعين ليست خرافة كما يحسبها البعض إنما هي حقيقة كما أخبر تعالى: ﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾ (الفلق/ ٥)، وقد أصيب بعض أصحاب النبي ﷺ بالعين والحسد حتى كادوا أن يموتوا ، ومن ذلك على سبيل المثال ما جاء في الحديث الشريف عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أن عامر ابن ربيعة أخا بني عدي بن كعب رأى سهل بن حنيف وهو مع رسول الله ﷺ بالخرار يغتسل، فقال: والله ما رأيت كاليوم ولا جلد مخبأة، قال: فلبط سهل، فأتي النبي ﷺ فقيل: يا رسول الله، هل لك في سهل بن حنيف ؟ لا يرفع رأسه ! فقال رسول الله ﷺ : «هل تتهمون من أحد؟» قالوا : نعم، عامر بن ربيعة رآه يغتسل، فقال: والله ما رأيت كاليوم ولا جلد مخبأة، فدعا رسول الله ﷺ عامر بن ربيعة، فتغيظ عليه، وقال: «علام يقتل أحدكم أخاه ؟ ألا تُبرِّكُ؟، اغتسل له» فغسل له عامر، فراح سهل مع الركب ليس به بأس. [حديث صحيح] رواه مالك في موطأه، كتاب: العين، باب: الوضوء من العين، [٢]، وأحمد في مسنده: (٣/ ٤٨٦ : ٤٨٧]، وابن ماجة: كتاب: الطب، باب: العين، [٣٥٠٩]، وعبد الرزاق في مصنفه : [١٩٧٦٦]، وابن أبي شيبة : كتاب: الطب، باب: من رخص في الرقية من العين ، [٤]، وابن حبان : كتاب: الرقي والتمائم، باب: ذكر وصف الوضوء الذي ذكرناه لمن وصفناه ، [٦١٠٦]، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجة» : [٢٨٢٨]، وانظر «الروض» أيضًا، «المشكاة» : [٤٥٦٢].

هذا وقد أصيب أولاد سيدنا جعفر -رضي الله عنه- بالحسد والعين فأمر النبي ﷺ أن يسترقوا لهم، وذلك كما في الحديث الشريف. عن حميد بن قيس المكي، أنه قال: دخل على رسول الله ﷺ بابني جعفر بن أبي طالب، فقال لحاضنتهما : «ما لي أراهما ضارعين؟!» فقالت حاضنتهما: يا رسول اله، إنه تسرع إليهما العين، ولم يمنعنا أن نسترقي لهما إلا أنا لا ندري ما يوافقك من ذلك، فقال رسول الله ﷺ : «استرقوا لهما ، فإنه لو سبق شيء القدر لسبقته العين» [حديث صحيح] رواه مالك في موطأه ، كتاب: العين، باب: الرقية من العين ، [٣]، والترمذي : كتاب: الطب، باب: ما جاء في الرقية من العين، [٢٠٥٩]، عن أسماء بنت عميس، وقال أبو عيسى: وفي الباب عن عمران بن حصين ، وبريدة، وهذا حديث حسن صحيح، وقد روي هذا عن أيوب عن عمرو بن دينار عن عروة، وابن ماجة: كتاب: الطب ، باب: من استرقى من العين ، [٣٥١٠]، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجة » : [٢٨٢٩]، وانظر : «المشكاة» : [٤٥٦٠]، تخريج الكلم =

العائن[1] مغابنه ومواضع القذر منه، ثم يصب ذلك الماء على المعين، فإنه يزيل عنه تأثير نفسه فيه، وذلك بسبب أمر طبيعي اقتضته حكمة الله سبحانه، فإن النفس الأمارة لها بهذه المواضع تعلق وإلف، والأرواح الخبيثة الخارجية تساعدها وتألف هذه المواضع غالباً للمناسبة بينها وبينها، فإذا غسلت بالماء طفئت تلك النارية منها كما يطفأ الحديد المحمى بالماء، فإذا صب ذلك الماء على المصاب طفأ عنه تلك النارية التي وصلت إليه من العائن، وقد وصف الأطباء الماء الذي يطفأ فيه الحديد لآلام وأوجاع معروفة، وقد جرب الناس من تأثير الأرواح بعضها في بعض عند تجردها في المنام عجائب تفوت الحصر، وقد نبهنا على بعضها فيما مضى، فعالم الأرواح عالم آخر

=الطيب: [٢٤٦]، و«الصحيحة» : [١٢٥٢] ، «الظلال» : [٣١٠].

ومن ذلك يتبين لنا أن العين والحسد حق، وليست خرافة كما يتوهم البعض، وتقع من ذلك أضرار قد تفضي إلى الموت -نعوذ بالله - ، ومن الأحاديث المؤكدة لذلك أيضًا ما جاء عن أبي هريرة - رضي الله عنه- ، عن النبي ﷺ قال: «العين حق، ونهى عن الوشم» [حديث صحيح] رواه البخاري ، كتاب: الطب، باب: العين حق، [٥٧٤٠]، [٥٩٤٤].

ومن تلك الأحاديث أيضًا ما جاء عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ ، قال: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا» [حديث صحيح] رواه مسلم: كتاب: السلام ، باب: الطب والمرضى والرقي، [٢١٨٨]، رواه البيهقي : كتاب: الضحايا، باب: الاستغسال للمعين، (٩/ ٣٥١). وغيرهما كثير.

إلا أنه كما لا يجوز إنكار الحسد أو العين، وما يترتب عليهما من أضرار، لا يجوز كذلك المغالاة في هذا الأمر والتصدي له بما يوقع الإنسان في الكفر أو الشرك -معاذ الله- أو البدع والخرافات، وإنما يجب الاقتصار في محاربة الحسد والحاسدين ، والعين، والعائنين بما صح عن النبي ﷺ ، وترك كل ما سوى ذلك من الأدعية والكلمات التي لم ترد عنه صحيحة ﷺ كما في الحديث ، عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: كان رسول الله ﷺ يتعوذ من عين الجان، ثم أعين الإنس، فلما نزل المعوذتان، أخذهما، وترك ما سوى ذلك. [حديث صحيح] رواه ابن ماجة، كتاب: الطب، باب: من استرقى من العين ، [٣٥١١]، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجة»: [٢٨٣٠]، وانظر «المشكاة» : [٤٥٦٣].

إذن فيجب على المسلم أن يرقى نفسه وذريته كل يوم صباح مساء ، بما جاء في الحديث الصحيح السابق ، وإذا نسي في مرة فوقع الحسد وعلم الحاسد أو العائن فيطلب منه أن يغتسل له ،ثم يغتسل هو من فضلته، فإذا تعذر ذلك إما للجهل بالحاسد، أو لعدم المقدرة على هذا الطلب حياءً فليجتهد بالرقى الشرعية الصحيحة، وحذارِ حذارِ حذارِ من الشرك والبدع - نعوذ بالله من ذلك جميعًا - .
وراجع تفصيل ذلك في كتابنا الخاص ، يصدر قريبًا بإذن المُعين إن شاء الله تعالى.

أعظم من عالم الأبدان وأحكامه، وآثاره أعجب من آثار الأبدان، بل كل ما في العالم من الآثار الإنسانية فإنما هي من تأثير النفوس بواسطة البدن، فالنفوس والأبدان يتعاونان على التأثير تعاون المشتركين في الفعل، وتنفرد النفس بآثار لا يشاركها فيها البدن ولا يكون للبدن تأثير لا تشاركه فيه النفس .

[فصل]: في ترديد الشبهة التاسعة عشرة:

(قولكم في التاسع عشر): لو كانت النفس جسماً لكانت ذات طول وعرض وعمق وشكل وسطح وهذه المقادير لا تقوم إلا بمادة، إلى آخره .

(جوابه) إنا نقول قولكم هذه المقادير لا تقوم إلا بمادة، قلنا: وكان ماذا والنفس لها مادة خلقت منها وجعلت على شكل معين وصورة معينة.

قولكم: مادتها إن كانت نفساً لزم اجتماع نفسين وإن كانت غير نفس كانت مركبة من بدن وصورة.

قلنا: مادتها ليست نفساً كما أن مادة الإنسان ليست إنساناً، ومادة الجن ليست جناً، ومادة الحيوان ليست حيواناً .

قولكم: يلزم كون النفس مركبة من بدن وصورة. مقدمة كاذبة وإنما يلزم كون النفس مخلوقة من مادة ولها صورة معينة، وهكذا نقول سواء ولم تذكروا على بطلان هذا شبهة فضلاً عن حجة ظنية أو قطعية.

[فصل]: في ترديد الشبهة العشرين:

(قولكم في الوجه العشرين): إن خاصة الجسم أن يقبل التجزئ وإن الجزء الصغير منه ليس كالكبير فلو قبلت التجزئ فكل جزء منها إن كان نفساً لزم أن يكون للإنسان نفوس كثيرة وإن لم يكن نفساً لم يكن المجموع نفساً.

(جوابه): إن أردتم أن كل جسم يقبل التجزئ في الخارج فكذب ظاهر فإن الشمس والقمر والكواكب لا تقبل ذلك ولا يلزم أن كل جسم يصح عليه التجزئ والتبعيض في الخارج، أما على قول نفاة الجوهر الفرد فظاهر، وأما على قول مثبتيه فإنه عندهم جوهر متحيز لا يصح عليه قبول الانقسام، سلمنا أنها تقبل الانقسام فأي شئ يلزم من ذلك؟ .

قولكم: إن كان كل جزء من تلك الأجزاء نفساً لزم اجتماع نفوس كثيرة في

الإنسان.

قلنا: إنما يلزم ذلك لو انقسمت النفس بالفعل إلى نفوس كثيرة وهذا محال.

قولكم: وإن لم يـكن كل جزء نفسـاً لم يكن المجمـوع نفساً. مـقدمـة كاذبة منتقضة فكل ماهية ثبت لها حكم عند اجتـماع أجزائها فإن ذلك الحكم كماهية البيت والإنسان والعشرة وغيرها .

[فصل]: في ترديد الشبهة الحادية والعشرين:

(قولكم فـي الوجه الحادي والعـشرين): إن الجـسم يحتـاج في قوامـه وبقائه وحفظه إلى نفس أخرى ويلزم التسلسل.

(جوابه) أنه يلزم من افتقار البدن إلى نفس تحفظه افتقار النفس إلى نفس تحفظها وهل ذلك إلا بمجرد دعوة كاذبة مستندة إلى قـياس قد تبين بطلانه؟ فإن كل جسم لا يصير إلى نفس تحفظه كأجسام المعادن وجسم الهواء والماء والنار والتراب وأجسام سائر الجمادات.

(فإن قلتم): إن هذه ليست أحياء ناطقة بخلاف النفس فإنها حية ناطقة .

قلنا: فـحينئـذ يبقى الدليل هـكذا أي كل جسم حي ناطق يحـتـاج في حـفظه وقيامه إلـى نفس تقوم به، وهذه دعوى مجردة وهي كاذبة فـإن الجن والملائكة أحياء ناطقون وليسوا مفتقرين في قيامهم إلى أرواح أخر تقوم بهم .

(فإن قلتم): وكلامنا معكم في الجن والملائكة فإنهم ليسوا بأجسام متحيزة.

تكفير منكري الجن والملائكة:

(قلنا): الكلام مع من يؤمن بالله وملائكته وكتـبه ورسله. وأما من كفر بذلك فالكلام معه في النفس ضائع، وقد كفر بفاطر النفس ومبدعها وملائكته وما جاءت به رسله وكان تاركاً مـا دل عليه العيان مع دليل الإيمان ، فإن الآثار المشـهودة في العالم من تأثيرات الملائكة والجن بإذن ربهم لا يمكن إنكارها، ولا هي موجودة بنفسها، ولا تقدر عليها القوى البشرية .

[فصل]: في ترديد الشبهة الثانية والعشرين:

(قولكم في الثـاني والعشرين): لو كانت جـسماً لكان اتصالهـا بالبدن إن كان

على سبيل المداخلة لزم تداخل الأجسام، وإن كان على سبيل الملاصقة والمجاورة كان للإنسان الواحد جسمان متلاصقان أحدهما يرى والآخر لا يرى .

وجوابه من وجوه :

(أحدها) أن تتداخل الأجسام. المحال أن يتداخل جسمان كثيفان أحدهما في الآخر بحيث يكون حيزهما واحداً، وأما أن يدخل جسم لطيف في كثيف يسري فيه فهذا ليس بمحال .

دخول الجن في المصروع:

(الثاني) أن هذا باطل بصور كثيرة منها دخول الماء في العود والسحاب ودخول النار في الحديد ودخول الغذاء في جميع أجزاء البدن ودخول الجن في المصروع، فالروح للطافتها لا يمتنع عليها مشابكة البدن والدخول في جميع أجزائه .

(الثالث) أن حيز النفس البدن، وحيزه مكانه المنفصل عنه، وهذا ليس بتداخل ممتنع، فإذا فارقته صار لها حيز آخر غير حيزه وحينئذ فلا يتداخلان بل يصير لكل منهما حيز يخصه، وبالجملة فدخول الروح في البدن ألطف من دخول الماء في الثرى والدهن في البدن، فهذه الشبهة الفاسدة لا يعارض بها ما دل عليها نصوص الوحي والأدلة العقلية، وبالله التوفيق .



المسألة العشرون

وهي هل النفس والروح شئ واحد أو شيئان متغايران ؟

فاختلف الناس في ذلك: (فمن قائل) إن مسماهما واحد وهم الجمهور.

(ومن قائل) إنهما متغايـران. ونحن نكشف سر المسألة بحول الله وقوته فنقول النفس تطلق على أمور:

(أحدها) الروح قال الجـوهري: النفس الروح، يقال: خرجت نفـسه، قال أبو خراش:

نجا سالماً والنفس منه بشدقه ولم ينج إلا جفن سيف ومئزر

أي بجفن سيف ومئزر (والنفس والدم) يقـال: سالت نفسه، وفي الحديث: ما لا نفس له سائلة لا ينجس الماء إذا مات فيه، (والنفس الجسد).

قال الشاعر:

نبئت أن بني تميم أدخلوا أبناءهم تامور نفس المنذر

والتامور الدم (والنفس العين) يقال أصابت فلاناً أي عين.

قلت: ليس كمـا قال بل النفس هاهنا الروح، ونسبة الإضـافة إلى العين توسع لأنها تكون بواسطة النظر المصيب والذي أصابه إنما هو نفس العائن كما تقدم .

قلت: والنفس في القرآن تطلق على الـذات بجملتها كقـوله تعالى: ﴿ **فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ** ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ** ﴾[٢] ﴿**يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا**﴾[٣] وقوله تـعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**﴾[٤] وتطلق علي الروح

(١) (النور / ٦١).
(٢) (النساء/ ٢٩).
(٣) (النحل / ١١١).
(٤) (المدثر / ٣٨).
(٥) (الفجر / ٢٧).
(٦) (الأنعام / ٩٣).
(٧) (النازعات / ٤٠).

لأمارة بالسوء﴾(١) . وأما الروح فلا تطلق على البدن لا بانفراده ولا مع النفس، وتطلق الروح على القرآن الذي أوحاه الله تعالى إلى رسوله قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾(٢) .

وعلى الوحي الذي يوحيه إلى أنبيائه ورسله قال تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾(٤) . وسمى ذلك روحاً لما يحصل به من الحياة النافعة، فإن الحياة بدونه لا تنفع صاحبها ألبتة بل حياة الحيوان البهيم خير منها وأسلم عاقبة.

وسميت الروح روحاً لأن بها حياة البدن، وكذلك سميت الريح لما يحصل بها من الحياة، وهي من ذوات الواو ولهذا تجمع على أرواح، قال الشاعر:

إذا ذهبت الأرواح من نحو أرضكم وجدت لمسراها على كبدي بردا

وجه تسمية الروح والنفس والفرق بينهما:

ومنها الروح والريحان والاستراحة. فسميت النفس روحاً لحصول الحياة بها، وسميت نفساً إما من الشيء النفيس لنفاستها وشرفها، وإما من تنفس الشيء إذا خرج فلكثرة خروجها ودخولها في البدن سميت نفساً، ومنه النفس بالتحريك فإن العبد كلما نام خرجت منه، فإذا استيقظ رجعت إليه، فإذا مات خرجت خروجاً كلياً، فإذا دفن عادت إليه، فإذا سئل خرجت، فإذا بعث رجعت إليه. فالفرق بين النفس والروح فرق بالصفات لا فرق بالذات، وإنما سمي الدم نفساً لأن خروجه الذي يكون معه الموت يلازم خروج النفس، وإن الحياة لا تتم إلا به كما لا تتم إلا بالنفس فلهذا قال:

تسيل على حد الظباة نفوسنا وليست على غير الظباة تسيل

ويقال: فاضت نفسه وخرجت نفسه وفارقت نفسه، كما يقال: خرجت روحه وفارقت، ولكن الفيض الاندفاع وهلة واحدة ومنه الإفاضة وهي الاندفاع بكثرة

(١) (يوسف / ٥٣). (٢) (الشورى / ٥٢).
(١٣) (غافر / ١٥). (٤) (النحل / ٢).

وسرعة، ولكن أفاض إذا دفـع باختياره وإرادته، وفاض إذا اندفع قسـراً وقهراً، فالله سبحانه هو الذي يفيضها عند الموت فتفيض هي .

[فصل] : في أن الروح غير النفس:

وقالت فرقة أخرى من أهل الحديث والفقه والتصوف: الروح غير النفس، قال مقاتل بن سليمان: للإنسان حيـاة وروح ونفس، فإذا نام خرجت نفسه التي يعقل بها الأشيـاء ولم تفارق الجسد بل تخـرج كحبل ممتـد له شعاع فـيرى الرؤيا بالنفس التي خرجت منه وتبقى الحـياة والروح في الجسد، فبه يتقلب ويتـنفس، فإذا حرك رجعت إليه أسرع من طرفة عين، فإذا أراد الله عـز وجل أن يميته في المنام أمسك تلك النفس التي خرجت، وقال أيضـاً : إذا نام خرجت نفسه فصعـدت إلى فوق فإذا رأت الرؤيا رجعت فأخبرت الروح ويخبر الروح فيصبح يعلم أنه قد رأى كيت وكيت .

قال أبو عبد الله بن منده: ثم اختلفوا في مـعرفة الروح والنفس فقال بعضهم: النفس طينية نارية والروح نورية روحانية .

وقال بعضهم: الروح لاهوتية والنفس ناسوتية وإن الخلق بها ابتلي .

وقالت طائفة وهم أهل الأثر: إن الروح غير النفس والنفس غير الروح، وقوام النفس بالروح، والنفس صورة العـبد، والهوى والشهوة والـبلاء معجون فـيها، ولا عدو أعدى لابن آدم من نفسه. فالنفس لا تريد إلا الدنيا ولا تحب إلا إياها. والروح تدعو إلى الآخرة وتؤثرها، وجعل الهوى تبعاً للنفس، والشيطان تبع النفس والهوى، والملك مع العقل والروح، والله تعالى يمدهما بإلهامه وتوفيقه.

وقال بعضهم: الأرواح من أمر الله أخفى حقيقتها وعلمها على الخلق .

وقال بعضهم: الأرواح نور من نور الله وحياة من حياة الله .

ثم اختلفوا في الأرواح هل تموت بموت الأبدان والأنفس أو لا تموت؟.

فقالت طائفة: الأرواح لا تموت ولا تبلى .

وقالت جماعة: الأرواح على صـور الخلق لها أيد وأرجل وأعين وسمع وبصر ولسان.

وقالت طائفة: للمؤمن ثلاثة أرواح، وللمنافق والكافر روح واحدة.

وقال بعضهم: للأنبياء والصديقين خمسة أرواح.

وقال بعضهم: الأرواح روحانية خلقت من الملكوت، فإذا صفت رجعت إلى الملكوت.

قلت: أما الروح التي تتوفى وتقبض فهي روح واحدة، وهي النفس.

وأما ما يؤيد الله به أولياءه من الروح فهي روح أخرى غير هذه الروح كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[1]

وكذلك الروح الذي أيد بها روحه المسيح ابن مريم كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾[2] وكذلك الروح التي يلقيها على من يشاء من عباده هي غير الروح التي في البدن.

وأما القوى التي في البدن فإنها تسمى أيضاً أرواحاً فيقال: الروح الباصر والروح السامع والروح الشام، فهذه الأرواح قوى مودعة في الأبدان تموت بموت الأبدان، وهي غير الروح التي لا تموت بموت البدن ولا تبلى كما يبلى، ويطلق الروح على أخص من هذا كله وهو قوة المعرفة بالله والإنابة إليه ومحبته وانبعاث الهمة إلى طلبه وإرادته. ونسبة هذه الروح إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن، فإذا فقدتها الروح كانت بمنزلة البدن إذا فقد روحه، وهي الروح التي يؤيد بها أهل ولايته وطاعته، ولهذا يقول الناس: فلان فيه روح، وفلان ما فيه روح، وهو بو وهو قصبة فارغة ونحو ذلك.

فللعلم روح، وللإحسان روح، وللإخلاص روح، وللمحبة والإنابة روح، وللتوكل وللصدق روح، والناس متفاوتون في هذه الأرواح أعظم تفاوت فمنهم من تغلب عليه هذه الأرواح فيصير روحانياً، ومنهم من يفقدها أو أكثرها فيصير أرضياً بهيمياً، والله المستعان.



(١) (المجادلة / ٢٢).

(٢) (المائدة / ١١٠).

المسألة الواحد والعشرون

وهي على النفس واحدة أو ثلاث؟

فقـد وقع في كلام كثـير من الناس أن لابن آدم ثلاث أنفس، نفـس مطمئنة، ونفس لوامـة، ونفس أمـارة، وأن منهم من تغلب عليـه هذه ومنهم من تغلب عليـه الأخرى، ويحـتجون على ذلك بقـوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾[1] وبقوله تعالى: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[2] وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾[3] والتحقيق أنهـا نفس واحدة ولكن لها صفات فتسـمى باعتبار كل صفة باسم فتسمى مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى ربها بعبوديته ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليـه والرضا به والسكون إليه، فإن سـمة محبـته وخوفه ورجـائه منها قطع النظر عن محبة غيـره وخوفه ورجائه، فيستغني بمحبـته عن حب ما سواه ويذكره عن ذكر ما سـواه وبالشوق إليه وإلى لقـائه عن الشوق إلى ما سواه، فـالطمأنينة إلى الله سبحـانه حقيقة ترد منه سـبحانه على قلب عبـده تجمعه عليه، وترد قلبـه الشارد إليه حتى كأنـه جالس بين يديه يسمع به ويبصـر به ويتحرك به ويبطش به، فتـسري تلك الطمأنينة في نفسه وقلبه ومفاصله وقواه الظاهرة والباطنة تجذب روحه إلى الله، ويلين جلده وقلبه ومفاصله إلى خـدمته والتقرب إليه، ولا يمكن حصول الطمأنينة الحـقيقية إلا بالله وبذكره وهو كـلامه الذي أنزله على رسـوله كما قـال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[4] فإن طمـأنينة القلب سكونه واستـقراره بزوال القلق والانزعاج والاضطراب عنه، وهذا لا يتـأتى بشيء سوى الله تعالى وذكـره ألبتة، وأمـا ما عـداه فالطمأنينة إليـه غرور والثقـة به عجـز قضى الله سبـحانه وتعالـى قضاء لا مـرد له أن من اطمأن إلى شيء سواه أتـاه القلق والانزعاج والاضطراب من جهـته كائناً من كـان، بل لو اطمأن العـبد إلى علمه وحـاله وعمله سلبه وزايله، وقد جعل سبحانه نفوس المطمـئنين إلى سواه أغراضًا لسهام البلاء ليعلم

(١) (الفجر / ٢٧). (٢) (القيامة / ١ : ٢).

(٣) (يوسف / ٥٣). (٤) (الرعد / ٢٨).

عباده وأولياؤه أن المتعلق بغيره مقطوع والمطمئن إلى سواه عن مصالحه ومقاصده وممنوع .

وحقيقة الطمأنينة التي تصير بها النفس مطمئنة أن تطمئن في باب معرفة أسمائه وصفاته ونعوت كماله إلى خبره الذي أخبر به عن نفسه وأخبرت به عنه رسله فتتلقاه بالقبول والتسليم، والإذعان، وانشراح الصدر له، وفرح القلب به ، فإنه معرف من معرفات الرب سبحانه إلى عبده على لسان رسوله، فلا يزال القلب في أعظم القلق والاضطراب في هذا الباب حتى يخالط الإيمان بأسماء الرب تعالى وصفاته وتوحيده، وعلوه على عرشه، وتكلمه بالوحي بشاشة قلبه، فينزل ذلك عليه نزول الماء الزلال على القلب الملتهب بالعطش، فيطمئن إليه، ويسكن إليه، ويفرح به ويلين له قلبه ومفاصله حتى كأنه شاهد الأمر كما أخبرت به الرسل، بل يصير ذلك لقلبه بمنزلة رؤية الشمس في الظهيرة لعينه، فلو خالفه في ذلك من بين شرق الأرض وغربها لم يلتفت إلى خلافهم وقال إذا استوحش من الغربة: قد كان الصديق الأكبر مطمئناً بالإيمان وحده وجميع أهل الأرض يخالفه، وما نقص ذلك من طمأنينته شيئاً، فهذا أول درجات الطمأنينة، ثم لا يزال يقوى كلما سمع بآية متضمنة لصفة من صفات ربه، وهذا أمر لا نهاية له، فهذه الطمأنينة أصل أصول الإيمان التي قام عليها بناؤه، ثم يطمئن إلى خبره عما بعد الموت من أمور البرزخ وما بعدها من أحوال القيامة حتى كأنه يشاهد ذلك كله عياناً، وهذه حقيقة اليقين الذي وصف به سبحانه وتعالى أهل الإيمان حيث قال: ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾(١) فلا يحصل الإيمان بالآخرة حتى يطمئن القلب إلى ما أخبر الله سبحانه به عنها طمأنينته إلى الأمور التي لا يشك فيها ولا يرتاب، فهذا هو المؤمن حقاً باليوم الآخر كما في حديث حارثة: أصبحت مؤمناً حقًا، فقال رسول الله ﷺ: إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك؟ قال: عزفت نفسي عن الدنيا وأهلها وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وأهل النار يعذبون فيها، فقال: عبد نور الله قلبه.

[فصل]: في أن الطمأنينة إلى أسماء الرب تعالى وصفاته نوعان:

والطمأنينة إلى أسماء الرب تعالى وصفاته نوعان: طمأنينة إلى الإيمان بها

---

(١) (البقرة / ٤).

وإثباتها واعتقادها وطمأنينة إلى ما تقتضيه وتوجيه من آثار العبودية، مثاله الطمأنينة إلى القدر وإثباته والإيمان به يقتضي الطمأنينة إلى مواضع الأقدار التي لم يؤمر العبد بدفعها ولا قدرة له على دفعها فيسلم لها ويرضى بها ولا يسخط ولا يشكو ولا يضطرب إيمانه فلا يأسى على ما فاته ولا يفرح بما أتاه لأن المصيبة فيه مقدرة قبل أن تصل إليه وقبل أن يخلق كما قال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾(١) وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾(٢) قال غير واحد من السلف: هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم، فهذه طمأنينة إلى أحكام الصفات وموجباتها وآثارها في العالم وهي قدر زائد على الطمأنينة بمجرد العلم بها واعتقادها، وكذلك سائر الصفات وآثارها ومتعلقاتها كالسمع والبصر والعلم والرضا والغضب والمحبة فهذه طمأنينة الإيمان.

وأما طمأنينة الإحسان فهي الطمأنينة إلى أمره امتثالاً وإخلاصاً ونصحاً، فلا يقدم على أمره إرادة ولا هوى ولا تقليداً فلا يساكن شبهة تعارض خبره ولا شهوة تعارض أمره، بل إذا مرت به أنزلها منزلة الوساوس التي لأن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يجدها، فهذا كما قال النبي ﷺ: صريح الإيمان، وعلامة هذه الطمأنينة أن يطمئن من قلق المعصية وانزعاجها إلى سكون التوبة وحلاوتها وفرحتها ويسهل عليه ذلك بأن يعلم أن اللذة والحلاوة والفرحة في الظفر بالتوبة، وهذا أمر لا يعرفه إلا من ذاق الأمرين وباشر قلبه آثارهما فللتوبة طمأنينة تقابل ما في المعصية من الانزعاج والقلق ولو فتش العاصي عن قلبه لوجد حشوه المخاوف والانزعاج والقلق والاضطراب، وإنما يواري عنه شهود ذلك سكر الغفلة والشهوة فإن لكل شهوة سكراً يزيد على سكر الخمر، وكذلك الغضب له سكر أعظم من سكر الشراب، ولهذا ترى العاشق والغضبان يفعل ما لا يفعله شارب الخمر، وكذلك يطمئن من قلق الغفلة والإعراض إلى سكون الإقبال على الله وحلاوة ذكره وتعلق

---

(١) (الحديد / ٢٢ : ٢٣).

(٢) (التغابن / ١١.

الروح بحبه ومعرفته، فلا طمأنينة للروح بدون هذا أبداً، ولو أنصفت نفسها لرأتها إذا فقدت ذلك في غاية الانزعاج والقلق والاضطراب ولكن يواريها السكر فإذا كشف الغطاء تبين له حقيقة ما كان فيه.

[فصل]: في أن الله سبحانه جعل لكل عضو من أعضاء الإنسان كمالا. إلخ:

وهاهنا سر لطيف يجب التنبيه عليه والتنبه له والتوفيق له بيد من أزمة التوفيق بيده وهو أن الله سبحانه جعل لكل عضو من أعضاء الإنسان كمالاً إن لم يحصل له فهو في قلق واضطراب وانزعاج بسبب فقد كماله الذي جعل له مثاله كمال العين بالإبصار، وكمال الأذن بالسمع، وكمال اللسان بالنطق، فإذا عدمت هذه الأعضاء القوى التي بها كمالها حصل الألم والنقص بحسب فوات ذلك، وجعل كمال القلب ونعيمه وسروره ولذته وابتهاجه في معرفته سبحانه وإرادته ومحبته والإنابة إليه والإقبال عليه والشوق إليه والأنس به، فإذا عدم القلب ذلك كان أشد عذاباً واضطراباً من العين الذي فقدت النور والباصر ومن اللسان الذي فقد قوة الكلام والذوق، ولا سبيل له إلى الطمأنينة بوجه من الوجوه ولو نال من الدنيا وأسبابها ومن العلوم ما نال إلا بأن يكون الله وحده هو محبوبه وإلهه ومعبوده وغاية مطلوبه وأن يكون هو وحده مستعانه على تحصيل ذلك، فحقيقة الأمر أنه لا طمأنينة له بدون التحقق بإياك نعبد وإياك نستعين، وأقوال المفسرين في الطمأنينة ترجع إلى ذلك، قال ابن عباس رضي الله عنهما: المطمئنة المصدقة، وقال قتادة: هو المؤمن اطمأنت نفسه إلى ما وعد الله، وقال الحسن: المصدقة بما قال الله تعالى، وقال مجاهد: هي النفس التي أيقنت بأن الله ربها المسلمة لأمر فيما هو فاعل بها، وروى منصور عنه قال: النفس التي أيقنت أن الله ربها وضربت جأشاً لأمره وطاعته، وقال ابن أبي نجيح عنه: النفس المطمئنة المخبتة إلى الله، وقال أيضاً: هي التي أيقنت بلقاء الله. فكلام السلف في المطمئنة يدور على هذين الأصلين طمأنينة العلم والإيمان وطمأنينة الإرادة والعمل.

[فصل] : في مباشرة الروح الطمأنينة:

فإذا اطمأنت من الشك إلى اليقين ومن الجهل إلى العلم ومن الغفلة إلى الذكر ومن الخيانة إلى التوبة ومن الرثاء إلى الإخلاص ومن الكذب إلى الصدق ومن العجز إلى الكيس ومن صولة العجب إلى ذلة الإخبات ومن التيه إلى التواضع ومن الفتور

إلى العمل فقد باشرت روح الطمـأنينة، وأصل ذلك كله ومنشؤه من اليقظة فهي أول مفاتيح الخيـر فإن الغافل عن الاستعداد للقاء ربه والتـزود لمعاده بمنزلة النائم بل أسوأ حالاً منه، فإن العاقل يعلـم وعد الله ووعيده وما تتقاضـاه أوامر الرب تعالى ونواهيه تعالى ونواهيـه وأحكامه من الحـقوق لكن يحجـمه عن حقـيقة الإدراك ويقـعده عن الإستدراك سنة القلب وهي غفلته التي رقد فيها فطال رقوده، وركد وأخلد إلى نوازع الشهـوات فاشـتد إخلاده وركـوده، وانغمس في غـمار الشهـوات، واستـولت عليه العادات ومـخالطة أهل البطالات، ورضي بالتـشبه بأهل إضـاعة الأوقات، فـهو في رقاده مـع النائمين، وفي سكرته مع المخمـورين، فـمتى انكشف عن قلبـه سنة هذه الغفلة بزجرة من زواجر الحق في قلبه استجاب فيها لواعظ الله في قلب عبده المؤمن، أو همة عليـه أثارها معول الفكر في المحل القـابل فضرب بمعـول فكره وكبر تكبـيرة أضاءت له منها قصور الجنة فقال:

ألا يا نفس ويحك سـاعـديني بسـعي منك فـي ظـلـم الليالي

لعلك في القـيامـة أن تفـوزي بطيب العـيش في تلك العلالي

فأثارت تلك الـفكرة نوراً رأى في ضوئه ما خـلق له وما سيلقـاه بين يديه من حين الموت إلى دخول دار القرار، ورأى سرعة انقضاء الدنيا وعدم وفائها لبنيها وقتلها لعشاقها وفعلها بهم أنواع المثـلات، فنهض في ذلك الضوء على ساق عزمه قائلاً: " يا حسـرتى على ما فـرطت في جنب الله " فاستـقبل بقيـة عمـره التي لا قيمـة لها مستـدركاً بها ما فات، مـحيياً بها مـا أمات، مستقـبلاً بها ما تقـدم له من العثرات، منتهزاً فرصة الإمكان التي إن فاتت فاته جميع الخيرات.

ثم يلحظ في نور تلك اليـقظة وفود نعمـة ربه عليه من حين استـقر في الرحم إلى وقته وهو يتقلـب فيها ظاهراً وباطناً، ليلاً ونهاراً ، يقظة ومنامـاً، سراً وعلانية، فلو اجتهد في إحصاء أنواعها لما قدر، ويكفي أن أدناها نعمة النفس ولله عليه في كل يوم أربعة وعشرون ألف نعمة فما ظنك بغيرها؟! .

ثم يرى في ضوء ذلك النـور أنه آيس من حصرها وإحـصائها عـاجز عن أداء

حقها، وأن المنعم بها إن طالبه بحقوقها استوعب جميع أعماله حق نعمة واحدة منها فيتيقن حينئذ أنه لا مطمع له في النجاة إلا بعفو الله ورحمته وفضله.

ثم يرى في ضوء تلك اليقظة أنه لو عمل أعمال الثقلين من البر لاحتقرها بالنسبة إلى جنب عظمة الرب تعالى وما يستحقه بجلال وجهه وعظم سلطانه، هذا لو كانت أعماله منه، فكيف وهي مجرد فضل الله ومنته وإحسانه حيث يسرها له وأعانه عليها وهيأه لها وشاءها منه وكونها، ولو لم يفعل ذلك لم يكن له سبيل إليها، فحينئذ لا يرى أعماله منه، وأن الله سبحانه لن يقبل عملاً يراه صاحبه من نفسه حتى يرى عين توفيق الله له وفضله عليه ومنته وأنه من الله لا من نفسه وأنه ليس له من نفسه إلا الشر وأسبابه، وما به من نعمة فمن الله وحده صدقة تصدق بها عليه وفضلاً منه ساقه إليه من غير أن يستحقه بسبب ويستأهله بوسيلة، فيرى ربه ووليه ومعبوده أهلاً لكل خير ويرى نفسه أهلاً لكل شر، وهذا أساس جميع الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة وهو الذي يرفعها ويجعلها في ديوان أصحاب اليمين.

ثم يبرق له في نور تلك اليقظة بارقة أخرى يرى في ضوئها عيوب نفسه وآفاق عمله وما تقدم له من الجنايات والإساءات وهتك الحرمات والتقاعد عن كثير من الحقوق والواجبات، فإذا انضم ذلك إلى شهود نعم الله عليه وأياديه لديه رأى أن حق المنعم عليه في نعمه وأوامره لم يبق له حسنة واحدة يرفع بها رأسه فيطمئن قلبه وانكسرت نفسه وخشعت جوارحه وسار إلى الله ناكس الرأس بين مشاهدة نعمه ومطالعة جناياته وعيوب نفسه وآفات عمله قائلاً: أبوء لك بنعمتك علي وأبوء لك بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فلا يرى لنفسه حسنة ولا يراها أهلاً لخير فيوجب له أمرين عظيمين:

(أحدهما) استكثار ما من الله عليه.

(والثاني) استقلال ما منه من الطاعة كائنة ما كانت. ثم تبرق له بارقة أخرى يرى في ضوئها عزة وقته وخطره وشرفه وأنه رأس مال سعادته فيبخل به أن يضيعه فيما لا يقربه إلى ربه فإن في إضاعته الخسران والحسرة والندامة، وفي حفظه وعمارته الربح والسعادة فيشح بأنفاسه أن يضيعها فيما لا ينفعه يوم معاده.

[فصل]: في المحاسبة والمراقبة:

ثم يلحظ في ضوء تلك البارقة ما تقتضيه يقظته من سنة غفلته من التوبة والمحاسبة والمراقبة والغيرة لربه أن يؤثر عليه غيره وعلى حظه من رضاه وقربه وكرامته يبيعه بثمن بخس في دار سريعة الزوال، وعلى نفسه أن يملك رقها لمعشوق لو فكر في منتهى حسنه ورأى آخره بعين بصيرة لأنف. . . لها من محبته. . .

فهذا كله من آثار اليقظة وموجباتها وهي أول منازل النفس المطمئنة التي نشأ منها سفرها إلى الله والدار الآخرة.

[فصل] : في النفس اللوامة وأحوالها:

وأما النفس اللوامة وهي التي أقسم بها سبحانه في قوله: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[1] فاختلف فيها فقالت طائفة: هي التي لا تثبت على حال واحدة. أخذوا اللفظة من التلوم وهو التردد، فهي كثيرة التقلب والتلون، وهي من أعظم آيات الله، فإنها مخلوق من مخلوقاته تتقلب وتتلون في الساعة الواحدة فضلاً عن اليوم والشهر والعام والعمر ألواناً متلونة فتذكر وتغفل وتقبل وتعرض وتلطف وتكشف وتنيب وتجفو وتحب وتبغض وتفرح وتحزن وترضى وتغضب وتطيع وتتقي وتفجر. إلى أضعاف أضعاف ذلك من حالاتها وتلونها فهي تتلون كل وقت ألواناً كثيرة فهذا قول.

(وقالت) طائفة: اللفظة مأخوذة من اللوم ثم اختلفوا فقالت فرقة: هي نفس المؤمن وهذا من صفاتها المجردة، قال الحسن البصري: إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه دائماً يقول ما أردت بهذا؟ لم فعلت هذا؟ كان غير هذا أولى أو نحو هذا من الكلام.

(وقال) غيره: هي نفس المؤمن توقعه في الذنب ثم تلومه عليه فهذا اللوم من الإيمان بخلاف الشقي فإنه لا يلوم نفسه على ذنب بل يلومها وتلومه على فواته.

(وقالت) طائفة: بل هذا النوم للنوعين فإن كل أحد يلوم نفسه براً كان أو فاجراً، فالسعيد يلومها على ارتكاب معصية الله وترك طاعته، والشقي لا يلومها إلا على فوات حظها وهواها.

(وقالت) فرقة أخرى: هذا اللوم يوم القيامة فإن كان أحد يلوم نفسه إن كان مسيئاً على إساءته وإن كان محسناً على تقصيره.

---

(١) (القيامة / ٢).

وهذه الأقوال كلها حق، ولا تنافي بينها، فإن النفس موصوفة بهذا كله وباعتباره سميت لوامة، ولكن اللوامة نوعان:

لوامة ملومة، وهي النفس الجاهلة الظالمة التي يلومها الله وملائكته.

ولوامة غير ملومة، وهي التي لا تزال تلوم صاحبها على تقصيره في طاعة الله مع بذله جهده فهذه غير ملومة، وأشرف النفوس من لامت نفسها في طاعة الله، واحتملت ملام اللائمين في مرضاته، فلا تأخذها فيه لومة لائم، فهذه قد تخلصت من لوم الله، وأما من رضيت بأعمالها ولم تلم نفسها ولم تحتمل في الله ملام اللوام، فهي التي يلومها الله عز وجل.

[فصل]: في ذكر النفس الأمارة وأحوالها:

وأما النفس الأمارة فهي المذمومة فإنها التي تأمر بكل سوء وهذا من طبيعتها إلا ما وفقها الله وثبتها وأعانها، فما تخلص أحد من شر نفسه إلا بتوفيق الله له كما قال تعالى حاكياً عن امرأة العزيز: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١) وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ (٢) وقال تعالى لأكرم خلقه عليه وأحبهم إليه: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٣) وكان النبي ﷺ يعلمهم خطبة الحاجة: «الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له» (٤) فالشر كامن في النفس وهو يوجب سيئات الأعمال فإن خلى الله بين العبد وبين نفسه هلك بين شرها وما تقتضيه من سيئات الأعمال، وإن وفقه وأعانه نجاه من ذلك كله، فنسأل الله العظيم أن يعيذنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.

وقد امتحن الله سبحانه الإنسان بهاتين النفسين الأمارة واللوامة، كما أكرمه

(١) (يوسف / ٥٣). (٢) (النور / ٢١).

(٣) (الإسراء / ٧٤).

(٤) [صحيح]: رواه أحمد: (١/ ٣٥٠)، ومسلم: كتاب: الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة، [٨٦٨]، وأبو داود: كتاب: النكاح، باب: في خطبة النكاح، [٢١١٨]، والترمذي: كتاب: النكاح، باب: ما جاء في خطبة النكاح، [١١٠٥]، والنسائي: كتاب: النكاح، باب: ما يستحب من الكلام عند النكاح، (٦/ ٨٩: ٩٠)، وابن حبان: كتاب: التاريخ، باب: كتب النبي ﷺ، [٦٥٦٨].

بالمطمـئنة، فهي نفس واحـدة تكون أمارة ثـم لوامة ثم مطمـئنة وهي غاية كـمالهـا وصلاحـها، وأيد المطمئنة بجنود عـديدة فجعل الملك قـرينها وصاحـبها الذي يليـها ويسددها ويقـذف فيها الحق ويرغـبها فيـه ويريها حسن صورته ويزجـرها عن الباطل ويزهدها فيه ويريها قبح صورته، وأمدها بما علمـها من القرآن والأذكار وأعمال البر، وجعل وفود الخيرات ومـداد التوفيق تتنابها وتصل إليها من كل ناحيـة، وكلما تلقتها بالقـبول والشكر والحـمد لله ورؤية أوليـته في ذلك كله ازداد مـددها، فتقـوى على محاربة الأمارة، فمن جندها وهو سلطان عسـاكرها وملكها الإيمان واليقين، فالجيوش الإسلاميـة كلها تحت لوائه ناظرة إليه إن ثبت ثبـتت وإن انهزم ولت على أدبارها، ثم أمراء هذا الجيش ومقدمو عساكره شعب الإيمان المتعلقة بالجوارح على اختلاف أنواعها كالصلاة والزكاة والصـيام والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المـنكر ونصيحة الخلق والإحسان إليـهم بأنواع الإحسان، وشعـبه الباطنة المتعلقـة بالقلب كالإخلاص والتوكل والإنابة والتوبة والمراقبة والصبر والحلم والتواضع والمسكنة وامتلاء القلب من محبة الله ورسـوله وتعظيم أوامر الله وحقوقه والغيرة لله وفي الله والشـجاعة والعفة والصدق والشفقة والرحمة، وملاك ذلك كله الإخلاص والصدق، فلا يتعب الصادق المخلص فقـد أقيم على الصراط المسـتقيم فيسار به وهو راقد، ولا يتـعب من حرم الصدق والإخلاص فقد قطعت عليه الطريق واستهوته الشياطين في الأرض حيران فإن شاء فليعمل وإن شاء فليترك فـلا يزيده عمله من الله إلا بعداً، وبالجملة فما كان لله وبالله فهو من جند النفس المطمئنة.

وأما النفس الأمارة فـجعل الشيطان قرينها وصـاحبها الذي يليها، فـهو يعدها ويمنيها ويقذف فيها البـاطل ويأمرها بالسوء ويزينه لها ويطيل في الأمل ويريها الباطل في صـورة تقبلهـا وتسـتحـسنهـا ويمدها بأنواع الإمداد البـاطل من الأمـاني الكاذبة والشهوات المـهلكة، ويستعين عليهـا بهواها وإرادتها، فمنه يدخل عليـها ويدخل كل مكروه، فما استعان على النفوس بشئ هو أبلغ من هواها وإرادتها إليه وقد علم ذلك إخوانه من شـياطين الأنس فـلا يستعـينون على الصور الممنوعـة منهم بشئ أبلغ من هواهم وإرادتهم، فـإذا أعيـتهم صـورة طلبوا بجـهدهم مـا تحبـه وتهواه، ثم طـلبوا بجهدهم مـا تحبه وتهواه ، ثم طلبوا بجـهدهم تحصيله فـاصطادوا تلك الصورة. فإذا فتحت لهم النفس باب الهوى دخلوا منه فجاسـوا خلال الديار فعاثوا وأفسدوا وفتكوا وسبوا وفعلوا ما يفـعله العدو ببلاد عدوه إذا تحكم فيها فهـدموا معالم الإيمان والقرآن

والذكر والصلاة خربوا المساجد وعمروا البيع والكنائس والحانات والمواخير، وقصدوا إلى الملك فأسروه وسلبوه ملكه ونقلوه من عبادة الرحمن إلى عبادة البغايا والأوثان ومن عز الطاعة إلى ذل المعصية، ومن السماع الرحماني إلى السماع الشيطاني ومن الاستعداد للقاء رب العالمين إلى الاستعداد للقاء إخوان الشياطين، فبينا هو يراعي حقوق الله وما أمره به إذ صار يرعى الخنازير، وبينا هو منتصب لخدمة العزيز الرحيم إذ صار منتصباً لخدمة كل شيطان رجيم.

والمقصود أن الملك قرين النفس المطمئنة، والشيطان قرين الأمارة وقد روى أبو الأحوص، عن عطاء بن السائب، عن مرة، عن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة. فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاذ بالخير وتصديق بالحق. فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله وليحمد الله، ومن وجد الآخر فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثم قرأ: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾ (١) »(٢) وقد رواه عمرو عن عطاء بن السائب وزاد فيه عمرو قال: سمعنا في هذا الحديث أنه كان يقال: إذا أحس أحدكم من لمة الملك شيئاً فليحمد الله وليسأله من فضله، وإذا أحس من لمة الشيطان شيئاً فليستغفر الله وليتعوذ من الشيطان .

[فصل]:

فالنفس المطمئنة والملك وجنده من الإيمان يقتضيان من النفس المطمئنة التوحيد والإحسان والبر والتقوى والصبر والتوكل والتوبة والإنابة والإقبال على الله وقصر الأمل والاستعداد للموت وما بعده، والشيطان وجنده من الكفر يقتضيان من النفس الأمارة ضد ذلك، وقد سلط الله سبحانه الشيطان على كل ما ليس له ولم يرد به وجهه ولا هو طاعة له وجعل ذلك إقطاعه فهو يستنيب النفس الأمارة على هذا العمل والإقطاع ويتقاضى أن تأخذ الأعمال من النفس المطمئنة فتجعلها قوة لها فهي أحرص شئ على تخليص الأعمال كلها وأن تصير من حظوظها، فأصعب شئ على

(١) (البقرة / ٢٦٨).

(٢) [ضعيف]: رواه الترمذي : كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة البقرة، [٢٩٨٨]، وقال : هذا حديث حسن غريب ، وهو حديث أبي الأحوص ، لا نعلمه إلا مرفوعًا إلا من حديث أبي الأحوص، وابن حبان : كتاب: الرقائق، باب: الأدعية، [٩٩٧]، وضعفه الألباني في «ضعيف الترمذي» : [٥٧٢]، وانظر : «المشكاة» (٧٤)، «ضعيف الجامع الصغير» (١٩٦٣).

النفس المطمئنة تخليص الأعمال من الشيطان ومن الأمارة لله، فلو وصل منها عمل واحد كما ينبغي لنجا به العبد ولكن أبت الأمارة والشيطان أن يدعا لها عملاً واحياً يصل إلى الله كما قال بعض العارفين بالله وبنفسه: والله لو أعلم أن لي عملاً واحداً وصل إلى الله لكنت أفرح بالموت من الغائب يقدم على أهله، وقال عبد الله بن عمر: لو أعلم أن الله تقبل مني سجدة واحدة لم يكن غائب أحب إلي من الموت ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾

[فصل]: في أن النفس الأمارة في مقابلة النفس المطمئنة:

وقد انتصبت الأمارة من مقابلة المطمئنة فكلما جاءت به تلك من خير ضاهتها هذه وجاءت من الشر بما يقابله حتى تفسده عليها، فإذا جاءت بالإيمان والتوحيد جاءت هذه بما يقدح في الإيمان من الشك والنفاق وما يقدح في التوحيد من الشرك ومحبة غير الله وخوفه ورجائه، ولا ترضى حتى تقدم محبة غيره وخوفه ورجائه على محبته سبحانه وخوفه ورجائه، فيكون ما له عندها هو المؤخر وما للخلق هو المقدم، وهذا حال أكثر هذا الخلق، وإذا جاءت تلك بتجريد المتابعة للرسول، جاءت هذه بتحكيم آراء الرجال وأقوالهم على الوحي وأتت من الشبه المضلة بما يمنعها من كمال المتابعة وتحكيم السنة وعدم الالتفات إلى آراء الرجال، فتقوم الحرب بين هاتين النفسين والمنصور من نصره الله، وإذا جاءت تلك بالإخلاص والصدق والتوكل والإنابة والمراقبة جاءت هذه بأضدادها وأخرجتها في عدة قوالب وتقسم بالله ما مرادها إلا الإحسان والتوفيق والله يعلم أنها كاذبة وما مرادها إلا مجرد حظها واتباع هواها والتفلت من سجن المتابعة والتحكيم المحض للسنة إلى قضاء إرادتها وحظوظها، ولعمر الله ما تخلصت إلا من فضاء المتابعة والتسليم إلى سجن الهوى والإرادة وضيقه وظلمته ووحشته، فهي مسجونة في هذا العالم وفي البرزخ في أضيق منه، ويوم الميعاد الثاني في أضيق منهما.

ومن أعجب أمرها أنها تسحر العقل والقلب فتأتي إلى أشرف الأشياء وأفضلها وأجلها فتخرجه في صورة مذمومة، وأكثر الخلق صبيان العقول أطفال الأحلام لم يصلوا إلى حد الفطام الأول عن العوائد والمألوفات فضلاً في البلوغ الذي يميز به العاقل البالغ بين خير الخيرين فيؤثره وشر الشرين فيتجنبه، فتريه صورة تجريد التوحيد التي هي أبهى من صورة الشمس والقمر في صورة التنقيص المذموم وهضم العظماء منازلهم وحطهم منها إلى مرتبة العبودية المحضة والمسكنة والذل والفقر المحض الذي

لا ملكة لهم معه ولا إرادة ولا شفاعة إلا من بعد إذن الله، فتريهم النفس السحارة هذا القدر غاية تنقيضهم وهضمهم ونزول أقدارهم وعدم تمييزهم عن المساكين الفقراء فتنفر نفوسهم من تجريد التوحيد أشد النفار ويقولون: "أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب" وتريهم تجريد المتابعة للرسول وما جاء به وتقديمه على آراء الرجال في صورة تنقيض العلماء والرغبة عن أقوالهم وما فهموه عن الله ورسوله، وأن هذا إساءة أدب عليهم وتقدم بين أيديهم، وهو مفض إلى إساءة الظن بهم، وأنهم قد فاتهم الصواب، وكيف لنا قوة أن نرد عليهم ونفوز ونحظى بالصواب دونهم؟ فتنفر من ذلك أشد النفار وتجعل كلامهم هو المحكم الواجب الاتباع وكلام الرسول هو المتشابه الذي يعرض على أقوالهم، فما وافقها قبلناه وما خالفها رددناه أو أولناه أو فوضناه، وتقسم النفس السحارة بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم.

[فصل] : في إراءة النفس الأمارة الإخلاص في صورة ينفر منها:

وتريه صورة الإخلاص في صورة ينفر منها وهي الخروج عن حكم العقل المعيشي والمداراة والمداهنة التي بها اندراج حال صاحبها ومشيه بين الناس، فمتى أخلص أعماله ولم يعمل لأحد شيئاً تجنبهم وتجنبوه وأبغضهم وأبغضوه وعاداهم وعادوه وسار على جادة فينفر من ذلك أشد النفار وغايته أن يخلص في القدر اليسير من أعماله التي لا تتعلق بهم وسائر أعماله لغير الله.

[فصل]: في إراءتها صورة الصدق والجهاد وغيرهما في صور متضادة:

وتريه صورة الصدق مع الله وجهاد من خرج عن دينه وأمره في قالب الانتصاب لعداوة الخلق وأذاهم وحربهم. وأنه يعرض نفسه من البلاء لما لا يطيق، وأنه يصير غرضاً لسهام الطاعنين، وأمثال ذلك من الشبه التي تقيمها النفس السحارة الخيالات التي تخيلها، وتريه حقيقة الجهاد في صورة تقتل فيها النفس وتنكح المرأة ويصير الأولاد يتامى ويقسم المال، وتريه حقيقة الزكاة والصدقة في صورة مفارقة المال ونقصه وخلو اليد منه واحتياجه إلى الناس ومساواته للفقير وعوده بمنزلته، وتريه حقيقة إثبات صفات الكمال لله في صورة التشبيه والتمثيل فينفر من التصديق بها وينفر غيره، وتريه حقيقة التعطيل والإلحاد فيها في صورة التنزيه والتعظيم.

وأعجب من ذلك أنها تضاهي ما يحبه الله ورسوله من الصفات والأخلاق

والأفعال بما يبغضه منها، وتلبس على العبد أحد الأمرين بالآخر، ولا يخلص من هذا إلا أرباب البصائر، فإن الأفعال تصدر عن الإرادات وتظهر على الأركان من النفسين الأمارة والمطمئنة فيتباين الفعلان في البطلان ويشتبهان في الظاهر، ولذلك أمثلة كثيرة منها المداراة والمداهنة، فالأول من المطمئنة والثاني من الأمارة، وخشوع الإيمان وخشوع النفاق، وشرف النفس والتيه والحمية والجفاء. والتواضع والمهانة، والقوة في أمر الله والعلو في الأرض والحمية لله والغضب له، والحمية للنفس والغضب لها، والجود والسرف، والمهابة والكبر، والصيانة والتكبر، والشجاعة، والجرأة، والحزم والجبن، والاقتصاد والشح، والاحتراز وسوء الظن، والفراسة والظن والنصيحة والغيبة، والهدية والرشوة، والصبر والقسوة، والعفو والذل، وسلامة القلب والبله والغفلة، والثقة، والغرة والرجاء والتمني، والتحدث بنعم الله والفخر بها، وفرح القلب وفرح النفس، ورقة القلب والجزع، والموجدة والحقد، والمنافسة والحسد، وحب الرياسة وحب الإمامة والدعوة إلى الله. والحب لله والحب مع الله. والتوكل والعجز والاحتياط والوسوسة. وإلهام الملك، وإلهام الشيطان، والإناءة والتسويف، والاقتصاد والتقصير. والاجتهاد والغلو، والنصيحة والتأنيب، والمبادرة والعجلة، والإخبار بالحال عند الحاجة والشكوى.

فالشيء الواحد تكون صورته واحدة وهو منقسم إلى محمود ومذموم كالفرح والحزن. والأسف والغضب. والغيرة والخيلاء. والطمع والتجمل. والخشوع والحسد والغبطة والجرأة والتحسر والحرص، والتنافس وإظهار النعمة، والحلف والمسكنة، والصمت والزهد، والورع والتخلي، والعزلة والأنفة، والحمية والغيبة، وفي الحديث: أن من الغيرة ما يحبها الله ومنها ما يكرهه، فالغيرة يحبها الله الغيرة في

(١) رواه أحمد : (٥/ ٤٤٥، ٤٤٦) ، وأبو داود : كتاب: الجهاد، باب: في الخيلاء في الحرب، [٢٦٥٩]، والنسائي : كتاب: الزكاة، باب: الاختيال في الصدقة، (٥/ ٧٨ : ٧٩) ، وابن ماجة: كتاب: النكاح، باب: في الغيرة، [١٩٩٦]، وفي «الزوائد» : إسناده ضعيف، أبو سهم هذا مجهول -أحد رواة الحديث - وقال المزي في «الأطراف» : أبو سهم وهم ، والصواب : أبو سلمة، وابن حبان : كتاب: السير ، باب: الخروج وكيفية الجهاد، [٤٧٦٢]، وأما الجزء الأول من الحديث من صدره لقوله ﷺ : «. . . . الغيرة في غير ريبة» فقد وجدتها في «صحيح ابن ماجة» للألباني ، وقد حكم عليها بالصحة ، وأما في «الإرواء» فقد حسنه، انظر «صحيح ابن ماجة» : [١٦٢٣]، و«الإرواء» : [١٩٩٩]، وباقي الحديث ضعيف ؛ لجهالة ابن جابر بن عتيك، وإن كان هناك روايات أخرى، فلا تسلم من مقال، والله تعالى أعلى وأعلم.

الله مالاً وسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها»(١) .

وفي الصحيح أيضاً: «إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف»(٢).

وفيه أيضاً: «من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من الخير»(٣) فالرفق شئ والتواني والكسل شئ، فإن المتواني يتثاقل عن مصلحته بعد إمكانها فيتقاعد عنها، والرفيق يتلطف في تحصيلها بحسب الإمكان مع المطاوعة. وكذلك المداراة صفة مدح والمداهنة صفة ذم، والفرق بينهما أن المداري يتلطف بصاحبه حتى يستخرج منه الحق أو يرده عن الباطل، والمداهن يتلطف به ليقره على باطله ويتركه على هواه، فالمداراة لأهل الإيمان والمداهنة لأهل النفاق. وقد ضرب لذلك مثل مطابق وهو حال رجل به قرحة قد آلمته فجاءه الطبيب المداوي الرفيق فتعرف حالها ثم أخذ في تليينها حتى إذا نضجت أخذ في بطها برفق وسهولة، حتى أخرج ما فيها، ثم وضع على

(١) [صحيح]: رواه أحمد في مواضع، منها : (١/ ٤٢٣)، والبخاري : كتاب: الزكاة، باب: إنفاق المال في حقه، [١٤٠٩]، ومسلم : كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه، [٨١٥، ٨١٦]، وابن ماجة : كتاب: الزهد، باب: الحسد، [٤٢٠٨]، وابن حبان : كتاب: العلم، باب: ذكر إباحة الحسد لمن أوتي الحكمة وعلمها للناس، [٩٠، ١٢٥، ١٢٦].

(٢) [صحيح]: رواه مالك في موطأه مطولاً : كتاب: الاستئذان ، باب: ما يؤمر به من العمل في السفر، [٣٨]، وأحمد في مسنده : (٤/ ٨٧)، والبخاري مختصراً : كتاب: استتابة المرتدين، والمعاندين ، وقتالهم ، باب: إذا عرّض الذمي أو أغيره بسب النبي ﷺ ولم يصرح نحو قوله : السام عليكم، [٦٩٢٧]، ومسلم قريبًا منه جدًا : كتاب: السلام، باب: النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام، وكيف يرد عليهم ، [٢١٦٥]، وأبو داود : كتاب: الأدب، باب: في الرفق، [٤٨٠٧]، وابن ماجة : كتاب: الأدب، باب: الرفق، [٣٦٨٨]، وابن حبان: كتاب: البر والإحسان، باب: الرفق ، [٥٤٧، ٥٤٩].

(٣) رواه أحمد : (٦/ ٤٥١)، والترمذي : كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في الرفق، [٢٠١٣]، وقال: وهذا حديث حسن صحيح . وذكره الألباني في «صحيح الترمذي» ، ونذكر تمامه لفوائده، عن أبي الدرداء -رضي الله عنه- ، عن النبي ﷺ : «من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حقه من الخير، ومن حرم حظه من الرفق ، فقد حرم حظه من الخير، أثقل شيء في ميزان المؤمن يوم القيامة حسن الخلق، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء» نسألك اللهم أن تهدينا لأحسن الأخلاق ، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، ونسألك اللهم أن تصرف عنا سيئها لا يصرف عنا سيئها إلا أنت، آمين.

مكانهـا من الدواء والمرهم ما يمنع فساده ويقطع مادته، ثم تابع عليهـا بالمراهم التي تنبت اللحم ثم يذر عليها بعد نبات اللحم ما ينشف رطوبتها، ثم يشد عليها الرباط، ولم يزل يتابع ذلك حتى صلحت، والمداهن قال لصاحبها: لا بأس عليك منها وهذه لا شئ فاسترها عن العيون بخرقة ثم اله عنهـا، فلا تزال مدتها تقوى وتستحكم حتى عظم فسادها، وهذا المثل أيضـاً مطابق كل المطابقة لحـال النفس الأمارة مع المطمـئنة فتأمله، فـإذا كانت هذه حال قرحـة بقدر الحمصة فكيف بسـقم هاج من نفس أمارة بالسـوء، هي معدن الـشهوات ومـأوى كل فسق وقـد قارنهـا شيطان في غـاية المكر والخداع يعـدها ويمنيها ويسحـرها بجميع أنواع السحـر حتى يخيل إليهـا النافع ضاراً والضار نافعاً، والحسن قبيحاً والقبيح جميلاً، وهذا لعمر الله من أعظم أنواع السحر، ولهذا يقـول سبـحانه: ﴿فأنى تسـحرون﴾[1] والذي نسبـوا إليه الرسل من كـونهم مسحورين هو الذي أصابهم بعينه وهم أهله لا رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمـعين، كما أنهم نسـبوهم إلى الضلال والفـساد في الأرض والجنون والسفـه وما استـعاذت الأنبياء والرسل وأمـراء الأمم بالاستعاذة من شـر النفس الأمارة وصاحبـها وقرينها الشيطان لأنهما أصل كل شر وقاعدته ومنبعه وهما متساعدان عليه متعاونان:

رضيعي لبان ثدي أم تقاسما ... بأحلم داج عرض لا نتفرق

قال الله تعالى: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾[2] وقال: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾[3] وقال: ﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ﴿٩٧﴾ وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾[4] وقال تعالى: ﴿قل أعوذ برب الفلق ﴿١﴾ من شر ما خلق ﴿٢﴾ ومن شر غاسق إذا وقب ﴿٣﴾ ومن شر النفاثات في العقد ﴿٤﴾ ومن شر حاسد إذا حسد﴾[5] فهـذه استعاذة من شـر النفس. وقال: ﴿قل أعوذ برب الناس ﴿١﴾ ملك الناس ﴿٢﴾ إله الناس ﴿٣﴾ من شر الوسواس الخناس ﴿٤﴾ الذي يوسوس في صدور الناس ﴿٥﴾ من الجنة والناس﴾[6] فهـذه استـعاذة من قرينها وصاحبهـا وبئس القرين والصاحب، فأمر الله سبحانه نبيـه وأتباعه بالاستعاذة

(١) (المؤمنون / ٨٩).
(٢) (النحل / ٩٨).
(٣) (الأعراف/ ٢٠٠).
(٤) (المؤمنون / ٩٧).
(٥) (الفلق / ١ : ٥).
(٦) (الناس/ ١ : ٦).

بربوبيته التامة الكاملة من هذين الخلقين العظيم شـأنهما في الشر والفساد والقلب بين هذين العلويـين لا يزال شرهما يطرقبه وينتابه، وأول مـا يدب فيه السقم من النفس الأمارة من الشهوة ومـا يتبعها من الحب والحرص والطلب والغضب ويتبعه من الكبر والحسد والظلم والتسـلط فيعلم الطبيب الغاش الخائن بمرضـه فيعوده ويصف له أنواع السموم والمؤذيات ويخيل إليه بسحره أن شفاءه فيها ويتفق ضعف القلب بالمرض وقوة النفس الأمارة والشيطان وتتـابع إمدادهما، وأنه نقد حاضـر ولذة عاجلة والداعي إليه يدعو من كل ناحية والهوى ينفذ والشهوة تهـون والتأسي بالأكثر والتشبه بهم والرضا بأن يصيبه ما أصابهم، فـكيف يستجيب مع هذه الـقواطع وأضعافـها لداعي الإيمان ومنادي الجنة ألا من أمده الـله بإمداد التوفـيق وأيده برحمتـه وتولى حفظه وحمـايته وفتح بصيرة قلبه فرأى سرعة انقطاع الدنيا وزوالها وتقلبها بأهلها وفعلها بهم وأنها في الحياة الدائمة كغمس إصبع في البحر بالنسبة إليه.

[فصل] : في الفرق بين خشوع الإيمان وخشوع النفاق:

والفرق بين خشـوع الإيمان وخشوع النفاق أن خشـوع الإيمان هو خشوع القلب لله بالتعظيم والإجـلال والوقار والمهابة والحياء، فـينكسر القلب لله كسرة ملتـئمة من الوجل والخجل والحب والحياء وشهود نعم الله وجناياته هو، فيخشع القلب لا محالة فيتبعه خشوع الجوارح. وأما خـشوع النفاق فيبدو على الجوارح تصنعاً وتكلفاً والقلب غير خاشع، كـان بعض الصحابة يقول: أعوذ بالله من خشـوع النفاق، قيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن يرى الجسد خاشعـاً والقلب غير خاشع. فالخاشع لله عبد قد خمـدت نيران شهوته، وسـكن دخانها عن صدره، فـانجلى الصدر وأشرق فـيه نور العظمة فماتت شهوات النفس للخوف والوقار الذي حشي به وخمدت الجوارح وتوقر القلب واطمأن إلـى الله وذكره بالسكينة التي نزلت عليـه من ربه فصـار مخبـتاً له، والمخبت المطمئن، فإن الخبت من الأرض مـا تطامن فاستنقع فيه الماء، فكذلك القلب المخبت قد خـشع وتطامن كالبقعة المطمئـنة من الأرض التي يجري إليها الماء فيسـتقر فيهـا، وعلامته أن يسـجد بين يدي ربه جلالاً له وذلاً وانكساراً بين يـديه سجدة لا يرفع رأسه عنها حـتى يلقاه. وأما القلب المتكبر فإنه قـد اهتز بتكبره وربا فهو كبـقعة رابية من الأرض لا يستقر عليها الماء، فهذا خشوع الإيمان.

وأما التماوت وخشوع النفاق فهو حال عند تكلف إسكان الجوارح تصنعاً ومراءاة ونفسه في الباطن شابة طرية ذات شهوات وإرادات فهو يتخشع في الظاهر وحية الوادي. وأسد الغابة رابض بين جنبيه ينتظر الفريسة.

[فصل] : في الفرق بين شرف النفس والتيه:

وأما شرف النفس فهو صيانتها عن الدنايا والرذائل والمطامع التي تقطع أعناق الرجال، فيربأ بنفسه عن أن يلقيها في ذلك، بخلاف التيه فإنه خلق متولد بين أمرين إعجابه بنفسه وازدرائه بغيره فيتولد من بين هذين التيه والأول يتولد من بين خلقين كريمين: إعزاز النفس وإكرامها وتعظيم مالكها وسيدها أن يكون عبده دنياً وضيعاً خسيساً فيتولد من بين هذين الخلقين شرف النفس وصيانتها، وأصل هذا كله استعداد النفس وتهيؤها وإمداد وليها ومولاها لها فإذا فقد الاستعداد والإمداد فقد الخير كله.

[فصل] : في الفرق بين الحمية والجفاء:

وكذلك الفرق بين الحمية والجفاء، فالحمية فطام النفس عن رضاع اللوم من ثدي هو مصب الخبائث والرذائل والدنايا ولو غَزُر لبنه وتهالك الناس عليه فإن لهم فطاماً تنقطع معه الأكباد حسرات فلا بد من الفطام. فإن شئت عجل وأنت محمود مشكور ، وإن شئت أخر وأنت غير مأجور. بخلاف الجفاء فإنه غلظة في النفس وقساوة في القلب وكثافة في الطبع يتولد عنها خلق يسمى الجفاء.

[فصل]: في الفرق بين التواضع والمهانة:

والفرق بين التواضع والمهانة أن التواضع يتولد من بين العلم بالله سبحانه ومعرفة أسمائه وصفاته ونعوت جلاله وتعظيمه ومحبته وإجلاله، ومن معرفته بنفسه وتفاصيلها وعيوب عملها وآفاتها، فيتولد من بين ذلك كله خلق هو التواضع وهو انكسار القلب لله وخفض جناح الذل والرحمة بعباده فلا يرى له على أحد فضلاً ولا يرى له عند أحد حقاً بل يرى الفضل للناس عليه والحقوق لهم قبله، وهذا خلق إنما يعطيه الله عز وجل من يحبه ويكرمه ويقربه.

(وأما المهانة) فهي الدناءة والخسة وبذل النفس وابتذالها في نيل حظوظها وشهواتها كتواضع السفل في نيل شهواتهم، وتواضع المفعول به للفاعل، وتواضع طالب كل حظ لمن يرجو نيل حظه منه، فهذا كله ضعة لا تواضع، والله سبحانه

يحب التواضع ويبغض الضعة والمهانة. وفي الصحيح عنه ﷺ «وأوحي إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد»(١).

والتواضع المحمود على نوعين:

(النوع الأول): تواضع العبد عند أمر الله امتثالاً وعند نهيه اجتناباً، فإن النفس لطلب الراحة تتلكأ في أمره، فيبدو منها نوع إباء وشراد هرباً من العبودية وتثبت عند نهيه طلباً للظفر بما منع منه، فإذا وضع العبد نفسه لأمر الله ونهيه فقد تواضع للعبودية.

(والنوع الثاني): تواضعه لعظمة الرب وجلاله وخضوعه لعزته وكبريائه، فكلما شمخت نفسه ذكر عظمة الرب تعالىٰ وتفرده بذلك وغضبه الشديد على من نازعه ذلك فتواضعت إليه نفسه وانكسر لعظمة الله قلبه واطمأن لهيبته وأخبت لسلطانه، فهذا غاية التواضع، وهو يستلزم الأول من غير عكس، والمتواضع حقيقة من رزق الأمرين، والله المستعان.

[فصل]: في الفرق بين القوة في أمر الله، والعلو في الأرض:

(وفي الحمية لله والحمية للنفس):

وكذلك القوة في أمر الله هي من تعظيمه وتعظيم أوامره وحقوقه حتى يقيمها الله، والعلو في الأرض هو من تعظيم نفسه وطلب تفردها بالرياسة ونفاذ الكلمة سواء عز أمر الله أو هان، بل إذا عارضه أمر الله وحقوقه ومرضاته في طلب علوه لم يلتفت إلى ذلك وأهدره وأماته في تحصيل علوه.

وكذلك الحمية لله، والحمية للنفس، فالأولى يثيرها تعظيم الأمر والآمر والثانية

---

(١) [صحيح]: رواه مسلم: كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة، وأهل النار، [٢٨٦٥/ ٦٤]، وأبو داود: كتاب: الأدب، باب: في التواضع، [٤٨٩٥]، وابن ماجة: كتاب: الزهد، باب: البراءة من الكبر، والتواضع، [٤١٧٩، ٤٢١٤].
وأما الخطبة الطويلة التي ورد فيها ذكر هذه المقولة فقد رواها أحمد: (٤/ ٢٦٦)، ومسلم: [٢٨٦٥/ ٦٣]، وابن حبان: كتاب: الرقائق، باب: الخوف والتقوى، [٦٥٣، ٦٥٤]، والحديث صدره: «إن الله أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني ...» الحديث، فليراجع لعظيم ما فيه من الفوائد.

يثيرها تـعظيم النفس والغضب لفوات حظوظها ، فـالحمية لله أن يحـمي قلبه له من تعظيم حقوقـه وهي حال عبد قـد أشرق على قلبه نور سلطان الله فامـتلأ قلبه بذلك النور فإذا غضب فإنما يغضب من أجل نور ذلك السلطان الذي ألقي على قلبه، وكان رسول الله ﷺ إذا غضب احمرت وجنتـاه وبدا بين عينيه عرق يدره الغضب ولم يقم لغضبه شئ حتى ينتقم لله»(١).

وروى زيد بن أسلم عن أبيه أن موسى بن عمـران ﷺ كان إذا غضب اشتعلت قلنسوته ناراً»(٢).

وهذا بخلاف الحمية للنفس فإنها حـرارة تهيج من نفسه لفوات حظها أو طلبه، فإن الفتنة في النفس، والفتنة هي الحريق، والنفس متلظية بنار الشهوة والغضب، فإنما هما حرارتان تظهران على الأركان، حـرارة من قبل النفس المطمئنة آثارها تعظيم حق الله، وحرارة من قبل النفس الأمارة آثارها استشعار فوت الحظ .

[فصل]: في الفرق بين الجود والسرف:

والفرق بين الجـود والسرف أن الجواد حكيم يـضع العطاء مواضعـه، والمسرف مبذر ، وقد يصادف عطاؤه موضعه، وكثيراً لا يصادفه، وإيضاح ذلك أن الله سبحانه بحكمته جعل في المال حـقوقاً وهي نوعان: حقوق موظفة وحقـوق ثانية، (فالحقوق الموظفة) كالزكاة والنفقات الواجبة على من تلزمه نفقته.

والثانـية كحق الـضيف، ومكافـأة المهدي، وما وقـى به عرضه ونـحو ذلك، فالجواد يتوخى بماله أداء هذه الحقوق على وجه الكمال طيبة بذلك نفسه راضية مؤملة للخلف في الدنيا والثواب في العقبى، فهـو يخرج ذلك بسماحة قلب وسخاوة نفس وانشراح صـدر بخلاف المبذر فإنه يبـسط يده في ماله بحكم هواه وشهوتـه جزافاً لا على تقدير ولا مراعاة مصلحـة وإن اتفقت له، فالأول بمنزلة من بذر حبة في الأرض تنبت وتوخى ببذره مـواضع المغل والإنبات فهـذا لا يعد مبـذراً ولا سفيهـاً، والثاني

(١) انظر لبيـان صفة غضب النبي ﷺ في احـمرار الوجنتين ما رواه أحمـد في «مسنده» : (٤/ ١٦٥)، والبخاري : كـتاب: اللقطة، باب: إذا جاء صاحب اللقطة، [٢٤٣٦]، ومـسلم : كتاب: اللقطة، [١٧٢٢، ٣، ٦]، وبالنسبة لدر العرق منه ﷺ في «مسند أحمد» : (٤/ ١٦٥).

(٢) [ضعيف]: للإرسال ؛ إذ ليس فيه ذكر الصحابي.

بمنزلة من بذر حبة في سباخ وغراز من الأرض وإن اتفق بذره في محل النبات بذر بذراً متراكماً بعضه على بعض، فذلك المكان البذر فيه ضائع معطل وهذا المكان بذر بذراً متراكماً بعضه على بعض، فلذلك يحتاج أن يقلع بعض زرعه ليصلح الباقي ولئلا تضعف الأرض عن تربيته. والله سبحانه هو الجواد على الإطلاق بل كل جود في العالم العلوي والسفلي بالنسبة إلى جوده أقل من قطرة في بحار الدنيا وهي من جوده ومع هذا فإنما ينزل بقدر ما يشاء وجوده لا يناقض حكمته، ويضع عطاءه مواضعه وإن خفي على أكثر الناس أن تلك مواضعه، فالله يعلم حيث يضع فضله وأي المحال أولى به.

[فصل] : في الفرق بين المهابة والكبر:

والفرق بين المهابة والكبر (أن المهابة) أثر من آثار امتلاء القلب بعظمة الله ومحبته وإجلاله، فإذا امتلأ القلب بذلك حل فيه النور ونزلت عليه السكينة وألبس رداء الهيبة فاكتسى وجهه الحلاوة والمهابة فأخذ بمجامع القلوب محبة ومهابة فحنت إليه الأفئدة وقرت به العيون وأنست به القلوب، فكلامه نور ومدخله نور ومخرجه نور وعمله نور، وإن سكت علاه الوقار، وإن تكلم أخذ بالقلوب والأسماع .

(وأما الكبر) فأثر من آثار العجب والبغي من قلب قد امتلأ بالجهل والظلم، ترحلت منه العبودية، ونزل عليه المقت، فنظره إلى الناس شزر، ومشيه بينهم تبختر ومعاملته لهم معاملة الاستئثار لا الإيثار ولا الإنصاف، ذاهب بنفسه تيهاً لا يبدأ من لقيه بالسلام وإن رد عليه رأى أنه قد بالغ في الإنعام عليه لا ينطلق لهم وجهه ولا يسعهم خلقه ولا يرى لأحد عليه حقاً ويرى حقوقه على الناس ولا يرى فضلهم عليه ويرى فضله عليهم لا يزداد من الله إلا بعداً ومن الناس إلا صغاراً أو بغضاً.

[فصل] : في الفرق بين الصيانة والتكبر:

والفرق بين الصيانة والتكبر أن الصائن لنفسه بمنزلة رجل قد لبس ثوباً جديداً نقي البياض ذا ثمن فهو يدخل به على الملوك فمن دونهم، فهو يصونه عن الوسخ والغبار والطبوع وأنواع الآثار إبقاء على بياضه ونقائه، فتراه صاحب تعزز وهروب من المواضع التي يخشى منها عليه التلوث فلا يسمح بأثر ولا طبع ولا لوث يعلو ثوبه، وإن أصابه شيء من ذلك على غرة بادر إلى قلعه وإزالته ومحو أثره وهكذا الصائن

لقلبه ودينه تراه يجـتنب طبوع الذنوب وآثارها فإن لها في القلب طـبوعاً وآثاراً أعظم من الطبوع الفـاحشة في الثوب النقي للبـياض، ولكن على العيـون غشاوة أن تدرك تلك الطبوع، فتراه يهرب من مظان التلوث ويحـترس من الخلق ويتباعد من تخالطهم مخافة أن يحصل لقلبه مـا يحصل للثوب الذي يخالط الدباغين والذباحين والطباخين ونحوهم.

وبخلاف صاحب العلو فإنه وإن شابه هذا في تحـرزه وتجنبه فهو يقصد أن يعلو رقابهم ويجعلهم تحت قدمه، فهذا لون وذاك لون.

[فصل]: في الفرق بين الشجاعة والجرأة:

والفرق بين الشجاعة والجرأة (أن الشجاعة) من القلب وهي ثباته واستقراره عند المخاوف وهو خلق يتولد من الصبر وحسن الظن فـإنه متى ظن الظفر وساعده الصبر ثبت، كمـا أن الجبن يتولد من سوء الـظن وعدم الصبـر فلا يظن الظفر ولا يسـاعده الصبر، وأصل الجبن من سوء الظن ووسوسة النفس بالسوء وهو ينشأ من الرية[1] فإذا ساء الظن ووسوست النفس بالسوء انتفـخت الرئة فزاحمت القلب في مكانه وضيقت عليه حتى أزعجته عن مستقره فأصابه الزلازل والاضطراب لإزعاج الرئة له وتضييقها عليه ولهذا جاء في حديث عمـرو بن العاص الذي رواه أحمد وغيره عن النبي ﷺ: «شر ما في المرء جبن خالع وشح هالع»[2].

فسمي الجبن خـالعاً لأنه يخلع القلب عن مكانه لانتفاخ السحـر وهو الرئة كما قال أبو جهل لعتـبة بن ربيعة يوم بدر انتفخ سحـرك، فإذا زال القلب عن مكانه ضاع تدبيـر العقل فظهـر الفسـاد على الجوارح فـوضعت الأمـور على غـير مـواضعـها، فالشجـاعة حرارة القلب وغضـبه وقيامه وانتـصابه وثباته، فإذا رأته الأعـضاء كذلك أعانته فإنها خدم له وجنود كما أنه إذا ولى ولت سائر جنوده.

وأما الجرأة فهي إقـدام سببه قلة المبالاة وعدم النظر في العـاقبة بل تقدم النفس في غير موضع الإقدام معرضة عن ملاحظة العارض فإما عليها وإما لها.

---

(١) هكذا بالمطبوعة ، والسياق يفهم منه أنها «الرئة» ، والله أعلم.

(٢) رواه أحمد : (٣٠٢/٢، ٣٢٠)، وأبو داود : كتـاب: الجهاد، باب: في الجرأة والجبن، [٢٥١١]، وذكره الألباني في «صحيح أبي داود».

[فصل] : في الفرق بين الحزم والجبن:

وأما الفرق بين الحزم والجبن

فالحازم هو الذي قد جمع عليه همه وإرادته وعقله، ووزن الأمور بعضها ببعض فأعد لكل منها قرنه، ولفظة الحزم تدل على القوة والإجماع ومنه حزمة الحطب، فحازم الرأي هو الذي اجتمعت له شؤون رأيه وعرف منها خير الخيرين وشر الشرين فأحجم في موضع الإحجام رأياً وعقلاً لا جبناً ولا ضعفاً:

عاجز الرأي مضياع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

[فصل] : في الفرق بين الاقتصاد والشح:

وأما الفرق بين الاقتصاد والشح أن الاقتصاد خلق محمود يتولد من خلقين: عدل وحكمه، فبالعدل يعتدل في المنع والبذل، وبالحكمة يضع كل واحد منهما موضعه الذي يليق به، فيتولد من بينهما الاقتصاد وهو وسط بين طرفين مذمومين كما قال تعالى: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا﴾ (١) **وقال تعالى:** ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما﴾ (٢) **وقال تعالى:** ﴿كلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ (٣) .

وأما الشح فهو خلق ذميم يتولد من سوء الظن وضعف النفس، ويمده وعد الشيطان حتى يصير هلعاً، والهلع شدة الحرص على الشيء والشره به فيتولد عنه المنع لبذله والجزع لفقده كما قال تعالى: ﴿إن الإنسان خلق هلوعا ۝ إذا مسه الشر جزوعا ۝ وإذا مسه الخير منوعا﴾ (٤) .

[فصل] : في الفرق بين الاحتراز وسوء الظن:

والفرق بين الاحتراز وسوء الظن أن المحترز بمنزلة رجل قد خرج بماله ومركوبه مسافراً فهو يحترز بجهده من كل قاطع للطريق وكل مكان يتوقع منه الشر، وكذلك يكون مع التأهب والاستعداد وأخذ الأسباب التي بها ينجو من المكروه ، فالمحترز كالمتسلح المتدرع الذي قد تأهب للقاء عدوه وأعد له عدته، فهمه في تهيئة أسباب النجاة ومحاربة عدوه قد أشغلته عن سوء الظن به وكلما ساء به الظن أخذ في أنواع

---

(١) (الإسراء / ٢٩).
(٢) (الفرقان / ٦٧).
(٣) (الأعراف / ٣١).
(٤) (المعارج / ١٩ : ٢١).

العدة والتأهب .

وأما سوء الظن فهـو امتلاء قلبه بالظنون السيئـة بالناس حتى يطفح على لسانه وجوارحـه، فهم مـعه أبـداً في الهمـز واللمز والطعن والعيـب والبغض يـبغضـهم ويبغـضونه، ويلعنهم ويلعنونه ويـحذرهم ويحذرون منه، فـالأول يخالطهم ويحـترز منهم، والثاني يتـجنبهم ويلحقه أذاهم، الأول داخل فـيهم بالنصيحـة والإحسان مع الاحتراز، والثاني خارج منهم مع الغش والدغل والبغض .

[فصل]: في الفرق بين الفراسة والظن:

والرفق بين الفراسة والظن أن الظن يخطئ ويصيب وهو يكون مع ظلمة القلب ونوره وطهارته ونجاسته ولهذا أمر تعالى باجتناب كثير منه وأخبر أن بعضه إثم .

وأما الفـراسة فـأثنى على أهلها ومـدحهم في قولـه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[١] قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: أي للمتفرسين، وقال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[٣] فالفراسة الصادقة لقلب قد تطهر وتصفى وتنزه من الأدناس وقرب من الله فهو ينظر بنور الله الذي جعله في قلبه، وفي التـرمذي وغيـره من حديث أبي سعيـد قال: قال رسـول الله ﷺ: اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»[٤] .

---

(١) (الحجر / ٧٥).

(٢) (البقرة / ٢٧٣).

(٣) (محمد / ٣٠).

(٤) [ضعيف] رواه الترمذي : كتـاب : تفسير القرآن، باب: ومن سـورة الحجر، [٣١٢٧]، وقال أبو عيسى: هذا حـديث غريب، إنما نعرفه من هذا الوجه، وضـعفه الألباني في «ضعـيف الترمذي» : [٦٠٧]، وانظر: «الضعيفة» : [١٨٢١]، «ضعيف الجامع الصغير» : [١٢٧].

إلا أن أهل العلم من المفـسرين قالوا فـي قوله تعـالى: ﴿الله نور السـموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجـاجة كأنها كوكـب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقـية ولا غـربية يكاد زيتـها يضيء ولـو لم تمسسـه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يـشاء ويضرب الـله الأمثال لـلناس والله بكل شيء عليم﴾ (النور / ٣٥)، قالوا: مـثل نور الله في قلب المؤمن فإن قلبه يضيء بالفطرة النقـية فإذا وصله نور النصوص الشرعية زاد نور النصـوص الشرعية على نور الفطرة الإلهيـة والحمد لله رب العـالمين ويكاد المؤمن يصل بفطرته النقية إلى الحق بغـير =

وهذه الفراسة نشأت له من قربه من الله فإن القلب إذا قرب من الله انقطعت عنه معارضات السوء المانعة من معرفة الحق وإدراكه وكان تلقيه من مشكاة قريبة من الله بحسب قربه منه، وأضاء له النور بقدر قربه فرأى في ذلك النور ما لم يره البعيد والمحجوب كما ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل أنه قال: «ما تقرب إلي عبدي بمثل ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي»(١).

فأخبر سبحانه أن تقرب عبده منه يفيده محبته له فإذا أحبه قرب من سمعه وبصره ويده ورجله فسمع به وأبصر به وبطش به ومشى به فصار قلبه كالمرآة الصافية تبدو فيها صورة الحقائق على ما هي عليه فلا تكاد تخطئ له فراسة، فإن العبد إذا أبصر بالله أبصر الأمر على ما هو عليه فإذا سمع بالله سمعه على ما هو عليه، وليس هذا من علم الغيب بل علام الغيوب قذف الحق في قلب قريب مستبشر بنوره

=النصوص الشرعية كما نزل القرآن مؤيدًا للفاروق -رضي الله عنه- لسلامة فطرته، ونقاء سريرته في كثير من المسائل التي أشار بها على النبي ﷺ، فنزل الوحي مؤيدًا له في ذلك، ومثل نطق لسانه بقوله تعالى: ﴿فتبارك الله أحسنُ الخالقين﴾ (المؤمنون / ١٤)، قبل نزولها، فلما قالها، قال ﷺ: «اكتبها فقد نزلت» إلا أنه يجب التنبيه على أن هذه الفراسة وإن ثبتت بلفظ «المُحَدَّثين» إلا أنها لا يُعَوَّل عليها في حكم أبدًا ما لم يكن هناك ما يؤيدها من النصوص الشرعية.

(١) [صحيح]: رواه البخاري: كتاب: الرقائق، باب: التواضع، [٦٥٠٢]، وأخرج بعضه ابن ماجة، كتاب: الفتن، باب: من ترجى له السلامة من الفتن، [٣٩٨٩]، وابن حبان: كتاب: البر والإحسان، باب: ما جاء في الطاعات وثوابها، [٣٤٧]، وقد علق الذهبي على هذا الحديث في «ميزان الاعتدال» في ترجمة خالد بن مَخْلَد قائلاً: فهذا حديث غريب جدًا، لولا هيبة «الجامع الصحيح» لعدوه في منكرات خالد بن مخلد، وذلك لغرابة لفظه، ولأنه مما ينفرد به شريك، وليس بالحافظ، ولم يُرو هذا المتن إلا بهذا الإسناد، ولا خرجه من عدا البخاري، ولا أظنه في «مسند أحمد»، وقد اختلف في عطاء فقيل: هو ابن أبي رباح، والصحيح أنه عطاء بن يسار. اهـ «ميزان الاعتدال»: (١/ ٦٤١: ٦٤٢)، والحديث جليل المعنى جدًا جدًا، والله نسأل أن يكون صحيحًا، وأن يكون البخاري موفقًا في ذلك، وسقت كلام الذهبي على سند الحديث من باب الأمانة العلمية، والله الهادي إلى سواء السبيل. والحديث ليس كما قال الذهبي: لم يخرجه سوى البخاري، بل خرجه ابن حبان أيضًا: كتاب: البر والإحسان، باب: ما جاء في الطاعات وثوابها، [٣٤٧].

غير مشغول بنقوش الأباطيل والخيالات والوساوس التي تمنعه من حصول صور الحقائق فيه، وإذا غلب على القلب النور فاض على الأركان وبادر من القلب إلى العين فكشف بعين بصره بحسب ذلك النور، وقد كان رسول الله ﷺ يرى أصحابه في الصلاة وهم خلفه كما يراهم أمامه(١).

ورأى بيت المقدس عياناً وهو بمكة(٢).

ورأى قصور الشام وأبواب صنعاء ومدائن كسرى وهو بالمدينة يحفر الخندق(٣).

ورأى أمراءه بمؤتة وقد أصيبوا وهو بالمدينة(٤).

ورأى النجاشي بالحبشة لما مات وهو بالمدينة فخرج إلى المصلى فصلى عليه(٥).

ورأى عمر سارية بنهاوند من أرض فارس هو وعساكر المسلمين وهم يقاتلون عدوهم فناداه: يا سارية الجبل(٦).

---

(١) يشير إلى حديث صحيح رواه مالك في موطأه: كتاب: قصر الصلاة في السفر، باب: العمل في جامع الصلاة، [٧٠]، والبخاري: كتاب: الأذان، باب: إذا بكى الإمام في الصلاة، [٧١٨]، [٧١٩، ٧٢٥]، ومسلم: كتاب: الصلاة، باب: الأمر بتحسين الصلاة، وإتمامها، والخشوع فيها، [٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٣٤]، والنسائي: كتاب: السهو، باب: النهي عن مبادرة الإمام بالانصراف من الصلاة، (٣/ ٨٣).

(٢) يشير إلى حديث صحيح رواه البخاري: كتاب: مناقب الأنصار، باب: حديث الإسراء، وقول الله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾ [٣٨٨٦]، [٤٧١٠]، ومسلم: كتاب: الإيمان، باب: ذكر المسيح ابن مريم، والمسيح الدجال، [١٧٠].

(٣) يشير إلى حديث البراء بن عازب -رضي الله عنه- في حفر الخندق والذي رواه أحمد في مسنده (٤/ ٣٠٣)، وصدره: «أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق ....» الحديث، وهو من معجزات النبي ﷺ الحسية.

(٤) يشير إلى الحديث الصحيح الذي رواه أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: خطب رسول الله ﷺ فقال: «أخذ الراية ....» الحديث، رواه أحمد: (٣/ ١١٣)، والبخاري: كتاب: الجهاد، باب: تمني الشهادة، [٢٧٩٨]، وهو أيضًا من المعجزات المادية للنبي ﷺ.

(٥) يشير إلى الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة -رضي الله عنه- قال: نعى لنا رسول الله ﷺ النجاشي يوم الذي مات فيه، فقال: «استغفروا لأخيكم» [صحيح] رواه البخاري: كتاب: الجنائز، باب: صلاة الصبيان مع الناس على الجنائز، [١٣٢٧]، ومسلم: كتاب: الجنائز، باب: في التكبير على الجنازة، [٩٥٢/ ٦٥، ٦٦] [٩٥٣].

(٦) [صحيح] انظر «السلسلة الصحيحة» للألباني: [١١١٠].

حكايات تفرس أمير المؤمنين عمر وعثمان -رضي الله عنهما- وغيرهما من أكابر السلف.

ودخل عليه نفر من مذحج فيهم الأشتر النخعي فصعد فيه البصر وصوبه وقال: أيهم هذا؟ قالوا: مالك بن الحارث، فقال: ما له قاتله الله إني لأرى للمسلمين منه يوماً عصيباً .

ودخل عمرو بن عبيد على الحسن فقال: هذا سيد الفتيان إن لم يحدث. وقيل: إن الشافعي ومحمد بن الحسن جلسا في المسجد الحرام فدخل رجل فقال محمد: أتفرس أنه نجار، فقال الشافعي: أتفرس أنه حداد، فسألاه فقال: كنت حداداً وأنا اليوم أنجر، ودخل أبو الحسن البوشنجي والحسن الحداد على أبي القاسم المناوي يعودانه، فاشتريا في طريقهما بنصف درهم تفاحاً نسيئة، فلما دخلا عليه قال: ما هذه الظلمة؟ فخرجا وقالا: ما علمنا، لعل هذا من قبل ثمن التفاح، فأعطيا الثمن ثم عادا إليه، ووقع بصره عليهما فقال: يمكن الإنسان أن يخرج من الظلمة بهذه السرعة؟ أخبراني عن شأنكما فأخبراه بالقصة فقال: نعم كان كل واحد منكما يعتمد على صاحبه في إعطاء الثمن والرجل مستح منكما في التقاضي. وكان بين أبي زكريا النخشبي وبين امرأة سبب قبل توبته فكان يوماً واقفاً على رأس أبي عثمان الحيري فتفكر في شأنها، فرفع أبو عثمان إليه رأسه، وقال: ألا تستحي. وكان شاه الكرماني جيد الفراسة لا تخطئ فراسته وكان يقول: من غض بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمر باطنه بدوام المراقبة، وظاهره باتباع السنة، وتعود أكل الحلال، لم تخطئ فراسته. وكان شاب يصحب الجنيد يتكلم على الخواطر فذكر للجنيد فقال: إيش هذا الذي ذكر لي عنك؟ فقال له: أعتقد شيئاً، فقال له الجنيد: اعتقدت، فقال الشاب: اعتقدت كذا وكذا، فقال الجنيد: لا، فقال: فاعتقد ثانياً، قال: اعتقدت، فقال الشاب: اعتقدت كذا وكذا، فقال الجنيد: لا، فقال: فاعتقد ثالثاً، قال: اعتقدت، فقال الشاب: هو كذا وكذا، قال: لا، فقال الشاب: هذا عجب وأنت صدوق وأنا أعرف قلبي. فقال الجنيد: صدقت في الأولى والثانية والثالثة لكن أردت أن أمتحنك هل يتغير قلبك، وقال أبو سعيد الخراز: دخلت المسجد الحرام فدخل فقير عليه خرقتان يسأل شيئاً فقلت في نفسي: مثل هذا كل على الناس، فنظر إلي وقال: ﴿اعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه﴾ . قال: فاستغفرت في سري فناداني

وقال: ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده﴾

وقال إبراهيم الخواص: كنت في الجامع فأقبل شاب طيب الرائحة حسن الوجه حسن الحركة فقلت لأصحابنا: يقع لي أنه يهودي! فكلهم كره ذلك فخرجت وخرج الشاب ثم رجع إليهم فقال: إيش قال الشيخ في؟ فاحتشموه، فألح عليهم فقالوا: قال: إنك يهودي، فجاء فأكب على يدي فأسلم فقلت: ما السبب؟ فقال: نجد في كتابنا أن الصديق لا تخطئ فراسته، فقلت: امتحن المسلمين فتأملتهم فقلت: إن كان فيهم صديق ففي هذه الطائفة فلبست عليكم، فلما اطلع هذا الشيخ علي وتفرسني علمت أنه صديق. وهذا عثمان بن عفان دخل عليه رجل من الصحابة وقد رأى امرأة في الطريق فتأمل محاسنها فقال له عثمان: يدخل على أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه. فقال: أوحي بعد رسول الله ﷺ؟ فقال: لا ولكن تبصرة وبرهان وفراسة.

فهذا شأن الفراسة وهي نور يقذفه الله في القلب فيخطر له الشيء فيكون كما خطر له وينفذ إلى العين فيرى ما لا يراه غيرها.

[فصل]: في الفرق بين النصيحة والغيبة:

والفرق بين النصيحة والغيبة أن النصيحة يكون القصد فيها تحذير المسلم من مبتدع أو فتان أو غاش أو مفسد فتذكر ما فيه إذا استشارك في صحبته ومعاملته والتعلق به كما قال النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس وقد استشارته في نكاح معاوية وأبي جهم فقال: «أما معاوية فصعلوك، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه»(١) وقال بعض أصحابه لمن سافر معه: إذا هبطت عن بلاد قومه فاحذره.

فإذا وقعت الغيبة على وجه النصيحة لله ورسوله وعباده المسلمين فهي قربة إلى الله من جملة الحسنات، وإذا وقعت على وجه ذم أخيك وتمزيق عرضه والتفكه بلحمه والغض منه لتضع منزلته من قلوب الناس فهي الداء العضال، ونار الحسنات

(١) [صحيح]: رواه مالك في موطأه: كتاب: الطلاق، باب: ما جاء في نفقة المطلقة، [٦٧]، وأحمد: (٦/ ٤١٢)، ومسلم: كتاب: الطلاق، باب: المطلقة ثلاثًا لا نفقة لها، [١٤٨٠]، وأبو داود: كتاب: الطلاق، باب: في نفقة المبتوتة، [٢٢٨٤]، والترمذي: كتاب: النكاح، باب: ما جاء أن لا يخطب الرجل على خطبة أخيه، [١١٣٥]، والنسائي: كتاب: النكاح، باب: الخطبة في النكاح. (٦/ ٧٠: ٧١)، كتاب: الطلاق، باب: الرخصة في خروج المبتوتة من بيتها في عدتها لسكناها، (٦/ ٢٠٧: ٢٠٨).

التي تأكلها كما تأكل النار الحطب .

[فصل]: في الفرق بين الهدية والرشوة وإعطاء الرشوة لدفع الظلم:

والفرق بين الهدية والرشوة وإن اشتبها في الصورة القصد، فإن الراشي قصده بالرشوة التوصل إلى إبطال حق أو تحقيق باطل، فهذا الراشي الملعون على لسان رسول الله ﷺ، فإن رشا لدفع الظلم عن نفسه اختص المرتشي وحده باللعنة.

وأما المهدي فقصده استجلاب المودة والمعرفة والإحسان، فإن قصد المكافاة فهو معاوض، وإن قصد الربح فهو مستكثر.

[فصل]: في الفرق بين الصبر والقسوة:

والفرق بين الصبر والقسوة أن الصبر خلق كسبي يتخلق به العبد، هو حبس النفس عن الجزع والهلع والتشكي، فيحبس النفس عن التسخط واللسان عن الشكوى والجوارح عما لا ينبغي فعله ، وهو ثبات القلب على الأحكام القدرية والشرعية .

وأما القسوة فيبس في القلب يمنعه من الانفعال، وغلظة تمنعه من التأثر بالنوازل، فلا يتأثر لغلظته وقساوته لا لصبره واحتماله.

القلوب ثلاثة: وتحقيق هذا أن القلوب ثلاثة :

(قلب قاس) غليظ بمنزلة اليد اليابسة. (وقلب مائع) رقيق جداً .

(فالأول) لا ينفعل بمنزلة الحجر. والثاني بمنزلة الماء، وكلاهما ناقص، وأصح القلوب (القلب الرقيق) الصافي الصلب فهو يرى الحق من الباطل بصفائه ويقبله ويؤثره برقته ويحفظه ويحارب عدوه بصلابته. وفي الأثر: «القلوب آنية الله في أرضه فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها»، وهذا القلب الزجاجي فإن الزجاجة جمعت الأوصاف الثلاثة، وأبغض القلوب إلى الله القلب القاسي .

قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[2] قال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي

---

(١) (الزمر / ٢٢).

(٢) (البقرة / ٧٤).

الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم﴾(١) فذكر القلبين المنحرفين عن الاعتدال، هذا بمرضه وهذا بقسوته، وجعل إلقاء الشيطان فتنة لأصحاب هذين القلبين ورحمة لأصحاب القلب الثالث وهو القلب الصافي الذي ميز بين إلقاء الشيطان وإلقاء الملك بصفائه وقبل الحق بإخباته ورقته وحارب النفوس المبطلة بصلابته وقوته، فقال تعالى عقيب ذلك: ﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾(٢).

[فصل]: في الفرق بين العفو والذل:

والفرق بين العفو والذل أن العفو إسقاط حقك جوداً وكرماً وإحساناً مع قدرتك على الانتقام، فتؤثر الترك رغبة في الإحسان ومكارم الأخلاق، بخلاف الذل فإن صاحبه يترك الانتقام عجزاً وخوفاً ومهانة نفس، فهذا مذموم غير محمود ولعل المنتقم بالحق أحسن حالاً منه، قال تعالى: ﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾(٣).

فمدحهم بقوتهم على الانتصار لنفوسهم وتقاضيهم منها ذلك حتى إذا قدروا على من بغى عليهم وتمكنوا من استيفاء مالهم عليه ندبهم إلى الخلق الشريف من العفو والصفح فقال: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين﴾(٤) فذكر المقامات الثلاثة: العدل وأباحه، والفضل وندب إليه، والظلم وحرمه.

(فإن قيل): فكيف مدحهم على الانتصار والعفو وهما متنافيان؟

(قيل): لم يمدحهم على الاستيفاء والانتقام وإنما مدحهم على الانتصار وهو القدرة والقوة على استيفاء حقهم، فلما قدروا ندبهم إلى العفو، قال بعض السلف في هذه الآية: كانوا يكرهون أن يستذلوا فإذا قدروا عفوا، فمدحهم على عفو بعد قدرة لا على عفو ذل وعجز ومهانة، وهذا هو الكمال الذي مدح سبحانه به نفسه في قوله: ﴿فإن الله كان عفوا قديراً﴾(٥) ﴿والله غفور رحيم﴾.

تسبيح حملة العرش وهم أربعة: وفي أثر معروف: حملة العرش أربعة: اثنان

(١) (الحج / ٥٣).
(٢) (الحج / ٥٤).
(٣) (الشورى / ٣٩).
(٤) (الشورى / ٤٠).
(٥) (النساء / ١٤٩).

يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك. واثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك، ولهذا قال المسيح صلوات الله وسلامه عليه: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ (١) أي إن غفرت لهم غفرت عن عزة وهي كمال القدرة، وحكمة وهي كمال العلم، فغفرت بعد أن علمت ما عملوا وأحاطت بهم قدرتك إذ المخلوق قد يغفر بعجزه عن الانتقام وجهله بحقيقة ما صدر من المسيء، والعفو من المخلوق ظاهره ضيم وذل وباطنه عز ومهانة، والانتقام ظاهره عز وباطنه ذل، فما زاد الله بعفو إلا عزاً لا انتقم أحد لنفسه إلا ذل، ولو لم يكن إلا بفوات عز العفو ولهذا ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط(٢)، وتأمل قوله سبحانه: ﴿هم ينتصرون﴾ (٣) كيف يفهم منه أن فيهم من القوة ما يكونون هم بها المنتصرين لأنفسهم لا أن غيرهم هو الذي ينصرهم، ولما كان الانتصار لا تقف النفوس فيه على حد العدل غالباً بل لا بد من المجاوزة شرع فيه سبحانه المماثلة والمساواة وحرم الزيادة وندب إلى العفو.

والمقصود أن العفو من أخلاق النفس المطمئنة، والذل من أخلاق الأمارة، ونكتة المسألة أن الانتقام شئ والانتصار شئ.

الفرق بين الانتصار والانتقام:

فالانتصار لحق الله ومن أجله ولا يقوى على ذلك إلا من تخلص من ذل حظه ورق هواه فإنه حينئذ ينال حظًا من العز الذي قسم الله للمؤمنين، فإذا بغي عليه انتصر من الباغي من أجل عز الله الذي أعزه به غيره على ذلك العز أن يستضام ويقهر وحمية للعبد المنسوب إلى العزيز الحميد أن يستذل، فهو يقول للباغي عليه: أنا مملوك من لا يذل مملوكه ولا يحب أن يذله أحد، وإذا كانت نفسه الأمارة قائمة على

(١) (المائدة / ١١٨).

(٢) يشير إلى حديث صحيح عن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها. رواه البخاري: كتاب: المناقب، باب: صفة النبي ﷺ، [٣٥٦٠]، [٦١٢٦، ٦٧٨٦، ٦٨٥٣]، ومسلم: كتاب: الفضائل، باب: مباعدته ﷺ للآثام، واختياره من المباح أسهله، وانتقامه لله عند انتهاك حرماته، [٢٣٢٧].

(٣) (الشورى/ ٣٩).

أصولهـا لم تحب بعد طلبه إلا الانتقـام والانتصار لحظهـا وظفرها بالباغي تشفيـاً منه وإذلالاً له، وأمـا النفس التي خرجت من ذل حظها ورق هواها إلى عـز توحيـدها وإنابتها إلى ربها فـإذا نالها البغي قامت بالانتصار حميـة ونصرة للعز الذي أعزها الله به ونالته منه وهو في الحقيقة حمية لربها ومولاها، وقد ضرب لذلك مثلاً بعبدين من عبيـد الغلة حراثين ضرب أحدهمـا صاحبه فـعفا المضروب عن الضارب نـصحاً منه لسيده وشفـقة على الضارب أن يعاقبه السيـد فلم يجشم سيده خلقه عقـوبته وإفساده بالضرب فـشكر العاقي علـى عفوه ووقع منه بموقع. وعـبد آخـر قد أقامـه بين يديه وجمله وألبـسه ثياباً يقف بها بين يـديه فعمد بعض سـواس الدواب وأضرابهم ولطخ تلك الثياب بالعذرة أو مزقها فلو عفا عمن فعل به ذلك لم يوافق عفوه رأي سيده ولا محبـته وكان الانتصار أحـب إليه ووافق لمرضاته كأنه يقول: إنمـا فعل هذا بك جرأة علي واستخفافاً بسلطاني فإذا أمكنه مـن عقوبته فأذله وقهره ولم يبق إلا أن يبطش به فذل وانكسـر قلبه فإن سـيده يحب منه أن لا يعاقـبه لحظة وأن يأخذ منه حق السـيد فيكون انتصاره حينئذ لمحض حق سـيده لا لنفسه كما روي عن علي رضي الله عنه: أنه مر برجل فاستغاث به وقال: هذا منعني حقي ولم يعطني إياه، فقال: اعطه حقه، فلما جـاوزهما لج الظالم ولطم صـاحب الحق فاستـغاث بعلي، فـرجع وقال: أتاك الغوث، فقال له: استقد منه فقـال: قد عفوت يا أمير المؤمنين، فضربه علي تسع درر وقال: قد عفا عنك من لطمته وهذا حق السلـطان، فعاقبه علي لما اجترأ على سلطان الله ولم يدعه، ويشبه هذا قصـة الرجل الذي جاء إلى أبي بكر رضي الله عنه فقال: احملني فوالله لأنا أفـرس منك ومن ابنك وعنده المغيرة بن شعبة، فـحسر عن ذراعه وصك بها أنف الرجل، فـسال الدم فجـاء قومه إلى أبي بكر رضي الله عنه فـقالوا: أقدنا من المغيرة ، فقال : أنا أقيدكم من وزعة الله؟ لا أقيدكم منه، فرأى أبو بكر أن ذلك انتصاراً من المغيرة وحمية لله وللعـز الذي أعز به خليفة رسول الله ﷺ ليتمكن بذلك العز من حسن خلافته وإقامـة دينه، فترك قوده لاجترائه على عز الله وسلطانه الذي أعز به رسوله ودينه وخليفته، فهذا لون والضرب حمية للنفس الأمارة لون.

[فصل]: في الفرق بين سلامة القلب والبله والتغفل:

والفرق بين سلامة القلب والبله والتـغفل أن سلامة القلب تكون من عدم إرادة الشر بعد معرفته فيسلم قلبه من إرادته وقصده لا من معرفته والعلم به. وهذا بخلاف

البله والغفلة فإنها جهل وقلة معرفة، وهذا لا يحمد إذ هو نقص، وإنما يحمد الناس من هو كذلك لسلامتهم منه. والكمال أن يكون القلب عارفاً بتفاصيل الشر سليماً من إرادته، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لست بخب ولا يخدعني الخب، وكان عمر أعقل من أن يخدع وأورع من أن يخدع، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1]. فهذا هو السليم من الآفات التي تعتري القلوب المريضة من مرض الشبهة التي توجب اتباع الظن، ومرض الشهوة التي توجب اتباع ما تهوى الأنفس، فالقلب السليم الذي سلم من هذا وهذا.

[فصل]: في الفرق بين الثقة والغرة:

والفرق بين الثقة والغرة أن الثقة سكون يستند إلى أدلة وأمارات يسكن القلب إليها، فكلما قويت تلك الأمارات قويت الثقة واستحكمت ولا سيما على كثرة التجارب وصدق الفراسة، واللفظة كأنها والله أعلم من الوثاق وهو الرباط، فالقلب قد ارتبط بمن وثق به توكلاً عليه وحسن ظن به فصار في وثاق محبته ومعاملته، والاستناد إليه والاعتماد عليه، فهو في وثاقه بقلبه وروحه وبدنه، فإذا سار القلب إلى الله وانقطع إليه تقيد بحبه وصار في وثاق العبودية فلم يبق له مفزع في النوائب ولا ملجأ غيره ويصير عدته وشدته وذخيرته في نوائبه وملجأه في نوازله ومستعانه في حوائجه وضروراته .

وأما الغرة فهي حال المغتر الذي غرته نفسه وشيطانه وهواه وأمله الخائب الكاذب بربه حتى أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني، والغرور ثقتك بمن لا يوثق به وسكونك إلى من لا يسكن إليه ورجاؤك النفع من المحل الذي لا يأتي بخير كحال المغتر بالسراب، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[2] وقال تعالى في وصف المغترين: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[3] وهؤلاء إذا انكشف الغطاء وثبتت حقائق الأمور علموا أنهم لم يكونوا على شئ ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾[4] وفي أثر معروف: إذا رأيت الله سبحانه

(١) (الشعراء / ٨٨ : ٨٩).
(٢) (النور / ٣٩).
(٣) (الكهف / ١٠٣ : ١٠٤).
(٤) (الزمر/ ٤٧)

يزيدك من نعمه وأنت مقيم على معصيته فاحذره فإنما هو استدراج يستدرجك به. وشاهد هذا في القرآن في قوله تعالى: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾(١) وهذا من أعظم الغرة أن تراه يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على ما يكره فالشيطان موكل بالغرور، وطبع النفس الأمارة الاغترار فإذا اجتمع الرأي والبغي والرأي المحتاج والشيطان الغرور والنفس المغترة لم يقع هناك خلاف. فالشياطين غروا المغترين بالله وأطمعوهم مع إقامتهم على ما يسخط الله ويغضبه في عفوه وتجاوزه، وحدثوهم بالتوبة لتسكن قلوبهم، ثم دافعوهم بالتسويف حتى هجم الأجل فأخذوا على أسوأ أحوالهم، وقال تعالى: ﴿وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور﴾(٢) وقال تعالى: ﴿يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾(٣)، وأعظم الناس غروراً بربه من إذا مسه الله برحمة منه وفضل قال: هذا لي أي أنا أهله وجدير به ومستحق له ثم قال: ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾ فظن أنه أهل لما أولاه من النعم مع كفره بالله ثم زاد في غروره فقال: ﴿ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾، يعني الجنة والكرامة، وهكذا تكون الغرة بالله، فالمغتر بالشيطان مغتر بوعوده وأمانيه، وقد ساعده اغتراره بدنياه ونفسه فلا يزال كذلك حتى يتردى في آبار الهلاك.

[فصل]: في الفرق بين الرجاء والتمني:

والفرق بين الرجاء والتمني أن (الرجاء) يكون مع بذل الجهد واستفراغ الطاقة في الإتيان بأسباب الظفر والفوز، (والتمني) حديث النفس بحصول ذلك مع تعطيل الأسباب الموصلة إليه، قال تعالى: ﴿إنَّ الَّذينَ آمَنوا وَالَّذينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئكَ يرجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾(٤) فطوى سبحانه بساط الرجاء إلا عن هؤلاء، وقال المغترون: إن الذين ضيعوا أوامره وارتكبوا نواهيه واتبعوا ما أسخطه وتجنبوا ما يرضيه أولئك يرجون رحمته، وليس هذا ببدع من غرور النفس والشيطان لهم، فالرجاء لعبد قد امتلأ قلبه من الإيمان بالله واليوم الآخر فمثل بين عينيه ما وعده الله تعالى من كرامته وجنته فامتد القلب مائلاً إلى ذلك شوقاً إليه وحرصاً عليه فهو شبيه بالماد عنقه إلى مطلوب قد صار نصب عينيه. وعلامة الرجاء الصحيح أن الراجي يخاف فوت

(١) (الأنعام / ٤٤). (٢) (الحديد / ١٤).
(٣) (فاطر / ٥). (٤) (البقرة / ٢١٨).

الجنة وذهاب حظه منها بترك ما يخاف أن يحول بينه وبين دخولها، فمثله مثل رجل خطب امرأة كريمة في منصب وشرف إلى أهلها، فلما آن وقت العقد واجتماع الأشراف والأكابر وإتيان الرجل إلى الحضور أعلم عشية ذلك اليوم ليتأهب للحضور فتراه المرأة وأكابر الناس فأخذ في التأهب والتزين والتجميل فأخذ من فضول شعره وتنظف وتطيب ولبس أجمل ثيابه وأتى إلى تلك الدار متقياً في طريقه كل وسخ ودنس وأثر يصيبه أشد تقوى حتى الغبار والدخان وما هو دون ذلك، فلما وصل إلى الباب رحب به ربها ومكن له في صدر الدار على الفرش والوسائد ورمقته العيون وقصد بالكرامة من كل ناحية، فلو أنه ذهب بعد أخذ هذه الزينة فجلس في المزابل وتمرغ عليها وتمعك بها وتلطخ في بدنه وثيابه بما عليها من عذرة وقذر، ودخل ذلك في شعره وبشره وثيابه، فجاء على ذلك الحال إلى تلك الدار وقصد دخولها للوعد الذي سبق له لقام إليه البواب بالضرب والطرد والصياح عليه والإبعاد له من بابها وطريقها فرجع متحيراً خاسئاً فالأول حال الراجي وهذا حال المتمني، وإن شئت مثلت حال الرجلين بملك هو أغير الناس وأعظمهم أمانة وأحسنهم معاملة لا يضيع لديه حق أحد وهو يعامل الناس من وراء ستر لا يراه أحد وبضائعه وأمواله وتجاراته وعبيده وإماؤه ظاهر بارز في داره للمعاملين، فدخل عليه رجلان فكان أحدهما يعامله بالصدق والأمانة والنصيحة لم يجرب عليه غشاً ولا خيانة ولا مكراً، فباعه بضائعه كلها واعتمد مع مماليكه وجواريه ما يجب أن يعتمد معهم، فكان إذا دخل إليه ببضاعة تخير له أحسن البضائع وأحبها إليه، وإن صنعها بيده بذل جهده في تحسينها وتنميقها وجعل ما خفي منها أحسن مما ظهر ويستلم المؤنة ممن أمره أن يستلمها منه وامتثل ما أمره به السفير بينه وبينه في مقدار ما يعمله، صفته وهيئته وشكله ورقته وسائر شؤونه، وكان الآخر إذا دخل دخل بأخس بضاعة يجدها لم يخلصها من الغش ولا نصح فيها ولا اعتمد في أمرها ما قاله المترجم عن الملك والسفير بينه وبين الصناع والتجار بل كان يعملها على ما يهواه هو، ومع ذلك فكان يخون الملك في داره إذ هو غائب عن عينه فلا يلوح له طمع إلا خانه ولا حرمة للملك إلا مد بصره إليها وحرص على إفسادها، ولا شئ يسخط الملك إلا ارتكبه إذا قدر عليه، فمضيا على ذلك مدة ثم قيل: إن الملك يبرز اليوم لمعامليه حتى يحاسبهم ويعطيهم حقوقهم، فوقف الرجلان بين يديه فعامل كل واحد منهما بما يستحقه. فتأمل هذين

المثلين فإن الواقع مطابق لهما فالراجي على الحقيقة لما صلوت الجنة نصب عينه ورجائه وأمله امتد إليـها قلبه وسعى لها سعياً، فإن الرجاء هو امتـداد القلب وميله، وحقق رجاءه كمال الـتأهب وخوف الفوت والأخذ بالحذر. وأصله من التنحي، ورجـا البئر ناحيته وأرجاء السماء نواحيها، وامتداد القلب إلى المحبوب منقطعاً عما يقطعه عنه هو تنح عن النفس الأمارة وأسبابها وما تدعو إليه، وهذا الامتداد والميل والخوف من شأن النفس المطمئنة فـإن القلب إذا انفتحت بصيرتـه فرأى الآخرة وما أعد الله فـيها لأهل طاعتـه وأهل معـصيتـه خاف وخف مرتحـلاً إلى الله والدار الآخرة وكـان قبل ذلك مطمئـناً إلى النفس، والنفس إلى الشهـوات والدنيا، فلمـا انكشف عنه غطاء النفس خف وارتحل عن جوارها طالباً جوار العزيز الرحيم في جنات النعيم، ومن ههنا صار كل خائف راجياً وكل راج خائفاً، فأطلق اسم أحدهما على الآخر، فإن الراجي قلبه قـريب الصـفة من قلـب الخائف، هذا الراجـي قد نحى قلـبه عن مـجـاورة النفس والشيطان مرتحلاً إلى الله، قد رفع له من الجنة علم فشمر إليه وله ماداً إليه قلبه كله، وهذا الخائف فـار من جوارهمـا ملتجئ إلى الله من حـبسه في سـجنهمـا في الدنيا فيحبس معـهما بعد الموت ويوم القيامة، فإن المرء مع قـرينه في الدنيا والآخرة، فلما سمع الوعيد ارتحل من مجاورة جار السوء في الدارين فأعطى اسم الخائف، ولما سمع الوعد امتد واستطار شوقاً إليه وفرحاً بالظفر له فأعطي اسم الراجي، وحالاه متلازمان لا ينفك عنهما، فكل راج خائف من فوات مـا يرجوه كما أن كل خائف راج أمنه مما يخاف، فلذلك تداول الاسمـان عليه قال تعالى: ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقارا ﴾[(١)] قالوا في تفسيرها: لا تخافون لله عظمـة. وقد تقدم أن سبحانه طوى الرجاء إلا عن الذين آمنوا وهاجروا وجـاهدوا، وقد فسر النبي ﷺ الإيمان: بأنه ذو شـعب وأعمال ظاهرة وباطنة، وفسر الهجرة: بأنها هجر ما نهى الله عنه، والجهاد: بأنه جهاد النفس في ذات الله فقال: «المهاجر من هجر مـا نهى الله عنه، والمجاهد من جاهد نفسه في ذات الله»[(٢)].

---

(١) (نوح / ١٣).

(٢) [صحيح]: رواه أحمد في مـواضع، منها: (٦/ ٢١ ، ٢٢)، والبخاري: كـتاب: الرقائق، باب: الانتهاء عن المعاصي، [٦٤٨٤]، وأبو داود: كتـاب: الصلاة، باب: بعد باب في فضل التطوع في البيت، [١٤٤٩]، والترمـذي: كتاب: فضائل الجـهاد، باب: ما جاء في فـضل من مات مرابطًا، [١٦٢١]، والنسائي: كتاب: الإيمان وشرائعـه، باب: صفة المسلم، (٨/ ١٠٥)، وابن حبان: =

والمقصود أن الله سبحانه جعل أهل الرجاء من آمن وهاجر وجاهد وأخرج من سواهم من هذه الأمم .

وأما الأماني فإنها رؤوس أموال المفاليس أخرجوها في قالب الرجاء وتلك أمانيهم، وهي تصدر من قلب تزاحمت عليه وساوس النفس فأظلم من دخانها فهو يستعمل قلبه في شهواتها، وكما فعل منته حسن العاقبة والنجاة وأحالته على العفو والمغفرة والفضل، وأن الكريم لا يستوفي حقه ولا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة، ويسمي ذلك رجاء وإنما هو وسواس وأماني باطلة تقذف بها النفس إلى القلب الجاهل فيستريح إليها، قال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾[(1)]، فإذا ترك العبد ولاية الحق ونصرته ترك الله ولايته ونصرته ولم يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً، وإذا ترك ولايته ونصرته تولته نفسه والشيطان فصارا وليين له، ووكل إلى نفسه، فصار انتصاره لها بدلاً من نصرة الله ورسوله، فاستبدل بولاية الله ولاية نفسه وشيطانه، وبنصرته نصرة نفسه وهواه، فلم يدع للرجاء موضعاً، فإذا قالت لك النفس: أنا في مقام الرجاء فطالبها بالبرهان، وقل: هذه أمنية فهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، فالكيس يعمل أعمال البر على الطمع والرجاء، والأحمق العاجز يعطل أعمال البر ويتكل على الأماني التي يسميها رجاء ، والله الموفق .

(فصل): في الفرق بين التحدث بنعم الله والفخر بها:

والفرق بين التحدث بنعم الله والفخر بها

أن المتحدث بالنعمة مخبر عن صفات الله ومحض جوده وإحسانه، فهو مثن عليه بإظهارها التحدث بها شاكراً له ناشراً لجميع ما أولاه مقصود بذلك إظهار صفات الله ومدحه والثناء وبعث النفس على الطلب منه دون غيره وعلى محبته ورجائه، فيكون راغباً إلى الله بإظهار نعمه ونشرها والتحدث بها.

=كتاب: السير، باب: الهجرة ، [٤٨٦٢، ١٩٦]، بعض الروايات عن ابن عمر، والآخر عن فضالة ابن عبيد، وبعضها عن عبد الله بن حبشي -رضي الله عنهم جميعًا- ، بعضها قريب من بعض، في سياقات مختلفة. مختصراً أحيانًا، وأحيانًا مطولاً ، فلتراجع الروايات للفائدة.

(١) (النساء / ١٢٣).

وأما الفخر بالنعم فهو أن يستطيل بها على الناس ويريهم أنه أعز منهم وأكبر، فيركب أعناقهم ويستعبد قلوبهم ويستميلها إليه بالتعظيم والخدمة، قال النعمان بن بشير: إن للشيطان مصالي وفخوخاً، وإن من مصاليه وفخوخه البطش بنعم الله والكبر على عباد الله والفخر بعطية الله والهوى في غير ذات الله.

[فصل]: في الفرق بين فرح القلب وفرح النفس:

والفرق بين فرح القلب وفرح النفس ظاهر، فإن الفرح بالله ومعرفته ومحبته وكلامه من القلب، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ (١)، فإذا كان أهل الكتاب يفرحون بالوحي فأولياء الله وأتباع رسوله أحق بالفرح به، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٣) قال أبو سعيد الخدري: فضل الله القرآن، ورحمته أن جعلكم من أهله، وقال هلال بن يساف: فضل الله ورحمته الإسلام الذي هداكم إليه، والقرآن الذي علمكم هو خير من الذهب والفضة الذي تجمعون. وقال ابن عباس والحسن وقتادة وجمهور المفسرين: فضل الله الإسلام ورحمته القرآن، فهذا فرح القلب وهو من الإيمان ويثاب عليه العبد فإن فرحه به يدل على رضاه به بل هو فوق الرضا، فالفرح بذلك على قدر محبته، فإن الفرح إنما يكون بالظفر بالمحبوب وعلى قدر محبته يفرح بحصوله له، فالفرح بالله وأسمائه وصفاته ورسوله وسنته وكلامه محض الإيمان وصفوته ولبه وله عبودية عجيبة وأثر في القلب لا يعبر عنه، فابتهاج القلب وسروره وفرحه بالله وأسمائه وصفاته وكلامه ورسوله ولقائه أفضل ما يعطاه بل هو جل عطاياه، والفرح في الآخرة بالله ولقائه بحسب الفرح به ومحبته في الدنيا، فالفرح بالوصول إلى المحبوب يكون على حسب قوة المحبة وضعفها، فهذا شان فرح القلب، وله فرح آخر وهو فرحه بما من الله به عليه من معاملته والإخلاص له والتوكل عليه والثقة به وخوفه ورجائه به وكلما تمكن في ذلك قوي فرحه وابتهاجه، وله فرحة أخرى عظيمة الوقع عجيبة الشأن وهي الفرحة التي تحصل له

---

(١) (الرعد/ ٣٦).

(٢) (التوبة / ١٢٤).

(٣) (يونس / ٥٨).

بالتوبة فإن لها فرحة عجيبة لا نسبة لفرحة المعصية إليها ألبتة، فلو علم العاصي أن لذة التوبة وفرحتها تزيد على لذة المعصية وفرحتها أضعافاً مضاعفة لبادر إليها أعظم من مبادرته إلى لذة المعصية .

وسر هذا الفرح إنما يعلمه من علم سر فرح الرب تعالى بتوبة عبده أشد فرح يقدر ، ولقد ضرب له رسول الله ﷺ مثلاً ليس في أنواع الفرح في الدنيا أعظم منه وهو فرح رجل قد خرج براحلته التي عليها طعامه وشرابه في سفر ففقدها في أرض دوية مهلكة، فاجتهد في طلبها فلم يجدها، فيئس منها، فجلس ينتظر الموت، حتى إذا طلع البدر رأى في ضوئه راحلته وقد تعلق زمامها بشجرة فقال من شدة فرحه: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح، فالله أفرح بتوبة عبده من هذا براحلته(١) .

فلا ينكر أن يحصل للتائب نصيب وافر من الفرح بالتوبة، ولكن ها هنا أمر يجب التنبيه عليه وهو أن لا يصل إلى ذلك إلا بعد ترحاب ومضض ومحن لا تثبت لها الجبال فإن صبر لها ظفر بلذة الفرح وإن ضعف عن حملها ولم يصبر لها لم يظفر بشئ وآخر أمره فوات ما آثره من فرصة المعصية ولذتها فيفوته الأمران ويحصل على ضد اللذة من الألم المركب من وجود المؤذي وفوت المحبوب، فالحكم لله العلي الكبير.

[فصل]: في بيان أعظم الفرح:

وها هنا فرحة أعظم من هذا كله وهي فرحته عند مفارقته الدنيا إلى الله إذا أرسل إليه الملائكة فبشروه بلقائه وقال له ملك الموت: اخرجى أيتها الروح الطيبة كانت في الجسد الطيب أبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، اخرجي راضية مرضياً عنك ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾(٢)، فلو لم يكن بين يدي التائب إلا هذه

[صحيح]: رواه أحمد : (٢/٣١٦)، ومسلم : كتاب: التوبة، باب: في الحض على التوبة، والفرح بها، [٢٧٤٧]، والترمذي : كتاب: الدعوات، باب: في فضل التوبة، والاستغفار ، [٣٥٣٨]، وابن ماجة : كتاب: الزهد ، باب: ذكر التوبة، [٤٢٤٧]، وصدره : «لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ...» الحديث.

(٢) (الفجر / ٢٧ - ٣٠).

الفرحة وحدها لكان العقل يأمر بإيثارها فكيف ومن بعدها أنواع من الفرج منها صلاة الملائكة الذين بين السماء والأرض على روحه، ومنها فتح أبواب السماء لها وصلاة ملائكة السماء عليها وتشييع مقربيها لها إلى السماء الثانية فتفتح ويصلي عليها أهلها ويشيعها مقربوها هكذا إلى السماء السابعة ؟! فكيف يقدر فرحها وقد استؤذن لها على ربها ووليها وحبيبها فوقفت بين يديه وأذن لها بالسجود فسجدت، ثم سمعته سبحانه يقول: اكتبوا كتابه في عليين، ثم يذهب به فيرى الجنة ومقعده فيها وما أعد الله له ويلقى أصحابه وأهله فيستبشرون به ويفرحون به ويفرح بهم فرح الغائب يقدم على أهله فيجدهم على أحسن حال ويقدم عليهم بخير ما قدم له مسافر، هذا كله قبل الفرج الأكبر يوم حشر الأجساد بجلوسه في ظل العرش وشربه من الحوض، وأخذه كتابه بيمينه، وثقل ميزانه، وبياض وجهه، وإعطائه النور التام والناس في الظلمة، وقطعه جسر جهنم بلا تعويق، وانتهائه إلى باب الجنة وقد أزلفت له في الموقف وتلقي خزنتها له بالترحيب والسلام والبشارة وقدومه على منازله وقصوره وأزواجه وسراريه .

وبعد ذلك فرح آخر لا يقدر قدره ولا يعبر عنه تتلاشى هذه الأفراح كلها عنده وإنما يكون هذا لأهل السنة المصدقين برؤية وجه ربهم تبارك وتعالى من فوقهم وسلامه عليهم وتكليمه إياهم ومحاضرته لهم:

وليست هذه الفرحات إلا لذي الترحات في دار الرزايا
فشمر ما استطعت الساق واجهد لعلك أن تفوز بذي العطايا
وصم عن لذة حشيت بلاء للذات خلصن من البلايا
ودع أمنية إن لم تنلها تعذب أو تنل أنست منايا
ولا تستبط وعداً من رسول أتى بالحق من رب البرايا
فهذا الوعد أدنى من نعيم مضى بالأمس لو وفقت رايا

[فصل] : في الفرق بين رقة القلب والجزع:

والفرق بين رقة القلب والجزع أن الجزع ضعف في النفس وخوف في القلب يمده شدة الطمع والحرص ويتولد من ضعف الإيمان بالقدر، وإلا فمتى علم إن المقدر

كائن ولا بد كان الجزع عناء محضاً ومصيبة ثانية، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ (١) فمتى آمن العبد بالقدر وعلم أن المصيبة مقدرة في الحاضر والغائب لم يجزع ولم يفرح.

ولا ينافي هذا رقة القلب فإنها ناشئة من صفة الرحمة التي هي كمال الله سبحانه، إنما يرحم من عباده الرحماء، وقد كان رسول الله ﷺ أرق الناس قلباً وأبعدهم من الجزع، فرقة القلب رأفة ورحمة، وجزعه مرض وضعف، فالجزع حال قلب مريض بالدنيا قد غشيه دخان النفس الأمارة فأخذ بأنفاسه وضيق عليه مسالك الآخرة وصار في سجن الهوى والنفس وهو سجن ضيق الأرجاء مظلم المسالك، فانحصار القلب وضيقه يجزع من أدنى ما يصيبه ولا يحتمله، فإذا أشرق فيه نور الإيمان واليقين بالوعد وامتلأ من محبة الله وإجلاله رق وصارت فيه الرأفة والرحمة فتراه رحيماً رقيق القلب بكل ذي قربى ومسلم يرحم النملة في حجرها والطير في وكره فضلاً عن بني جنسه، فهذا أقرب القلوب من الله، قال أنس: كان رسول الله ﷺ أرحم الناس بالعيال(٢).

والله سبحانه إذا أراد أن يرحم عبداً أسكن في قلبه الرأفة والرحمة، وإذا أراد أن يعذبه نزع من قلبه الرحمة والرأفة وأبدل له بها الغلظة والقسوة، وفي الحديث الثابت: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي»(٣).

---

(١) (الحديد / ٢٢ : ٢٣).

(٢) [صحيح]: رواه أحمد : (٣/ ١١٢)، ومسلم : كتاب : الفضائل ، باب: رحمة النبي ﷺ العيال، وتواضعه ، وفضل ذلك ، [٢٣١٦].

(٣) رواه أحمد : (٢/ ٣٠١)، وأبو داود : كتاب: الأدب ، باب: في الرحمة ، [٤٩٤٢]، والترمذي : كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في رحمة المسلمين، [١٩٢٣]، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن، وأورده الألباني في «صحيح أبي داود» ، والترمذي.

(٤) [صحيح]: رواه أحمد في مواضع ، منها (٢/ ٢٢٨)، والبخاري : كتاب: الأدب، باب: رحمة الناس بالبهائم [٦٠١٣] ، [٧٣٧٦]، ومسلم : كتاب: الفضائل ، باب: رحمته ﷺ بالصبيان والعيال، وتواضعه ، وفضل ذلك، [٢٣١٨]، وأبو داود : كتاب: الأدب، باب: في قبلة الرجل ولده، [٥٢١٨]، والترمذي : كتاب: البر والصلة ، باب: ما جاء في رحمة الولد، [١٩١١].

وفيه: «من لا يرحم لا يرحم»(٤).

وفيه: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»(١).

وفيه: «أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال»(٢).

والصديق رضي الله عنه إنما فضل الأمة بما كان في قلبه من الرحمة العامة زيادة على الصديقية ولهذا أظهر أثرها في جميع مقاماته حتى في الأسارى يوم بدر واستقر الأمر على ما أشار به وضرب له ﷺ مثلاً بعيسى وإبراهيم، والرب تعالى هو الرؤوف الرحيم وأقرب الخلق إليه أعظمهم رأفة ورحمة، كما أن أبعدهم منه من اتصف بضد صفاته، وهذا باب لا يلجه إلا الأفراد في العالم.

[فصل]: في الفرق بين الموجدة والحقد:

والفرق بين الموجدة والحقد أن الوجد الإحساس بالمؤلم والعلم به وتحرك النفس في رفعه، فهو كمال. وأما الحقد فهو إضمار الشر وتوقعه كل وقت فمن وجدت عليه فلا يزايل القلب أثره.

وفرق آخر وهو أن الموجدة لما ينالك منه، والحقد لما يناله منك، فالموجدة وجود ما نالك من أذاه، والحقد توقع وجود ما يناله من المقابلة، فالموجدة سريعة الزوال والحقد بطئ الزوال، والحقد يجئ مع ضيق القلب واستيلاء ظلمة النفس ودخانها عليه، بخلاف الموجدة فإنها تكون مع قوته وصلابته وقوة نوره وإحساسه.

[فصل]: في الفرق بين المنافسة والحسد:

والفرق بين المنافسة والحسد أن المنافسة المبادرة إلى الكمال الذي تشاهد من

---

(١) رواه أبو داود: كتاب: الأدب، باب: في الرحمة [٤٩٤١]، والترمذي: كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في رحمة المسلمين، [١٩٢٤]، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وذكره الألباني في «صحيح أبي داود»، والترمذي.

(٢) [صحيح]: رواه أحمد في مواضع، منها: (٤/ ١٦٢)، ومسلم: كتاب: الجنة، وصفة نعيمها وأهلها، [٢٨٦٥]، وابن حبان: كتاب: إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، باب: وصف الجنة وأهلها، [٧٤٥٣]، وهو مطول في «المسند»، و«صحيح مسلم» فليراجع لعظيم فوائده.

(٣) (المطففين / ٢٦).

غيرك فتنافسه فيه حتى تلحقه أو تجاوزه فهي من شرف النفس وعلو الهمة وكبر القدر، قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (٣) وأصلها من الشيء النفيس الذي تتعلق به النفوس طلباً ورغبة، فينافس فيه كل من النفسين الأخرى، وربما فرحت إذا شاركتها فيه كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يتنافسون في الخير ويفرح بعضهم ببعض باشتراكهم فيه، بل يحض بعضهم بعضاً عليه مع تنافسهم فيه وهي نوع من المسابقة، وقد قال تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (٤) وقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ﴾ (٢).

وكان عمر بن الخطاب يسابق أبا بكر رضي الله عنهما فلم يظفر بسبقه أبداً، فلما علم أنه قد استولى على الإمامة قال: والله لا أسابقك إلى شئ أبداً، وقال: والله ما سبقته إلى خير إلا وجدته قد سبقني إليه. والمتنافسان كعبدين بين يدي سيدهما يتباريان ويتنافسان في مرضاته ويتسابقان إلى محابه، فسيدهما يعجبه ذلك منهما ويحثهما عليه وكل منهما يحب الآخر ويحرضه على مرضاة سيده.

والحسد خلق نفس ذميمة وضيعة ساقطة ليس فيها حرص على الخير، فلعجزها ومهانتها تحسد من يكسب الخير والمحامد ويفوز بها دونها وتتمنى أن لو فاته كسبها حتى يساويها في العدم كما قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ (٣) وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ فالحسود عدو النعمة متمن زوالها عن المحسود كما زالت عنه هو، والمنافس مسابق النعمة متمن تمامها عليه وعلى من ينافسه، فهو ينافس غيره أن يعلو عليه ويحب لحاقه به أو مجاوزته له في الفضل، والحسود يحب انحطاط غيره حتى يسويه في النقصان، وأكثر النفوس الفاضلة الخيرة تنتفع بالمنافسة، فمن جعل نصب عينيه شخصاً من أهل الفضل والسبق فنافسه انتفع به كثيراً فإنه يتشبه به ويطلب اللحاق به والتقدم عليه وهذا لا نذمه، وقد يطلق اسم الحسد على المنافسة المحمودة كما في الصحيح عن النبي ﷺ: «لا حسد إلا في اثنين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار، ورجل أتاه الله مالاً

---

(١) (البقرة / ١٤٨). (٢) (الحديد / ٢١).

(٣) (النساء / ٨٩). (٤) (البقرة / ١٠٩).

(٥) سبق تخريجه.

فسلطه على هـلكته في الحق»[٥]، فهـذا حسـد منافسـة وغبطة يدل على علـو همة صاحبه وكبر نفسه وطلبها للتشبه بأهل الفضل .

[فصل]: في الفرق بين حب الرياسة وحب الإمارة:

والفرق بين حب الرياسـة وحب الإمارة للدعوة إلى الله هـو الفرق بين تعظيم أمـر الله والنصح له وتعظيم النفس والسـعي في حظهـا، فإن النـاصح لله المعظم له المحب له يحب أن يطاع ربه فلا يـعصى وأن تكون كلمته هـي العليا وأن يكون الدين كله لله وأن يكون العباد ممتـثلين أوامره مجتنبين نواهيه، فقد نـاصح الله في عبوديته وناصح خلقـه في الدعوة إلـى الله، فهـو يحب الإمـامة في الدين بل يسـأل ربه أن يجعله للمتـقين إماماً يقتدي به المتقـون كما اقتدى هو بالمتقين، فـإذا أحب هذا العبد الداعي إلى الله أن يكون في أعينهم جليلاً وفي قلوبهم مهيـباً وإليهم حبيباً وأن يكون فيهم مطاعاً لكي يأتموا به ويقتفـوا أثر الرسول على يده لم يضره ذلك بل يحمد عليه لأنه داع إلى الله يحب أن يطاع ويعـبد ويوحد فـهو يحب ما يكـون عوناً على ذلك موصلاً إليه، ولهذا ذكـر سبحانه عباده الذين اختصـهم لنفسه وأثنى عليهم في تنزيله وأحسن جـزاءهم يوم لقائه فذكـرهم بأحسن أعـمالهم وأوصافـهم ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[١] فسألوه أن يقر أعينهم بطـاعة أزواجهم وذرياتهم له سـبحانـه وأن يسر قلوبهم باتباع المـتقين له على طاعته وعبوديـته، فإن الإمام والمؤتم متعاونان على الطاعة، فـإنما سألوه ما يعينون به المتقين على مـرضاته وطاعتـه وهو دعوتهم إلى الله بالإمـامة في الدين التي أساسـها الصبر واليقين كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[٢]، وسؤالهم أن يجعلهم أئـمة للمتقين هو سؤال أن يهـديهم ويوفقهم ويمن عليهم بالعلوم النافـعة والأعمال الصـالحة ظاهراً وباطناً التي لا تتم الإمامـة إلا بها، وتأمل كيف نسبهم في هذه الآيات إلى اسمـه الرحمن جل جلاله ليعلم خلقه أن هذا إنما نالوه بفضـل رحمتـه ومحض جوده ومنتـه، وتأمل كيف جـعل جزاءهم في هذه السـورة الغرف وهي المنازل العـاليـة في الجنة لما كانـت الإمامـة في الدين من الرتب العالية بل من أعلى مرتبـة يعطاها العبد في الدين كان جزاؤه عليها الغـرفة العالية في

(١) (الفرقان / ٧٤). (٢) (السجدة / ٢٤).

الجنة.

وهذا بخلاف طلب الرياسة فإن طلابها يسعون في تحصيلها لينالوا بها أغراضهم من العلو في الأرض وتعبد القلوب لهم وميلها إليهم ومساعدتهم لهم على جميع أغراضهم مع كونهم عالين عليهم قاهرين لهم، فترتب على هذا المطلب من المفاسد ما لا يعلمه إلا الله من البغي والحسد والطغيان والحقد والظلم والفتنة والحمية للنفس دون حق الله وتعظيم من حقره الله واحتقار من أكرمه الله، ولا تتم الرياسة الدنيوية إلا بذلك ولا تنال إلا به وبأضعافه من المفاسد، والرؤساء في عمى عن هذا، فإذا كشف الغطاء تبين لهم فساد ما كانوا عليه ولا سيما إذا حشروا في صور الذر يطؤهم أهل الموقف بأرجلهم إهانة لهم وتحقيراً وتصغيراً كما صغروا أمر الله وحقروا عباده.

[فصل]: في الفرق بين الحب في الله والحب مع الله:

والفرق بين الحب في الله والحب مع الله وهذا من أهم الفروق وكل أحد محتاج بل مضطر إلى الفرق بين هذا وهذا، فالحب في الله هو من كمال الإيمان، والحب مع الله هو عين الشرك، والفرق بينهما أن المحب في الحب تابع لمحبة الله فإذا تمكنت محبته من قلب العبد أوجبت تلك المحبة أن يحب ما يحبه الله، فإذا أحب ما أحبه ربه ووليه كان ذلك الحب له وفيه كما يحب رسله وأنبياءه وملائكته وأوليائه لكونه تعالى يحبهم، ويبغض من يبغضهم لكونه تعالى يبغضهم، وعلامة هذا الحب والبغض في الله أنه لا ينقلب بغضه لبغيض الله حباً لإحسانه إليه وخدمته له وقضاء حوائجه، ولا ينقلب حبه لحبيب الله بغضاً إذا وصل إليه من جهته ما يكرهه ويؤلمه إما خطأ وإما عمداً مطيعاً لله فيه أو متأولاً أو مجتهداً أو باغياً نازعاً بائناً، والدين كله يدور على أربع قواعد: حب وبغض ويترتب عليهما فعل وترك، فمن كان حبه وبغضه وفعله وتركه لله فقد استكمل الإيمان بحيث إذا أحب أحب لله وإذا أبغض أبغض لله وإذا فعل فعل لله وإذا ترك ترك لله، وما نقص من إضافة هذه الأربعة نقص من إيمانه ودينه بحسبه. وهذا بخلاف الحب مع الله فهو نوعان:

نوع يقدح في أصل التوحيد وهو شرك، ونوع يقدح في كمال الإخلاص ومحبة الله ولا يخرج من الإسلام.

---

(١) (البقرة / ١٦٥).

(فالأول) كمحبة المشركين لأوثانهم وأندادهم قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾[1] وهؤلاء المشركون يحبون أوثانهم وأصنامهم وآلهتهم مع الله كما يحبون الله، فهذه محبة تأله وموالاة يتبعها الخوف والرجاء والعبادة والدعاء، وهذه المحبة هي محض الشرك الذي لا يغفره الله. ولا يتم الإيمان إلا بمعاداة هذه الأنداد وشدة بعضها وبغض أهلها ومعاداتهم ومحاربتهم، وبذلك أرسل الله جميع رسله وأنزل جميع كتبه وخلق النار لأهل هذه المحبة الشركية وخلق الجنة لمن حارب أهلها وعاداهم فيه وفي مرضاته، فكل من عبد شيئاً من لدن عرشه إلى قرار أرضه فقد اتخذ من دون الله إلهاً ووليا وأشرك به كائناً ذلك المعبود ما كان ولا بد أن يتبرأ منه أحوج ما كان إليه .

(والنوع الثاني) محبة ما زينه الله للنفوس من النساء والبنين والذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث فيحبها محبة شهوة كمحبة الجائع للطعام والظمآن للماء، فهذه المحبة ثلاثة أنواع فإن أحبها لله توصلاً بها إليه واستعانة على مرضاته وطاعته أثيب عليها وكانت من قسم الحب لله توصلاً بها إليه ويلتذ بالتمتع بها، وهذه حال أكمل الخلق الذي حبب إليه من الدنيا النساء والطيب وكانت محبته لهما عوناً له على محبة الله وتبليغ رسالته والقيام بأمره. وإن أحبها لموافقة طبعه وهواه وإرادته ولم يؤثرها على ما يحبه الله ويرضاه بل نالها بحكم الميل الطبيعي كانت من قسم المباحات ولم يعاقب على ذلك ولكن ينقص من كمال محبته لله والمحبة فيه. وإن كانت هي مقصودة ومراده وسعيه في تحصيلها والظفر بها وقدمها على ما يحبه الله ويرضاه منه كان ظالماً لنفسه متبعاً لهواه .

(فالأولى): محبة السابقين .

(والثانية): محبه المقتصدين .

(والثالثة): محبة الظالمين .

فتأمل هذا الموضع وما فيه من الجمع والفرق فإنه معترك النفس الأمارة والمطمئنة. والمهدي من هداه الله .

[فصل]: في الفرق بين التوكل والعجز:

والفرق بين التوكل والعجز أن التوكل عمل القلب وعبوديته اعتماداً على الله وثقة به والتجاء إليه وتفويضاً إليه ورضا بما يقضيه له لعلمه بكفايته سبحانه وحسن

درعين واختفى في الغار ثلاثاً فكان متوكلاً في السبب لا على السبب .

وأما العجز فهو تعطيل الأمرين أو أحدهما فإما أن يعطل السبب عجزاً منه ويزعم أن ذلك توكل، ولعمر الله إنه لعجز وتفريط ، وإما أن يقوم بالسبب ناظراً إليه معتمداً عليه غافلاً عن المسبب معرضاً عنه، وإن خطر بباله لم يثبت معه ذلك الخاطر ولم يعلق قلبه به تعلقاً تاماً بحيث يكون قلبه مع الله وبدنه مع السبب فهذا توكله عجز وعجزه توكل .

وهذا موضع انقسم فيه الناس طرفين ووسطاً (فأحد الطرفين) عطل الأسباب محافظة على التوكل .

(والثاني) عطل التوكل محافظة على السبب، (والوسط) علم أن حقيقة التوكل لا يتم إلا بالقيام بالسبب فتوكل على الله في نفس السبب، وأما من عطل السبب وزعم أنه متوكل فهو مغرور مخدوع متمن كمن عطل النكاح والتسري وتوكل في حصول الولد، وعطل الحرث والبذر وتوكل في حصول الزرع، وعطل الأكل والشرب وتوكل في حصول الشبع والري، فالتوكل نظير الرجاء، والعجز نظير التمني فحقيقة التوكل أن يتخذ العبد ربه وكيلاً له قد فوض إليه كما يفوض الموكل إلى وكيله العالم بكفايته ونهضته ونصحه وأمانته وخبرته وحسن اختياره، والرب سبحانه قد أمر عبده بالاحتيال وتوكل له أن يستخرج له من حيلته ما يصلحه فأمره أن يحرث ويبذر ويسعى ويطلب رزقه في ضمان ذلك كما قدره سبحانه ودبره واقتضته حكمته وأمره أن لا يعلق قلبه بغيره بل يجعل رجاءه له وخوفه منه وثقته به وتوكله عليه وأخبره أنه سبحانه المليء بالوكالة الوفي بالكفالة، فالعاجز من رمى هذا كله وراء ظهره وقعد كسلان طالباً للراحة مؤثراً للدعة يقول: الرزق يطلب صاحبه كما يطلبه أجله وسيأتيني ما قدر لي على ضعفي ولن أنال ما لم يقدر لي مع قوتي ولو أني هربت من رزقي كما أهرب من الموت للحقني فيقال له نعم هذا كله حق وقد علمت أن الرزق مقدر فما يدريك كيف قدر لك، بسعيك أم بسعي غيرك، وإذا كان بسعيك فبأي سبب ومن أي وجه، وإذا خفي عليك هذا كله فمن أين علمت أنه يقدر لك إتيانه عفواً بلا سعي ولا كد؟ فكم من شئ سعيت فيه فقدر لغيرك، وكم من شئ سعى فيه غيرك فقدر لك رزقاً! فإذا رأيت هذا عياناً فكيف علمت أن رزقك كله بسعي غيرك ؟ وأيضاً فهذا الذي أوردته عليك النفس يجب عليك طرده في جميع

الأسبـاب مع مسبباتها حتى في أسبـاب دخول الجنة والنجاة من النار، فـهل تعطلها اعتمـاداً على التوكل أم تقوم بهـا مع التوكل؟ بل لن تخلو الأرض من متوكـل صبر نفسـه لله وملأ قلبـه من الثقـة به ورجائه وحسـن الظن به فضاق قلبـه مع ذلك عن مباشرة بعض الأسباب فسـكن قلبه إلى الله واطمأن إليه ووثق به وكان هذا من أقوى أسباب حصول رزقه فلم يعطل السبب وإنما رغب عن سبب إلى سبب أقوى منه فكان توكله أوثق الأسباب عنده، فكان اشـتغال قلبه بالله وسكونه إليه وتضـرعه إليه أحب إليه من اشتـغاله بسبب يمنعه من ذلك أو من كـماله فلم يتسع قلبه للأمـرين فأعرض أحدهما إلى الآخـر، ولا ريب أن هذا أكمل حالاً ممن امتلأ قلبه بالسـبب واشتغل به عن ربه، وأكمل منهما من جمع الأمرين وهي حـال الرسل والصحابة فقد كان زكريا نجاراً وقد أمـر الله نوحاً أن يصنع السفينة، ولم يكن في الصـحابة من يعطل السبب اعتمـاداً على التوكل بل كانوا أقوم الناس بالأمرين، ألا تـرى أنهم بذلوا جهدهم في محاربة أعداء الدين بأيديهم وألسنتهم وقاموا في ذلك بحقيقة التوكل وعمروا أموالهم وأصلحوها وأعـدوا لأهليهم كفـايتهم من القوت اقـتداء بسيـد المتوكلين صلوات الله وسلامه عليه وآله ؟

[فصل] : في الفرق بين الاحتياط والوسوسة:

والفرق بين الاحتياط والوسوسة أن الاحتياط الاستقصاء والمبالغة في اتباع السنة وما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه من غير غلو ومـجاوزة ولا تقصير ولا تفريط ، فهذا هو الاحتياط الذي يرضاه الله ورسـوله، وأما الوسوسة فهي ابتداع ما لم تأت به السنة ولم يفعله رسول الله ﷺ ولا أحد من الصحـابة زاعماً أنه يصل بذلك إلى تحصيل المشروع وضـبطه كمن يحتاط بزعمه ويغسل أعضـاءه في الوضوء فوق الثلاثة فيـسرف في صب الماء في وضوئه وغسله ويصـرح بالتلفظ بنية الصلاة مـراراً أو مرة واحـدة ويغسل ثيـابه مما لا يتيـقن نجاسـته احـتياطاً، ويرغب عن الصـلاة في نعله احتيـاطاً، إلى أضعاف أضعاف هذا مما اتخـذه الموسوسون ديناً وزعموا أنه احـتياط ، وقد كان الاحتياط باتباع هدي رسول الله ﷺ ، وما كان عليه أولى بهم فإنه الاحتياط الذي من خرج عنه فـقد فارق الاحتيـاط وعدل عن سواء الصراط ، والاحـتياط كل الاحتياط الخروج عن خلاف السنة ولو خالفت أكثر أهل الأرض بل كلهم.

{فصل} : في الفرق بين إلهام الملك وإلقاء الشيطان:

والفرق بين إلهام الملك وإلقاء الشيطان من وجوه (منها) أن ما كان لله موافقاً لمرضاته وما جاء به رسوله فهو من الملك، وما كان لغيره غير موافق لمرضاته فهو من إلقاء الشيطان، (ومنها) أن ما أثمر إقبالاً على الله وإنابة إليه وذكراً له وهمة صاعدة إليه فهو من إلقاء الملك، وما أثمر ضد ذلك فهو من الشيطان، (ومنها) أن ما أورث أنساً ونوراً في القلب وانشراحاً في الصدر فهو من الملك، وما أورث ضد ذلك فهو من الشيطان (ومنها) أن ما أورث سكينة وطمأنينة فهو من الملك، وما أورث قلقاً وانزعاجاً واضطراباً فهو من الشيطان، (فالإلهام الملكي) يكثر في القلوب الطاهرة النقية التي قد استنارت بنور الله، فللملك بها اتصال وبينه وبينها مناسبة، فإنه طيب طاهر لا يجاور إلا قلباً يناسبه فتكون لمة الملك بهذا القلب أكثر من لمة الشيطان، وأما القلب المظلم الذي قد اسود بدخان الشهوات والشبهات فإلقاء الشيطان ولمته به أكثر من لمة الملك .

{فصل} : في الفرق بين الاقتصاد والتقصير:

والفرق بين الاقتصاد والتقصير أن الاقتصاد هو التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط ، وله طرفان هما ضدان له: تقصير ومجاوزة، فالمقتصد قد أخذ بالوسط وعدل عن الطرفين، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾[3] والدين كله بين هذين الطرفين، بل الإسلام قصد بين الملل، والسنة قصد بين البدع، ودين الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وكذلك الاجتهاد هو بذل الجهد في موافقة الأمر، والغلو مجاوزته وتعديه، وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان فإما إلى غلو ومجاوزة وإما إلى تفريط وتقصير، وهما آفتان لا يخلص منهما في الاعتقاد والقصد والعمل إلا من مشى خلف رسول الله ﷺ وترك أقوال الناس وآراءهم لما جاء به لا من ترك ما جاء به

(١) (الفرقان / ٦٧).
(٢) (الإسراء / ٢٩).
(٣) (الأعراف / ٣١).

لأقوالهم وآرائهم، وهذان المرضان الخطران قـد استوليا على أكثـر بني آدم ولهذا حذر السلف منهمـا أشد التحـذير وخوفوا من بلي بأحـدهما بالهلاك وقـد يجتمـعان في الشخص الواحد كـما هو حال أكثر الخلق يكـون مقصراً مفرطاً فـي بعض دينه غالياً متجاوزاً في بعضه، والمهدي من هداه الله .

[فصل]: في الفرق بين النصيحة والتأنيب:

والفرق بين النصـيحـة والتأنيب أن النصيـحة إحسـان إلى من تنصحـه بصورة الرحمة له والشفقـة عليه والغيرة له وعليه فهو إحسان مـحض يصدر عن رحمة ورقة ومراد الناصـح بها وجه الله ورضـاه والإحسـان إلى خلقه فـيتلطف في بذلهـا غاية التلطف ويحتمل أذى المنصوح ولائمته ويعـامله معاملة الطبيب العالم المشفق والمريض المشبع مرضاً وهو يحتمل سوء خلقـه وشراسته ونفرته ويتلطف في وصول الدواء إليه بكل ممكن فهذا شأن الناصح .

وأما المؤنب فـهو رجل قصده التـعبيـر والإهانة وذم من أنبه وشتمـه في صورة النصح فهو يقـول له: يا فاعل كذا وكذا، يا مستحـقاً للذم والإهانة في صورة ناصح مشفق، وعلامة هذا أنه لو رأى من يحبـه ويحسن إليه على مثل عمل هذا أو شر منه لم يعـرض له ولم يقل له شيـئاً، ويطـلب له وجوه المعـاذير، فإن غلب قـال: وإنى ضمنت له العصمة ؟!، والإنسان عرضة للخطأ ومحاسنه أكثر من مساويه والله غفور رحيم، ونحو ذلك، فيا عجباً كيف كان هذا لمن يحبه دون من يبغضه ؟! وكيف كان حظ ذلك منك التأنيب في صورة النصح وحظ هذا منك رجـاء العفو والمغفرة وطلب وجوه المعاذير ؟! .

ومن الفروق بين النـاصح والمؤنب أن الناصح لا يعاديك إذا لم تقـبل نصيحـته وقال قـد وقع أجري على الله قـبلت أو لم تقبل ويدعـو لك بظهر الغـيب ولا يذكر عيوبك ولا يبينها في الناس، المؤنب ضد ذلك.

[فصل]: في الفرق بين المبادرة والعجلة:

والفرق بين المبادرة والعجلة إن المبادرة انتهاز الفرصـة في وقتها ولا يتركها حتى إذا فاتت طلبها، فـهو لا يطلب الأمور في أدبارها ولا قبل وقتها بل إذا حـضر وقتها بادر إليها ووثب عليها وثوب الأسد على فريسته، فهو بمنزلة من يبادر إلى أخذ الثمرة

وقت كمال نضجها وإدراكها.

والعجلة طلب أخذ الشيء قبل وقته، فهو لشدة حرصه عليه بمنزلة من يأخذ الثمرة قبل أوان إدراكها، فالمبادرة وسط بين خلقين مذمومين أحدهما التفريط والإضاعة والثاني الاستعجال قبل الوقت. ولهذا كانت العجلة من الشيطان فإنها خفة وطيش وحدة في العبد تمنعه من التثبت والوقار والحلم وتوجب له وضع الأشياء في غير مواضعها وتجلب عليه أنواعاً من الشرور وتمنعه أنواعاً من الخير وهي قرين الندامة فقل من استعجل إلا ندم كما أن الكسل قرين الفوت والإضاعة.

[فصل]: في الفرق بين الإخبار بالحال وبين الشكوى:

والفرق بين الإخبار بالحال وبين الشكوى وإن اشتبهت صورتهما أن الإخبار بالحال يقصد المخبر به قصداً صحيحاً من علم سبب إدانته أو الاعتذار لأخيه من أمر طلبه منه أو يحذره من الوقوع في مثل ما وقع فيه، فيكون ناصحاً بإخباره له أو حمله على الصبر بالتأسي به كما يذكر عن الأحنف أنه شكا إليه رجل شكوى فقال: يا ابن أخي لقد ذهب ضوء عيني من كذا وكذا سنة فما أعلمت به أحداً، ففي ضمن هذا الإخبار من حمل الشاكي على التأسي والصبر ما يثاب عليه المخبر وصورته صورة الشكوى ولكن القصد ميز بينهما، ولعل من هذا قول النبي ﷺ لما قالت عائشة: وارأساه، فقال: «بل أنا وارأساه»[1]. أي الوجع القوي بي أنا دونك فتأسي به فلا تشتكي، ويلوح لي فيه معنى آخر وهو أنها كانت حبيبة رسول الله بل كانت أحب النساء إليه على الإطلاق، فلما اشتكت إليه رأسها أخبرها أن بمحبها من الألم مثل الذي بها، وهذا غاية الموافقة من المحب، ومحبوبه يتألم بتألمه ويسر بسروره، حتى إذا آلمه عضو من أعضائه آلم المحب ذلك العضو بعينه وهذا من صدق المحبة وصفاء المودة، فالمعنى الأول يفهم أنك لا تشتكي واصبري فبي من الموجع مثل ما بك فتأسي بي في الصبر وعدم الشكوى. والمعنى الثاني يفهم إعلامها بصدق محبته لها أي

---

(١) [صحيح]: رواه أحمد: (٦/٢٢٨)، والبخاري: كتاب: المرضى، باب: ما رخص للمريض أن يقول: إني وجع، أو: وارأساه، أو: اشتد بي الوجع، وقول أيوب عليه السلام: ﴿أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين﴾(الأنبياء/ ٨٣)، [٥٦٦٦]، [٧٢١٧]، وابن ماجة: كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في غسل الرجل امرأته، وغسل المرأة زوجها، [١٤٦٥]، وذكر في «المسند الجامع» أن النسائي رواه في «الكبرى»: (١١/١٦٣١٣)، (١٢/ ١٦٥٠٤).

انظري قوة محبتي لك كيف واسيتك من ألمك ووجع رأسك فلم تكوني متوجعة وأنا سليم من الوجع بل يؤلمني ما يؤلمك كما يسرني ما يسرك كما قيل:

وإن أولى البرايا أن تواسيه ... عند السرور الذي واساك في الحزن

وأما الشكوى فالإخبار العاري عن القصد الصحيح، بل يكون مصدره السخط وشكاية المبتلى إلى غيره، فإن شكا إليه سبحانه تعالى لم يكن ذلك شكوى بل استعطاف وتملق واسترحام له كقول أيوب: ﴿أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين﴾(١) وقول يعقوب: ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾(٢) وقول موسى: اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بك، وقول سيد ولد آدم: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل علي غضبك أو ينزل بي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولاقوة إلا بك»(٣).

فالشكوى إلى الله سبحانه لا تنافي الصبر بوجه فإن الله تعالى قال عن أيوب: ﴿إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب﴾(٤) مع إخباره عنه بالشكوى إليه في قوله: ﴿مسني الضر﴾ وأخبر عن نبيه يعقوب أنه وعد من نفسه بالصبر الجميل والنبي إذا قال وفى مع قوله: ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾ ولم يجعل ذلك نقصاً لصبره. ولا يلتفت إلى غير هذا من ترهات القوم كما قال بعضهم لما قال: ﴿مسني الضر﴾ قال تعالى: ﴿إنا وجدناه صابراً﴾(٥) ولم يقل صبوراً حيث قال: مسني الضر، وقال بعضهم: لم يقل ارحمني وإنما قال: أنت أرحم الراحمين فلم يزد على الإخبار بحاله ووصف ربه، وقال بعضهم: إنما شكا مس الضر حين ضعف لسانه عن الذكر فشكا مس ضر ضعف الذكر لا ضر المرض والألم، وقال بعضهم: استخرج منه هذا القول

(١) (الأنبياء / ٨٣). (٢) (يوسف / ٨٦).

(٣) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» : (٦/ ٣٤ : ٣٥). وقال : رواه الطبراني ، وفيه ابن إسحاق، وهو مدلس ، ثقة، بقية رجاله ثقات.

(٤) (ص/ ٤٤). (٥) (ص/ ٤٤).

ليكون قدوة للضعفاء من هذه الأمة، وكأن هذا القائل رأى أن الشكوى إلى الله تنافي الصبر وغلط أقبح الغلط ، فالمنافي للصبر شكواه لا الشكوى إليه، فالله يبتلي عبده ليسمع تضرعه ودعاءه والشكوى إليه، ولا يحب التجلد عليه وأحب ما إليه انكسار قلب عبده بين يديه وتذلله له وإظهار ضعفه وفاقته وعجزه وقلة صبره، فاحذر كل الحذر من إظهار التجلد عليه وعليك بالتضرع والتمسكن وإبداء العجز والفاقة والذل والضعف، فرحمته أقرب إلى هذا القلب من اليد للفم .

{فصل} :

وهذا باب من الفروق مطول ولعل إن ساعد القدر أن نفرد فيه كتاباً كبيراً، وإنما نبهنا بما ذكرنا على أصوله، واللبيب يكتفي ببعض ذلك، والدين كله فرق وكتاب الله فرقان ومحمد ﷺ فرق بين الناس ومن اتقى الله جعل له فرقاناً، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾(١) وسمى يوم بدر يوم الفرقان لأنه فرق بين أولياء الله وأعدائه، فالهدى كله فرقان، والضلال أصله الجمع كما جمع المشركون بين عبادة الله وعبادة الأوثان، ومحبته ومحبة الأوثان، وبين ما يحبه ويرضاه وبين ما قدره وقضاه، فجعلوا الأمر واحداً واستدلوا بقضائه وقدره على محبته ورضاه وجمعوا بين الربا والبيع فقالوا: "إنما البيع مثل الربا" وجمعوا بين المذكى والميتة، وقالوا: كيف نأكل ما قتلناه ولا نأكل ما قتل الله، وجمع المنسلخون عن الشرائع بين الحلال والحرام فقالوا: هذه المرأة خلقها الله وهذه خلقها، وهذا الحيوان خلقه وهذا خلقه، فكيف يحل هذا ويحرم هذا؟ وجمعوا بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وجاءت طائفة الاتحادية فطموا الوادي على القرى وجمعوا الكل في ذات واحدة وقالوا: هي الله الذي لا إله إلا هو، وقال صاحب فصوصهم وواضع نصوصهم واعلم أن الأمر قرآناً لا فرقاناً :

ما الأمر إلا نسق واحد ... ما فيه من مدح ولا ذم

وإنما العادة قد خصصت ... والطبع والشارع بالحكم

الرد على الطائفة الاتحادية في مقولة الاتحاد، وذكر نصوصهم وواضع فصوصهم:

والمقصود أن أرباب البصائر هم أصحاب الفرقان، فأعظم الناس فرقاناً بين

(٤) (الأنفال / ٢٩).

المشتبهات أعظم بصيرة. والتشابه يقع في الأقوال والأعمال والأحوال والأموال والرجال، وإنما أتي أكثر أهل العلم من المتشابهات في ذلك كله ولا يحصل الفرقان إلا بنور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده يرى في ضوئه حقائق الأمور ويميز بين حقها وباطلها وصحيحها وسقيمها ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾(١) ولا تستطل هذه الفصل فلعله من أنفع فصول الكتاب، والحاجة إليه شديدة، فإن رزقك الله فيه بصيرة خرجت منه إلى فرقان أعظم منه وهو الفرق بين توحيد المرسلين وتوحيد المعطلين، والفرق بين تنزيه الرسل وتنزيه أهل التعطيل، والرفق بين إثبات الصفات والعلو والتكلم والتكليم حقيقة وبين التشبيه والتمثيل، والفرق بين تجريد التوحيد العملي الإرادي وبين هضم أرباب المراتب مراتبهم التي أنزلهم الله إياها، والفرق بين تجريد متابعة المعصوم وبين إهدار أقوال العلماء وإلغائها وعدم الالتفات إليها، والفرق بين تقليد العالم وبين الاستضاءة بنور علمه والاستعانة بفهمه، والفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، والفرق بين الحال الإيماني الرحماني والحال الشيطاني الكفري والحال النفساني، والفرق بين الحكم المنزل الواجب الاتباع على كل واحد والحكم المؤول الذي نهايته أن يكون جائز الاتباع عند الضرورة ولا درك على مخالفه.

[فصل]: في بيان الإشارة اللطيفة إلى الفروق بين هذه الأمور المذكورة آنفًا:

ونحن نختم الكتاب بإشارة لطيفة إلى الفروق بين هذه الأمور إذ كل فرق منها يستدعي بسطه كتاباً كبيراً، فالفرق بين توحيد المرسلين وتوحيد المعطلين أن توحيد الرسل إثبات صفات الكمال لله على وجه التفضيل وعبادته وحده لا شريك له، فلا يجعل له نداً في قصد ولا حب ولا خوف ولا رجاء ولا لفظ ولا حلف ولا نذر بل يرفع العبد الأنداد له من قلبه وقصده ولسانه وعبادته كما أنها معدومة في نفس الأمر لا وجود لها ألبتة فلا يجعل لها وجوداً في قلبه ولسانه.

وأما توحيد المعطلين فنفي حقائق أسمائه وصفاته وتعطيلها، ومن أمكنه منهم تعطيلها من لسانه عطلها فلا يذكرها ولا يذكر آية تتضمنها ولا حديثاً يصرح بشئ منها ومن لم يمكنه تعطيل ذكرها سطا عليها بالتحريف ونفى حقيقتها وجعلها اسماً

(١) (النور / ٤٠).

فارغاً لا معنى له، أو معناه من جنس الألغاز والأحاجي، على أن من طرد تعطيله منهم على أنه يلزمه في ما حرف إليه النص من المعنى نظير ما فرّ منه سواء فإن لزم تمثيل أو تشبيه أو حدوث في الحقيقة لزم المعنى الذي حمل عليه النص وأن لا يلزم في هذا فهو أولى أن لا يلزم في الحقيقة، فلما علم هذا لم يمكنه إلا تعطيل الجميع، فهذا طرد لأصل التعطيل، والفرق أقرب منه ولكنه مناقض يتحكم بالباطل حيث أثبت لله بعض ما أثبته لنفسه ونفى عنه البعض الآخر واللازم الباطل فيهما واحد واللازم الحق لا يفرق بينهما .

والمقصود أنهم سموا هذا التعطيل توحيداً وإنما هو إلحاد في أسماء الرب تعالى وصفاته وتعطيل لحقائقها.

[فصل]: في الفرق بين تنزيه الرسل وتنزيه المعطلة:

والفرق بين تنزيه الرسل وتنزيه المعطلة أن الرسل نزهوه سبحانه عن النقائض والعيوب التي نزه نفسه عنها وهي المنافية لكماله وكمال ربوبيته وعظمته كالسنة والنوم والغفلة والموت واللغوب والظلم وإرادته والتسمي به والشريك والصاحبة والظهير والولد والشفيع بدون إذنه، وأن يترك عباده سدى هملاً، وأن يكون خلقهم عبثاً، وأن يكون خلق السماوات والأرض وما بينهما باطل لا لثواب و لا عقاب ولا أمر ولا نهي، وأن يسوي بين أوليائه وأعدائه، وبين الأبرار والفجار، وبين الكفار والمؤمنين، وأن يكون في ملكه ما لا يشاء وأن يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه، وأن يكون لغيره معه من الأمر شئ ، وأن يعرض له غفلة أو سهو أو نسيان، وأن يخلف وعده، أو تبدل كلماته، أو يضاف إليه الشر اسماً أو وصفاً أو فعلاً، بل أسماؤه كلها حسنى وصفاته كلها كمال وأفعاله كلها خير وحكمة ومصلحة، فهذا تنزيه الرسل لربهم .

وأما المعطلون فنزهوه عما وصف به نفسه من الكمال، فنزهوه عن أن يتكلم أو يكلم أحد. ونزهوه عن استوائه على عرشه، وأن ترفع إليه الأيدي، وأن يصعد إليه الكلم الطيب، وأن ينزل من عنده شئ، أو تعرج إليه الملائكة والروح، وأن يكون فوق عباده وفوق جميع مخلوقاته عالياً عليها، ونزهوه أن يقبض السماوات بيده والأرض باليد الأخرى، وأن يمسك السماوات على إصبع والأرض على إصبع والجبال على إصبع والشجر على إصبع، ونزهوه أن يكون له وجه وأن يراه المؤمنون بأبصارهم في الجنة وأن يكلمهم ويسلم عليهم ويتجلى لهم ضاحكاً، وأن ينزل كل ليلة إلى

السماء الدنيا فيقول: من يستغفرني فأغفر له من يسألني فأعطيه، فلا نزول عندهم ولا قول، ونزهوه أن يفعل شيئاً لشيء بل أفعاله لا لحكمة ولا لغرض مقصود، ونزهوه أن يكون تام المشيئة نافذ الإرادة بل يشاء الشيء ويشاء عباده خلافه فيكون ما شاء العبد دون ما شاء الرب، ولا يشاء الشيء فيكون ما لا يشاء ويشاء ما لا يكون، وسموا هذا عدلاً كما سموا ذلك التنزيه توحيداً، ونزهوه عن أن يحب أو يحب، ونزهوه عن الرأفة والرحمة والغضب والرضا، ونزهه آخرون عن السمع والبصر، وآخرون عن العلم. ونزهه آخرون عن الوجود فقالوا: الذي فر إليه هؤلاء المنزهون من التشبيه والتمثيل يلزمنا في الوجود فيجب علينا أن ننزهه عنه، فهذا تنزيه الملحدين والأول تنزيه المرسلين .

{فصل}: في الفرق بين حقائق الأسماء والصفات وبين التشبيه والتمثيل:

والفرق بين إثبات حقائق الأسماء والصفات وبين التشبيه والتمثيل ما قاله الإمام أحمد ومن وافقه من أئمة الهدى: إن التشبيه والتمثيل أن تقول: يد كيدي أو سمع كسمعي أو بصر كبصري ونحو ذلك، وأما إذا قلت: سمع وبصر ويد ووجه واستواء لا يماثل شيئاً من صفات المخلوقين بل بين الصفة والصفة من الفرق كما بين الموصوف والموصوف، فأي تمثيل ههنا وأي تشبيه لولا تلبيس الملحدين؟ فمدار الحق الذي اتفقت عليه الرسل على أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تشبيه ولا تمثيل، إثبات الصفات ونفي مشابهة المخلوقات فمن شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد حقائق ما وصف الله به نفسه فقد كفر، ومن أثبت له حقائق الأسماء والصفات ونفى عنه مشابهة المخلوقات فقد هدي إلى صراط مستقيم .

{فصل}: في الفرق بين تجريد التوحيد وبين هضم أرباب المراتب:

والفرق بين تجريد التوحيد وبين هضم أرباب المراتب أن تجريد التوحيد أن لا يعطي المخلوق شيئاً من حق الخالق وخصائصه، فلا يعبد ولا يصلى له ولا يسجد ولا يحلف باسمه ولا ينذر له ولا يتوكل عليه ولا يؤله ولا يقسم به على الله ولا يعبد ليقرب إلى الله زلفى ولا يساوى برب العالمين في قول القائل: ما شاء الله وشئت، وهذا منك ومن الله، وأنا بالله وبك، وأنا متوكل على الله وعليك، والله لي في السماء وأنت في الأرض، وهذا من صدقاتك وصدقات الله، وأنا تائب إلى الله

وإليك، وأنا في حسب الله وحسبك، فيسجد للمخلوق كما يسجد المشركون لشيوخهم، يحلق رأسه له ويحلف باسمه وينذر له ويسجد لقبره بعد موته ويستغيث به في حوائجه ومهماته ويرضيه بسخط الله ولا يسخطه في رضا الله ويتقرب إليه أعظم مما يتقرب إلى الله ويحبه ويخافه ويرجوه أكثر مما يحب الله ويخافه ويرجوه أو يساويه. فإذا هضم المخلوق خصائص الربوبية، وأنزله منزلة العبد المحض الذي لا يملك لنفسه فضلاً عن غيره ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً لم يكن هذا تنقصاً له ولا حطاً من مرتبته ولو رغم المشركون، وقد صح عن سيد ولد آدم صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله»(١).

وقال: «أيها الناس ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي»(٢).

وقال: «لا تتخذوا قبري عيداً»(٣).

وقال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد»(٤).

---

(١) [صحيح]: رواه أحمد: (١/ ٢٣)، والبخاري: كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قوله تعالى: ﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانًا شرقيًا﴾ (مريم/ ١٦)، [٣٤٤٥]، وابن حبان: كتاب: البر والإحسان، باب: حق الوالدين، [٤١٣، ٤١٤، ٦٢٣٩]. والحديث طويل به فوائد جليلة، فليراجع.

(٢) رواه أحمد: (٣/ ١٠٣، ٢٤١)، وتمامه عن أنس رضي الله عنه قال: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: يا سيدنا وابن سيدنا ويا خيرنا وابن خيرنا فقال النبي ﷺ:

«يا أيها الناس، قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان أنا محمد بن عبد الله ورسول الله ما أحب أن ترفعوني فوق ما رفعني الله عز وجل».

(٣) رواه أبو داود: كتاب: المناسك، باب: زيارة القبور [٢٠٤٢]. وذكره الألباني في «صحيح أبي داود».

(٤) [صحيح]: رواه أحمد: (٢/ ٢٤٦)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح: [٧٣٥٢]، وذكره في «المسند الجامع»: [١٢٨٧٨]، وعزاه للحميدي: [١٠٢٥]، وتمامه: «اللهم لا تجعل قبري وثناً، لعن الله قومًا اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» والشطر الثاني من الحديث من أصح الصحيح، رواه أحمد في مواضع، منها: (٦/ ٣٤، ٨٠، ١٢١)، والبخاري: كتاب: الجنائز، باب: ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور، [١٣٣٠، ١٣٩٠]، ومسلم: كتاب: المساجد، ومواضع الصلاة، [٥٢٩]، [٥٣٠]، [٥٣١]، وغيرهم.

وقال: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد»(١).

وقال له رجل: ما شاء الله وشئت، فقال: «أجعلتني لله نداً؟»(٢).

وقال له رجل قـد أذنب: «اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمـد، فقال: «عرف الحق لأهله»(٣).

وقد قـال الله: ﴿لَيسَ لَكَ منَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (٤) وقال: ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ للَّهِ﴾ (٥) وقال: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ (٦) وقال: ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (٧) أي لن أجد من دونه من ألتجئ إليه وأعتمد عليه وقال لابنته فاطمة وعمه العباس وعمته صفية: لا أملك لكم من الله شيئاً، وفي لفظ في الصحيح: «لا أغني عنكم من الله شيئاً»(٨).

فعظم ذلك على المشركين بشيوخهم وآلهتهم وأبوا ذلك كله وادعوا لشيوخهم

---

(١) رواه أحمد في مواضع، وأبو داود: كتاب: الأدب، باب: لا يقال: خبثت نفسي، [٤٩٨٠]، وابن ماجة: كتاب: الكفارات، باب: النهي أن يقال: ما شاء الله وشئت، [٢١١٨]، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجة»: [١٧٢١]، وانظر «الصحيحة»: [١٣٧].

(٢) [صحيح]: رواه أحمد في مواضع، منها (١/ ٢١٤، ٢٨٣)، وصححه الشيخ أحمد شاكر: [١٨٣٩، ٢٥٦١].

(٣) [ضعيف]: رواه أحمد: (٣/ ٤٣٥)، وهو ضعيف لأمور، منها: وجود محمد بن مصعب بن صدقة القُرقاني، أبو عبد الله، وقيل: أبو الحسن، نزيل بغداد. قال عنه يحيى بن معين: القُرقاني مسلم صاحب غزو، ليس يدرى ما يحدث، لا شيء. وقال: ليس بشيء. قال عنه الحافظ أبو بكر الخطيب: وكان كثير الغلط لتحديثه من حفظه، ويُذْكر عنه الخير والصلاح. وقال النسائي: ضعيف. وقال عبد الرحمن بن يوسف: منكر الحديث. وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: سألت أبي عنه، فقال: ضعيف الحديث ليس بقوي.

(٤) (آل عمران / ١٢٨). (٥) (آل عمران/ ١٥٤).

(٦) (يونس/ ٤٩). (٧) (الجن / ٢١ : ٢٢).

(٨) [صحيح]: رواه أحمد: (٢/ ٣٣٣، ٣٥٠)، والبخاري: كتاب: المناقب، باب: من انتسب إلى آبائه في الإسلام، [٣٥٢٧]، ومسلم: كتاب: الإيمان، باب: في قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ [٢٠٤]، والترمذي: كتاب: الزهد، باب: ما جاء في إنذار النبي ﷺ قومه، [٢٣١٠]، والنسائي: كتاب: الوصايا، باب: إذا أوصى لعشيرته الأقربين، (٦/ ٢٤٨ : ٢٤٩).

ومعبوديهم خلاف هذا كله وزعموا أن من سلبهم ذلك فقد هضمهم مراتبهم وتنقصهم، وقد هضموا جانب الألوهية غاية الهضم، وتنقصوه فلهم نصيب وافر من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾(١) .

[فصل]: في الفرق بين تجريد متابعة المعصوم ﷺ وإهدار أقوال العلماء وإلغائها:

والفرق بين تجريد متابعة المعصوم ﷺ وإهدار أقوال العلماء وإلغائها أن تجريد المتابعة: أن لا تقدم على ما جاء به قول أحد ولا رأيه كائناً من كان، بل تنظر في صحة الحديث أولاً فإذا صح لك نظرت في معناه ثانياً فإذا تبين لك لم تعدل عنه ولو خالفك من بين المشرق والمغرب، ومعاذ الله أن تتفق الأمة على مخالفة ما جاء به نبيها بل لا بد أن يكون في الأمة من قال به ولو لم تعلمه فلا تجعل جهلك بالقائل به حجة على الله ورسوله بل اذهب إلى النص ولا تضعف واعلم أنه قد قال به قائل قطعاً ولكن لم يصل إليك، هذا مع حفظ مراتب العلماء وموالاتهم واعتقاد حرمتهم وأمانتهم واجتهادهم في حفظ الدين وضبطه، فهم دائرون بين الأجر والأجرين والمغفرة، ولكن لا يوجد هذا إهدار النصوص وتقديم قول الواحد منهم عليها بشبهة أنه أعلم بها منك، فإن كان كذلك فمن ذهب إلى النص أعلم به منك فهلا وافقته إن كنت صادقاً، فمن عرض أقوال العلماء على النصوص ووزنها بها وخالف منها ما خالف النص لم يهدر أقوالهم ولم يهضم جانبهم بل اقتدى بهم فإنهم كلهم أمروا بذلك فمتبعهم حقاً من امتثل ما أوصوا به لا من خالفهم، فخلافهم في القول الذي جاء النص بخلافه أسهل من مخالفتهم في القاعدة الكلية التي أمروا ودعوا إليها من تقديم النص على أقوالهم، ومن هنا يتبين الفرق بين تقليد العالم في كل ما قال وبين الاستعانة بفهمه والاستضاءة بنور علمه، فالأول يأخذ قوله من غير نظر فيه ولا طلب لدليله من الكتاب والسنة بل يجعل ذلك كالحبل الذي يلقيه في عنقه يقلده به ولذلك سمي تقليداً، بخلاف ما استعان بفهمه واستضاء بنور علمه في الوصول إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه فإنه يجعلهم بمنزلة الدليل إلى الدليل الأول، فإذا وصل إليه استغنى بدلالته عن الاستدلال بغيره، فمن استدل بالنجم على القبلة فإنه إذا شاهدها

(١) (الزمر / ٤٥).

لم يبق لاستدلاله بالنجم معنى. قال الشافعي: أجمع الناس على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد.

[فصل]: في الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان:

والفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان أن أولياء الرحمن ﴿لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ هم ﴿ الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ وهم المذكورون في أول سورة البقرة إلى قوله: ﴿هم المفلحون﴾(١) وفي وسطها في قوله: ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر﴾(٢) إلى قوله: ﴿أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾(٣) وفي أول الأنفال إلى قوله: ﴿لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾(٤) وفي أول سورة المؤمنين إلى قوله: ﴿ هم فيها خالدون﴾(٥) وفي آخر سورة الفرقان. وفي قوله: ﴿ إن المسلمين والمسلمات﴾(٦) إلى آخر الآية وفي قوله: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾(٧) وفي قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾(٨) وفي قوله: ﴿إِلاَّ الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾(٩) إلى قوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾(١٠) وفي قوله: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ﴾(١١) إلى آخر الآية .

فأولياء الرحمن هم المخلصون لربهم المحكمون لرسوله في الحرم والحل الذين يخالفون غيره لسنته ولا يخالفون سنته لغيرها، فلا يبتدعون ولا يدعون إلى بدعة ولا يتحيزون إلى فئة غير الله ورسوله وأصحابه، ولا يتخذون دينهم لهواً ولعباً، ولا يستحبون سماع الشيطان على سماع القرآن، ولا يؤثرون صحبة الأفتان على مرضاة الرحمن، ولا المعازف والمثاني على السبع المثاني:

برئنا إلى الله من معشر ... بهم مرض مورد للضنا
وكم قلت يا قوم أنتم على ... شفا جرف من سماع الغنا

(١) (البقرة / ٥).
(٢) (البقرة / ١٧٧).
(٣) (البقرة / ١٧٧).
(٤) (الأنفال/ ٤).
(٥) (المؤمنون / ١١).
(٦) (الأحزاب ٣٥).
(٧) (يونس / ٦٢ : ٦٣).
(٨) (النور / ٥٢).
(٩) (المعارج / ٢٢ - ٢٣).
(١٠) (المعارج / ٣٥).
(١١) (التوبة/ ١١٢).

فلمـــا استهـــانـــوا بتنـــبيهنـــا ... تركنا غويا وما قد جنا
وهل يستجيب لداعي الهدى ... غـوى أصار الغنا ديدنا؟
فعشنا عـــلى ملـــة المصطفى ... وماتـــوا على تاتنا تتنتنا

ولا يشتبه أولياء الرحمن بأولياء الشـيطان إلا على فاقد البصيرة والإيمان، وأنى يكون المعرضـون عن كتابه وهدى رسوله وسنتـه المخالفون له إلى غيـره وأولياءه وقد ضربوا لمخالفته جاشاً وعدلوا عن هدى نبـيه وطريقته "وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون" .

فأولياء الرحمن المتلبسون بما يحبـه وليهم الداعون إليه المحاربون لمن خرج عنه، وأولياء الشيطان المتلبسون بما يحبه وليهم قولاً وعملاً يدعون إليه ويحاربون من نهاهم عنه. فإذا رأيت الـرجل يحب السماع الشـيطاني ومؤذن الشـيطان وإخوان الشـياطين ويدعو إلى من يحبه الشيطان من الشرك والـبدع والفجور علمت أنه من أوليائه، فإن اشتـبه عليك فاكـشفه في ثلاثة مـواطن: في صلاته، ومحـبته للسنة وأهلهـا ونفرته عنهم، ودعوته إلى الله ورسله وتجريد التوحيـد والمتابعة وتحكيم السنة، فزنه بذلك لا تزنه بحال ولا كشف ولا خارق ولو مشى على الماء وطار في الهواء.

[فصل] : في الفرق بين الحال الإيماني والحال الشيطاني:

وبهذا يعلم الفرق بين الحال الإيماني والحـال الشيطاني، فإن الحال الإيماني ثمرة المتابعـة للرسول والإخلاص في العمل وتجـريد التوحيد ونتـيجته منفـعة المسلمين في دينهم ودنياهم وهو إنما يصح بالاستقامة على السنة والوقوف مع الأمر والنهي.

والحال الـشيطاني نسـبتـه إما شـرك أو فجـور وهو ينشأ من قـرب الشيـاطين والاتصـال بهم ومشـابهـتهم، وهذا الحـال يكون لعـباد الأصنام والـصلبان والنيـران والشيطان، فـإن صاحبه لما عـبد الشيطان خلع عليه حـالاً يصطاد به ضعفاء الـعقول والإيمان ولا إله إلا الله كم هلك بهؤلاء من الخلق ﴿ ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه﴾ فكل حال خرج صاحبه عن حكم الكتاب وما جاء به الرسول فهو شـيطاني كائناً ما كان، وقد سمـعت بأحوال السحرة وعبـاد النار وعباد الصليب وكثـير ممن ينتسب إلـى الإسلام ظاهراً وهو بريء منه في الباطن لـه نصيب من هذه الحال بحـسب موالاته للشـيطان ومعاداته للرحـمن، وقد يكون الرجل صـادقاً ولكن

يكون ملبوساً عليه بجهله فيكون حاله شيطانياً مع زهد وعبادة وإخلاص، لكن لبس عليه الأمر لقلة علمه بأمور الشياطين والملائكة وجهله بحقائق الإيمان، وقد حكى هؤلاء وهؤلاء من ليس منهم بل هو متشبه صاحب مخاييل ومخاريق ووقع الناس في البلاء بسبب عدم التمييز بين هؤلاء وهؤلاء فحسبوا كل سوداء تمرة وكل بيضاء شحمة، والفرقان أعز ما في هذا العالم وهو نور يقذفه الله في القلب يفرق به بين الحق والباطل ويزن به حقائق الأمور خيرها وشرها وصالحها وفاسدها، فمن عدم الفرقان وقع ولا بد في إشراك الشيطان فالله المستعان وعليه التكلان .

[فصل]: في الفرق بين الحكم المنزل الواجب الاتباع ، والحكم المؤول الذي غايته أن يكون جائز الاتباع:

والفرق بين الحكم المنزل الواجب الاتباع والحكم المؤول الذي غايته أن يكون جائز الاتباع أن الحكم المنزل هو الذي أنزله الله على رسوله وحكم به بين عباده وهو حكمه الذي لا حكم له سواه .

وأما الحكم المؤول فهو أقوال المجتهدين المختلفة التي لا يجب أتباعها ولا يكفر ولا يفسق من خالفها، فإن أصحابها لم يقولوا: هذا حكم الله ورسوله، بل قالوا اجتهدنا برأينا فمن شاء قبله ومن شاء لم يقبله، ولم يلزموا به الأمة بل قال أبو حنيفة: هذا رأيي فمن جاءني بخير منه قبلناه. ولو كان هو عين حكم الله لما ساغ لأبي يوسف ومحمد وغيرهما مخالفته فيه، وكذلك مالك استشاره الرشيد أن يحمل الناس على ما في الموطأ فمنعه من ذلك وقال: قد تفرق أصحاب رسول الله ﷺ في البلاد وصار عند كل قوم علم غير ما عند الآخرين، وهذا الشافعي ينهى أصحابه عن تقليده ويوصيهم بترك قوله إذا جاء الحديث بخلافه، وهذا الإمام أحمد ينكر على من كتب فتاواه ودونها ويقول: لا تقلدني ولا تقلد فلاناً ولا فلاناً وخذ من حيث أخذوا، ولو علموا رضي الله عنهم أن أقوالهم يجب اتباعها لحرموا على أصحابهم مخالفتهم ولما ساغ لأصحابهم أن يفتوا بخلافهم في شيء ، ولما كان أحدهم يقول القول ثم يفتي بخلافه فيروى عنه في المسألة القولان والثلاثة وأكثر من ذلك، فالرأي والاجتهاد أحسن أحواله أن يسوغ اتباعه، والحكم المنزل لا يحل المسلم أن يخالفه ولا يخرج عنه .

وأما الحكم المبدل وهو الحكم بـغير ما أنزل الله فلا يحل تنفـيذه ولا العمل به ولا يسوغ اتباعه وصاحبه بين الكفر والفسوق والظلم.

والمقصود التنبيه على بعض أحوال النفس المطمـئنة واللوامة والأمارة وما تشترك فيه النفوس الثلاث ومـا يتميز به بعضها من بعض وأفعال كل واحدة منـها واختلافها ومقاصـدها ونياتها وفي ذلك تنبيه على مـا وراءه، وهي نفس واحدة تكون أمارة تارة ولوامة أخرى ومطمئنة أخرى، وأكثر الناس الغالب عليهم الأمارة، وأما المطمئنة فهي النفوس البشـرية عدداً وأعظمها عند الله قـدراً وهي التي يقال لها: ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (١) .

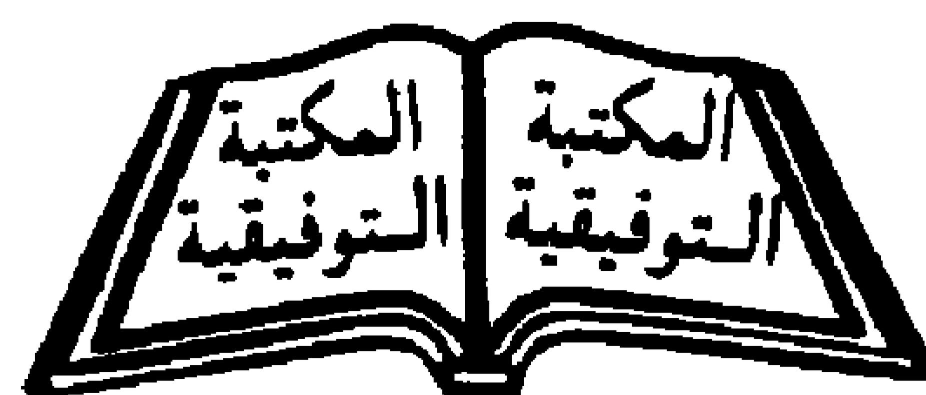
والله سبـحانه وتعالى المسـؤول المرجو الإجابة أن يجـعل نفوسنا مطمـئنة إليه عاكفـة بهمتها عليه راهبـة منه راغبة فيمـا لديه وأن يعيذنا من شرور أنفسنا وسـيئات أعمالنا وأن لا يجعلنا ممن أغفل قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطاً ولا يجعلنا من ﴿الأخسـرين أعمـالا . الذين ضل سعـيهم في الحـياة الدنيـا وهم يحسبـون أنهم يحسنون صنعا﴾ ، إنه سميع الدعاء وأهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل.



(١) (الفجر / ٢٨).

فهرس الكتاب

الموضوع الصفحة



أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
ت: ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠


Bibliotheca Alexandrina
06667583
